



الجزء الأول



المختصر المفيد

الشعر والحياة

حصاد الأيام

الإنسان والقلق

كلمات تنعش الحياة

نفحات من الأدب العالمي

بقلم

الأزرق بن علو

مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة

مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة



الأزرق بن علو

مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة

.. الجزء الأول ..

مقتطفات من الكتب التالية:

- * المختصر المفيد .
- * الشعر والحياة .
- * حصاد الأيام .
- * الإنسان والقلق .
- * كلمات تنعش الحياة .
- * نفحات من الأدب العالمي .

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

اسم الكتاب : مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة – الجزء الأول

اسم المؤلف : الأزرق بن علو

سنة النشر : 2013 م

رقم الإيداع : 2013 / 00000 م

الترقيم الدولي : 0 - 00 - 0000 - 977 - 978

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

الإدارة : 16 أعمارات العبور - شارع صلاح سالم
الدور الثالث - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس 02/22621365

محمول 01223140315 - 01223171722 - 01223171744

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

2013 م



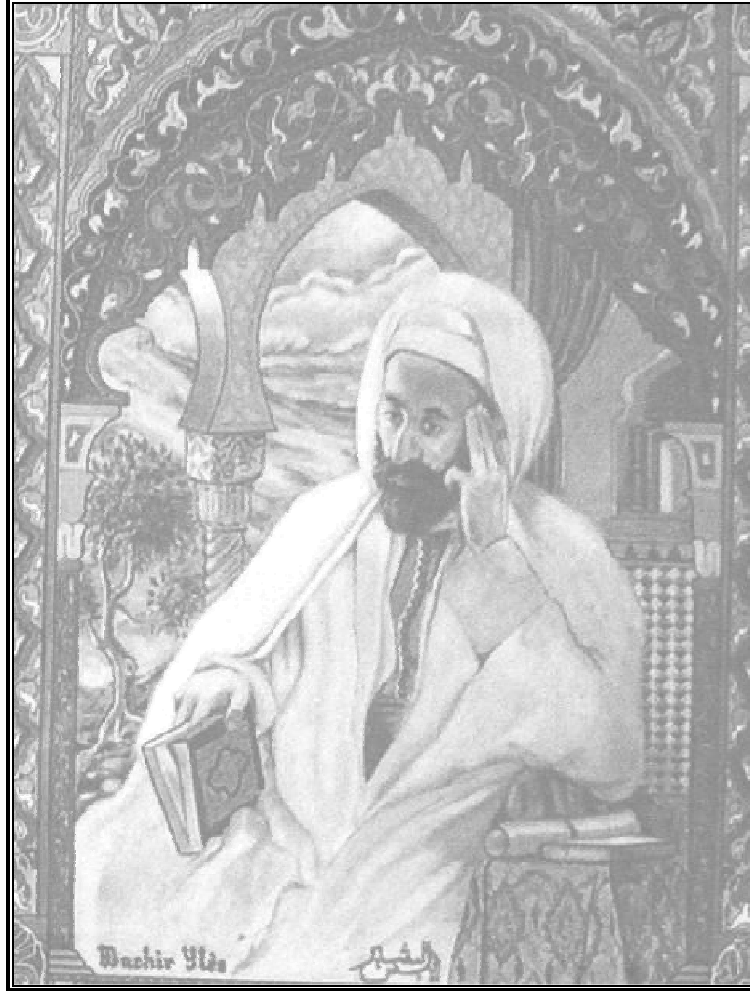


الإهداء

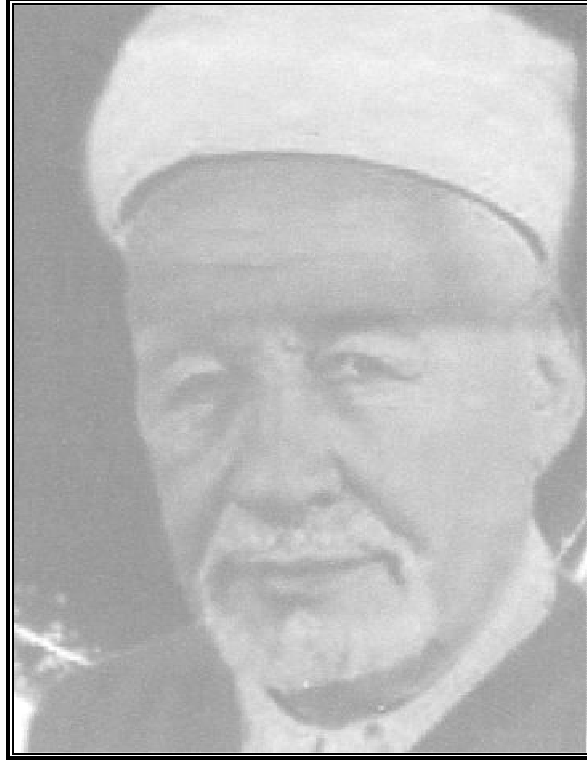
إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
(1956 – 1931)

شعارها: الإسلام ديننا ؛
العربية لغتنا ؛
الجزائر وطننا .

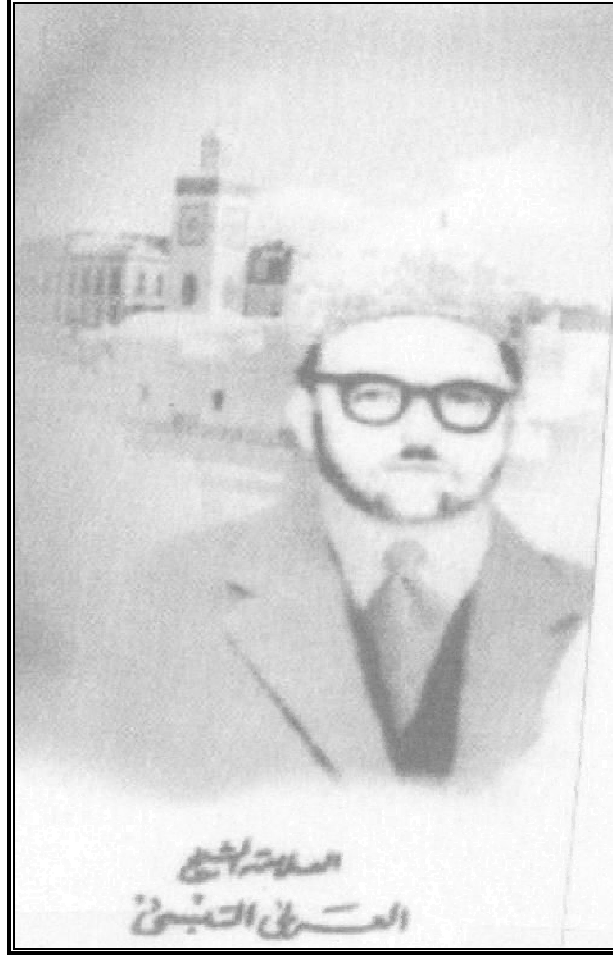




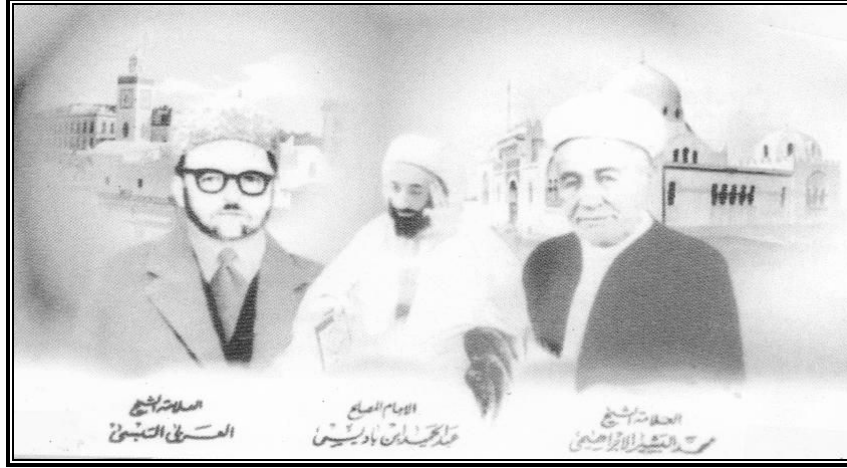
الإمام المصلح الشيخ عبدالحميد بن باديس
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
(1940 – 1931)



العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الثاني
(1940 - 1956)



العلامة الشيخ العربي التبسي
رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
(1952-1956)



- رؤساء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
- الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس (في الوسط)
 - العلامة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (إلى اليمين)
 - العلامة الشيخ العربي التبسي (إلى اليسار)

بعض ما أنجزته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين



كان من أهداف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال فترة لا تتجاوز ربع قرن من الزمن ما يلي :

- رفع لواء الإسلام عالياً؛ والدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية، وتحرير العقول من البدع والضلالات، من أجل أن يحافظ الشعب الجزائري على صبغته العربية الإسلامية الأصيلة:

"شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله

أو قال مات فقد كذب"

- عملت على نشر العشرات من علمائها في معظم المدن الجزائرية لإلقاء دروس الوعظ والإرشاد، والمحاضرات العلمية والتاريخية، لتوعية العقول وتنوير الأفكار، وتعميق مبادئ التضامن الاجتماعي، واستنهاض رجال الإصلاح من أجل تشييد المدارس وتثقيف أبناء المسلمين، ونشر اللغة العربية.

- نجحت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بفضل إدارتها الرشيدة، وجهود علمائها الأشاوس، وبفضل جهود رجال الإصلاح المخلصين، في إنشاء نحو 150 مدرسة حرة، عبر القطر الجزائري، وعملت على تربية جيل جديد على تعاليم الإسلام الصحيحة، ونشر الثقافة العربية، وتعميق الوعي بالشخصية الجزائرية العربية.

- ناضلت الجمعية ضد سياسات الاستعمار الهادفة إلى تنصير الجزائريين

وإدماجهم في الدولة الفرنسية؛ كما حاربت نشاطات بعثات التبشير بالعقيدة المسيحية في الجزائر؛ والسياسات الهادفة إلى تشويه تاريخ الجزائر، وعزلها عن الأمة العربية.

- ترأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، خلال الفترة 1931 - 1956 ثلاثة من العلماء الأجلاء هم:

- العالم الجليل الشيخ عبدالحميد بن باديس.
- العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي.
- العالم الجليل الشهيد الشيخ العربي التبسي.

وقد كرسوا حياتهم للعلم والعمل، وبذلوا جهوداً جبارة، يدعمهم جنود مخلصون من العلماء ورجال الإصلاح، من أجل بناء النهضة العلمية الإصلاحية التي مثلت قوة عظيمة في الدفاع عن الإسلام والعروبة في الجزائر؛ وفي تثبيت دعائم الإصلاح الاجتماعي، والتربوي، والثقافي؛ وفي نشر الوعي لدى الشباب الجزائري بشخصيته العربية الإسلامية، وبانتمائه إلى الأسرة العربية الكبيرة.

- قام الشيخ البشير الإبراهيمي بزيارة البلدان العربية، وبذل جهوداً كبيرة لدى الحكومات من أجل الحصول على مساعدات لدعم أعمال الجمعية في بناء المدارس والمعاهد لتعليم أبناء الجزائر، وكذلك للحصول على منح دراسية للطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية في الجزائر.

وبعد زيارات متكررة، ومسامح حثيثة، قام بها هذا العالم الجليل لدى مسئولين في الدول العربية، تمكنت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من إرسال بعثات من الطلاب الجزائريين إلى عدد من البلدان العربية لاستكمال دراستهم في جامعاتها.

- في سنة 1956، بعد قيام ثورة التحرير الجزائرية، اندمجت مؤسسات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هياكل جبهة التحرير الوطني من أجل مواصلة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

وفاء وتقدير



كنتُ أعمل في سوق الخضرا المركزي في مدينة غليزان، مع رجلين فاضلين من رجال الإصلاح. وذات يوم من أيام ربيع 1950 الجميلة قال لي أحد الرجلين، واسمه الميسوم مسعوده (رحمه الله) "جئتُك بخبر يسرُّك، إن جمعية المدرسة تفكر في إرسالك إلى معهد عبدالحميد بن باديس لتواصل تعليمك على حساب الجمعية". كنت آنئذ أتابع تعليمي بحضور الدروس المسائية في المدرسة.

وفي شهر سبتمبر 1950 توجهت إلى المعهد المبارك في مدينة قسنطينة، وذلك بفضل رعاية جمعية المدرسة، وبدعم من السيد الفاضل اممر إسيخم رحمه الله؛ وكذلك بفضل رعاية السيدين الفاضلين الميسوم مسعوده وشريكه محمد بن سليمان، وغيرهم من رجال الإصلاح الذين يدعمون أعمال شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بمدينة غليزان.

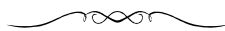
ومرّت أربع سنوات من الدرس، والاجتهاد، والمثابرة في المعهد المعمور، ونجحت في امتحان "شهادة الأهلية" في صيف 1954 بدرجة جيدة، وضمتني جمعية العلماء إلى البعثة التي أرسلتها إلى البلدان العربية لمواصلة الدراسة.

لقد كان فضل جمعية مدرسة غليزان عليّ عظيماً عندما ساعدوني على مواصلة تعليمي؛ وكان فضل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عليّ، وعلى مئات الطلبة، عظيماً. وأخصّ بالذكر فضيلة العلامة المجاهد الأستاذ البشير الإبراهيمي الذي استطاع بسعيه الحثيث أن يفتح أبواب عدد من الجامعات العربية أمام عدد كبير من أبناء الجزائر.





المختصر المفيد



◆ ————— مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة ————— ◆

فجر الإسلام

ما أبعد الفرق بين عالمنا اليوم في القرن الواحد والعشرين، وما ينتشر فيه من وسائل الاتصالات والإعلام السريعة الانتشار، وبين عالم القرن السادس الذي ولد فيه الرسول الأكرم ﷺ، والقرن السابع الذي ناضل فيه بشجاعة من أجل نشر رسالة الإسلام. وكما هو سهل اليوم على المرء أن يطلع على ما يجري في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وكما كان بطيئاً على سكان مكة والطائف والمدينة وغيرها أن يطلعوا على ما كان يحدث في الدولة الفارسية، وفي الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وفي الحيرة، واليمن، والحبيشة وفلسطين، وبلاد الشام.

ونلاحظ أن أخبار السيرة النبوية وكتبها متوفرة في كل بيت ومدرسة، ولكن معظم الناس لا يعرفون إلا قليلاً عما كان يجري في بلاد الفرس والروم وفي البلدان المجاورة لهما، التي احتك بها تاريخ الإسلام منذ نشأته، ثم دخلها واستفاد من حضارتها، ثم أنار رُبوعها. ويهدف هذا المقال إلى تقديم فكرة موجزة عن بعض الحوادث التي أحاطت آنئذ بنشأة الإسلام، وعن الصراع بين دولتي الفرس والروم.

يحدُّ شبه الجزيرة العربية من الشرق الخليج الفارسي، والحيرة، ودجلة والفرات؛ ومن الجنوب المحيط الهندي، وخليج عدن؛ ومن الغرب البحر الأحمر؛ ومن الشمال فلسطين وبادية الشام. وكانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرق شبه الجزيرة، والإمبراطورية الرومانية الشرقية (أو الإمبراطورية البيزنطية) تقع غربها؛ ودولة الحبيشة في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية.

وكانت كل من الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) تستعين بالقبائل العربية المستقرة على حدودها، في الحيرة على تخوم فارس، وفي الشام وفلسطين على حدود المستعمرات الرومانية، كل من الدولتين تستعين بهذه القبائل لصد غارات البدو الرحل على القرى الزراعية والمراكز التجارية الواقعة داخل حدودها. وقد نشأ من تلك القبائل العربية المستوطنة دولتان: دولة المناذرة على حدود فارس، ودولة الغساسنة على حدود الروم في بلاد الشام. وكان من أشهر ملوك الحيرة، على حدود فارس الملك النعمان بن المنذر الذي حكم من 580 إلى 602 م؛ ومن أشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة الذي توجّه الإمبراطور جستنيان ملكاً على القبائل العربية المستقرة على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبقي في الحكم من 569 - 528 م. وكان جستنيان يهدف من تأسيس هذه المملكة العربية على حدود مستعمرات الروم في الشام إلى تكوين إمارة قوية لمواجهة ملوك المناذرة في الحيرة.

عبارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعني الإمبراطورية البيزنطية، كما تعني دولة الروم، وعاصمتها القسطنطينية (إسطنبول حالياً). وكان يحكمها الإمبراطور جُستِنِيان خلال الفترة من 527-565 ميلادية.

أما الإمبراطورية الفارسية الساسانية فكان يحكمها كسرى الأول خلال الفترة من 531 - 579 ميلادية، وكان يعرف بكسرى أنوشروان، وتعني "الروح الخالدة". ويروى أنه كان ملكاً عادلاً، أنجز إصلاحات كبيرة، واشتهر برعايته للعلماء والآداب والفنون، كما اشتهر بحروبه ضد الإمبراطورية البيزنطية.

وكان يعاصره جُستِنِيان، إمبراطور الروم، فعقدا صلحاً بينهما سنة 532 ميلادية، فساعد هذا الصلح جستنيان ليتفرغ إلى غزو شمال إفريقيا. غير

المختصر المفيد —————

أن كسرى (الأول) خشي أن تتسع قوة خصمه فيصبح خطراً على بلاد
الفرس، فأعلن الحرب عليه عام 539، واستولى على مناطق واسعة من بلاد
الشام. وعُقد صلح آخريين الدولتين تعهد فيه جستنيان بأن يدفع لكسرى
مبالغ كبيرة من الذهب.

كان القائد الحبشي أبرهة الأشرم يحكم بلاد اليمن من طرف
النجاشي، ملك الحبشة، فبنى أبرهة هيكلًا في اليمن ليصرف القبائل العربية
عن الحج إلى مكة المكرمة، غير أن مهمته هذه فشلت فتوجه بجيش إلى مكة
ليهدم الكعبة، ولكنه فشل في تحقيق هدفه كذلك، فعاد إلى اليمن مريضاً
مهزوماً، ولم يعمر طويلاً.

وخلفه في الحكم ولداه، ولكنهما بالغوا في الإساءة إلى أهل اليمن الحميريين،
فلجأ سيف بن ذي يزن الحميري إلى المنذر بن ماء السماء، حاكم الحيرة التي
كانت تابعة لبلاد الفرس. وعندما مثل سيف بن ذي يزن أمام كسرى، وأبلغه بأن
قومه يعانون من ظلم الأحباش وحكامهم؛ وافق كسرى على إرسال قوة لمساعدة
أهل اليمن على التخلص من سيطرة الأحباش، وجعل سيف بن ذي يزن الحميري
حاكماً على اليمن مقابل أن يؤدي له جزية سنوية.

وقعت حادثة الفيل المذكورة سنة 570 ميلادية، وهي السنة التي ولد
فيها الرسول الأكرم ﷺ، وقد كان ميلاده في 12 من شهر ربيع الأول. وقيل أنه
يوافق 20 من شهر أبريل (نيسان) عام 571 ميلادية.

مكث الرسول ﷺ عند مرضعته حليلة السعدية حتى بلغ الخامسة.
وتوفيت أمّه وهو في السادسة من العمر. وكان أبوه قد توفي قبل ولادته فكفله
جدّه عبد المطلب، وبعد وفاة جدّه كفله عمه أبو طالب، ورعاه كأحد أبنائه،

واصطحبه معه في رحلة إلى الشام وهو لم يتجاوز 12 سنة من العمر.

واشتغل الرسول ﷺ بالتجارة، وسافر إلى الشام واليمن؛ ثم تعرف على السيدة خديجة بنت خويلد، فأرسلته في تجارة لها إلى الشام برفقة غلامها ميسرة؛ وأعجبت بصدقه وأمانته، وأنس الرسول بها فتزوجها؛ وبدأ مرحلة جديدة، وكان سنه 25 عاماً.

وقررت قريش أن تجدد بناء الكعبة، فشارك محمد ﷺ في بنائها، وحكّمته قريش عندما اختلفت فيمن يعيد الحجر الأسود إلى موضعه على الجدار، فبسط رداءه، ووضع عليه الحجر الأسود، وطلب من كل زعيم أن يأخذ بطرف من الرداء. وكان سنه عندئذٍ نحو 35 سنة.

توفي إمبراطور الروم جستنيان سنة 565 ميلادية، وخلفه على عرش القسطنطينية جستين الثاني الذي حكم من سنة 565 – 578، ورأى هذا الإمبراطور أن في سيطرة كسرى الأول (أنوشروان) على اليمن عملاً عدوانياً، فأعلن الحرب على الإمبراطورية الفارسية سنة 572. كانت الحرب سجالاً خلال بض سنوات؛ وفي عام 579 هزم الروم الفرس، وكانت هذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي هُزمت فيها جيوش كسرى أنوشروان، الذي توفي في السنة نفسها، بعد أن حكم بلاد فارس طيلة 48 سنة، وكان أعظم من ملك البلاد. كان عمر الرسول آنئذٍ نحو تسع سنوات.

وبعد وفاة كسرى تولى السلطة ابنه هُرْمُزُ الرابع. غير أن قائده بهرام قوبين خلعه، وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثاني ابن هرمز الرابع المخلوع سنة 589، ثم أعلن نفسه ملكاً على عرش فارس. وعندما بلغ الشاب كسرى الثاني سن الرشد طالب بعرش أبيه فتنكر له بهرام. وفر كسرى الثاني إلى سوريا الرومانية، وطلب من إمبراطور الروم موريس أن يساعده على استرجاع

المختصر المفيد —————

ملك أبيه، فوافق موريس على طلبه شريطة أن ينسحب الفرس من بلاد أرمينيا. وهكذا تمكن كسرى الثاني، الذي أصبح يعرف بكسرى أبرويز (الظافر) من استعادة عرش أبيه سنة 596، بفضل مساعدة موريس إمبراطور الروم. وكان سن الرسول ﷺ عندئذ نحو 16 عاماً.

وحدث أن ثار قائد روماني، يدعى فوكاس، على موريس إمبراطور الروم، فقتله واستولى على عرشه، فأغضب هذا الانقلاب كسرى الثاني لأن موريس كان قد ساعده على استرجاع عرشه؛ فاتخذ من هذا الانقلاب ذريعة، وأعلن الحرب على الروم سنة 603، وشن حملات واسعة النطاق دامت سنوات طويلة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة).

كانت هذه الإمبراطورية تعاني الضعف بسبب النزاعات الداخلية، ونتيجة الهجمات الخارجية التي كانت تتعرض لها من طرف الآفار، والصقالبة، واللومبارد، ومما زاد الوضع سوءاً ما قام به فوكاس، بعد استيلائه على العرش، من أعمال وحشية، وما ارتكب من فظائع ضد الحكام والأشراف وأسرهم، ولكنه عجز عن مواجهة جيوش الفرس الغازية.

وفي ظل الانهزامات التي منيت بها القسطنطينية، دولة الروم، وما حاق بها من فوضى واضطرابات، استغاثت أشراف الدولة بقائد يدعى هرقل كان حاكماً على مستعمرات الروم في شمال إفريقيا، وطلبوا منه أن يعجل لإنقاذ الإمبراطورية.

جهز هذا القائد ابنه، هرقل الأصغر، بأسطول انطلق به من شمال إفريقيا، وتوجه إلى القسطنطينية، ففضى على الحاكم المستبد فوكاس، وجلس على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) سنة 610، وهي السنة التي بدأ فيها نزول الوحي على الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ من بدايته الوحي إلى الهجرة (622 – 610) :

كان الرسول ﷺ يذهب من حين إلى آخر إلى غار حراء، وينقطع هناك للتأمل والتحنُّت، وبينما هو في الغار ذات يوم جاءه الملك جبرائيل وفي يده صحيفة، وقال له اقرأ...! فكان ذلك اللقاء بداية نزول الوحي على الرسول الأكرم ﷺ؛ وحدث ذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان المبارك، وفي سنة 610 ميلادية.

سارعت خديجة رضي الله عنها تصديق أقوال محمد ﷺ، فأمنت برسالته، وبأنه نبي هذه الأمة. وتبعها ابن عمه علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة (الذي تبناه النبي)؛ واعتنق الإسلام بعدهم بلال، وأبو بكر الصديق؛ وتلاههم رجال من كبار أهل مكة، وطائفة من الموالي والفقراء.

بدأت عداوة قريش للرسول ﷺ وللمسلمين واشتدوا في أذاهم، كما هو مفصل في كتب السيرة. وبعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً أمر الله نبيه أن يجهر بما ينزل عليه من الوحي. وفي السنة الخامسة للبعثة (615 ميلادية) نصح الرسول ﷺ عدداً من المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، كان عددهم 83 رجلاً و17 امرأة، وكان من بينهم عثمان ابن عفان، وزوجه رقية، والزبير بن العوام، وجعفر بن أبي طالب، وعمرو بن سعيد وغيرهم.

وفي السنة نفسها قررت قريش أن يقاطعوا بني هاشم وبني عبدالمطلب للتضييق على المسلمين، وفرضوا عليهم حصاراً في شعب من شعاب مكة دام نحو سنتين. وازداد أذى المشركين للنبي وأصحابه بعد أن توفي عمه أبو طالب، وزوجه خديجة سنة 619 ميلادية. وفي العام التالي (620م) هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف، ودعا طائفة من أهله إلى الإسلام، فلم يجد منهم أذناً صاغية.

المختصر المفيد —————

وفي تلك الظروف القاسية التي توالى فيها عداوة قريش للمسلمين وقعت حادثة الإسراء والمعراج، وفرضت الصلوات الخمس على المسلمين. وفي عام 622 ميلادية بدأت بوادر الانفراج تظهر في السنة الثالثة عشرة من البعثة، عندما قدم من يثرب إلى مكة 73 رجلاً ممن أسلموا من قبيلتي الأوس والخزرج، فاجتمعوا بالرسول ﷺ، وكان برفقته عمه العباس، وبايعوه على أنه إذا قدم إليهم في يثرب فإنهم سيرحبون به ويحمونه ويدافعون عن دعوته. خرج الرسول ﷺ، وبصحبه أبو بكر الصديق، قاصداً مدينة يثرب التي أصبحت تعرف بعد ذلك بالمدينة المنورة، ووصل إليها في 16 ربيع الأول، الموافق للرابع والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) من عام 622 ميلادية. وكانت هذه الهجرة بداية عهد جديد للإسلام.

اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية الرومانية كما تقدم سنة 610؛ واستغل كسرى ضعف الدولة الرومانية فواصل حملاته، واستولت جيوشه على أرمينيا، وسوريا، وفلسطين، ودخلت مدينة القدس فنهبتها، وأخذت الصليب المقدس، وأخذت أعداداً كبيرة من الأسرى؛ وهاجمت قوات فارسية أخرى مدينة حَلَقَدُون الواقعة عبر مضيق البوسفور، مقابل القسطنطينية عاصمة الروم. وتابعت جيوش الفرس زحفها فاستولت على مدينة الإسكندرية عام 616، وما لبثت أن سيطرت على مصر سنة 619.

وقد فرح كثير من أهل مكة بالانتصارات التي حققها الفرس على الروم، غير أن الرسول ﷺ لم يفرح بانتصار المجوس على أهل الكتاب، وفي تلك المناسبة نزل عليه الوحي ليطمئنه بأن النصر سيكون في النهاية للروم: ﴿الْمَغْلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُكَ ﴿٣﴾ فِي يَضْعَ سِينِكَ ﴿٤﴾ (سورة الروم - الآيات 4 - 1) .

ظل هرقل طوال هذه السنوات العصيبة يسعى جاهداً لتنظيم الجيش وتقوية الأسطول، وكان يوزع الأراضي على الفلاحين الذين يرسلون أولادهم للانخراط في الجيش، ويعمل على تدعيم اقتصاد البلاد وأركان الدولة المنهارة. وحدث أن وافق البطريق سرجيوس على أن يقدم له قروضاً من ثروة الكنائس ليساعده على تحرير البلاد والانتقام لما فعله الفرس في مدينة القدس. وسعى هرقل إلى عقد الصلح مع الآفار ليتفرغ لمحاربة الفرس.

وعندما شعر هرقل أن ساعة الانتقام من كسرى قد دقت، لم يعبر بجيشه مضيق البوسفور ليهاجم على جيش الفرس المعسكر في خلقدون القريبة، ولكنه أبحر إلى البحر الأسود (سنة 622)، ثم اخترق بجيشه أرمينية، وهاجم جيوش كسرى من خلفها، ثم هاجم مدينة كلورومية (مسقط رأس زرادشت)، انتقاماً لما فعله كسرى في مدينة القدس.

وأرسل كسرى جيوشه واحداً تلو الآخر لمواجهة جيش الروم، ولكن دون جدوى. وحدث أثناء غياب هرقل أن حاصرت قوات من جيوش الفرس، والآفار، والبلغار مدينة القسطنطينية، سنة 626، فسارع هرقل إلى إرسال جيش هزم المحاصرين، وحرر مدينة خلقدون عبر البوسفور. وتابع هرقل حملته الرئيسية حتى استولى على مدينة طيسفون (المدائن).

وفي النهاية ثار بعض القواد على كسرى وسجنوه؛ ودبرت مؤامرة وسط الأسرة المالكة، فحكموا عليه بالموت، وقتله أحد أبنائه يدعى شيروى سنة 628. ونجح هرقل في أن يسترد جميع ما استولى عليه الفرس من أراضي الروم ومستعمراتهم، وعاد إلى القسطنطينية، عاصمة الروم، بعد غياب دام نحو سبع سنين.

الرسول ﷺ في المدينة المنورة (622 – 632):

وصل الرسول ﷺ إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة) في 16 من شهر ربيع الأول، الموافق لـ 20 من شهر سبتمبر (أيلول) عام 622 ميلادية. وكانت هذه الهجرة بداية عهد جديد للإسلام، وفتحا عظيمًا على المسلمين.

بدأ الرسول الأكرم ﷺ، بتنظيم العلاقات الاجتماعية، فأخى بين الأنصار والمهاجرين بأخوة الإسلام بدلاً من صلات الدم والقبيلة وحدها. وشرع في تطبيق التعاليم العقائدية، وتنظيم المعاملات الضرورية للحياة اليومية الجديدة في المدينة المنورة. وعقد عهودًا مع القبائل اليهودية، فوادعهم وأقرهم على ذممهم وأموالهم. وخصص جزءًا هامًا من نشاطه للتشاور والتحاور مع زعماء القبائل وكبار المهاجرين والأنصار. لقد أتاحت له الفرصة الآن لينهض بجميع الأعمال التي يتطلبها تأسيس دولة مدنية حضرية ومجتمع يكون الولاء فيه لله ولرسوله ولتعاليم الإسلام.

ورغب المسلمون في استرجاع بعض ما استولى عليه أهل مكة من أموالهم، عندما اضطروا لمغادرة مساكنهم، فأمرهم الرسول ﷺ بالإغارة على قوافل قريش التجارية التي تمر قرب المدينة، ومن ذلك أنهم اعترضوا قافلة كان يقودها أبو سفيان، من الشام إلى مكة، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى غزوة بدر الشهيرة (وبدر واد على بعد نحو 20 ميلًا من المدينة). وقد حدثت هذه الغزوة سنة 624 ميلادية، والتقى فيها 300 من جنود المسلمين بألف من رجال قريش؛ وحقق فيها المسلمون نصرًا عظيمًا.

وقررت قريش أن تنتقم لهزيمتها في معركة بدر، فخرجت في نحو 3 آلاف رجل، في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة (الموافق لعام 625 ميلادية)، وعسكروا بالقرب من جبل أحد (على نحو 3 أميال من المدينة المنورة)، وتصدى لهم جيش المسلمين وعددهم نحو 700 مقاتل، بعد أن تخاذل عبدالله بن أبي ورجع إلى المدينة في 300 رجل. وكان النصر في الجولة الأولى

للمسلمين، غر أن الرماة خالفوا أمر الرسول ﷺ وغادروا أماكنهم، فهاجم فريق من جيش قريش المسلمين من الخف؛ وكاد المسلمون يهزمون، ولكنهم جمعوا شملهم مرة ثانية وصمدوا في وجه جيش المشركين.

ومن الحملات الكبيرة التي قامت بها قريش للقضاء على شوكة المسلمين وقوتهم في المدينة المنورة أنها جمعت في عام 626 ميلادية جيشاً قوامه نحو عشرة آلاف مقاتل توجهوا به إلى المدينة. وتعرف هذه الحادثة بغزوة الأحزاب (وغزوة الخندق). وفضل المسلمون أن يدافعوا عن مدينتهم ببناء خندق حولها. وبعد أن حاصر جيش قريش المدينة المنورة مدة عشرين يوماً، اختلفوا في أمرهم، ثم تفرقوا وعادوا من حيث أتوا دون نتيجة. وعلى إثر ذلك جهز الرسول ﷺ جيشاً لمعاقبة يهود بني قريظة الذين كانوا قد نقضوا العهود، واشتدوا في عداوتهم للمسلمين.

وفي سنة 628 ميلادية أرسل الرسول ﷺ إلى قريش يعرض عليهم الصلح، ويضمن لهم سلامة قوافلهم التجارية، إذا رضوا أن يدخل مسلمو المدينة مكة لأداء شعائر الحج، فقبل زعماء قريش بذلك، وسجلت شروط الهدنة بين الفريقين، وبذلك تمكن مسلمو المدينة (نحو ألفين منهم) من دخول مكة مسالمين في السنة التالية، أي 629 ميلادية. وباتت هذه الهدنة تعرف بصلح الحديبية.

وفي 628 ميلادية (السادسة للهجرة) أرسل الرسول ﷺ رسائل إلى عدد من الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام؛ ومن هؤلاء هرقل، إمبراطور بيزنطة؛ وكسرى أبرويز، ملك الفرس؛ والنجاشي، ملك الحبشة؛ والمقوقس، عامل هرقل على مصر؛ والحارث الغساني ملك الحيرة؛ والحارث الحميري ملك اليمن. ويروى أن المقوقس أرسل إلى الرسول ﷺ بهدايا منها جارتان، تزوج بإحدهما، وأهدى الأخرى إلى الشاعر حسان بن ثابت.

كان اليهود أشد خطراً على المسلمين من قريش؛ وكان يهود خيبر

المختصر المفيد —————

يمثلون قوة كبيرة، يدعمهم في عداوتهم يهود بني النضير. وخشي الرسول ﷺ أن يجمعوا أحزابهم ويثوروا ضد المسلمين، فقرر أن يبادرهم ويتخلص من تهديدهم، فخرج إليهم وحاصر حصونهم حتى استسلموا الواحد تلو الآخر بعد دفاع مريـر. وعندما تم النصر للمسلمين، ترك لهم الرسول الأرض والنخيل ليستغلوها على أن يكون نصف إنتاجها للمسلمين.

وفي سنة 630 ميلادية نقضت إحدى القبائل المتحالفة مع قريش شروط الهدنة التي أقرها الرسول ﷺ مع قريش (في صلح الحديبية)، فجمع الرسول جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، وعسكر خارج مكة، فجاءه أبو سفيان معلناً إسلامه، وعاد إلى مكة فنصح القوم ألا يعارضوا دخول المسلمين إلى مكة لأنهم لا يقدرّون على مواجهة جيشهم. وأعلن الرسول الكريم عفواً عاماً على أهل مكة التي خرج منها مختفياً قبل ثماني سنوات فقط.

وفي السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول ﷺ للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين، وهو ما يعرف بحجة الوداع. وعندما وقف على جبل عرفات ألقى خطبته المشهورة. وقد تم نزول القرآن عندئذٍ بقوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة: الآية 3).

خطبة حجة الوداع:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال رسول الله ﷺ:

[أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون، قضى

اللَّهِ أَنَّهُ لَا رَبَّاءَ، وَإِنْ رَبَّاءَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مَوْضُوعَ كُلِّهِ، وَإِنْ كُلُّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعًا وَإِنْ أَوَّلُ دِمَائِكُمْ أَضْعُ دَمِ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلْتَهُ هَذِيلٌ، فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأَ بِهِ مِنْ دِمَائِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَمَا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَأْسُ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ إِنْ يُطْعَمُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ فَقَدْ رَضِيَ بِهِ فِيمَا تَحْقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّسِيءَ⁽¹⁾ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يَضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًّا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًّا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيَحْرِمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَإِنْ عِدَّةُ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَّمَ: ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَةٌ، وَرَجَبُ الَّذِي بَيْنَ جَمَادَى وَشَعْبَانَ.

أَمَا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكِنْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُؤَاطُنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذَنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مَبْرُوحٍ، فَإِنْ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ لَا يَمْلِكُنَّ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِذَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فِرْجَهُنَّ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ، فَاعْقَلُوا أَيُّهَا النَّاسُ قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَغْتُ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضَلُّوا أَبَدًا أَمْرًا بَيِّنًا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ، أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي وَاعْقَلُوا، تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخٌ لِلْمُسْلِمِ وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرءٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طَيِّبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَلَا تَظْلِمُنَّ أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ؟ فَقَالَ النَّاسُ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ".

(1) النَّسِيءُ: النَّسِيءُ وَالنِّسَاءُ وَالنِّسِيَّةُ يَعْنِي: التَّأخِيرُ.

المختصر المفيد —————

لقد جهز الرسول ﷺ خلال السنوات العشرة التي مكثها في المدينة 65 غزوة وسرية حربية، وأثبت قدرته على إدارة شؤون المسلمين في السلم والحرب، وأتى رسالة ربه على أكمل وجه.

وفي شهر مارس (آذار) من عام 632 ميلادية جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد، وبينما كان المسلمون يستعدون للخروج لهذه الغزوة الموجهة إلى الشام لمحاربة الروم، علموا أن المرض اشتد على الرسول ﷺ، والتحق بالرفيق الأعلى بعد مرض دام 13 يوماً. وكانت وفاته ﷺ في 12 ربيع الأول سنة 11 هجرية (الموافق لـ 8 يونيو (جوان) من عام 632 ميلادية).

انتشار الإسلام:

جاء الإسلام برسالة التوحيد، وجعل رابطة العقيدة أساس المجتمع الإسلامي، ورفض الروابط القبلية والعنصرية والقومية والطبقية، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى؛ ويؤكد هذا المبدأ صريح الآية: ﴿إِنَّا كَرَّمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ فَأَنْتُمْ كَرَّمُ﴾ (الحجرات: الآية 13).

وتواصلت الفتوحات، وانتشر الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والعباسية، وشملت رسالة الإسلام عالماً واسعاً وأممًا مختلفة من المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى.

وقد جعل الإسلام من أهم اللبانات التي تبنى عليها الدولة (بعد عقيدة التوحيد): طلب العلم، الجد في العمل، العدل، والشورى، والقيم الأخلاقية الإنسانية.

اعتنقت شعوب وقبائل عقيدة الإسلام، ورحبت برسالته عن طوع واختيار، على مبدأ "لا إكراه في الدين" و"لكم دينكم ولي ديني". وعلى من اختار أن يبقى على دينه أن يدفع الجزية؛ وظل الإسلام يحرص على معاملة أهل

الكتاب من النصارى بالعدل والإحسان.

وانتشر إشعاع الحضارة الإسلامية شرقاً وغرباً خلال قرون امتدت من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وبدأ المسلمون بإحياء علوم اليونان والرومان وآدابهم ومعارفهم، ثم دخلوا مراحل الإنتاج والإبداع، فحققوا إنجازات كثيرة في ميادين الفلك، والهندسة، والطب، والجغرافيا، والرياضيات، والفلسفة.

ومن المعروف أنه خلال القرون التي انتشرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، وازدهرت وأثمرت في مجالات العلوم النظرية والتطبيقية، وهي الفترة التي تعرف في أوروبا "بالقرون الوسطى"، كانت دول هذه القارة تنحدر نحو الانحطاط، وكانت شعوبها ترزح تحت سحب الجهل والتخلف. وخلال تلك العصور الطويلة لم يبق في أوروبا من العلوم والآداب إلا ما كان مخزوناً في الأديرة والكنائس.

أخلاق المؤمن



فيما يلي باقة من الأحاديث الشريفة التي رويت عن الرسول الأكرم ﷺ

- أخلاق المؤمن :

قال رسول الله ﷺ: [إن من أخلاق المؤمن: قوة في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وحرصًا في علم، وشفقة في مقة⁽¹⁾، وحلمًا في علم، وقصدًا في غنى، وتجمالًا في فاقة، وتخرجًا عن طمع، وكسبًا في حلال، وبرًا في استقامة، ونشاطًا في هدى، ونهيًا عن شهوة، ورحمة للمجهود. وإن المؤمن من عباد الله لا يحيف على من يبغض، ولا يأتّم في من يحب، ولا يضيع ما استودع، ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن، ويعترف بالحق، وإن لم يُشهد عليه، ولا يتنازب بالألقاب، في الصلاة متخشعًا، إلى الزكاة مسرعًا، في الزلازل وقورًا، في الرخاء شكورًا. قانعًا بالذي له، لا يدعي ما ليس له، ولا يجمع في الغيظ، ولا يغلبه الشخ عن معروف يريده. يخالط الناس كي يعلم، ويناطقهم كي يفهم. وإن ظلم وبُغِيَ عليه صبر حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له].

رواه الترمذي

- في التراحم والتعاطف :

عن النعمان بن بشير، قال، قال رسول الله ﷺ: [مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى].

رواه الشيخان

(1) مقة : محبة .

- اتقاء الشبهات :

عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه: [إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مُشبهات لا يعلمنهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب].

رواه الشيخان

- شارب الخمر :

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريدتين نحوًا من أربعين. وفعله أبو بكر. فلما كان عمر استشار الناس. فقال عبدالرحمن بن عوف: أخف الحدود ثمانين، فأمر به عمر.

رواه مسلم

- فليقل خيرًا أو ليصمت :

عن أبي شريح العدوي أنه قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم رسول الله ﷺ فقال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته] قالوا: وما جائزته يا رسول الله! قال: [يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت].

رواه الشيخان

- لا تحاسدوا :

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: [إياكم والظنّ، فإنّ الظنّ أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً].

رواه الشيخان

- الأعمال، ليس المظاهر :

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم].

رواه مسلم

- الصدق والكذب :

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذاباً].

رواه الشيخان

- الرفق بالحيوان :

[بينما رجل يمشي بطريق، اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملاً خفه ماء،

ثم أمسكه بفيه ثم رقي وسقي الكلب، فشكر الله له فغفر له، فسئل النبي فقال: في كل ذات كبد رطبة أجرٌ].

رواه الشيخان

- حق الطريق :

قال النبي ﷺ: [إياكم والجلوس على الطرقات، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر].

رواه الشيخان

- الغيبة :

قال رسول الله ﷺ: [إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشدّ من الزنا، إن الرجل قد يزني ويتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله تعالى له حتى يغفر له صاحبه].

- من المفلس؟

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ ما خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار].

- البطانة:

قال رسول الله ﷺ: [ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا وكانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله].

- الصدقة:

قال رسول الله ﷺ: [تبسّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة].

رواه البخاري

- المؤمن القوي:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان].

رواه مسلم

- البيع، الخطبة:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تناجثوا⁽¹⁾، ولا يبيع المرء

(1) نجّث: زاد في ثمن السلعة.

على بيع أخيه، ولا يبيع حاضر لباد، ولا يخطب المرء على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق الأخرى لتكتفى ما في إنائها].

رواه مسلم

- من حقوق الزوج :

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه (فلم تأت) فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تُصبح].

رواه الشيخان

- أربعة يبغضهن الله تعالى: البايع الحلاف، والفقير المحتال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر.

رواه النسائي

- [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يُعنه].

رواه النسائي

- [أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر].

رواه البخاري ومسلم

المختصر المفيد

- [إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة].

- حول الزواج :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [تنكح المرأة لأربع، لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت (1) يداك].

رواه الشيخان

- المرأة الصالحة :

عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: [الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة].

رواه مسلم

- استوصوا بالنساء خيراً :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيراً].

رواه الشيخان

(1) تربت: التصقت بالتراب.

- الرجل القوي :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب].

رواه الشيخان

- الرفق بالحيوان :

عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: [عُذِبَتْ امْرَأَةٌ فِي هَرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَأَهِى أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَّاشِ الْأَرْضِ].

رواه الشيخان

- رعاية الجار :

عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثنه].

رواه الشيخان

- [إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِيمُ].

رواه الشيخان

- [أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً، ثم يعلمه أخاه المسلم].

رواه ابن ماجه

المختصر المفيد —————

- [اعلموا أنه ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله؛ مالك ما قدّمتَ، ومال وارثك ما أحرّرتَ].

رواه البخاري

- [اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك].

رواه البيهقي

- [أعظم الناس حقاً على المرأة زوجها؛ وأعظم الناس حقاً على الرجل أمّه].

رواه النسائي

- الغيبة :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أتدرون ما الغيبة؟] قال الله ورسوله أعلم. قال: [ذكرك أخاك بما يكره] قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: [إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتّه، وإن لم يكن فقد بهّته⁽¹⁾].

رواه مسلم

- من أعظم الذنوب :

[إن أعظم الذنوب عند الله رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها، وذهب بمهرها، ورجل استعمل رجلاً فذهب بأجرته].

رواه البيهقي

(1) كذبت عليه.

- [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له].

رواه مسلم

- حق الزوج على زوجته: أن لا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، وأن لا تصوم يوماً واحداً إلا بإذنه إلا لفريضة، فإن فعلت أثمت، ولم يتقبل منها، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر، وكان عليها الورر، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو تراجع وإن كان ظالماً.

رواه الطيالسي

- ستة أشياء تحبط الأعمال: الاشتغال بعيوب الخلق، وقسوة القلب، وحب الدنيا، وقلة الحياء، وطول الأمل، وظالم لا ينتهي.

رواه الديلمي

- [سارعوا في طلب العلم، فالحديث من صادق خير من الدنيا وما عليها من ذهب وفضة].

- عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم].

رواه مسلم

المختصر المفيد —————

- عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: [المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كُرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة].

رواه الشيخان

- [اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا أئتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم].

رواه البيهقي

- [أربعة من كنز الجنة: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وصلة الرحم، وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله].

- [أربع من كنّ فيه حرّمه الله تعالى على النار، وعصمه من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي، وحين يغضب. وأربع من كنّ فيه نشر الله تعالى عليه رحمته، وأدخله جنّته: من آوى مسكيناً، ورحم الضعيف، ورفق بالملوك، وأنفق على الوالدين].

- [أربع من أعطيهنّ فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: لسان ذاك، وقلب شاكر، وبدن على البلاء صابر، وزوجة لا تبغيه خوفاً في نفسها ولا ماله].

رواه الطبراني

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده؛ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؛ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي].

رواه مسلم

- قال رسول الله ﷺ: [عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البروان البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً].

حديث شريف

- قال رسول الله ﷺ: [يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة].

حديث قدسي

المختصر المفيد —————

- قال رسول الله ﷺ: [من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه].
حديث شريف

- قال رسول الله ﷺ: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه].
حديث شريف

نبذة عن الحضارة الإسلامية



جاء في الموسوعة البريطانية ما مفاده: الحضارة هي مجموع الميراث الاجتماعي لمجموعات من السكان يحقق لهم وسائل الحياة، ويوفر لهم مستوى من الثقافة والموارد التي تدعم إمكانيات تطوّرهم التدريجي، ويساعدهم على تحسين ظروف حياتهم الفكرية، والمادية، والأخلاقية، وعلى المحافظة على وحدتهم، ونقل مكاسبهم الثقافية إلى الأجيال التالية.

كان للإسلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فرفعوا لواءه عالياً، وانطلقوا شرقاً وغرباً يحملون رايات عقيدة الوحدانية، والعلم، والعدل، والمساواة، والأخوة بين الناس مُردّدين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: الآية 13).

وفي قرون قليلة أسسوا منارات انتشرت أشعتها من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي، وشيّدوا حضارة أنارت أجواء أوروبا الكئيبة وساعدتها على الخروج من ظلمات القرون الوسطى.

انطلقت الدعوة الإسلامية تحمل مبادئ إنسانية علمية وعملية قوية راسخة، من شعاراتها اطلبوا العلم والمعرفة حيثما وجدوا، اقرأوا، تعلموا، اعملوا بجدّ وحماس وأتقنوا إنتاجكم، فإن المعرفة وحدها لا تسمن ولا تغني من جوع.

كانت انطلاقة الحضارة العربية الإسلامية من أعظم الثورات الحضارية في التاريخ، إذ لم يكد يمرّ قرن من الزمن على وفاة الرسول ﷺ،

حتى كان فرسان الإسلام ينشرون دعوة الحق من حدود الصين حتى فرنسا، ومن المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وبتوسع إمبراطورية الإسلام بدأت المدن تشيد وتزدهر، وأصبحت شعارات الخلفاء والولاة والعلماء: علم الحكماء، وعدل الحكام، وشهامة الفرسان، وتقوى الصالحين، أمة واحدة وثقافة واحدة. وقد يتساءل المرء كيف استطاعت اللغة العربية أن تنتشر وتصبح وسيلة فعالة في العلوم، وفي التعامل مع مختلف الشعوب ومعارفهم العريقة، وحلت محل لغات أخرى. وقد أثبتت هذه اللغة أنها لغة ثرية، مرنة، قادرة على التكيف والتفاعل والتجاوب مع مسيرة العلوم، وعلى التطور ومسابقة اللغات الأخرى، ونقل فنون الأمم الأخرى ومعارفهم إلى أحضانها، وكيف لا وقد وسعت كتاب الله لفظاً وغاية.

توسعت الفتوحات الإسلامية، وحرص المسلمون على كسب معارف الأمم الأخرى وعلومهم والاستفادة من حضاراتهم، وشجع الخلفاء والولاة هذه الرغبات، وعمل خلفاء بني أمية على الاستفادة من ثقافات الأمم المجاورة واقتناء المعرفة والكتب من العواصم المتحضرة في بلاد فارس واليونان، ومن المكتبات في الاسكندرية، وأنطاكية وبيروت ونيسابور وغيرها، وراحوا يبذلون جهوداً كبيرة وأموالاً سخية من أجل ترجمة علوم الحضارات الأخرى وفنونها إلى اللغة العربية.

وكان أول من اهتم بالترجمة هو خالد بن يزيد بن معاوية الذي أمر بإحضار جماعة من اليونانيين من مصر، وأمرهم بنقل بعض المصنفات من اليونانية والقبطية إلى العربية. وتبع ذلك نقل "الديوان" من الفارسية إلى العربية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي.

وفي عهد الدولة العباسية كان أول من اهتم بترجمة المؤلفات الأجنبية أبو جعفر المنصور الذي طلب من طبيبه الخاص جورجس بن جبرائيل بترجمة مؤلفات يونانية في ميدان الطب إلى العربية. ثم نهض حنين بن

إسحاق بترجمة مصنفات لأبقراط وجالينوس في الطب. وترجم ابن المقفع كتاب "كليلة ودمنة" من الفهلوية إلى العربية.

وتواصلت أعمال الترجمة على العربية فشملت كتاب "السند - هند"؛ وكتاب "المجسطى" لبطليموس؛ وكتاب "إقليدس" في الهندسة. وفي عهد هارون الرشيد نشطت ترجمة الكتب اليونانية؛ وازداد شغف الخليفة المأمون بالعلوم، فلم يكن يتردد في البذل بسخاء من أجل اقتناء الكتب من مختلف البلدان وترجمتها؛ بل كان عندما يتفاوض مع دولة ما يضيف إلى شروط العقود أن تقدم له مصنفات علمية لترجمتها. ويقول الشيخ محمد الخضري صاحب "محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)": إن المأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم، وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية، مع حفظ الفضل لمن سبقه كأبيه الرشيد، وجده المنصور، فإنهما وضعا الأساس، وهو هذا حذوهم، إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم" ومن بعد المأمون أرسل الخليفة المعتمد والخليفة المتوكل رسالاً إلى مختلف المدن والأمصار لشراء المصنفات المتعلقة بالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها لترجم إلى العربية.

وتجدر الإشارة على أن "بيت الحكمة" التي أنشأها المأمون عام 830 ميلادية في بغداد كانت أشبه بمجمع علمي تضم طائفة من المترجمين يعكفون على ترجمة المصنفات الهامة من اللغات اليونانية، والسريانية، والفهلوية، والهندية؛ وقد ركز المسلمون على ترجمة مؤلفات أرسطو وأفلاطون، كما ترجمت كتب من بلاد الفرس والهند ومن أصقاع أخرى في القصص، والسير، والفلك، والموسيقى، والهندسة وغيرها.

وكان على رأس مدرسة الترجمة هذه (بيت الحكمة) طبيب نسطوري بارع يدعى حنين بن إسحاق، يروى أنه ترجم بنفسه مائة كتاب ورسالة. وبدأت بهذه الأعمال المكثفة حركة علمية ظلت تنتشر عبر الإمبراطورية

الإسلامية التي بدت في العهد العباسي، وفي عهد ازدهار الأندلس، كأنها سوق عظيمة للعلوم والمعارف؛ وأصبح العلماء ينعمون بالتقدير والحرية، ومنهم يهود، ومسيحيون، وفارسيون، ونستوريون⁽¹⁾، وغيرهم. والسبب في هذا الانتشار العظيم أن العقيدة الإسلامية تسعى إلى هداية الشعوب إلى الإسلام، ولكنها لا ترفض علومهم وحضارتهم، بل تشجعهم على الاكتشاف والإبداع.

وسرعان ما انتقل العلماء المسلمون من مرحلة الترجمة إلى مرحلة التأليف والإنتاج والإبداع، فدخلوا ميادين البحث والتجربة والاستقراء، والمختبر والمصنع... لأن العلم المفيد هو الذي يصدقه العمل والإنتاج. استغل علماء الإسلام معارف الأمم السابقة، مثلما يستغل النحل رحيق البساتين، ثم بنوا عليها فجاءوا باكتشافاتهم وإبداعاتهم في جميع العلوم والفنون، ولا شك أن مما ساعد على ذلك رعاية الخلفاء والأمراء والولاة المستنيرين الذين أنفقوا بسخاء على المراكز العلمية في عواصم الإسلام، ومنها بيت الحكمة في بغداد، والجامع الأزهر في القاهرة، وجامعة القرويين في فاس، وجامع القيروان وجامعة الزيتونة في تونس، وجامع قرطبة في الأندلس، وفي مناطق أخرى سيأتي ذكرها.

وهكذا استطاع الإسلام أن يوحد شعوباً مختلفة في مناطق واسعة تحت لواء عقيدة سماوية ولغة واحدة، ولعله للمرة الأولى في تاريخ البشرية تعارفت وتعاونت مثل هذه القبائل والشعوب على اختلاف مللها وتقاليدها ولغاتها، من بلاد الهند وفارس وتركستان والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وسوريا ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا... إلخ.

كان المسلمون حيثما حلوا ينقلون معهم المعارف والتقنيات الجديدة ويطورون أساليب الزراعة وينشؤون قنوات الري ويصلحون الأراضي،

(1) أتباع نستوريوس (431م) الذي كان يعتبر أن طبيعتي الألوهية والبشرية ظلنا منفصلتين. في المسيح الصلوات، واعتبرت الكنيسة هذا الاعتقاد هرطقة.

ويبدعون في العمران. كما عمل المسلمون على تطوير الصناعات المهنية فازدهرت صناعة السجاد والقطن وأنواع النسيج، وصناعة المعادن والفضة والذهب، وأتقنوا صناعة الزجاج و العطور والأسلحة. وازدهر التبادل التجاري مع الصين والهند وجنوب روسيا وسواحل شرق إفريقيا حتى جزيرة مدغشقر، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وقد حدث هذا الازدهار في زمن كانت فيه أوروبا تعاني من الفقر والجهل والتخلف أثناء القرون الوسطى.

وبالإضافة إلى هذا حقق العلماء المسلمون إنجازات عظيمة في ميادين العلوم المتوفرة آنئذٍ، ومنها علوم الفلك، والكيمياء، والطب، والرياضيات، وقدموا أعمالاً عظيمة، تطبيقية ونظرية، في ميادين الجراحة وطب العيون، والبصريات (دراسة الضوء)، وألفوا مصنفات علمية رائعة في علوم الجغرافيا، والأحياء، والصيدلة والفيزياء، والفلسفة، والتاريخ، والأدب، والموسيقى وغيرها. وبذلك اضطلعت الحضارة الإسلامية طيلة قرون طويلة بدور الرائد المستنير في مجال التفكير العلمي، والوعي الثقافي، والتنظيم الاجتماعي، والتشريع القانوني، والتسامح الديني، والرخاء المعيشي، والمساواة بين الأجناس.

كان معظم العلماء في ذلك العهد لا يكتفون بالتخصص في علم واحد بل يحصلون عدداً من العلوم مع التركيز على أحدها، ومع البحث والتأليف في أكثر من علم واحد. فقد كان العالم يجمع بين الطب، والفلسفة، والفلك، والرياضيات مثلاً، ويؤلف في جميعها أو يقتصر على بعضها. ويروي المؤرخون أنه كان في مدينة بغداد وحدها، في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون، أكثر من 800 عالم وطبيب.

وكما كان الخلفاء والأمراء والولاة ينفقون بسخاء على شراء الكتب وترجمتها، راحوا يبذلون بسخاء لرعاية العلماء وتشجيعهم على التأليف والإبداع. وظلوا يقدمون الدعم المالي للمساعدة على الإنتاج والابتكار، وإنشاء

تجهيزات عملية في مجالات علمية متعددة، منها تشييد المستشفيات في العواصم الإسلامية، ومعامل التحليل، ومصحات لرعاية ذوي الأمراض النفسية، وإنشاء مخازن في الأحياء السكنية الفقيرة، توفر للناس العلاج والأدوية والطعام مجاناً؛ وبناء مدارس الصيدلة ودكاكين للصيدليين، وتصنيع الأدوات والتجهيزات الطبية للفحص والعلاج والجراحة. ولم يبخل الحكام بمساعداتهم لعلماء الفلك والجغرافية الذين ابدعوا في صناعة الخرائط المسطحة والكروية، وصناعة الأسطرلاب، وبناء المراصد الفلكية.

وشملت النهضة الحضارية الإسلامية منشآت مختلفة زراعية وعمرانية وتجارية، وابتكارات مدنية عملية منها على سبيل المثال لا الحصر تجهيزات سكب المعادن، وبناء الجسور، ومدّ قنوات الري، وأنظمة التدفئة والتبريد، والحمامات العامة، وصك النقود، وإنتاج العقاقير ووسائل تخدير المرضى، وصناعات الحبر، والنسيج، والسّمع، والدهان، والسكر، والطاحونات المائية والهوائية، والساعة المائية وغير ذلك. وجلب المسلمون من الصين مزروعات منها الأرز، والقطن، وقصب السكر، والحزير، والبرتقال، والزنجبيل وغير ذلك.

ومن دلائل التقدم الحضاري اهتمام المسلمين بصناعة الورق، إذ أخذوا صناعة هذه المادة الهامة من الصينيين قبل نهاية القرن الثامن الميلادي وأسسوا مصنعاً لإنتاج الورق في بغداد، ثم نقلوا هذه الصناعة إلى الأندلس، وسرعان ما انتشرت تجارة هذه المادة العظيمة فشجعت ذوي المهنة على طباعة الكتب، وخففت من وزنها، وساعدت على انتشار التأليف والمعارف.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء المسلمين كانوا يجدون متعة وفائدة كبيرة في لغة الأرقام. وكان من أهم نشاطاتهم في هذا المجال هو استعمال الأرقام ... 1, 2, 3, 4, 5, 6 ... التي أخذوها من أصلها الهندي وطوروها واستغلوا سهولتها فيما تعاطوا من العلوم، وانتشر استعمالها في شمال أفريقيا وفي أوروبا التي كانت قبل ذلك تعتمد في حساباتها على الأرقام اللاتينية المعقدة.

وإليكُم مثلاً على كتابة الرقم 1825 بالأرقام اللاتينية: MDCCCXXV
حيث يمثل الحرف:

$$1000 = M$$

$$0500 = D$$

$$0100 = C \text{ مكرراً ثلاث مرات} = 300$$

$$0010 = X \text{ مكرراً مرتين} = 20$$

$$0005 = V$$

$$1825 = \text{المجموع}$$

ويلاحظ أن أوروبا لم تعرف "الصفـر" (ZERO) قبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي؛ وكانت هذه الكلمة معروفة لدى العرب قديماً وتعني "لا شيء"، ومنه "صفر الـيدين". وقد انتهى الأمر بحسن استغلال الأرقام الهندية إلى اكتشاف أساليب تقنية رياضية وميكانيكية لحل مشاكل حسابية وإلى اختراع نوع من "الحسوب" الفلكي.

ومن أعظم دلائل التطور والازدهار ما شيدته الحضارة الإسلامية في ميادين العمارة وال عمران. فقد شيد العباسيون قصوراً عظيمة منها قصر سامرا، والقصر الهاروني، والقصر الجعفري، وقصر الجوسق، وقصر الثريا وغيرها. كانت جدران هذه القصور مزودة بأبـهـج الزخارف والفسيفساء البراقة، وقطع الزجاج بأشكالها الهندسية وألوانها اللامعة. واشتهر فن العمارة عند المسلمين كذلك بالنقوش الهندسية البديعة. وكانت هذه القصور مزدهرة بالحدائق والبرك والأحواض والتمائيل والنافورات. ولكن بغداد كانت مزدهرة كذلك بكونها مركز العلم وقبلة العلماء؛ وكان الأطباء والمهندسون وطلاب العلم وأصحاب المهن يهرعون إليها من مختلف الأقاليم ليستفيدوا من معارف من سبقهم، ويضيفوا إليها من مواهبهم

العلمية والفنية.

وكانت مدن الأندلس من أهم مراكز الإشعاع الحضاري، ومنها قرطبة، وطليطلة، وغرناطة، وإشبيلية. وهناك شيّد الخلفاء والأمراء والأثرياء قصوراً، ومساجد، ومعاهد علمية ظلت مصدر فخر للحضارة الإسلامية. وكانت مدينة قرطبة نموذجاً للمدينة المستنيرة الراقية؛ ويروى المؤرخون أنها كانت في عهد المنصور بن أبي عامر تضمّ نحو 20.000 قصر، و2000 مسجد، و900 حمام عام، و80.000 مصنع وحانوت، بالإضافة إلى الجامعات، والمستشفيات، ومراصد الفلك وغير ذلك. كما تجدر الإشارة إلى قصور الأندلس الرائعة ومنها قصر الحمراء، والزهراء، والزاهرة، ومسجد قرطبة الشهير.

ويروى أن الحكم المستنصر بالله أسس في قرطبة 27 مدرسة؛ وراجت فيها العلوم والآداب والفنون، وكان العلماء يتوافدون إليها. واهتم أمراء الأندلس بجمع المصنفات النفيسة وأرسلوا بعثات إلى الشرق الإسلامي لشرائها؛ وجمعت المكتبة الملكية في قرطبة أكثر من 400 ألف مجلد، وكان البادئ بهذه الحركة العلمية الواسعة هو الخليفة الناصر وابنه الحكم. واشتهرت متاجر الكتب فيها حتى قيل "إذا توفى عالم في إشبيلية وأريد بيع كتبه تحمل إلى قرطبة؛ وإذا توفى مطرب في قرطبة وأريد بيع آلاته تحمل إلى إشبيلية.

ومن الشواهد على ازدهار الحياة في قرطبة ما يشير إليه المؤرخ الشهير المقرئ من أن الهيئات القضائية فيها كانت منظمة تنظيمًا محكمًا؛ وأن المسيحيين كان يحكمهم موظفون من ملتهم؛ وأن الشرطة كانت تسهر بانتظام على أمن المواطنين؛ وتراقب الأسواق والسلع والموازين... وأن مرافق الصحة العامة كانت على ما يرام".

ومن غير المعقول أن يتحدث المرء عن الحضارة العربية الإسلامية من غير أن يتناول تلك الثروة الراقية العظيمة التي تزخر بها الثقافة

العربية، إذ لا تنجلي المعالم الفنية السامية لهذه الحضارة، ولا تبرز فضائلها وإنجازاتها الإنسانية بدون الإشارة إلى ما أنتجته تلك القرون المزدهرة في تاريخ الإسلام من المصنفات الأدبية ودواوين الشرع، وما أنجبتته من كبار الأدباء وفحول الشعراء، وإذا كانت أوروبا قد سعت أثناء عهود جهالتها وانحطاطها إلى ترجمة مؤلفات كثيرة من العلوم العربية إلى لغاتها، فإنها لم تعر اهتماماً يذكر لكنوز الأدب العربي، بل اكتفت في عهود متأخرة بترجمة بعض القصص الخيالية المسلية مثل: "ألف ليلة وليلة"، و"كليلة ودمنة"، و"رباعيات الخيام"، وغيرها.

وبما أن هذه الصفحات لا تسمح بالتوسع في هذا الموضوع الشيق، فلا أقل من تقديم لمحة موجزة عن بعض الكتاب والشعراء الذين لمعت نجومهم في سماء الأدب العربي.

الجاحظ :

هو أبو عثمان الجاحظ، 255 - 160 هجرية (869 - 767م).

ولد الجاحظ بالبصرة لأسرة فقيرة، وتوفى أبوه وهو صغير السن، فكان يبيع الخبز والسمك على الشاطئ لكسب وسائل العيش. ويبدو أنه كان دميم الملامح، ولكنه كان كريم النفس خفيف الروح، شديد الذكاء، حسن المنطق؛ واشتهر الجاحظ بسعة معارفه، وبأسلوبه الأدبي البليغ، مارس كل علم، فكان راوية ومؤرخاً في علم الحيوان، ومؤلفاً لكتب أدبية قيمة. وكان في آرائه يميل إلى مدرسة المعتزلة.

للجاحظ مؤلفات يقال أن عددها بلغ 190 مصنفاً ورسالة وبحثاً تناول فيها شتى موضوعات الأدب والفلسفة، والتاريخ، وعلوم الطبيعة، والسياسة. وكان يمزج الجدّ بالهزل، والأدب بالعلم، والفكاهة بالمجون. ومن أشهر مؤلفاته:

كتاب "البيان والتبيين" الذي يشرح فيه أساليب البلاغة والبيان، والفصاحة، والقدرة على التعبير بلغة سليمة واضحة سهلة على القراء. ومنها: كتاب "البخلاء"؛ وكتاب "المرح والجد"؛ وكتاب "فضيلة المعتزلة"؛ وكتاب "الزرع والنحل"؛ وكتاب "فضل العلم"؛ وستأتي نبذة عن كتابه الشهير "الحيوان" عند الحديث على مشاهير العلماء.

ابن قتيبة:

هو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، ولد في بغداد سنة 213 هجرية، وتوفي سنة 276 هـ.

ومن أهم مؤلفاته:

"عيون الأخبار" تناول فيه بالبحث موضوعات السلطان، والحرب، والطبائع والأخلاق؛ وله كتاب: "الشعر والشعراء"؛ وكتاب: "أدب الكاتب"، ويعتبر ابن قتيبة من مشاهير الأدب العربي.

ابن عبد ربه:

هو أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي، ولد في قرطبة عام 246 هجرية. وهو صاحب المصنف الشهير: "العقد الفريد". وقد تناول بالبحث موضوعات اجتماعية، وسياسية، وأخلاقية، وأدبية، وتاريخية؛ واقتصر المؤلف في هذا الكتاب الضخم على أخبار المشرق العربي.

الأصفهاني:

هو أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفى عام 356 هجرية. وقد اشتهر بكتابه "الأغاني" الذي جمع فيه الأغاني المتميزة الشائعة في عصره، والعصر الذي سبقه، فجاء مصنفه في شكل موسوعة تشمل معارف مستفاضة عن أخبار العرب وملوكهم، وسيرهم، وأيامهم، ودولهم، وأنسابهم،

وأشعارهم، وفنونهم، وأدبهم. ويروى أنه استغرق نحو 50 سنة لجمع مؤلفه الضخم. ويقول عنه ابن خلدون: "إنه ديوان العرب، وجامع أشتات العلوم التي انتهت إليهم".

أبو علي القالي :

هو إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي البغدادي، ولد في قرية من ديار بكر سنة 288هـ (900م)، وتوفي بقرطبة سنة 365هـ (975م). له مؤلفات كثيرة منها كتاب "الأمالى" الذي يعتبر من أمهات الكتب في الأدب العربي؛ وهو مصنف مفيد جداً لمن يرغب في التعمق في علوم اللغة والآداب والأشعار والحكم والأمثال وأخبار العرب.

المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي، الشاعر الذي طبقت شهرته الآفاق، وصاحب الحكم والأمثال السائرة. ولد بالكوفة سنة 303هـ، وبعد مسيرة طويلة التحق بسيف الدولة بن حمدان في مدينة حلب، فمدحه وخلد ذكره. ثم التحق بكافور الإخشيدي في مصر ومدحه، غير أن كافور لم يوف بوعده بأن يقلده ولاية، فخرج المتنبي متخفياً، وقصد الكوفة. ويتفق الأدباء والنقاد على أن المتنبي إمام الشعراء، وأنه لم يبلغ شاعر من الشهرة ما بلغه، ولم تلد امرأة شاعر ينافس في الموضوعات التي أجاد فيها.

كان للمتنبي شخصية قوية، ثائرة، وكان كثير الاعتداد بنفسه، كما كان شاعراً قومياً يفخر بالعرب والعروبة، وخبيراً بالنفوس البشرية، وكان طموحاً، قوي العزيمة، مغرماً بالأقوياء، ولكن زادته تجاربه غنى وواقعية.

أبو العلاء المعري :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، شاعر فيلسوف، ولد بمعرة النعمان، بسوريا سنة 363 هجرية، وفقد بصره في سن الثالثة. كان يتجنب

أكل لحوم الحيوانات وما يخرج منها. وتشمل أشعاره الاجتماعية، الفلسفيات، الأخلاق، الطبيعيات؛ واشتهرت قصائده القصيرة التي تعرف بـ"اللزوميات"، والتي تناول فيها موضوعات حياتية أساسية مثل العقل، والوحي، والموت، والبعث، والعقائد؛ وهو فيلسوف متشائم يعبر عن شكوكه في أمور كثيرة، وإن كان يؤمن بوجود إله عادل، حكيم، قادر على كل شيء.

ابن زيدون :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (394-463هـ). نشأ في قرطبة بالأندلس، ولقب بذئب الوزارتين. يعتبر من الطبقة الأولى بين شعراء الأندلس. عرف ابن زيدون بغزارة ثقافته، وحدة ذكائه. وقد امتاز شعره بجودة نظمه، وصدق عاطفته، ورونق أسلوبه، وحلاوة موسيقاه. وسمي ببحثري المغرب تشبيهاً له بالشاعر المشهور في الشرق: البحتري.

لسان الدين بن الخطيب :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد في غرناطة 713 هجرية برع في الأدب والفلسفة والطب وعلوم اللغة، وكان أشهر رجال عصره. ترك ابن الخطيب مؤلفات شهيرة منها "الإحاطة في تاريخ غرناطة"؛ وكتاب "الحلل المرموقة" وتشمل تاريخ الخلفاء في المشرق، والأندلس، وشمال إفريقيا.

الموسيقى :

اهتم العرب بالموسيقى وترجموا منها مصنفات، ووضعوا لهذا الفن الراقى قواعد محكمة. وبعد أن كانت الموسيقى لديهم مزيجاً من الألحان اليونانية والفارسية والهندية والعربية، اخترع العرب ألحاناً أصيلة وآلات موسيقية جديدة، وطوروها حتى بلغت مستوى عالياً من الجمال والبراعة.

كان من المغنين الأوائل إبراهيم الموصلي (191 - 125 هجرية) في عهد الدولة العباسية؛ وهو من أصل فارسي نشأ في قبيلة عربية، ثم ذهب إلى الموصل حيث تعلم الغناء، تدرب على العزف على العود. ثم التحق بالخليفة المهدي في بغداد، فعاش في جواره، وألف ألحاناً موسيقية أصيلة. واشتهر كذلك ابنه إسحاق الموصلي الذي ألف بحوثاً مهمة في الموسيقى، وقصائد غنائية منها "جواهر الكلام"، و"أغاني معبد"، و"النغم والإيقاع".

ومن مشاهير الموسيقى والغناء زرياب الذي تعلم فن الغناء عن إسحاق الموصلي، وجعل للعود خمسة أوتار بعد أن كانوا أربعة.

وألف علماء مشهورون في فن الموسيقى منهم الفارابي الذي اخترع آلة "القانون"، وألف كتاب "الموسيقى"، ومنهم عبيدالله بن طاهر مؤلف كتاب "الآداب الرفيعة"؛ وكذلك ألف العالمان الشهيران الكندي وابن سينا بحوثاً قيمة في فن الموسيقى.

ويظن كثير من الأوروبيين أن النهضة الأوروبية بدأت من إيطاليا، والواقع أن ميلاد نهضة أوروبا انطلق في بادئ الأمر من أسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر، حدث ذلك في مدرسة طليطلة الشهيرة التي كان مترجموها ينقلون المؤلفات العلمية من اللغة العربية إلى اللاتينية. وكان أشهر مترجمي هذه المدرسة يدعى "جيرار من كريمونا" الذي جاء إليها من إيطاليا. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدرسة كانت أول من بدأ يستعمل الأرقام العربية (الهندية) بدلاً من الأرقام اللاتينية المعقدة. ومنذ ذلك العهد دخلت الأرقام العربية إلى أوروبا. وكان من أهم المؤلفات التي ترجمتها تلك المدرسة مؤلفات العالم الفذ الحسن بن الهيثم.

وبالإضافة إلى مدرسة طليطلة نشأت اتصالات علمية بين الحضارة

الإسلامية وأوروبا اللاتينية في مدن أخرى حيث كان اليهود والمسيحيون ينشطون في ميدان الترجمة، فنقلوا علوم الفلك، والطب، والفلسفة؛ وترجموا مؤلفات الكندي، والفارابي، وابن سينا ... وغيرهم. ونشأت مراكز أخرى في جنوب إيطاليا مستفيدة من الثقافة الإسلامية، فنشأت أول مدرسة للطب في مدينة ساليرنو؛ وكانت جزيرة صقلية تنعم بالرخاء والازدهار، ونشأت فيها جامعة للعلوم، خاصة علم الطب؛ وازدهرت مدينة باليرمو وتوفرت فيها وسائل الراحة والمتعة، والطرب. ونشأت مدرسة أخرى للعلوم في مدينة مونبيلي (بفرنسا)، فكانت قريبة من منابع الحضارة الإسلامية. وفي هذا الصدد يقول العالم ليجردي مستيم: "وحق علينا أن نقول إن العرب، ولا سيما عرب الأندلس، هم أصل ينبوع كل معرفة في الطب، والفلسفة، والفلك، والتعاليم التي بزغت في أوروبا منذ القرن العاشر فصاعداً".

وقد جاء في الموسوعة البريطانية (المجلد 16 صفحة 368):

"إن أكثر الثقافات فائدة لأوروبا والعالم هي الثقافة الإسلامية، وذلك ليس فقط لأن الإسلام مرتبط بالديانتين اليهودية والمسيحية، بل كذلك لما حصل من اتصالات وتفاعلات عملية بين البلدان الناطقة باللغة العربية وبين أوروبا اللاتينية أثناء فترات حاسمة. ومن المهم جداً أن نتذكر بأن عصور عظمة الحضارة الإسلامية تزامنت مع القرون الوسطى التي انحدرت فيها الحضارة الأوروبية إلى مستوى الحضيض".

قديمًا كان يسود خطأ لدى بعض البلدان الأوروبية بأن الحضارة الإسلامية إنما هي حضارة تأملية جدلية، تهتم في الدرجة الأولى بالموضوعات العقائدية، والفلسفية، والأدبية، ولا تهتم بالبحوث التطبيقية والعلوم الطبيعية، وهذا خطأ آخر يكذبه ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشار ثقافتها أثناء القرون الوسطى؛ كما يكذبه كثير من العلماء الغربيين ممن درسوا

الحضارة الإسلامية⁽¹⁾. وقد جاء في كتاباتهم ما مفاده "إن معجزة الحضارة الإسلامية لا تتمثل فقط في دور الوسيط بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة ... بل إن دور العرب الحقيقي يتمثل بصورة خاصة في تلك الروح الحية الجديدة وفي ذلك النشاط الحماسي الذي أودعوه في حياة الناس في القرون الوسطى، وهي روح البحث العلمي، ومنهاج البحث التجريبي الذي لم يسبقهم إليه العلماء؛ وقد ورثت أوروبا هذه الروح التجريبية العملية في العلوم، وهو ما نشير إليه بـ "روح بيكون"⁽²⁾.

(1) منهم Regis Blachère, Louis Massignon, Armand Abel .
(2) هو Roger Bacon (1220-1292 م) عالم وفيلسوف إنكليزي درس الفلك، الرياضيات، البصريات، الكيمياء، اشتهر بتركيزه على العلوم التجريبية.

فرسان الحضارة الإسلامية



الجاحظ

هو أبو عثمان الجاحظ، سبق الحديث عن هذا الأديب، العالم، والفيلسوف الشهير عند الحديث عن الأدباء، وأنه ترك لنا نحو 190 مصنفاً ورسالة، وأن أهمها في موضوع العلم هو كتابه "الحيوان" الذي يعتبر موسوعة ثقافية غنية بالمعارف العامة حول حياة الحيوانات بمختلف أجناسها، وحول طبائعها، سلوكها، غرائزها، أساليب عيشها، يقع الكتاب في سبع مجلدات، ويشمل الحديث عن حياة الطيور، الحشرات، القروء، الخنازير، الفيلة، التماسيح، الضب، الحمام، الذباب، وغيرها كثير.

وبالإضافة إلى موضوعه الأساسي وهو "حياة الحيوان"، يتضمن الكتاب معارف دينية واجتماعية وفلسفية، ويحتوي تجارب علمية، وحوارات لغوية؛ ويورد الجاحظ شواهد من القرآن والحديث والمراجع والأساطير وتجارب السابقين. وتتجلى في كتاب "الحيوان" دقة ملاحظة المؤلف، ومعارفه الواسعة بأحوال عصره، وأسلوبه السهل الممتنع، وإحساسه المرهف بتطورات المخلوقات وغير ذلك مما جعل من كتاب "الحيوان" مرجعاً هاماً اعتمد عليه من جاء بعده من علماء المسلمين وكذلك علماء أوروبا التي كانت آنئذ (القرن التاسع الميلادي) تتخبط في ظلام الجهل والانحطاط.

الكندي

هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (252 - 186 هجرية) - (865 - 801 ميلادية).

ولد الكندي في مدينة "واسط" على نهر البصرة سنة 186 هجرية؛ وكان أبوه أميراً على مدينة الكوفة في عهد الخليفة المهدي والخليفة هارون الرشيد. وينحدر الكندي من قبيلة كندة التي اشتهر منها عدد من الملوك.

اشتهر الكندي بفيلسوف العرب، ونال حظوة رفيعة لدى الخليفة المأمون والخليفة المعتصم. ألّف مصنفات ورسائل وبحوثاً تجاوز عددها 260 مصنفاً، تناول فيها جميع أصناف العلوم المعروفة في عصره، واشتهر بمعارفه الواسعة وإنتاجه الغزير، وكان من أكبر العقول التي أنتجها عصره.

درس الكندي الفلسفة اليونانية، وصاغ مصطلحات فلسفية جديدة، وحاول في بحوثه أن يوفق بين أفكار أرسطو وتعاليم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة وتوسيع آفاقها. وركز اهتمامه على العلاقة بين الأشياء المادية التي لا تتوقف عن التغير، وبين الأشكال المستديمة التي لا تخضع للتغيير، والتي لا يصل إليها الإنسان إلا عن طريق الأشياء الحسية. وكان يرى أن معرفة الإنسان بهذه الأشياء ممكن بواسطة الوسائل العلمية.

وإلى جانب إنتاجه الفلسفي اشتهر الكندي بنظرياته الإبداعية في ميادين شتى، في الحساب والأعداد والأرثماتيقي الهندية، وفي الفلك، وله بحوث في المنطق، والهندسة، والطب، وتقويم البلدان، والسياسة، وفي البصريّات، وظاهرة الضوء التي استفاد منها بعده العالم روجر بيكون. وألّف الكندي في الموسيقى وتاريخها ومصطلحاتها، وفي الألحان والإيقاعات والآلات وغيرها؛ واهتم بعلوم الحرب، فكتب بحوثاً عن السيوف وأصنافها وأماكن إنتاجها وشرح خصائصها.

وألّف الكندي رسالة عنوانها "العناصر والجرم الأقصى كرية الشكل" أكد فيها كروية الأرض، وأن الكواكب تدور حول الشمس من الغرب إلى الشرق؛ ورفض الكندي فكرة إمكانية تحويل المعادن العادية إلى معادن ثمينة، وألّف رسالة في هذا الموضوع عنوانها "بطلان دعوى المدعين صنعة

الذهب والفضة، وحُدِّعَهُم" هذا بالإضافة إلى بحوثه في الكيمياء، وتجاربه الموفقة في ميادين صناعة الزجاج، والعطور، وتركيب الأدوية. ولم يقصر الكندي في تناوله لموضوع الظواهر المناخية ومنها المطر، والرياح، والتلج، والضباب، والبرق والصواعق، وظاهرة المدّ والجزر، وغير هذا مما لا يتسع له هذا الموجز.

الرازي

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (250-313 هـ) (864-932 م).

ولد الرازي بمدينة الري (قرب طهران حالياً)، ويعتبر أعظم أطباء العالم الإسلامي، كما أنه فيلسوف وعالم مشهور في الكيمياء. كان في صغره مولعاً بالموسيقى، ثم درس الكيمياء وبرع فيها قبل أن يستكمل علومه في الطب. تولى وظيفة كبير الأطباء في مستشفى بمدينة الري، ثم شغل نفس الوظيفة في مستشفى ببغداد.

عاش الرازي في رعاية عدد من الأمراء والحكام، واشتغل بعلوم عديدة منها الطب، والكيمياء، والصيدلة، والرياضيات، والفلسفة، والفلك، والميتافيزيقا، والموسيقى، واللغة وغيرها؛ ويقارن الرازي (ويقارن نفسه) في الفلسفة بسقراط، وفي الطب بأبقراط. ويعتبره المؤرخون الغربيون "أبا الطب العربي بلا منازع".

ألّف الرازي أكثر من مائتي كتاب ويحث ورسالة، ومن أهم مصنّفاته:

- كتاب "الحاوي في الطب" أو "الجامع الكبير" الذي بحث فيه معارف الطب القديمة، الطب اليوناني والسوري والهندي وما سبقه من الطب العربي، وأضاف إليه معارفه وتجاربه الشخصية النظرية والعملية؛ ويعتبر هذا الكتاب أوسع دائرة معارف طبية في اللغة العربية، أظهر فيه

الرازي سعة اطلاعه وغزارة معارف، وقدرته على استنتاج الأعراض المرضية ومعالجتها. وقد ترجم كتاب "الحاوي" إلى اللاتينية استجابة لطلب ملك صقلية سنة 665 هجرية، وأصبح كتاباً معتمداً في دراسة الطب في أوروبا خلال القرون الوسطى.

- كتاب "المنصوري في التشريح"، أهدها الرازي إلى الملك أبي منصور ابن نوح بن سامان فنسب إليه، ويتألف من عشرين مجلداً. وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وشاع استعماله في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

- كتاب "سر الأسرار" وهو أهم مؤلفات الرازي في الكيمياء؛ وظل يدرس في المعاهد الأوروبية قرونًا طويلة.

- رسالة في "الحصبة والجذري"، وتعدّ من البحوث الرائدة في الدراسات العلمية والأمراض المعدية.

وقد تناول هذا العالم الفذ موضوعات كثيرة بالبحث والتحليل، وله مصنّفات عديدة في الفلك، الرياضيات، والفلسفة،، والصيدلة، وداء المفاصل، والكلى، وأمراض العين، وأمراض نساء، وقد سبق غيره في استعمال المركبات الصيدلانية.

ومن نصائحه للأطباء: إذا استطعت أن تعالج بالغذاء، فلا تعالج بالدواء؛ وبدواء مفرد، فلا تعالج بدواء مركب".

وهناك مقولة مشهورة: كان الطب معدومًا فأحياه جالينوس؛ وكان الطب متفركًا، فجمعه الرازي؛ وكان ناقصًا فكمّله ابن سينا.

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، ولد بمدينة فاراب (تركمنستان)

(339 - 259 هجرية - 950 - 872 ميلادية). عرف بالمعلم الثاني (على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول). قضى مرحلة من حياته في بغداد، ثم استجاب لدعوة من سيف الدولة الحمداني فالتحق ببلاطه في حلب.

كان الفارابي المعلم الأول لاثنتين من أعظم علماء المسلمين هما ابن سينا وابن رشد. وهو من ألمع فلاسفة الإسلام وأشهرهم. وكان زاهداً في متاع الدنيا، اعتنق مبادئ المتصوفة وارتدى ملابسهم.

أنجز الفارابي بحثاً مهماً في فلسفة أرسطو وأفلاطون، جعلته ينال منبراً مهماً في هذا الميدان. وبذل جهوداً فلسفية كبيرة في محاولته للتوفيق بين كثير من القضايا والآراء الفلسفية والعقائدية، ونجح في تحليل وتوضيح كثير من المشاكل التي كانت تبدو معقدة أو متناقضة بين الدين والفلسفة، وبين العقل والنقل؛ وأصبح الفارابي مرجعاً أساسياً لدى المسلمين والمسيحيين، يلجؤون إلى تحاليله وآرائه للإحاطة بالمشكلات الفلسفية والمنطقية الغامضة.

بقي من مؤلفات الفارابي 39 كتاباً ورسالة، منها كتاب "السياسات المدنية"؛ و"آراء أهل المدينة الفاضلة"؛ و"معاني العقل"؛ و"كتاب الموسيقى الكبير"؛ وأهم مؤلفاته كتابه "إحصاء العلوم"؛ وهذا الأخير عبارة عن موسوعة علمية وفلسفية جمع فيها الفارابي المعارف التي توفرت له في عصره في علوم المنطق، والفقه، وفقه الكلام، والعلوم الطبيعية وغيرها. وقد تناول في مجموع مصنفاته كذلك علوم الرياضيات، والميتافيزيقا، والموسيقى، وكانت معظم بحوثه تتركز حول فلسفة أرسطو. وتجدر الإشارة إلى أنه ألف رسالة عنوانها "النكت فيما يصحّ وفيما لا يصحّ من أحكام النجوم" انتقد فيها آراء من يزعمون بأن قراءة النجوم تنبئ الناس بمصائرهم؛ وفند أقوال من يتعاطون هذه الأعمال "المنجمين".

ومن مؤلفاته التي نالت شهرة كبيرة كتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة" يتحدث فيها عن سلوك الأحياء وطبائع الخلق، وكيف يسعى كل مخلوق

إلى استغلال ما حوله من المخلوقات والأشياء الأخرى لتحقيق مصالحه وبلوغ أهدافه وإرضاء غرائزه وملذاته. ويرى الفارابي أنه على الرغم من أن الحياة صراع مستمر، فإن المجتمع السليم لا يمكن أن يقوم على التنارع والأنانية والحروب، فيصبح مثل الغاب، حيث يسود منطق المفترس والفريسة. وينصح المؤلف بتوخي الاعتدال في التنافس دون إفراط ولا تفريط؛ وبالتمسك بالعقيدة السليمة من أجل تحقيق مجتمع تسوده المحبة والتعاون والعدل والمساواة.

وقد بحث فلاسفة آخرون موضوع "المدينة الفاضلة" و"المجتمع المثالي"، ومنهم من يرى أن الحياة الاجتماعية تقوم على أساس "العقد الاجتماعي" أي على أساس التفاهم والتعاون بين مختلف الطبقات من أجل تحقيق الأمن والبقاء للجميع؛ ومنهم من يرى أن الأصل في تكوين المجتمعات هو سيطرة الأقوياء على الضعفاء، وأن القوة، بجميع أشكالها، هي التي تكفل البقاء في نهاية المطاف.

ابن الهيثم

هو أبو علي الحسن بن الهيثم (431 - 354هـ - 1038 - 965م).

نشأ في البصرة شاب محب للعلم مولع بالدراسة والبحث وبالاطلاع على معارف السابقين من اليونان وفارس والهند ومصر، ومما سجله علماء الإسلام. وكان ابن الهيثم قد نبغ منذ شبابه في علم الهندسة وتصميم المنازل. وبدأت متاعبه عندما طلب منه أمير البصرة أن يساعده على تشييد قصر يليق بمقامه وبسمعة المهندس. وفكر ابن الهيثم ملياً فرأى أنه من السهل عليه أن يضع الخطط والتصاميم لتشييد القصر، ولكن ليس من مصلحته أن يرتبط بمتابعة أعمال البناء ومراقبة تقدم الأشغال شهراً بعد شهر، لأن في ذلك مضيعة للوقت يفضل الشاب المهندس أن يقضيه في البحث والمطالعة. وخشي ابن الهيثم غضب الأمير ففرّ إلى بغداد.

غير أنه شعر بأن أمير البصرة يمكن أن يكيد له، ويرسل إليه من يرده إلى البصرة، فلم يمكث في بغداد طويلاً؛ ولكن توجه إلى الشام حيث حظى بالرعاية والتكريم من أميرها، وتمكن هناك من مواصلة البحث، واستطاع أن يترجم ثلاثين كتاباً من مؤلفات جالينوس في الطب.

سمع ابن الهيثم بجذبٍ وضيقٍ في مصر بسبب نقص الأمطار التي تغذي مياه النيل، ففكر في مشروع يتمثل في بناء سدٍّ أو حفر بحيرة لحجز مياه النيل في زمن الوفرة، واستغلالها في سنوات الجفاف. وبلغت هذه الفكرة أمير مصر الحاكم بأمر الله، فدعا ابن الهيثم إلى مصر ليعمل على إنجاز مشروعه.

قام العالم المهندس برحلة إلى الجنوب متتبعاً مجرى النيل ليتعرف على ضفافه وجغرافيته. غير أنه بعد تفحص مجرى هذا النهر العظيم تبين له أن الأمر يتطلب إنشاء مشروع ضخم للتحكم في مياه النيل، وأن المشروع يتطلب تجهيزات وإمكانات ضخمة ليست متوفرة آنئذ؛ فاعتذر المهندس عن تنفيذ المشروع؛ وقبل الحاكم بأمر الله اعتذاره، وعينه في وظيفة بديوان الحسابات. غير أن نفس ابن الهيثم لم تكن لترضى بوظيفة رتيبة هي مضيعة لوقته الثمين ولما طال عليه الأمد، وخشي عقاب الخليفة إن هورفض، تظاهر بالجنون، وراح يمثل بمهارة الحركات والأفعال التي تؤكد جنونه، إلى أن وفته الخليفة منيته، فشعر ابن الهيثم بالخلاص واسترجع حريته واعتباره، وقضى حياة حافلة بالدرس والتأليف، إلى أن وفاه الأجل، فأسلم الروح لبارئها في القاهرة سنة 431 هجرية.

ألف ابن الهيثم أكثر من مائتي مصنف وبحث ورسالة شملت جميع صنوف المعرفة، ومنها في المناظر (البصريات)، الهندسة، الطب، الصيدلة، الفلك، المنطق، الفلسفة، علم الكلام، الرياضيات، الفزيقا، الحساب، الجبر، الجغرافيا، العلوم الطبيعية، الإلهيات، السياسة، الأخلاق، الأدب. ومن أهم مؤلفاته :

"كتاب المناظر" في علم البصريّات. وقد أبدع ابن الهيثم في هذا المصنّف، ويحت فيه موضوعات مبتكرة، فتناول علم الضوء وظواهره، ودرس عمليات انكساره، وانعكاسه، وانعطافه عند مروره بالأوساط الشفافة مثل الماء والهواء. وقال بأن الضوء مادة تتحرك، فإذا اصطدم بجسم مصقول يرتد لأن الجسم المصقول يعكسه؛ واكتشف فكرة "الغرفة المظلمة" التي تطورت فيما بعد لتساعد على عمليات التصوير الفوتوغرافي؛ وساعدت بحوث ابن الهيثم في البصريّات العالم الإيطالي غاليليو على اختراع المنظار؛ واتبع في بحوثه أسلوب المناهج العلمية فاعتمد على الاستقراء والتجربة والمشاهدة في ميادين اكتشاف قوانين الطبيعة، فكان بذلك من رواد الطريقة العلمية، وأصبح نموذجاً يحتذى في أوروبا.

لقد قدم ابن الهيثم أول مساهمة عملية هامة في ميدان البصريّات منذ عهد بطليموس، وصحح عدداً من نظريات من سبقه من العلماء في هذا المجال؛ وهو أول من اكتشف بأن المرء إنما يشاهد شيئاً ما لأن حزمة الضوء تنطلق من ذلك الشيء نحو عينيه، وليس من عيني المشاهد نحو الشيء كما كان يعتقد من سبقوه. وكذلك لم يستطع علماء اليونان أن يفسروا لماذا يتغير حجم الشيء عندما يتحرك. وشرح ابن الهيثم ذلك بقوله إن الأشعة المخروطية التي تنطلق من الشيء المرئي نحو أعيننا تتناقص بقدر ما يبتعد ذلك الشيء عنا، وعندما يقترب ذلك الشيء منا (كرة مثلاً) يزداد حجم الشعبة التي تدخل عيوننا وتنتشر، فيزداد حجم الشيء المرئي.

لقد كان لبحوث ابن الهيثم وإبداعاته في علم البصريّات (أو علم المناظر) تأثير كبير على ما توصل إليه الأوروبيون من نتائج علمية. وقد ترجموا ما راق لهم من مؤلفاته، وظلوا يستفيدون منها زمنًا طويلاً فيما يقومون به من دراسات في مجال البصريّات، والضوء، والعدسات، والمرآيا،

المختصر المفيد —————

وغيرها. وقد اعتمد العالم روجر بيكن إلى حد كبير على تراث ابن الهيثم في دراساته وبحوثه المتعلقة بالبصريّات.

لقد كان ابن الهيثم عبقرى زمانه، وعلامة عصره، ومن أعظم العلماء الذين يفتخر بهم الإسلام.

البيروني

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (433 - 363 هـ - 1041 - 973 م).

عاش البيروني في عهد كثرت فيه الثورات والحروب بين الأمراء والسلطين، فتأثرت حياته بتلك التقلبات، وكثيراً ما كان يضطر للرحيل أو الفرار من عاصمة إلى أخرى لينجو بحياته وليبحث عن الأمن والاستقرار ورعاية هذا الأمير أو ذاك السلطان.

وُلد البيروني (أبو الريحان) في قرية بيرون، بالقرب من مدينة "كاث" عاصمة الدولة الخوارزمية، لأسرة فقيرة؛ وتوفي أبوه والفتى لم يتجاوز العاشر، فاضطر لمساعدة أمه في جمع الحطب وبيعه لكسب القوت اليومي. وساعده الحظ أن يحظى برعاية أمير من أمراء الأسرة الخوارزمية؛ فتنفرغ للمطالعة وتحصيل ما تيسر له من علوم السابقين، ووجه اهتمامه إلى إجراء بعض التجارب الفلكية. ثم ارتحل الفتى العالم إلى مدينة الري (بالقرب من طهران) وفيها تعرف على أحد الفلكيين أعجب به واتخذهُ عوناً له في بحوثه.

بعد بضع سنوات اتخذ البيروني مدينة بخارى مستقراً له، وهناك تعرف على العالم الشاب ابن سينا الذي رحب به وقدمه إلى سلطان البلاد المنصور الثاني، وبذلك تمكن البيروني من زيارة مكتبة القصر الملكي والاستفادة من مصنفاتها.

وعندما توفي السلطان المنصور الثاني قرّر البيروني الرحيل إلى جرجان حيث رحب به السلطان شمس المعالي، فطاب له المقام ومكث فيها بضع سنين، وفيها أَلّف كتابه الشهير الذي يحمل عنوان "الآثار الباقية من الأمم الخالية"، وأهداه إلى شمس المعالي الذي أكرم وفادته.

وثناء الظروف السياسية والتقلبات أن يعود البيروني إلى خوارزم ليستقر هذه المرة في مدينة الجرجانية، العاصمة الجديدة، فرحب به أميرها وخصه بمنزلة رفيعة. ولكن من سوء حظ البيروني أن الأمور لم تستقر طويلاً على حالها، إذ استولى السلطان محمود الغزنوي على خوارزم؛ وكاد هذا العالم العبقرى البيروني أن يفقد حياته نتيجة ما سلطه السلطان محمود من بطش على العلماء. وبعد فترة من الزمن قرر السلطان أن ينظم حملات لغزو الهند، فطلب من البيروني أن يرافقه ليدون له شيئاً عن تاريخ الهند، وعادات أهلها ودياناتهم وعن جغرافية البلاد.

واستغل البيروني مدة استقراره في الهند فدرس لغات شعوبها وثقافتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم، وعلى أساس هذه التجارب والمعلومات أَلّف مصنفاً هاماً جعل عنوانه "تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة"؛ وإلى جانب ذلك ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية.

لقد كان البيروني يتمتع بتفكير موسوعي أصيل، وبمعارف عالمية، فكان يعرف اللغات التركية، الفارسية، العبرية، السنسكريتية، السريانية، بالإضافة إلى اللغة العربية. وتناول بفكره الثاقب ومعارفه الواسعة جميع علوم عصره، وأبدع بصفة خاصة في علوم الفلك والرياضيات والفيزياء والتاريخ والطب والفلسفة والجغرافيا واللغات وغيرها.

ومن أهم مؤلفات البيروني مصنفه الذي سبقت الإشارة إليه المعنون "الآثار الباقية من القرون الخالية" وهو عبارة عن تواريخ الأمم السالفة، تناول

المختصر المفيد —————

فيه المؤلف بالبحث والتمحيص تقاويم البلدان والأعياد عند الفرس واليونان واليهود والمسيحيين والزردهشتيين والعرب بطريقة جديدة ونزيهة.

ومنها مصنفه "القانون المسعودي في الهيئة والنجوم" الذي أهداه إلى السلطان مسعود، سلطان غزنة، وهو عبارة عن موسوعة تناول فيها بالبحث علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والتنجيم.

وألف البيروني سلسلة من البحوث الهامة تناول فيها بالدرس والتحليل حضارات الهند ولغات شعوبها ومعتقداتهم... وهو المصنف الذي سبقت الإشارة إليه، ويعتبر من أهم مؤلفاته.

وقد تجاوزت مصنفات البيروني مائة من البحوث والرسائل والكتب تناول فيها موضوعات شتى من علوم عصره، فتحدث عن كروية الأرض وأكد أنها تدور حول محورها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة في السنة؛ ووضع حسابات دقيقة لخطوط العرض والطول؛ وقد سبق هذا العالم العبقري عصره بأراء عديدة، فقال بأن وادي السند كان يوماً قاع بحر ثم غطته الرواسب؛ وبحث موضوع الجاذبية، وقال بأن الأشياء ثابتة على الأرض بفعل جاذبيتها؛ وبأن القمر جسم مظلم يتلقى ضوءه من الشمس؛ وشرح مسألة تمدد المعادن في الحر، وانكماشها في البرد؛ وشرح كذلك كيفية تجمع مياه الآبار والمياه الجوفية وقوانينها الفيزيائية؛ ونجح في تحديد الثقل النوعي لـ 18 من الفلزات والجواهر بدقة؛ وأوضح بأن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت؛ وشرح ظاهرة المد والجزر؛ وكيفية صعود مياه النافورات إلى الأعلى؛ وكتب عن أصناف الحجارة وشرح فوائدها؛ وله كتاب "الاستيعاب لصناعة الاسطرلاب"؛ وكتاب "نهايات الأماكن لتصحيح المساكن"؛ وبحث أخرى في العلوم الطبيعية.

ابن سينا

هو أبو علي الحسين بن سينا (429 - 370هـ)، (1037 - 980م).

ولد ابن سينا في بخارى (في أوزبكستان حالياً)، حفظ القرآن ومعظم أشعار العرب ولم يتجاوز سن العاشرة؛ ثم عكف على دراسة قوانين الشريعة والطب والميتافيزيقا وغير ذلك من علوم عصره. وقد استفاد كثيراً في تحصيل العلوم عندما فتحت له مكتبة السامانيين بعد أن نجح في معالجة الأمير الساماني نوح بن منصور. وما إن بلغ سن الواحدة والعشرين حتى أصبح متمكناً من جميع فروع المعارف، وشاعت شهرته في ميدان الطب.

ولكن تغير مجرى حياته عندما أطاح الأتراك بحكم السامانيين، ومن كانوا يوفرون له الرعاية، ثم توفى أبوه، فاضطربت ظروف حياته. وأقام ابن سينا بعد ذلك فترة في بلاد فارس؛ ثم رحل إلى بلاط شمس الدولة في حمدان حيث أصبح طبيب البلاط، فحظى بترحاب يليق بمقامه، وأسندت إليه وظائف سامية. ولكن بعد فترة تآمر ضده الحاسدون فاضطر ابن سينا للفرار والاختفاء. وقضى هذا العالم الفذ المرحلة الأخيرة من حياته في أصفهان حيث لقي تكريماً ورعاية من الأمير علاء الدولة ومن رجال البلاط. وأثناء مرافقته للأمير في إحدى حروبه مرض ابن سينا، وتوفي في حمدان سنة 1037 ميلادية. من مجموع مؤلفات ابن سينا مصنفان يعتبران أرقى ما وصل إليه الفكر العلمي والفلسفي في القرون الوسطى، هما:

- كتاب "الشفاء"، وهو موسوعة عظيمة واسعة من العلوم والفلسفة، ولعله أوسع دائرة معارف ألفها عالم بمفرده؛ وقد عالج ابن سينا فيها علوم المنطق، والفلك، والرياضيات، والهندسة، والعلوم الطبيعية، والموسيقى، وعلم النفس، وما وراء الطبيعة، وعلوم الدين، والاقتصاد، والسياسة، وتتكون هذه الموسوعة من 18 مجلداً.

- كتاب "القانون في الطب"، يعتبر هذا المصنف أشهر موسوعة (حتى ذلك العصر) في تاريخ الطب في الشرق والغرب. وقد شيد هذا العالم الفذ دائرة المعارف هذه لبنة لبنة، منطلقاً من علوم من سبقه من علماء اليونان والروم والعرب...، ولكنه اعتمد في تأليفها كذلك على معارفه الشخصية وتجاربه وأعماله التطبيقية الخاصة. وقد ترجمت هذه الموسوعة إلى لغات عديدة منها اللاتينية، وظلت مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في تدريس الطب في المعاهد الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر.

بلغت مصنفات ابن سينا نحو 250 مصنفاً ورسالة وبحثاً ومقالاً، وشملت جميع علوم عصره، وعالجت موضوعات شتى، منها في الطب (على سبيل المثال لا الحصر) موضوعات تتعلق بوظائف الأعضاء، وبالتغذية، وبتشريح الحيوان والإنسان، وبأمراض الالتهابات، وأسباب الشلل، وأمراض جهاز الهضم، والاضطرابات النفسية، وأمراض النساء، والسكتة الدماغية، وأمراض القلب، وغير ذلك كثير.

وكتب ابن سينا بحثاً في الكيمياء والفيزياء؛ ومن بحثه في هذه الأخيرة "تسع رسائل في الحكمة والطبيعات"، وله بحوث هامة في علم النباتات وأصنافها وما يستخرج منها من عقاقير، ويرتبط هذا بما حققه في علم الصيدلة. ومن مصنفاته في الفلسفة "كتاب أقسام الحكمة" و"كتاب النجاة"، وله دراسات في المعادن، والطاقة، والحركة، والفراغ، والكثافة النوعية وغير ذلك. ومن آرائه في الكيمياء أنه فند الفكرة القائلة بإمكانية تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة كتحويل الحديد مثلاً إلى ذهب. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن ابن سينا كان عالماً لغوياً، وشاعراً.. ومن قصائده التي نالت شهرة واسعة، قصيدته عن "النفس الإنسانية" التي يقول فيها:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع
 وصلت على كره إليك وربما
 حتى إذا قرب المسير من الحمى
 هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت
 وبدت تُغرّد فوق ذروة شاهق
 فلاي شيء أهبطت من شامخ
 فهبوطها إن كان ضربة لازب
 وتعود عالمة بكلّ خفيّة
 وهي التي قطع الزمان طريقها
 ورقاء ذات تعرّز وتمنع
 كرهت فراقك وهي ذات تفجع
 ودنا الرحيل على الفضاء الأوسع
 ما ليس يدرك بالعيون الهُجّع
 والعلم يرفع كل من لم يُرفع
 سام إلى قعر الحضيض الأوضع
 لتكون سامعة بها لم تسمع
 في العالمين، فخرقها لم يُرقع
 حتى لقد غربت بغير المطلع

هذه لمحة موجزة لا تفي بحق هذا العالم الفذ الذي كان من أشهر العلماء والفلاسفة والأطباء في العالم الإسلامي. وقد ترجم كثير من مؤلفاته إلى لغات عديدة، وانتشرت معارفه وتعاليمه شرقاً وغرباً، وظلت مؤلفاته تشكل مصادر ومراجع أساسية للتعليم في أوروبا خلال القرون الوسطى، عندما كانت بلاد الغرب تترج تحت وقائع الجهل والتخلف.

عمر الخيام

هو أبو الفتح عمر الخيام بن إبراهيم 526 - 440 هـ (1131-1048م)

ولد عمر الخيام في نيسابور (شمال غرب إيران) سنة 440 هجرية؛ ويعتبر من كبار علماء الفلك والرياضيات وعلم الجبر. وقد ألف في الرياضيات، باللغة الفارسية، رسالة عنوانها "مقالة في الجبر والمقابلة"، كما ألف في علم الفلك؛ واستطاع أن يحل مشكلات رياضية منها معادلات من الدرجة الثالثة. وقد ترجمت كتبه في الجبر إلى اللغة الفرنسية.

وقد دعاه السلطان ملك شاه إلى العمل على إصلاح التقويم الفارسي، فاستطاع أن يدخل عليه تعديلات فأصبح أدق من التقويم الغريغوري، بحيث لا يتجاوز الخطأ فيه يوماً واحداً في مدة 3770 سنة.

وقد انتشرت شهرة عمر الخيام بما ينسب إليه من "رباعيات" أكثر من شهرته العلمية. والواقع أنه توجد رباعيات كثيرة باللغة الفارسية يُنسب عدد منها إلى عمر الخيام. وفي سنة 1859 ميلادية ترجم الإنكليزي إدورد فِثْسُغِيرَالْدُ رباعيات عمر الخيام من الفارسية إلى اللغة الإنكليزية، فانتشرت شهرة الخيام في الغرب، وترجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى، ومنها إلى اللغة العربية على يد أحمد رامي، وإبراهيم العريض وغيرهما.

وصف عمر الخيام بأوصاف كثيرة، قيل أنه عالم بارع، فذ في الفلك والرياضيات، وأنه فيلسوف وشاعر، ومادي متمرد، وأنه رجل تعس سيئ الأخلاق، وأنه ملحد يسخر من الفقهاء، وأنه متأثر بآراء العرب وابن سينا، وأنه يؤمن بالنزعة الجبرية، وأنه لا يؤمن بالآخرة ... ولعلّه وجد أن سلوته في الحياة في المطالعة والدرس، وشيء من المتع والمذات؛ ولعل ما تردد في شعر عمر الخيام من أحاديث اللهو والخمر والسخرية من الحياة إنما هي صور من خيال الشعراء، يرافقها شيء من المبالغة.

الإدريسي

هو محمد بن عبد الله بن إدريس (الشريف) (560 - 493هـ - (1165 - 1100م). ولد الشريف الإدريسي بمدينة سبته الواقعة شمال المغرب الأقصى. ثم رحل وهو شاب لمواصلة دراسته إلى قرطبة حاضرة العلم والمعارف، وكانت عندئذ تحت حكم المرابطين. وبدأ يركز اهتمامه على الجغرافيا ورسم الخرائط. ثم قام برحلات إلى بلدان عديدة لجمع المعارف الجغرافية، منها بلدان شمال إفريقيا، فرنسا، بريطانيا، مصر والشام وغيرها.

انتهى به المطاف إلى بَلْرَم (عاصمة صقلية)، فوجد لدى ملك صقلية، روجر الثاني، كل الترحيب والتقدير. وكان الملك مهتمًا بعلم الجغرافيا والخرائط، فاستجاب الإدريسي لرغبته، وراح يجمع المعلومات من مختلف الأقطار والأمصار. وبعد سنوات من الجد والجهد انتهى من تأليف مصنفه الذي يحمل عنوان "نزهة العشاق في اختراق الآفاق" والذي أصبح يعرف كذلك بكتاب "روجاري" الملك الذي أكرم وفادة العالم وأحسن ضيافته، وقسم الإدريسي الأرض إلى سبعة أقاليم تمثل العالم المعروف لديه، ورسم لكل إقليم خريطة توضيحية، ونقش خرائطه على كرة فضية ضخمة صنعها له الملك روجر الثاني؛ وأصبح مصنف الإدريسي وخرائطه على الكرة الفضية يعتبر أعظم إنتاج جغرافي في القرون الوسطى؛ ورسم العالم خرائطه على أساس أن الأرض كروية الشكل في عهد كان الناس يعتقدون أنها مسطحة. وظل هذا الكتاب مرجعًا هامًا للعلماء في أوروبا طيلة قرون يقلدون خرائطه ويترجمون محتوياته، ويستفيدون منها في اكتشافاتهم.

وللإدريسي مؤلفات أخرى منها "روض الأنس ونزهة النفس"، الذي اشتهر كذلك تحت عنوان "المسالك والممالك"؛ وله كتاب في النبات عنوانه "الجامع لصفات أشتات النبات" وصف فيه 360 نوعًا مختلفًا منها؛ وله كتاب "جني الأزهار من الروض المعطار". وقد اهتم الغربيون بمؤلفات الإدريسي فترجمت إلى لغات عديدة.

ابن طفيل

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل 581 - 500 هـ (1185-1106م).

ولد ابن طفيل في وادي آش قرب مدينة غرناطة بالأندلس عام 500 هجرية؛ اهتم في مطلع حياته بدراسة الأدب والفلسفة والطب، وحصل قدرًا

وافراً من العلوم المتوفرة في عصره مثل الفلك والرياضيات. وامتحن الطب، وشغل منصب وزير في غرناطة؛ وكان معلماً للفيلسوف الشهير ابن رشد؛ كما شغل منصب أمين السر للأمير أبي سعيد أحد أولاد عبد المؤمن بن علي الموحي، عندما كان أبو سعيد والياً على سبتة وطنجة.

ويروى أن ابن طفيل كان يحيا حياة هادئة راضية، قليل الاختلاط بالناس، أشبه بحياة العالم المتصوف. وقد ألف مصنفات ورسائل في الرياضيات، والطب، والفلك، والفلسفة وغيرها، وكان في مؤلفاته يمزج بين الفلسفة الشرقية واليونانية.

وفي عام 1154 ميلادية وفد برفقة تلميذه ابن رشد على بلاط أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في مدينة مراکش حاضرة الدولة الموحدية، وأوصى ابن الطفيل السلطان أبا يعقوب بتعيين ابن رشد خلفاً له في مهمة طبيب البلاط؛ غير أن السلطان أبا يعقوب استجاب لرغبة ابن رشد فأعفاه من هذا المنصب، وعينه في مهمة قاضي، وهي المهمة التي كان قد شغلها أبوه وجده قبله في مدينة قرطبة.

تشير المراجع إلى أنه لم يصلنا من مؤلفات ابن طفيل غير قصته الشهيرة التي تحمل عنوان "حي بن يقظان"، وهي قصة فلسفية خيالية، وتعتبر أعظم قصة كتبت في القرون الوسطى. وكان الفيلسوف العظيم ابن سينا قد ألف رسالة صوفية تحت عنوان "حي بن يقظان"، فاستعار ابن طفيل هذا الاسم وجعله عنواناً لقصته "حي بن يقظان".

وربما اقتبس الكاتب الانكليزي Defoe⁽¹⁾ قصته Crusoe Robinson من قصة ابن طفيل التي ترجمت إلى عدة لغات.

ومن المفيد الإشارة إلى أن هذه القصة "حي بن يقظان" تعالج العلاقة

(1) ولد Defoe 1660، وتوفي 1731 ميلادية.

بين العقل والعقيدة، وبين الفلسفة والدين، وبين التفكير والنظر والاعتبار وتعاليم الشرائع السماوية. وتوضح القصة بأن من الناس من يصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة والتأمل، ولكن أكثرهم لا يدركون الحقائق الإلهية والآيات السماوية إلا بواسطة الوحي المنزل والرسالة النبوية لأنهم يحتاجون إلى المعجزات الملموسة، وضرب الأمثال، وقصص الأولين، وإلى الوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد. وتستنتج قصة "حي بن يقظان" أنه لا يوجد تعارض بين الدين والعقل، ولا بين الوحي المنزل والفلسفة، ولا بين التفكير الفطري السليم وبين التعاليم والمبادئ العقائدية التي جاء بها الرسول ﷺ.

ملخص القصة:

تخيل الفيلسوف ابن طفيل أن طفلاً سماه "حي بن يقظان" عاش وحيداً في جزيرة نائية خالية من السكان، واستطاع أن يدبر ضروريات حياته مما وفرته تلك الجزيرة السخية من خيرات. وترعرع الطفل وانسجم مع ما يحيط به من نباتات وأشجار وحيوانات. وكان لا ينفك يتأمل في عالمه الصغير، وفي العوالم والأجرام البعيدة، ويطلق العنان لخياله ليتجول في ملكوت الأرض والسماوات. وتوصل بتفكيره العميق وتأملاته الثاقبة إلى ما يتوصل إليه الفيلسوف بين المكتبات والبحوث والمصنفات، وما يتوصل إليه الصوفي في خلوته وتأملاته، فأيقن أنه لا بد من وجود خالق حكيم قادر، هو خالق جميع ما يشاهد من مخلوقات في الأرض والبحر والسماء.

وعندما بلغ نحو خمسين سنة من العمر، حدث أن انتقل حي بن يقظان إلى جزيرة أخرى غير بعيدة، مأهولة بالسكان، فعرف لأول مرة بوجود مخلوقات تشبهه. وهناك التقى برجلين أحدهما يدعى سلامان، والآخر أفسال. كان الأول يعلم للناس رسالة الإسلام بالطريقة التقليدية، بواسطة سرد القصص، وضرب الأمثال، وتوضيح الرموز الملموسة، وبالوعظ والوعد والوعيد...

أما الرجل الآخر، وهو أبسال، الذي كان يفضل طريقة الاعتبار والتأمل الروحي في شؤون الخالق ومخلوقاته، فقد توصل إلى الحقائق الإلهية التوحيدية كما جاءت بها الرسالات السماوية. وأدرك حي بن يقظان أن الطريقة التي تتبعها سلامان، أي طريقة الوعظ والتبشير والتحذير... تؤدي إلى نفس النتيجة التي توصل إليها أبسال وهو يعيش وسط المجتمع؛ وأدرك أن ما توصل إليه الرجلان، وهما يعيشان وسط الناس، لا يختلف عما توصل إليه وهو الذي قضى خمسين عاماً منعزلاً عن الناس، فالنتيجة واحدة، رغم تباين الطرق والظروف، وهي وجود خالق واحد لهذه الحقائق الكونية، وهي في نهاية المطاف رسالة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَكَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ (سورة الإخلاص).

ولكن حي بن يقظان تساءل: لماذا ينبغي للأنبياء والرسل والوعاظ والأئمة أن يبذلوا كل هذه الجهود لهداية الناس إلى الصراط المستقيم؟ وحاول أن يختلط بعامة الناس لعله يعلمهم أسرار الحكمة الفطرية التي اهتدى بها وهو منعزل في جزيرته. ولكنه في نهاية المطاف أقرب بأن عامة الناس غير مؤهلين لإدراك الحقائق المجردة والاكتفاء بالتأمل، وأنه لا بد لهم أن يكتسبوا المعرفة من التعاليم السماوية التي جاء بها الرسل وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد والآيات والمعجزات. وأقر بالحكمة الإلهية العليا التي اقتضت أن ينزل الوحي ليخاطب الرسل الناس عامة بالأساليب التي يدركونها كل بما يناسب مستواه.

ثم عاد حي بن يقظان، وصديقه أبسال، إلى الجزيرة المنعزلة المباركة ليواصل حياتهما الهادئة، حياة العبادة والتأمل ومناجاة القوة السامية في العالم العلوي، ويسعدان بنعمة الإيمان، في ظلال الطبيعة البريئة، بعيداً عن ضوضاء الناس ونزاعاتهم.

ابن رشد

هو محمد بن أحمد بن رشد، وكنيته ابن الوليد. 520 - 595 هجرية (1126 - 1198 ميلادية).

ولد بمدينة قرطبة، وكان أبوه قاضياً بها، وينحدر من أسرة عريقة في العلم والأدب. يروى أن الفيلسوف ابن الطفيل قدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة 548 هجرية، وكان هذا الأمير معجباً بالفلسفة ويكرم العلماء. سأل الأمير ابن رشد أثناء هذا اللقاء الأول: ما رأي الفلسفة في السماء، أهي قديمة أم حديثة؟ فاحترابن رشد في السؤال المفاجئ، وخشي أن يغضب جوابه الأمير، فتردد قليلاً متظاهراً بأنه لا يهتم كثيراً بالفلسفة. ثم أبدى الأمير رأيه في الموضوع فاطمأن ابن رشد وأخذ يدلي برأيه بثقة.

تولى ابن رشد مهمة القضاء في إشبيلية، ثم في قرطبة، ثم استقر في مدينة مراكش عندما طلب منه السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يكون طبيباً الخاص. وقد كان بان رشد إلى جانب نبوغه في الفلسفة، من أعظم أطباء عصره.

كان الفيلسوف ابن رشد معجباً بالفيلسوف اليوناني أرسطو، وكان يرى أنه أسمى صورة تمثل فيها العقل البشري، فدرس فلسفته وأظهر براعة كبيرة في تحليل أفكاره، وأعدّ ملخصات وشروحات من مؤلفات أرسطو، المعلم الأول، جعل منها ملخصات موجزة للطلبة المبتدئين في الفلسفة، وأخرى شروحاً وتعليقات موسعة للطلبة المتقدمين.

وبالإضافة إلى انشغاله بالفلسفة ألف ابن رشد مصنفاً في الطب، والمنطق، والشريعة، وعلم النفس، والطبيعة، والفلك، وما وراء الطبيعة، وعلوم اللغة. ومن مؤلفاته :

المختصر المفيد —————

- "الكليات في الطب" الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية، وحظى بانتشار واسع في أوروبا.

- "تهافت التهافت" الذي ردّ فيه على مصنف الإمام الغزالي المعنون "تهافت الفلاسفة".

- "بداية المجتهد ونهاية المقتصد".

- "مناهج الأدلة في عقائد الملة".

- "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال".

وحدث أن نقم بعض الفقهاء على آراء ابن رشد وما تميزت به من حرية التفكير، فاتهموه بالزندقة، وثاروا عليه... وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور في حاجة إلى إرضاء الفقهاء، فأبعد ابن رشد إلى مدينة "أليسانه" بالقرب من قرطبة، وأمر بإحراق كتبه سنة 1194، مستثنياً منها مصنفات الطب والفلك والرياضيات. ولكن بعد أن هدأت الأوضاع دعا السلطان ابن رشد إلى بلاطه في مراكش، حاضرة الموحدين، غير أن الفيلسوف ابن رشد كان قد بلغ من الكبر عتياً، فلم يعمر طويلاً بعد ذلك، ووافته المنية عام 1198، ودفن في مراكش.

يعتبر ابن رشد من أعظم فلاسفة الإسلام، وكذلك كان لمؤلفات تأثير كبير على الفلاسفة الأوروبيين. وقد تأسست مدرسة في أوروبا عرفت باسم "المدرسة الرشدية" جمعت عدداً من فلاسفة أوروبا كانوا يستوحون المعارف من الملخصات والشروح التي وضعها ابن رشد لفلسفة أرسطو. ويلاحظ أن التعاليم العقائدية في أوروبا قبل عهد ابن رشد لم تكن تسمح بتدخل الفلسفة في قضايا الدين المسيحي. غير أن الفيلسوف الإسلامي ابن رشد استطاع بشروحه البارعة وتحليله العميق لفلسفة أرسطو أن يحدث تأثيراً كبيراً على علماء اليهود والمسيحيين فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والفلسفة، إذ كان لا

يرى تناقضاً بينهما، بل أكد أنه يمكن التوفيق بينهما إذا تعمق الباحث في إدراك المقاصد النهائية السامية التي يهدف إليها كل من الدين والفلسفة.

يرى ابن رشد أن الفلسفة تسعى إلى البحث في حقائق الوجود بهدف توسيع مدارك الإنسان ومساعدته على فهم ما خفى من أسرار الكون وتعاليم الديانات؛ ويقول: إن اكتساب قدر قليل من الفلسفة قد يؤدي بالإنسان إلى البلبلية والإلحاد. ولكن البحث العميق فيها يؤدي إلى التفاهم والاتلاف بينها وبين الديانات.

ويشير ابن رشد إلى أن تفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً يساعد على التوفيق بين كثير من التعاليم العقائدية وبين ما تكتشفه الفلسفة من آراء حول الكون والمخلوقات. ويرى أن دراسة الفلسفة قد تكون ضرورية إذا كانت تساعد على معرفة مقاصد الدين الإسلامي، والوصول إلى أسراره من أجل اكتشاف المعرفة الحقة؛ وأن الفيلسوف الحكيم لا يكتب ما يعارض الدين، ولا ينطق بما يستهين بالعقائد، لأن الدين السليم ضروري لأنه يعمق التقوى في النفوس. وهذا الحكيم يحدث الناس بما يناسب مستوى تفكيرهم، ويجعل لكل مقام مقالاً.

ويقول ابن رشد في كتابه المعنون "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال": "فإما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: الآية رقم 2)، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً؛ ومثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف - الآية رقم 185)، وهذا نص بالحث على النظر والاعتبار في جميع الموجودات".

ويضيف ابن رشد: "وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط

المختصر المفيد —————

المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس، فواجب أن نجعل نظرننا في الموجودات بالقياس العقلي. ويبيّن أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع، وحتّى عليه، هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس، وهو المسمى برهاناً".

ابن البيطار

هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار. (596-646هـ) (1199-1248م).

يعتبر ابن البيطار أعظم علماء عصره في علم النبات والصيدلة. فقد اهتم منذ نعومة أظفاره بدراسة ما خلفه العلماء المسلمون وغيرهم من معارف علوم النباتات والطب وصناعة الأدوية، وكان يقوم ببحوثه بجدية، ويجري تجاربه متوخياً المنهج العلمي السليم.

ولد ابن البيطار بمدينة ملقا بالأندلس، ثم أقام بالمغرب فترة، ومنها قرر أن يسافر إلى بلاد الروم واليونان، ومصر، وسوريا وغيرها ليكتشف الحشائش والنباتات في بيئتها. وأثناء إقامته بمصر أوكل إليه الملك الكامل مهمة الإشراف على هيئة المسؤولين عن الصيدلة وإعداد العقاقير؛ ولما انتقل إلى دمشق أسندت إليه نفس المسؤولية.

وقد ألف ابن البيطار مصنفات أهمها كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" الذي يعتبر أضخم مصنف في ميدان النبات والأعشاب والصيدلة في عهده، يقع في أربعة أجزاء. وقد ضمنه المؤلف نحو 1500 نوعاً من أنواع النباتات، 300 منها لم يرد ذكرها في المؤلفات السابقة لغيره. واهتم ابن البيطار بتحليل هذه الأعشاب والنباتات، و بوصف خصائصها الكيميائية، وفوائدها العلاجية والغذائية. وكان هذا العالم يتوخى في بحوثه وتحليله الدقة والتجربة والمناهج العلمي.

ومن ناحية أخرى يعتبر هذا المصنف الضخم "الجامع" تاريخاً للطب النباتي، وقد ترجم إلى لغات عديدة منها اللاتينية، والفرنسية، والألمانية، وظل مرجعاً أساسياً في أوروبا حتى القرن السادس عشر.

*** ومن مؤلفات ابن البيطار:**

كتاب "الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام"؛

وكتاب "الأفعال العجيبة والخواص الغريبة"؛

وكتاب "المغني عن الأدوية". وغيرها.

توفي هذا العالم الفذ في دمشق سنة 1648 ميلادية.

ابن خلدون

هو عبد الرحمن محمد بن خلدون 808-732هـ (1406 - 1332م).

قبل سقوط مدينتي إشبيلية وقرطبة بيد الأسبان، قرر أجداد ابن خلدون أن يرحلوا إلى جزيرة سبتة في شمال المغرب سنة 1248 ميلادية، ثم اختاروا أن يقيموا في تونس، وفيها ولد عبدالرحمن بن خلدون عام 1332 ميلادية؛ وفي سنة 1349 ميلادية اجتاح تونس وباء شديد أودى بحياة والديه. حفظ ابن خلدون القرآن، ودرس التفسير وعلوم الشريعة والأدب العربي وعلوم التاريخ والفلسفة وغيرها.

قضى ابن خلدون معظم حياته في بلدان تسودها الاضطرابات والنزاعات والثورات، وكثيراً ما كان يضطر للتنقل من قطر إلى آخر بحثاً عن السلامة والاستقرار، وفراراً من المنافسين والحساد والمتآمرين الذين يسعون للإيقاع بينه وبين الأمراء والحكام؛ وفي كل بلد يحلّ به كان يلقي الترحاب

المختصر المفيد —————

والرعاية، ويولى مناصب عالية. وقد ساعدته أسفاره على اكتساب التجارب والمعارف والخبرات التي أفادته في كتاباته.

عمل ابن خلدون كاتباً لابن إسحاق سلطان تونس؛ وكذلك شغل منصباً هاماً لدى أبي عنان سلطان فاس؛ ثم رحل إلى غرناطة وأرسله حاكمها سفيراً له لدى حاكم إشبيلية؛ وبعد فترة رجع إلى شمال إفريقيا وشغل منصب الوزير الأول لدى أمير بجاية أبي عبد الله؛ بعد ذلك لجأ إلى قلعة أمير عربي يدعى ابن سلامة (وهي قلعة تقع قرب مدينة فرندا بالجزائر) سنة 1375 ميلادية، بحثاً عن الوحدة والهدوء، وأقام في هذه القلعة أربع سنوات، وفيها ألف مقدمته الشهيرة؛ ثم عاد إلى تونس حيث قضى فترة من الزمن؛ وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة سنة 1384 ميلادية حيث اشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر، وعهد إليه السلطان برقوق بمهمة القضاء على طريقة المذهب المالكي.

واستطاع ابن خلدون أن يؤدي فريضة الحج، ورحل بعد ذلك لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، ولو حظ أثناء زيارته هذه أنه زار الكنيسة التي ولد فيها المسيح عليه السلام في بيت لحم، كما زار مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل، ولكنه امتنع عن زيارة المكان الذي يزعم أنه صلب فيه المسيح عليه السلام.

وحدث أنه عندما حاصر تيمورلنك، قائد التتر، مدينة دمشق أن ابن خلدون كان مقيماً فيها، فخرج في جمع من وجهاء المدينة للتفاوض مع تيمورلنك الذي سمح بعد ذلك لابن خلدون أن يخرج من المدينة المحاصرة ليعود إلى مصر. وقضى هذا الرجل العظيم بقية حياته في القاهرة حتى وفاه الأجل سنة 1406 ميلادية.

كان هذا العالم الفيلسوف والمؤرخ الاجتماعي يشعر في أواخر حياته أنه

يعيش في عهد وصل إلى مفترق الطرق، طريق يؤدي إلى غياب شمس الإسلام وحضارته في الأندلس، وطريق آخر يشير إلى أن أوروبا بدأت تستيقظ من سباتها العميق خلال القرون الوسطى.

توفي ابن خلدون ولكن اسمه ظل لامعاً في سماء المعرفة، في الشرق والغرب؛ وقد أحاطت معارفه بجوانب شتى من علوم عصره، وامتاز إلى جانب ذلك بحدة ذكائه، وبقدرته على دقة الملاحظة، وعلى تحليل الأفكار والإلتزام بالموضوعية في نقده.

ألف ابن خلدون في موضوعات شتى، في فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، والنقد التاريخي، وله أبحاث في المنطق، وموجز في فلسفة ابن رشد، وكتب في الفلك، واللاهوت، والصوفية وغير ذلك.

وأهم مؤلفاته هو مصنفه الذي يحمل عنوان "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر". ويقع في سبعة مجلدات، أولها "المقدمة" التي تعتبر من أعظم ما ألف في موضوع فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع حتى عصر المؤلف؛ وعليها تأسست شهرة ابن خلدون، وقد تناول فيها بالبحث والتحليل موضوعات العمران، والجغرافيا الاقتصادية وتأثير البيئة والمناخ على حياة البشر وسلوكهم وأخلاقهم وملامحهم وغير ذلك من قوانين العمران البشري. ويعتبر هذا العالم أول من ألف في علم الاجتماع، ووضع نظريات جديدة واقعية وسليمة في هذا العلم. وقد اعترف عدد من علماء الغرب بأهمية مقدمة ابن خلدون، منهم المؤرخ الانكليزي الشهير A.Toynbee الذي قال: إن ما أنتجه ابن خلدون في موضوع فلسفة التاريخ هو من دون شك أعظم عمل من نوعه يمكن أن ينتجه فكر في أي زمان ومكان". وقد عثرت على شهادة أخرى سجلها عالم يدعى R.Flint قال فيها: "إن ما كتبه ابن خلدون في موضوع فلسفة التاريخ ليس

المختصر المفيد —————

له ما يعاد له في أيّ بلاد أو زمان، إلى عهد فيكو⁽¹⁾؛ بل إن أفلاطون وأرسطو والقديس أوغستين لم يبلغوا مستواه في هذا الموضوع". وقد سبق ابن خلدون بنظرياته في علم الاجتماع العالم الفرنسي أوغست كونت الذي يزعم الغربيون أنه مؤسس علم الاجتماع. ومما قاله ابن خلدون عن "علم العمران": إن لهذا العلم موضوعاً خاصاً به، هو المجتمع البشري، ومشكلاته، أعني التحولات الاجتماعية التي يتلو بعضها البعض الآخر، ضمن طبيعة المجتمع نفسه". ويشير أحد الكتاب إلى أن "الباب الأول من المقدمة يبحث موضوع علم الاجتماع العام؛ والباب الثاني والثالث يبحثان موضوع علم الاجتماع السياسي؛ والباب الرابع موضوع علم الاجتماع الحضري؛ والخامس علم الاجتماع الاقتصادي؛ والسادس علم الاجتماع المعرفي".

(1) فيكولا هو: Vico Giambatista 1668-1744 (نابولي).

من حديث الروح

يقول الأديب الفيلسوف فولتير: نقول عن "الروح" إنها العنصر الذي يبعث الحياة، ولا نعرف أكثر من ذلك. يعترف الناس أنهم مخلوقات مفكرة، ولا يزعجهم كونهم يجهلون كل شيء عن الروح. وهناك نخبة منهم يتساءلون ويبحثون، غير أنهم لم يعثروا على شيء يقال له "الروح". ويتابع فولتير حديثه قائلاً:

"مسكين الفيلسوف، يرى نبتة تنمو، فيسميها قوة النمو، أو روح الإنماء...، ويلاحظ أن الأجسام تتحرك، فيسمى ذلك "طاقة"؛ وتلاحظ أنت كلبك يركض وراء الأرنب، فتسمى ذلك "غريزة"؛ وتشعر بأفكار تجول في خاطرك، فتسمى ذلك "تفكيراً"؛ ولكن أخبرني بربك هل شاهدت شيئاً حقيقياً نسميه غريزة، فكرياً، طاقة النمو...، أعني هل شاهدت شيئاً ملموساً أو مخلوقاً منفصلاً ندعوه بهذه الأسماء؟ وكيف تردّ على من يقول لك: جميع المخلوقات والحيوانات "حيّة"، لأنه يوجد داخلها شيء نسميه الحياة أو الروح؟ ويقول فولتير:

"ولننظر قليلاً إلى "معرفتك" وما تعرفه على وجه اليقين، إنك تمشي على رجلك، وتهضم الطعام بمعدتك، وتفكر برأسك، وتحس بجميع جسدك؛ ولننظر إلى ما إذا كان عقلك وحده قد استطاع أن يقودك، من غير مساعدة القوى المتافزكية، إلى أن تستنتج بأن لك "روحاً".

كان قدماء الفلاسفة يقولون بأنه يوجد في داخلنا شيء ينتج أفكارنا، وهذا الشيء ينبغي أن يكون مثل النفس، مثل الأثير، خفيفاً مثل النسيم، بارعاً متناغمًا. ويقول أبيقور إن الذرات هي التي تفكر في داخلنا. ولكن يطرح السؤال: من شاهد ذرة تفكر؟

ويميل فولتير إلى القول بأن الروح شيء غير مادي؛ ولكن كيف يمكن للمرء أن يتصور شيئاً غير مادي؟ ولكن كيف يمكن للمرء أن يتصور شيئاً غير مادي؟ وقد يقول بعض العلماء إن من طبيعة هذا "الشيء" أن يفكر إذا أخبرونا كيف عرفتم ذلك، أم أنكم تسيرون على درب أبقر؟ إن من طبيعة الصخرة أن تسقط، ولكن ما الذي يجعلها تسقط؟ إنها قوة الجاذبية التي جعلها الله فيها. ولكن هذه الجاذبية ليست مركبة من أجزاء، ولا يمكن تفكيكها. وكذلك قوة الحركة في الأجسام، وقوة النمو في المخلوقات العضوية، وغرائزها، وحياتها، ليست أشياء مادية يمكن تحليلها وتجزئتها، فنحن لا نستطيع أن نفصل قوة النمو في وردة، ولا قوة الغريزة في كلب، ولا قوة الحياة في فرس، ولا أن نأخذ كمية من الشعور فنجزئها. ويقول فولتير:

"إدًا أنت لا تستطيع، من دون وحي خارجي، أن تكون فكرة واضحة عن روحك سوى أنها مجرد قدرة على الإحساس والتفكير، قدرة تجهل حقيقتها وجوهرها. والآن أخبرني بصدق هل هذه القدرة على الإحساس والتفكير هي نفسها القدرة التي تجعلك تمشي، وتهضم الطعام؟ وإذا أمرَ وعيكُ وفكرُك المعدة بأن "تهضم" وهي متعبة، فهل تليي الطلب؛ وإذا أمرَ وعيك بأن تمشي، فهل تستطيع أن تليي الطلب إذا كانت رجلاك عاجزتين عن المشي؟

شعر علماء الإغريق بأن الفكر لا يملك أية سلطة على عمليات الأعضاء فجعلوا لها "روحًا حيوانية"، وللأفكار روحًا عقلانية سامية. ولاحظوا أن هذه الأخيرة تسيطر في معظم الحالات على الأولى. ولكن لاحظوا أن الروح العقلانية المفكرة تأمر اليدين بالفعل فتفعل، ولكنها لا تتحكم في نبضات القلب أو جريان الدم؛ وهكذا وجدوا أنفسهم أمام روحين مرتبكتين محترتين كل منهما ليست صاحبة الأمر في بيتها.

والواقع أن الروح الحيوانية لا وجود لها، وهي عبارة عن مجرد حركة الأعضاء والأجهزة الحيوية. ويقول الفيلسوف فولتير: اعلم أيها الإنسان أنك لا

تملك دليلاً عقلياً على وجود الروح العقلانية السامية ولا تستطيع أن تعرف شيئاً عنها إلا عن طريق الإيمان. فأنت تولد، تعيش، تتحرك، تفكر، تنام، تستيقظ ... من غير أن تعرف كيف يحدث ذلك. لقد وهبك الله ملكة التفكير مثلما وهبك القدرة على جميع الأشياء الأخرى؛ ولو أن الخالق لم يعلمك بعنايته أن لك روحاً إلهية قدسية خالدة لما كان لك أي دليل على ذلك.

ولنلق نظرة خاطفة على النظريات التي وضعها بعض الفلاسفة حول

الروح:

- إن روح الإنسان نشأت من روح الإله نفسه؛

- الروح نشأت من روح الكون الكلية العظمى؛

- نشأت من روح الخلود، وإليه تعود؛

- الروح لم تنشأ... بل هي من تصور الإنسان؛

- الروح تنشأ في لحظة التزاوج والإنجاب؛

- الروح من خلق الإله، وهي تنتظر حتى يتكون الجنين، فإذا لم تجد

الظرف الملائم تنتظر فرصة أخرى.

ويرى القديس توما الأكويني أنه توجد ثلاثة أرواح "إنباتية": روح

غذائية؛ وروح إنائية؛ وثالثة روح مولدة؛ وأن ذاكرة الأشياء الروحية "روحية"،

وذاكرة الأشياء المادية "مادية"؛ وأن الروح العاقلة تأخذ شكلاً مادياً،

أثيرياً، مجرداً، فيما يتعلق بالعمليات الفكرية؛ وتأخذ شكلاً مادياً فيما

يتعلق بالخلوقات.

وقد قيل الكثير عن هذه الروح عندما تفارق الجسد الذي كانت تسكنه،

وتشعر بواطسة حواسه ومشاعره؛ وكيف يمكنها بعد فراقه أن تسمع بدون

أذنين، وتشم بدون أنف، وتشاهد بدون عينين؛ وأي جسم ستسكنه بعد ذلك،

هل هو الجسم الذي سكنته وعمره شهر أو سنة، أو جسم عمره سبعون أو ثمانون سنة؟ وفي هذه الحالة كيف تتعامل الروح مع الأفكار التي عاشتها في سن المراهقة؟ وكيف تتلاءم وتتفاعل مع شخص فقد رجليه في أوروبا، وبُترَ ذراعه في أمريكا، وخضع لعمليات أخرى غيرت مظهر جسده، مما يجعل الروح تعيش في مجال حيوي مختلف. ولعلنا لا ننتهي من هذه الغرائب التي نتخيل أن تُلاقيها الروح في مسيرتها الطويلة.

ويقول فولتير ما مفاده أنه لم ترد في الأسفار العبرية أية عبارة عن الروح وخلودها؛ وأن موسى عليه السلام لم يَعدِ اليهود بالحساب والعقاب في حياة أخرى، ولم يحدث قومه عن خلود الروح، ولم يبشروهم بالجنة، ولم يحذروهم من الجحيم. وقد قال موسى لقومه قبل وفاته (1):

- إذا أَخَلَّتم بواجبكم ولم تنجبوا الأولاد والأحفاد، فستطردون من البلاد، ويقلّ عددكم بين الأمم.

- احترموا أمهاتكم وآباءكم لكي تعيشوا عمراً طويلاً؛ ويتوفر لكم الغذاء فلا ينقصكم شيء؛ وإذا اتبعتم آلهة غير آلهتكم ستدمرون جميعاً؛ وإذا أطمعتم سترزقون المطر في الربيع وفي الخريف، ويكثر لديكم القمح والزيت والنبيد، والكلأ لأنعامكم، فتطعمون وتسكرون.

- احفظوا هذه الكلمات في قلوبكم، وفي أيديكم، وبين أعينكم، واكتبوها على أبوابكم، وبذلك تطول حياتكم.

- افعلوا ما أمركم به، لا تضيفوا إليه شيئاً، ولا تحذفوا منه شيئاً.

- إذا ظهر نبيٌّ يتنبأ بحوادث خارقة ومعجزات، وإذا ظهر أن تنبؤاته صحيحة، وقال لكم: هيا، اتبعوا آلهة غير إلهكم" فاقتلوه على الفور، ولينهض كل الشعب معكم.

(1) حسبما يرويهِ فولتير.

- عندما يُخضع الإله لكم الأمم، فاذبحوا الجميع ولا تأخذكم رحمة بأحد منهم، ولا تتركوا منهم واحداً على قيد الحياة⁽¹⁾.

- عندما تتمسكون بجميع هذه الأوامر، فسيبارككم الربّ في المدن والبوادي، ويبارك غلاتكم في بطون أرضكم ويطون أنعامكم.

- وإذا أهملتكم هذه التعاليم والأوامر والاحتفالات فستلعنون في المدن والبوادي، وتعانون الجوع والفقر، والبرد والأمراض.

ويعلق فولتير على هذه التعاليم قائلاً: من الواضح أنه لا يوجد في جميع هذه الوعود والتهديدات إلا أمور دنيوية، ولا يوجد فيها كلمة واحدة عن حياة الآخرة ولا عن الروح وخلودها. ولا يجدي أن تتجادل حول مشاعر موسى السرية، لأن الواقع هو أنه لم يتحدث أبداً، في قوانينه الموجهة للناس، عن حياة مستقبلية، وأنه يحدد جميع ما يتحدث عنه من جزاء وعقاب في نطاق الزمن الحاضر، في الحياة الدنيا. ولو كان يعرف عن حياة الآخرة لماذا لم يعرض بوضوح هذه العقيدة الهامة؟

ولكن يطرح السؤال: إذا لم يتحدث موسى عليه السلام عن الآخرة، فماذا كان هدف رسالته. ويجيب كثير من العلماء بأنّ إله موسى كان يحتفظ لنفسه بأن يشرح لليهود، في الوقت المناسب، عقيدة الدار الآخرة والحساب والجنة والنار، لأنهم لم يكونوا آنئذ جاهزين لإدراك مغزاها وهم قبائل تائهون في الصحراء.

ويشير فولتير إلى أن اليهود لم يتفرقوا إلى ثلاث شيع إلا بعد تأسيس مدينة الاسكندرية⁽²⁾، وهذه الشيع هي الفرسيون، الصدوقيون، والأسنيون. ويخبرنا المؤرخ يوسفوس بأن الفرسيين (من اليهود) كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح؛ وأن شيعة الصدوقيين منهم كانوا يؤمنوا بأن الروح تنقرض مع

(1) حسبما يرويهِ فولتير.

(2) أمر ببناء الإسكندرية الإسكندر الكبير أثناء حملاته الشهيرة التي دامت من 323 إلى 334 ق.م.

المختصر المفيد —————

الجسد؛ وأن الأسنين كانوا يعتقدون بأن الروح خالدة. وكانوا يقولون بأن الأرواح تهبط من السماء فتسكن الأجسام، وأن هذه الأرواح إذا كانت في الماضي تسكن أشخاصاً صالحين، تنتقل بعد وفاتهم إلى مناطق وراء المحيط الكبير، في بلاد مناخها معتدل، لا برد فيه ولا حرارة، لا مطر ولا رياح؛ وأن الأرواح التي كانت تسكن أشخاصاً فاسدين، تنتقل بعد وفاة أصحابها إلى مناطق مناخها مخالف للأول،، هكذا كانت معتقدات تلك الشيع اليهودية.

ويختم فولتير بقوله: ثم جاء الشخص الذي كان عليه أن يعلم الناس أشياء جديدة (يعني المسيح ﷺ) فاستنكر كثيراً من المعتقدات اليهودية، "ولولاه لما عرفنا شيئاً عن الروح، إذ أن الفلاسفة لم يتوصلوا إلى فكرة مؤكدة وواضحة عن الروح.

وبقي أن نسأل الفيلسوف الكبير، فولتير، هل جهلت أم تجاهلت ما ورد في كتاب الله على لسان رسوله الأكرم ﷺ عن حديث الروح، وكانت خلاصة هذا الحديث قوله تعالى: ﴿ وَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة الإسراء - الآية 85).

الإنسان، الحيوان، الروح



إذا أخذنا في الاعتبار النصيحة القديمة التي تدعو الإنسان إلى معرفة نفسه، يمكن القول عندئذ بأن علم النفس هو أقدم العلوم. غير أننا إذا أخذنا بالمفهوم الدقيق لكلمة "علم"، نجد أن الموضوع يتطلب أكثر من مجرد تفحص المرء لأفكاره ومشاعره، وهو ما يعرف بالاستبطان. فالعلم وضع تعاريف، ومبادئ، وتحاليل يمكن تطبيقها على جميع الناس. إذ لا يكفي في هذا المجال الاعتماد على الإحساسات والمشاعر الفردية.

ويمكن القول بأن علم النفس بدأ بحوار أفلاطون، ومقالات أرسطو حول موضوع "الروح". وتشير كلمة Psychology (علم النفس) في معناها اليوناني الأصلي إلى أن المقصود كان دراسة "الروح"، وليس الجسد. وكانت البحوث آنئذٍ تتجاوز الإنسان إلى جميع الكائنات الحية. ويقول أرسطو: إن دراسة الروح تساهم في التوصل إلى معرفة الحقائق العامة، وبصفة خاصة إلى إدراك حقائق الطبيعة.

غير أنه مهما اختلفت التعاريف والمناهج، فإن علم النفس حتى في عهد الإغريق كان يهتم بدراسة الإنسان، ذلك أن تحليل روح الإنسان تشمل كذلك تحليل مميزات الإنسان وخاصياته، وما يملك من قوى، وما ينجز من أفعال ووظائف؛ ثم إن المناهج التي يستعملها عالم النفس هي في معظمها المناهج نفسها التي كان يستعملها الفلاسفة الإغريق في دراسة علوم الفيزياء.

ويقول أرسطو ما مفاده أن دراسة الروح تقع ضمن علوم الطبيعة، فتعاريف علم النفس مثل تعاريف علم الفيزياء، تهتم بحركة مادة أو جسم أو بجانب من مواهب الجسد لسبب أو غاية ما. ولكن فيما يتعلق بنفس الإنسان يمكن لعالم النفس أن يستعمل منهاجاً لا يطبق في موضوعات

أخرى، ذلك أن العقل البشري يمكنه أن يفحص نفسه بنفسه، وأن يعرف أشياء عن أفكاره ومشاعره، وهذا لا يمكن أن يحدث في العلوم الأخرى.

وقد بدأ مجال علم النفس ينحصر شيئاً ما، في العهود الأخيرة، عندما أصبح العرف يميل إلى دراسة العقل، بدلاً من دراسة الإنسان كوحدة متكاملة. فيلاحظ مثلاً أن ديكارت كان يقول بوحدة الروح والعقل، ولكنه كان يعالج موضوع المشاعر والإرادة ضمن إطار الفكر والمعرفة. وهناك علماء آخرون مثل هيوم، وبيركلي، ولوك، ركزوا اهتمامهم على تحليل محتويات الوعي، والشعور، والذكاء، والإدراك، وعالجوها ضمن إطار موهبتي التفكير والمعرفة. وبينما كان العرف السائد يقول بأن دراسة السلوك البشري والحيواني يفيد في مجال علم النفس، ازداد الاهتمام بعمليات الاستبطان كمصدر رئيسي في بحوث علم النفس.

ويعترف الفيلسوف كائت بعلم النفس التجريبي إذا كان يَحْصُرُ بحوثه في عمليات الفكر والشعور، لأنه في هذه الحالات يمكن الاعتماد على ملاحظة ما يجرى من تفاعلات نفسية ونتائجها، ومن ثم تتوصل إلى "قوانين للذات المفكرة". ويضيف هذا الفيلسوف أن هذه التفاعلات لا تساعدنا على تحديد الخاصيات النفسية التي لا تخضع للتجربة ويتحدث عن "علم النفس العقلاني" الذي يهدف إلى ما هو مستحيل، ويعني إلى معرفة حقيقة الروح وجوهرها، لأنه لا يمكن أن نصل إلى نتائج مؤكدة حول موضوع يقع خارج مجال التجربة.

ويبدو أن انتقاد كائت لعلم النفس العقلاني يعتمد على نفس المبادئ التي يبني عليها انتقاده للقضايا الميتافيزيقية التي تتعلق بفكرة الإله وبحرية الإرادة. وترتكز هذه المبادئ على نظرية المواهب والاستعدادات الحسية والعقلية مثل الحس، والفكر، والإدراك، والوعي، وغيرها من الملكات الطبيعية، وعلى دورها في تكوين التجربة والمعرفة. ويميل علماء آخرون، مثل هيوم،

ولوك، إلى تركيز اهتمامهم على الكيفية التي يتحصل بها المرء على محتويات الفكر، ويجعلونها أساساً لتقييم مدى صحة المعارف الأخرى. فهم لا يشكون في صحة علم النفس في حد ذاته، بل يفترضون أن لمعرفة النفس، وما يجوز فيها من تفاعلات وأفكار ومشاعر، مزايا تفوق مزايا البحوث الأخرى.

ويمكن أن تطرح أسئلة عديدة حول هذا الموضوع: هل الإنسان حيوان عاقل؟ ويتمتع وحده بميزة العقلانية؟ وهل يتمتع الإنسان بحرية الإرادة؟ وهل يختص بهذه الحرية من دون المخلوقات؟ وهل يملك الإنسان من الخاصيات والمواهب ما يجعله يختلف عن الحيوانات في النوع والجوهر؟ أم أن الحيوانات تملك نفس الخاصيات والمواهب التي يملكها الإنسان، فيكون الفرق فقط في مستوى ما يملكه الإنسان وما يملكه الحيوان من هذه المواهب، وبهذا يكون الفرق في الدرجة وليس في النوع، أي أن الإنسان يشارك الحيوان في النوع، ويرتفع عنه في الدرجة، وليس في الجوهر.

وتجدر الإشارة إلى نظرية داروين الذي يرى أن الإحساس، والمشاعر، والحدس، والبديهة، والذاكرة، والتقليد، والعقل، وغيرها من المواهب التي يفتخر بها الإنسان، قد توجد لدى الحيوانات، وأنها قادرة على تحسين سلوكها كما نلاحظ لدى الكلاب الأليفة مقارنة بالذئاب. ويضيف داروين ما مفاده أنه إذا كان من الممكن التدليل على أن بعض القوى الفكرية مثل الوعي الذاتي، وتكوين المفاهيم العامة، هي مواهب خاصة بالإنسان، وهو أمر غير مؤكد، فإن هذه الميزات قد تكون نتيجة لتطورات فكرية حدثت هي الأخرى نتيجة لاستعمال الإنسان للغة بصورة ذكية مستديمة.

ويلاحظ أن كثيراً ممن يتبنون مواقف معارضة لداروين لا يتفقون على المميزات والصفات الدقيقة التي تكمن وراء اختلاف الحيوانات من حيث النوع، أي الاختلاف الجوهرى؛ ولكنهم في معظم الأحيان ينسبون ميزة العقلانية للإنسان وحده، ويستعملون كلمة "حيوان" لتدل على جميع

المختصر المفيد —————

الحيوانات الأخرى التي لا تملك موهبة العقل، مهما بدا على سلوكها علامات الذكاء والوعي والفطنة.

وهكذا نجد من يرون أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو فرق في النوع والجوهر يقولون إن المجتمع البشري، بتطوير اللغة، أصبح يختلف بصورة جوهرية عن مجتمع النمل والنحل وغيرهما، وأن لغتهم تختلف عن تغريد الطيور وصياح الغابات وما شابه ذلك، لأنها تصدر عن موهبة العقل، وتعبّر عن رقي الإنسان. وعلى خلاف داروين، يرى كثير من العلماء أن اللغة لا تعبّر فقط عن اختلاف الإنسان عن الحيوان في الدرجة، بل يجدون فيها سبباً للاختلاف الجوهرية في النوع، أي أن لغة الإنسان تعبّر عن العقلانية التي يتميز بها عن غيره.

وبما أن الإنسان يستطيع أن يفعل أشياء لا يقدر الحيوان أن يفعلها، فهذا يعني لهؤلاء العلماء أنه يملك قدرات ومواهب لا تشاركه فيها حيوانات أخرى. وبما أن داروين اعترف بأن القرود الشبيهة بالإنسان لا تستطيع أن تصنع من الحجرة آلة، ولا أن تواصل سلسلة من التفكير الميتافيزيكي، أو تحل مشكلة رياضية، أو تفكر في الإله، أو يعجب بالمشاهد الطبيعية الرائعة.. فإن بعض العلماء يفسرون هذا الاعتراف بأنه دليل على أن القرد لا يملك عقل الإنسان ومواهبه المميزة، مهما كان ذكأؤه حاداً.

غير أن العلماء الذين يتفوقون على أن الإنسان بمواهبه العقلانية يختلف جوهرياً عن الحيوان، لا يتفوقون على تفسير ظاهرة العقل. يقول الفيلسوف لوك، على سبيل المثال، إن موهبة العقل ترفع الإنسان فوق بقية الحيوانات التي تشترك معه في قوى الإحساس، والذاكرة، والتخيل، ولكنها لا تملك القدرة على إدراك المفاهيم التجريدية مثل فكرة الزمن، والفضاء، والخلود.. فالقدرة على التجريد وتعميم الأفكار مميزات فاصل بين الإنسان والحيوان.

أما الفيلسوف روسوفيري أن الحيوان قادر على التفكير، وأن الإنسان يختلف عن الحيوان في درجة التفكير ومستوى المواهب، وعلى هذا ليس الفهم والذكاء هو المميز النهائي بين الإنسان والحيوان، بل المميز هو حرية الإرادة والاختيار.

ويتفق الفيلسوف جيمز مع لوك في قوله بأنه من المحتمل أن الحيوانات لا تقدر على التجريد الفكري، ولا على ترابط الأفكار بالتمثيل؛ ويؤكد جيمز على أن العامل الأخير هو الذي يشكل الفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان. ويذكر هذا الأخير عوامل أخرى تقليدية تميز الإنسان، ومنها أنه الحيوان العاقل الناطق الضاحك. ولكن جيمز يضيف بأن هذه الصفات والخصائص، مثل خاصية العقلانية، جاءت نتيجة المواهب الفريدة المتمثلة في قدرة الإنسان على ترابط الأفكار وتداعي المعاني بالتشابه. ويوافق آدم سميث على كون موهبتي العقل والنطق هما سبب سمو الإنسان على غيره من الحيوانات، ويضيف إلى ذلك كون الإنسان قادراً على إنجاز عمليات مثل المقايضة ومبادلة الشيء بغيره، وهو نشاط لا نجده لدى الحيوان.

وعلى الرغم مما تحمله نظريات هؤلاء الفلاسفة من اختلافات، فإنهم يتفقون على أن الإنسان يختلف عن الحيوان في النوع، وليس في الدرجة فقط. على أن من العلماء من يتجنب هذه الخلافات، ويقتصرون على ما يشاهدون في الحضارات التي أنشأها الإنسان، وما فيها من مميزات تتمثل في الفنون والعلوم، والقوانين وأساليب الحكم، وتنظيم العقائد... وجميعها تشهد للإنسان بمواهب عظيمة تميزه عن الحيوان. فنجد الفيلسوف ميل يتحدث عن الإحساس بالعدالة، ويقول إن جذورها لدى الإنسان عميقة تكمن في حوافز طبيعة تدفعه إلى أن يرفض أيّ أذى يحدث له أو لمن يتعاطف معهم. ويرى ميل أن الإنسان يختلف عن الحيوانات في كونه يتعاطف مع جميع البشر، بل ومع جميع المخلوقات الحساسة. وبفضل ما يتمتع به من ذكاء

متطور يستطيع أن يستفيد من المصالح المشتركة بينه وبين المجتمع البشري في كل مكان.

غير أن وجهة النظر هذه لا تجيب عن التساؤل: هل هذه المميزات والتطورات تعني أن الإنسان يملك مواهب وقدرات تجعله يختلف عن الحيوان في النوع؟ كما أنها لا تنفي نهائياً كون هذه الإنجازات الرائعة التي حققها الإنسان قد تمثل مجرد اختلاف أوسع في القوى والمواهب بين مستوى الإنسان والحيوان التي تبدولنا في الظاهر اختلافاً في النوع والجوهر. وهكذا يستمر الجدل حول ما يعرف "بمواهب الإنسان العليا". وإذا استثنينا وجهة النظر القائلة بأن الإنسان مخلوق روحي محض، قضى عليه أن يسكن جسداً مادياً، لا توجد نظرية خاصة بطبيعة الإنسان تشك في أنه، باعتباره نظاماً حياً، يشترك مع الحيوانات والنباتات في عدد من الوظائف والقوى الجسدية، وفي مقومات الحياة التي تساعد على النمو والبقاء. وقوى الاحساس والرغبات والشهوانية موجودة في الإنسان كما هي موجودة في الحيوان. ويرى الملاحظ أن الحيوانات العليا، مثل الإنسان، عندما تواجه مواقف مزعجة تبدو عليها علامات الخوف والقلق والغضب.

ومن الأسئلة التي تطرح في هذا المجال: هل حواس السمع والبصر واللمس والذوق والشم توفر المعرفة للحيوان مثلما توفرها للإنسان؟ وهل قوى الذاكرة والتخيل توسع مجال الوعي والإدراك لدى الحيوان كما تفعل لدى الإنسان؟ وهل هذه القدرات تؤثر على كيفية تصور الأشياء الماثلة في الحاضر بالطريقة نفسها لدى الإنسان والحيوان؟ والواقع أنه ليس من السهل الجواب على هذه الأسئلة بمجرد ملاحظة السلوك الخارجى للإنسان والحيوان. وتزداد المشكلة تعقيداً عندما تنسب للإنسان موهبة خاصة به مثل التفكير أو المعرفة، لأنه لا يمكن قياس مدى الإدراك والتخيل لدى الإنسان والحيوان إذا أدخلنا عامل التفهم والعقلانية في تجارب الإنسان، ونفيناه كله عن الحيوان.

لقد كان العلماء في العهد الاغريقي وعهود القرون الوسطى يفرقون بين مواهب الإحساس بما فيها قوى الإحساس الداخلية المتعلقة بالذاكرة والتخيل، وبين المواهب التي تسمى بالعقل والفكر، ذلك أن مدى قوى الإحساس لا يمتد ليصل إلى المفاهيم التي لا تدرك إلا بالعقل. لذلك كان أولئك العلماء لا يساوون بين قدرات الذاكرة الحسية وبين قوى التفكير العقلاني. والإنسان وحده هو الذي يتمتع بموهبة الفهم والتبصر، ويدرك الأشياء الخاصة والأشياء الكونية؛ وهو وحده يستطيع أن يفكر في الأشياء التي لا تدركها الحواس مثل الذرة، والإله، والخلود، واللانهاية. وهكذا يكون التأكيد على الفرق الجوهرى بين الحس والعقل مرتبطاً بالتأكيد على الفرق الجوهرى بين الإنسان وغيره من الحيوانات، هذا في رأي علماء القرون الوسطى.

غير أن شكوكا حول هذه الآراء بدأت تظهر في العصور الحديثة. فنجد الأديب الفرنسي مونتيني، على سبيل المثال، لا يشكك في كون الإنسان يتمتع بالعقل، ولكنه يشك في أن الحيوانات الأخرى جميعا خالية من التفكير تماما. وهو يبحث هذه المسألة معتمداً على ظواهر السلوك الخارجية لدى الإنسان والحيوان، ويستنتج أن بصيصاً من شعاع العقل والتفكير ينير سلوك الحيوانات كذلك. ويستشهد بحكايات رواها عن علماء، منها حكاية الكلب الذي راح يبحث عن صاحبه حتى وصل إلى مكان تفرع فيه الطريق إلى ثلاثة دروب. فتحسس الكلب بحاسة الشم الدرب الأول، والثاني، فلم يجد رائحة صاحبه، ثم انتقل بدون تردد، ومن غير أن يشم شيئاً، إلى الدرب الثالث وتابع بحثه عن صاحبه. ولاحظ مونتيني بأن سلوك هذا الحيوان حدث بطريق القياس المنطقي، وكأنه كان يقول في نفسه : لقد اقتفيت آثار صاحبي إلى هذا المكان، ولا شك أنه سلك أحد هذه الدروب الثلاثة، وهو لم يسلك هذا الطريق، ولا ذلك، فلا شك أنه سار في هذا الطريق الثالث".

وتجدر الإشارة إلى أن الفيلسوف اللاهوتي توما الأكويني أورد هذه

القصة ليستنتج بعض التفكير "العقلاني" لدى الحيوانات يمكن تفسيره ضمن إطار السلوك الذي توحى به الغريزة. يقول هذا العالم: إننا نلاحظ في سلوك الحيوانات بعض دلائل الحكمة؛ فهي تقوم بأعمال منظمة محكمة بتقنية سامية. غير أنها لا تنجز أعمالها نتيجة إرادة حرة وتفكير حصيف.

وعلى عكس مونتيني، يرى مكيافيلي أنّ البشر والحيوانات يتشابهون ليس لكونهم يتمتعون بموهبة العقل، بل لكونهم لا يملكون هذه الموهبة، ذلك لأن مشاعرهم هي التي تتحكم في سلوكهم. فعقلانيتهم تتجلى في شكل المكر والدهاء من أجل بلوغ الأهداف والرغبات التي تحددها المشاعر. وليس الإنسان بأقل حيوانية من الحيوان، لأنه في غابة المجتمع ينجح في تحقيق أهدافه، في معظم الأحيان، بواسطة المكر والاحتيال. ويضيف ميكافيلي: قد يملك الإنسان دهاء أقوى من الثعلب، ولكنه بدون سلاح يجد نفسه أضعف من الأسد. وإذا اضطر الأمير لاختيار سلوك حيوان ما، فعليه أن يختار الأسد والثعلب معاً، لأن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من حبال المصايد؛ ولأن الثعلب لا يحمي نفسه من الذئاب".

وفي صدد الحديث عن العوامل التي تجعل الإنسان مختلفاً عن الحيوان يقول الفيلسوف هوبز إن اللغة هي العنصر الأساسي في هذا الاختلاف. فهو يرى أن قوى الإحساس والتخيل مشتركة بين الإنسان والحيوان، وأن موهبتي العقلانية وتسلسل الأفكار يمكن أن تحدث لدى أي حيوان يتمتع بقدرات الذاكرة والتخيل، أما موهبة الفهم التي يصفها هوبز بأنها "المفاهيم التي تولدها موهبة اللغة"، فهي خاصة بالإنسان. وهذه المفاهيم اللغوية تساعد على تطوير المواهب المشتركة بين الإنسان والحيوان، ولكن لصالح الإنسان، إلى درجة راقية تصبح ميزة فاصلة بينه وبين جميع الحيوانات الأخرى. وهذا يعني أن هوبز يقول بأن الإنسان لا يتفوق على الحيوان إلا من حيث درجة الرقي. غير أننا نجد في مكان آخر يعدد المؤسسات التي يختص بها الإنسان،

مثل العقائد، والعلوم، والقوانين ... ولعله بهذه يشير إلى أن الإنسان يختلف عن الحيوان من حيث النوع، وليس فقط في الدرجة والمستوى.

ويرى بعض العلماء، منهم دافيد هيوم، أن الإنسان لا يملك مواهب فوق الإحساس والتخيل، وهذا يعني أنه لا يتمتع بقدرات وملكات لا يتمتع بها الحيوان. يقول هيوم ما مفاده: إن الحيوانات مثل البشر تتعلم أشياء كثيرة من التجارب، وتستنتج أن الحوادث نفسها ستكرر إذا تكررت الأسباب التي أحدثتها أول مرة. وهذه الاستنتاجات لا تنشأ نتيجة جدال أو تفكير عقلائي، بل نتيجة التكرار والعادة والغريزة. ولو كانت طريقة نشوء هذه الاستنتاجات مشكوك فيها لدى الإنسان فهي مؤكدة لدى الحيوان. وبما أن النتيجة مؤكدة لدى أحد الجنسين، فإنه بناء على قاعدة التشابه الجزئي، ينبغي تطبيقها بصورة عامة دون استثناء.

ويتساءل هيوم قائلاً: ... ولكن إذا كانت الغريزة والعادة تكمنان وراء ظهور موهبة التفكير لدى الإنسان والحيوان، فما الذي يجعل الإنسان يتفوق في التفكير، بهذه الدرجة، على الحيوان؟ وما الذي جعل شخصاً يتفوق على شخص آخر؟ ويجيب ببساطة بأن التفوق إنما هو في درجة ما يتمتع كل من موهبتي الإحساس والتخيل، وما يملك من تجارب وقوى غريزية. أما بالنسبة للعلماء الذين يرون أن الإنسان وحده يتميز بموهبة العقل، بالإضافة إلى قدرات الإحساس، فإن الدلائل التي يوردها هيوم تظل محل جدال.

وبما أن الموضوع يتعلق بطبيعة الإنسان، وبالإحساس، والتفكير، والعقل، وبالمواهب التي تميز الإنسان، أو لا تميزه، عن الحيوان، فإنه من المفيد أن نلقي نظرة سريعة إلى ما يقوله بعض المفكرين عن الروح. والسؤال الذي يطرح ليس هل للإنسان روح، بل هل الإنسان وحده، من بين الحيوانات يملك روحاً عقلائية سامية، لا مادية، روحاً قادرة على الحياة منفصلة عن الجسد، روحاً خالدة؟ ولكن إذا كانت الروح عنصر الحياة

وجوهرها في جميع المخلوقات الحية، فإنه يفترض أن هذا العنصر واحد، لا يميز الإنسان والحيوان والنبات. أما إذا ميزنا بين روح عقلانية سامية، وروح "نباتية" بالطريقة التي نميز بها بين البشر والحيوان والنبات، أي بالاعتماد على قوى سامية مثل العقل، والفكر، وحرية الإرادة، والقدرة على التجريد، والنطق، وتصور الماضي والمستقبل، والخلود وغير ذلك، ففي هذه الحالة إذا قلنا بأن البشر وحدهم يتمتعون بروح عقلانية متميزة، لا نضيف شيئاً جديداً لما سبق من القول بأن الإنسان وحده هو المخلوق الذي ينعم بخاصية العقل والفكر التي ترفعه فوق نوع الحيوانات الأخرى. بل قد يكون الأمر أعمق من ذلك، لأننا إذا قلنا بأن الإنسان يتمتع بروح عقلانية صرفة، فإن هذا يضيف عليه صفات مخلوق روحاني، لا مادي، مما يجعله منفصلاً عن الأشياء المادية، وأكثر انفصلاً عنها من المقام الذي تمنحه ميزة العقل التي تفصله عن الحيوان.

أما الفيلسوف لوكرتيوس فيرى أنه لا يوجد في هذا العالم سوى الذرات والفراغ، لذلك فإن طبيعة الروح لا تكون إلا من طبيعة الجسد؛ وهي تتكون من ذرات صغيرة جداً لدرجة لا تستطيع قوة صغيرة أن تحركها. ويستنتج أن الإنسان بتكوينه المادي لا يختلف عن أيّ تركيب مادي آخر، وهذا يعني أن روحه مادية، وأنها فانية مثل أيّ مادة مركبة.

ويقول ديكارت ما مفاده: ليس المهم لديّ ما إذا كانت الحيوانات الأخرى مجرد مخلوقات آلية أو كان لها روح، فأنا لا أنفي عنها أنها تتمتع بالإحساس والحياة، ولكن ما أنفيه عنها هو كونها تتمتع بموهبة "التفكير والفهم". وكونها لا تملك موهبة الفهم يجعل من المستحيل عليها أن تنجز أعمال الإنسان وتقلد كلامه وتعبر بلغته. وعامل الفهم والفكر الذي يختص به الإنسان هو الذي يقتضي أن روح الإنسان مختلفة عن روح الحيوان، أي روحانية محضة. ويؤكد هذا الفيلسوف أن عملية الفكر والفهم والإرادة تختلف

عن الإحساسات والمشاعر في كونها ليست وظائف جسدية؛ وأن الإنسان يختلف عن الحيوانات في كونه يملك جسداً مادياً وروحاً غير مادية، قابلة للانفصال والخلود.

ونلاحظ أن الفيلسوف سبينوزا يجعل للإنسان وضعاً خاصاً في النظام الطبيعي، فيخصه وحده بالمشاركة في الروح الإلهية، إذ يقول بأن العقل الإنساني جزء من الفكر والروح القدسية؛ أما الجسد فهو وسيلة للتعبير بطريقة بيّنة ومحددة عن جوهر الإله. فالإنسان مركب من عقل وجسد، روح ومادة، غير أن هذا الازدواج في طبيعة الإنسان إنما هو ازدواج في المظهر، وليس في الجوهر.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن أرسطو يرى بأن الروح ليست مادة، بل إنها العنصر الجوهرى في جسد مادى. ويقول بأن هذا ينطبق على جميع أنواع الأرواح في النباتات، والحيوانات، وفي البشر. ولكنه عندما يعدد القوى المتنوعة التي تملكها الكائنات الحية، مثل القدرات التغذوية، والشهوانية، والحركية، والحسية، والفكرية، فإنه ينسب للإنسان وحده، وللمخلوقات التي في مستواه أو أرقى منه، قوة التفكير، أي ملكة العقل.

ويقول أرسطو ما مفاده أنه باستثناء حالة التفكير المذكورة، لا توجد حالة أخرى يمكن للروح أن تشارك فيها وتتأثر بها دون أن يتدخل الجسد في العملية. وبينما تتمركز قوى الإحساس في الأعضاء الجسدية، ولا تنشط إلا في إطار الوظائف الجسدية، فإن العقل (الفكر) قوة روحانية، لا مادية، ليس لها أعضاء، ولا يمكن أن تشبه بالعين عضو النظر، أو بالدماغ عضو الذاكرة والتخيل. وبناء على هذه النظرية يعتبر الإنسان وحدة متلاحمة متكاملة، مكونة من جسد وروح، غير أنه يختلف عن المخلوقات الأخرى المادية، لأنه مكون من عناصر يمكن انفصالها عن المادة.

ويرى القديس توما الأكويني أن للإنسان روحاً عقلانية يمكن أن

المختصر المفيد —————

توجد بمعزل عن المادة عندما تتحلل مكونات الإنسان المادية بوفاته، ومن ذلك يتبع خلود الروح الذي ينقذ الإنسان من التحولات الطارئة، ويخلصه من قبضة الموت. وبهذه الخاصية ترتفع منزلته، فلا يظل مجرد عابر سبيل في هذا العالم.

وما زال الإنسان يطرح أسئلة كثيرة حول وجوده في هذا العالم، وعلى هذا الكوكب السابح في الكون الفسيح، وحول ماضيه ومستقبله، وهل هو حر في تفكيره وسلوكه يكفي نفسه بنفسه، وهل وجوده مناسب للمكان والزمان، وهل مصيره الفناء الأبدي، أم تنتظره حياة أخرى ينعم فيها بالخلود ...

يقول باسكال ما مفاده: الإنسان لا شيء مقارنة باللانهائي؛ وهو كل شيء مقارنة باللاشيء؛ وبما أنه بعيد كل البعد عن بداية الأشياء ونهايتها القصوى، فهو غير قادر على معرفة اللاشيء الذي جاء منه، واللانهائي الذي سيبتلعه، ولا ينبغي له أن يجعل نفسه في مستوى الحيوانات ولا الملائكة؛ بل عليه أن يعرف عناصر طبيعته، لأن فيها أسباب سعادته وشقائه⁽¹⁾.

(1) المرجع: هذا الموضوع ملخص من موسوعة:

Great Books of the Western World, The great Ideas (syntopicon – vol. 3 Chapter 51).

على هامش الحضارة



جاء في الموسوعة البريطانية أن "الحضارة هي أن يتحقق مستوى من ثقافة شاملة قادرة على أن تمتدَّ بأسباب البقاء مجموعات متنوعة من الناس، وتمكنهم من التجديد والابتكار، ومن نقل أساليب حياتهم وقيمهم وتقاليدهم إلى الأجيال التالية. وتشمل ميادين الحضارة مجموعات العلوم، والمعارف، والمعتقدات، والفنون، والتقاليد، والقوانين، وأنواع السلوك البشري.

وجاء في الموسوعة العربية العالمية أن "الحضارة تشمل الفن، والعادات، والتقنية، وشكل السلطة، وكل شيء يدخل في حياة المجتمع؛ ومن هذا المنظور فإن الحضارة مماثلة للثقافة؛ ولكن الثقافة تشير إلى وسيلة ما من وسائل الحياة، وتشمل أسلوب الحياة البسيطة والمعقدة؛ أما كلمة الحضارة فتشير فقط على أساليب الحياة التي تتصف بنظم اقتصادية، وحكومية، واجتماعية معقدة؛ ولذا فبالرغم من أن كل إنسان يعيش في إطار ثقافة ما، إلا أنه لا يعيش كل فرد في إطار حضارة معينة".

ويقول ابن خلدون في المقدمة:

"الحضارة أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر.. إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، وعلى نسبة عمران الأمصار في الكثرة والقلة والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد عن المعاش؛ فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن

معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصة الإنسان وهي العلوم والصنائع".

ويتناول المؤرخ فرانسوا غيزو، في مقدمة كتابه عن تاريخ الحضارة في أوروبا، الحديث عن الحضارة بصفة عامة فيتساءل: ما هي المعايير التي يعتمد عليها المؤرخ لتحديد ما إذا كان شعب ما متحضرًا؟ وما هي المميزات التي ينبغي أن تتوفر في الثقافة لتنتج الحضارة؟ ويحاول هذا المؤرخ أن يصل إلى تعريف شامل للحضارة.

يقول غيزو: إن أهم عنصر في حضارة ما هو أن تسعى نحو تقدم البشر وتطورهم اجتماعيًا وفرديًا وإنسانيًا. والتطور الاجتماعي عنده هو تطوير وسائل الإنتاج التي تحقق قوة المجتمع وسعادته؛ وتحقيق توزيعًا عادلًا لوسائل الإنتاج وأسباب السعادة بين الأفراد. والتطور الفردي عنده هو إصلاح ظروف حياة الفرد الذاتية الداخلية، وتطوير قدراته ومواهبه ومشاغره وأفكاره ومبادئه. ويرى هذا المؤرخ أن جميع ما حدث من تطورات إيجابية في حياة الفرد كانت في النهاية في صالح المجتمع؛ والعكس صحيح، كل ما حصل من تطورات إيجابية في حياة المجتمع كانت في نهاية المطاف لصالح الفرد المواطن.

ويتفق أهل المعرفة على أن التاريخ في سجلاته المتنوعة ينبغي أن يركز على سرد الحقائق. غير أن الحقائق منابع وأنهارًا تختلف طبيعتها، فمنها الحقائق المادية، والأخلاقية، والمرئية، والعقائدية، الفردية، والاجتماعية، علاقات عامة ودولية، وحقائق نسميها فلسفية تتعانق فيها الحوادث والأسباب والنتائج، وليس من السهل على المؤرخ أن يستجلى جميع هذه الحقائق بسلبياتها وإيجابياتها، ويكسوها لباس الحياة بألوانها الأصلية كما كانت في عهدها الأولى.

والحضارة نتاج هذه الحقائق الشاملة والمعقدة، تنتقل آثارها ومعالمها بين الأجيال، وتشكل في نهاية المطاف الحضارة العالمية المشتركة لسكان الأرض. وإذا أخذنا جميع الحقائق التي تشكل تاريخ دولة ما: نسيج حياتها، أسباب وجودها، منابع تطورها، مؤسستها، تجارتها، صناعاتها، ظروف سلمها وحرورها، مكونات سكانها، قوانينها، تقاليدها ومعتقداتها ... ودرسنا هذه العناصر والعوامل، وحللنا علاقاتها ومؤثراتها .. ودرسنا هذه العناصر والعوامل، وحللنا علاقاتها ومؤثراتها، لاكتشفنا أنها كانت مثل الجداول والأنهار التي تصب مياهها في المحيط الواسع، محيط الحضارة الإنسانية الذي يتجمع فيه جميع ما ينتجه البشر نم ثروات مادية وفكرية صالحها وفاسدها، خيرها وشرها.

فالحضارة كما تقدم تشمل جميع العلوم والمعارف والنظم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية وأنواع السلوك البشري، وجميع ما ينتجه الإنسان في مسيرة تطوره الطويلة، وهي بهذا المعنى حضارة بناء وهدم، تكون أحياناً بغيضة، لأخلاقية، استبدادية مهلكة. ولكن حتى خلال الظروف القاسية التي تسودها الفوضى والحروب قد ينتج الإنسان ثقافة تساعد على تمهيد الطريق للتقدم خطوات على درب الحضارة الصحيح، وعندئذ يحاول الإنسان، بعد مرور الزمن، أن يتغاضى عن خطايا أولئك الذين طغوا في الأرض، لأنه يعرف أن إرساء حضارة مستديمة شامخة قد تكلف كثيراً من التضحيات.

ويتحدث المؤرخ غيزو عن حقائق اجتماعية وأخرى يعتبرها حقائق فردية لأنها في رأيه تتعلق بروح الإنسان، لا بالحياة الاجتماعية، ومنها المعتقدات الدينية، والآراء الفلسفية، والعلوم، والآداب والفنون، وهي حقائق تهدف أساساً إلى ترقية فكر الإنسان، ومشاعره، وامتعه النفسية، ومميزاته

المختصر المفيد —————

الأخلاقية، ولا تقتصر على ظروفه الاجتماعية وعلاقاته العامة، ولكنها حقائق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسلسل الحضارة.

ويلاحظ أن الديانات في جميع البلدان والأزمان تدعى، بحق أو بغير حق، أنها ساهمت في بناء صرح الحضارة، وتنسب إلى نفسها فضل المساعدة على نشر العلوم والفنون والمبادئ الأخلاقية والمتع الثقافية والعادات السليمة، وهكذا يصح القول بأن الحقائق العقائدية السامية مرتبطة بفكر الإنسان وبروحه، وتحدث آثاراً عميقة على الحضارة البشرية. وقد يسمو هذا التأثير العقائدي حتى يبلغ درجة تجعله معياراً لدى قيمة تلك العقائد وصحتها.

وينتقل المؤرخ غيزو إلى التساؤل عن مميزات الدولة التي يعيش شعبها في حضارة سليمة، ويستطيع أن يسهم في تطويرها، فيقول:

- لنفرض وجود دولة يعيش شعبها في ظروف مادية مريحة، ينعم أفرادها بالعدالة، وتوفر لهم الدولة الغذاء والمتعة مثل قطعان الأنعام، فهم سعداء ولكن هل نقول أنه شعب يعيش في حضارة سليمة، أو أنه قادر على أن يبني حضارة راقية للأجيال القادمة؟

- فرضية أخرى: شعب وسائل معيشته المادية متواضعة، وظروفه الأخلاقية والعقائدية متطورة، تمدّه الدولة بالأفكار والحقائق والمبادئ التي تراها مناسبة، وتحرص على تحديد المجالات الثقافية، وتوفير للمواطنين القدر الضروري من حرية التفكير في نطاق سياسات مبرمجة. فهل نقول أنه شعب سعيد، يعيش في حضارة سليمة، ويستطيع أن يؤسس حضارة راقية للأجيال القادمة؟

- فرضية أخرى: مجتمع يتمتع أفراده بحريتهم، وتتساوى فيه الفرص،

ينشط فيه كل مواطن بما يلائم ظروفه، لا توجد فيه اختلافات كبيرة بين طبقاته في الثروة والمركز، غير أنه تندر فيه الاهتمامات الاجتماعية والمشروعات العامة، والأفكار والمبادرات فردية ومنعزلة لا تؤثر على الحياة العامة؛ ويبقى النشاط الاجتماعي محدوداً؛ ويمر جيل وراء جيل دون أن يبني مؤسسات مستدامة أو يترك وراءه حضارة تفتخر بها البشرية.

لا يجد المؤرخ غيزو في هذه المجتمعات ما يمثل تعريفاً صحيحاً وكاملاً للحضارة ولا لشعب متحضر، فيقول: يبدولي أن الحقيقة الأولى التي تشير إليها عبارة "الحضارة" هي التقدم والتطور، يعني أن المجتمع يسير قدماً ليصلح ظروف حياته، لينهض ويرتقي، ليخلق ثقافة تحسن وسائل عيشه المادية والفكرية. فالحضارة عنده تعني أن تسعى الدولة والمجتمع متضامنين نحو تحقيق الأهداف التي ترفع مستويات الإنتاج الثقافي والمادي، وتدعم العلاقات بين الطبقات، وتنظم الخدمات الأساسية، وتسهر على توزيع خيرات البلاد ومقومات الحياة بين الجماعات والأفراد، وتؤمن للمواطنين الحرية والعدالة والأمن والثقة بالمستقبل.

وهكذا يتناول فرانسوا غيزو الحديث عن موضوع الحضارة من جانبيين متكاملين، يتعلق الجانب الأول بتطوير الحياة الاجتماعية، والجانب الآخر بترقية قدرات الفرد ورفع مستوى معارفه ونشاطاته، ويؤكد أنه لا يكفي الاهتمام بجانب واحد لبناء الحضارة. يقول غيزو إذا تفحصنا تاريخ العالم نجد أن جميع ما حصل من تطورات مادية وأخلاقية وفكرية أثرت تأثيراً إيجابياً أو سلبياً على حياة المجتمع، وانعكست على حياة الفرد إذ أنه اللبنة الأساسية والحافز الأول الذي يحرك المجتمع ويدفعه نحو الارتقاء والازدهار.

ونلاحظ في واقع الحياة أنه عندما يكتسب المواطن فكرة جديدة ويشعر في نفسه بتغيير أدبي كأنه اكتسب قدرات جديدة عندئذ يرغب في إخراج هذه

المختصر المفيد —————

الأفكار والقدرات إلى الحيّز العملي؛ وربما بادر بإيصال هذه العزيمة إلى محيطه لطلب المشورة والدعم. وشبيهه بهذا ما يحصل لدى كبار العلماء والمصلحين، ومن أمثال هؤلاء تنطلق حركات التجديد والإصلاح، وتصبح أعمال المواطن منشطة ومكتملة لأهداف المجتمع ومشروعاته، وتضطلع الدولة بدورها في توجيه الجميع ومساندتهم.

ويورد المؤرخ غيزو، في سياق تعريفه للحضارة، عبارة لأديب مفادها: "إن المجتمعات البشرية تولد، تحيا، وتموت. غير أنها لا تحتوي الإنسان كله. فبعد أن يكون هذا الفرد قد اندمج كلياً في المجتمع يبقى له شيء ذاتي هو أنبل ما في نفسه، وهذا الشيء هو تلك المواهب والقدرات والملكات السامية التي رفعته إلى معرفة الله، إلى حياة الخلود، إلى السعادة المنتظرة في العالم الآخر. فنحن البشر كأفراد مخلوقات لنا ميزات ذاتية تخصنا بالخلود، لذلك يختلف مصيرنا عن مصير الدول".

الطبيعة والقوانين (1)



1- الطبيعة هي مجموع المخلوقات والأشياء التي تعمر الكون الفسيح، وتخضع لنظام وقوانين محددة؛ وتعني كلمة "الطبيعة" كذلك مجموع الخصائص التي تحدد جوهر الأشياء ومكوناتها؛ وتعني مجموع المميزات الفطرية الذاتية، المادية والمعنوية، الخاصة بالإنسان، وذلك مقارنة بالصفات السلوكية المكتسبة.

وتستعمل عبارة "على الطبيعة" للإشارة إلى حالة الإنسان البدائي الأولى، قبل أن يتدخل في حياته أي نوع من الحضارة، وقبل مرحلة الحياة الاجتماعية. ومن ناحية أخرى تفيد كلمة "الطبيعة" الضمير الأخلاقي، والعقل بصفته منبع القوانين، ومنطلق السلوك الأخلاقي قبل أية عقيدة أو إيديولوجية؛ ويقصد بلفظة "طبيعي" كل ما هو عفوي، تلقائي، فطري، مألوف، سوي، ليس فيه تكلف، وكل ما هو مستمد من الطبيعة.

2- الطبيعة تراقب بروح عادلة أبنائها وهم يلعبون على مسرح الحياة؛ تراقب الإنسان وهو يتحكم في الريح، وتراقب الرياح، وهي تعصف بالإنسان؛ إنها لا تفعل شيئاً بدون هدف، ولا تفعل شيئاً عديم الجدوى؛ لا شيء يحدث لأي إنسان، إلا وقد أعدته الطبيعة لمواجهة؛ وأي شيء تقدمه لأي إنسان، في أي وقت، هو في صالح ذلك الإنسان، في ذلك الوقت. ولكن الطبيعة لا ترحم، فإذا اعتدى عليها الإنسان، تعرف كيف ومتى تأخذ حقها منه، عاجلاً أم آجلاً. وبينما ينتعش الإنسان بالقلق

(1) ملخص من مقال للفيلسوف James S.Mill عنوانه: "الطبيعة".

والخوف، تنتعش الطبيعة بالصبر والمثابرة. إنها لا تضطرب ولا تتبلبل؛ وإذا قررت أن تجعل إنساناً أبله أو أحمق.. فإنها تفعل دون تردد؛ إنها تبدو أحياناً تكرر نفسها، ولكنها لا تملّ الرتابة، فكل يوم تطلع فيه شمسها هو يوم جديد، وكل عودة للربيع تبشر بعام جديد. وينصح الإنسان بأن يطيع الطبيعة، ويقفوا خطاها، إذا أراد أن يسيطر عليها؛ ولعلّ الطبيعة لن تحزن، بل لعلّها ستبتهج يوماً إذا اختفى الإنسان عن صعيدها.

القانون الطبيعي :

تقول الموسوعة البريطانية ما مفاده أن القانون الطبيعي عبارة يستعملها الفلاسفة ورجال القانون، ويقصدون بها نظم العدالة والحقوق التي تعتبر مشتركة بين جميع البشر.

وعندما يعبر القانون الطبيعي عن مجموعة من مبادئ السلوك، يقارن عادة بالقانون "الوضعي"، وهو مجموعة القواعد والمواد القانونية التي تسنها الدولة، وتحرص على تنفيذها بفرض العقوبات. ويلاحظ أنه منذ عهد اليونان القديمة سادت خلافات بين العلماء حول معنى القانون الطبيعي، وحول علاقاته بالقانون الوضعي.

الطبيعة⁽¹⁾

كلمة الطبيعة، والطبيعي، ومشتقاتها، وما ينبع منها من معاني، شغلت حيزاً هاماً من أفكار الناس، وتحكمت في مشاعرهم وسلوكهم. ولعله من المؤسف أن مجموعة من العبارات التي تلعب دوراً هاماً في المناقشات الأخلاقية والبيتايزكية أصبح لها مدلولات متشعبة، مختلفة عن معناها

(1) ملخص من مقال للفيلسوف جيمس. ملّ عنوانه: "الطبيعة".

الأصلي لدرجة تؤدي إلى البلبلة. فقد أصبحت كلمة الطبيعة ومشتقاتها متداخلة مع معاني غريبة لا علاقة لها بمعناها الأصلي، ومصدراً غزيراً للأذواق الزائفة، والفلسفات المضللة، وللأخلاق المصطنعة الخاطئة، والقوانين السيئة.

وللتأكد من المعنى المجرد لكلمة الطبيعة، من المفيد أن نتساءل: ماذا يقصد من قولنا "طبيعة النار مثلاً، وطبيعة الماء، وطبيعة هذا الحيوان، أو ذاك النبات؟". ويكون الجواب أن المقصود هو مجموع خصائصها وصلاحياتها، وكيف تؤثر في الأشياء، وتتأثر بها.. وبهذا المعنى نقول إن الطبيعة، بمعناها التجريدي، هي مجموع الخصائص والفعاليات التي تتميز بها الأشياء، ومجموع الأسباب والظواهر التي تخلقها. ونقول، على سبيل المثال، إن الهواء والغذاء ضروريان لحياة الحيوان، فيكون هذا من قوانين الطبيعة.

وهكذا تكون الطبيعة، في مدلولها البسيط، كلمة ترمز إلى جميع الحقائق الكائنة والممكنة، أو بمعنى آخر لفظاً يرمز إلى الطريقة التي تنشأ بها الأشياء. غير أن هذا التعريف ينطبق فقط على واحد من معاني هذه الكلمة الغامضة. فنحن نجد، على سبيل المثال، أن هذا التعريف يتناقض مع قولنا، في أحاديثنا العادية، "إن الطبيعة لا تشمل الإبداعات الفنية، وإن ما هو صناعي يتعارض مع ما هو طبيعي".

والواقع أن التعريف المذكور لكلمة "الطبيعة" يشمل الفن كما يشمل غيره، لأن كل ما هو صناعي فهو طبيعي؛ وما الفن إلا استخدام لقوى الطبيعة لغرض ما، لأن ما ينتجه الإنسان هو في واقع الأمر مثل الظواهر التلقائية، يعتمد على المواد الأولية ومكوناتها وخصائصها، ولا يستطيع أن يخلق خاصية جديدة للمادة من لا شيء. بل يستطيع فقط أن يستغل خاصيات المواد الموجودة لأغراضه الخاصة. فالمركب يطفو على سطح الماء وفقاً لقوانين الجاذبية والتوازن، وهذان القانونان هما اللذان يؤثران على شجرة اقتعلتها

الرياح ورمتها في البحر؛ والقمح ينمو وينتج الحب طبقاً لنفس القوانين التي تؤثر على زهرة البراري أو نبتة الفراولة في الهضاب؛ والمنزل يشدّ بعضه البعض نتيجة خاصيات المواد، والوزن، والتماسك. وفي مثل هذه العمليات الصناعية نجد دور الإنسان محدوداً، يتلخص في كونه يجلب المواد إلى الأماكن المحددة، ويفرق الأشياء المتصقة ببعضها، ويشد المواد المنفصلة ببعضها؛ ثم تتدخل القوى الطبيعية الساكنة، وتتفاعل لتحقيق الهدف المنشود. بل نلاحظ أن الفكر الذي يخطط، ويعد التصميم، والعضلات التي تنفذ، هي نفسها من صنع الطبيعة.

وهكذا يبدو أن لكلمة "الطبيعة" معنيين على الأقل. المعنى الأول هو أنها تعني جميع القوى الموجودة في العالم الخارجي والداخلي، وجميع ما يحدث بواسطة تدخل هذه القوى. والمعنى الثاني هو أن "الطبيعة" لا تشمل جميع ما يحدث، ولكن فقط ما يحدث دون تدخل الإنسان عن وعي وإرادة.

هذان إذًا هما المعنيان الرئيسيان لكلمة الطبيعة (ومشتقاتها)؛ ومنهما (أو من أحدهما) تنطلق أفكار الشجب أو التحبيذ، والإدانة أو الموافقة على أفعال الإنسان وسلوكه.

ونلاحظ أن مبدأ "اتباع الطبيعة" يسود في كثير من المدارس الفلسفية؛ وظل هذا المبدأ يعتبر معياراً للموازين الأخلاقية خلال عهود طويلة. وقد كانت مدرستا الرواقيين⁽¹⁾، والأبيقوريين⁽²⁾، تعتبران السلوك نابعاً من قوانين الطبيعة. ويلاحظ أن الرومان عندما بدأوا يدونون نظام قوانينهم، جعلوا في

(1) الرواقيون (Stoics) المذهب الذي أنشأه الفيلسوف زينون حوالي 300 ق.م، والذي يقول بأن الرجل الحكيم ينبغي أن يتحرر من الانفعال، لا يتأثر بما يفرح، ولا يتدمّر مما يحزن، وأن يخضع بصبر لحكم الضرورات.

(2) المذهب الأبيقوري (EPICUREANISM) الذي يقول بأن المتعة هي الخير الأسمى، وأن الفضيلة وحدها هي مصدر المتعة.

مقدمة تفسيراتهم المبادئ التي فرضتها الطبيعة. وكذلك اتخذ علماء العهود الحديثة في المجالات الفلسفية، والأخلاقية، والقانونية، رجال القانون الروماني نماذج لهم، وانتشرت مبادئ ما يعرف "بقانون الطبيعة". أما في الزمن الحاضر فلا يمكن القول بأن "الطبيعة"، أو أيّ معيار آخر، يعتمد بمفرده لاستنتاج قواعد سلوكية في إطار التشريعات التي تطبق على جميع المستويات البشرية.

ويجدر التذكير بأن البحث في هذا الموضوع يتعلق إما بموضوع ما هو كائن، أو بما ينبغي أن يكون. فالعلم والتاريخ، مثلاً، يقعان في مجال البحث الأول، ما هو كائن؛ والأخلاق والفنون والسياسة، تقع في مجالات ما ينبغي أن يكون.

غير أن المعنيين السابقين لكلمة "الطبيعة" يتعلقان فقط بموضوع ما هو كائن، إذ أن المعنى الأول يقول بأن لفظة الطبيعة تشمل جميع ما هو كائن؛ والمعنى الثاني يشمل جميع ما يحدث دون تدخل إرادة الإنسان.

ويبدو أن استعمال كلمة "الطبيعة" في مجال الأخلاقيات والسلوك يكشف لنا معنى ثالثاً يشير إلى أن الطبيعة تتعلق كذلك بما ينبغي أن يكون، أي بالمعايير والمبادئ الأخلاقية. غير أننا إذا أمعنا النظر يتبين أن الأمر في هذه الحالة لا يتعلق بمعنى ثالث للكلمة، لأن من يعتبرون الطبيعة معياراً للسلوك لا يعنون أنه ينبغي أن يسمى "معياراً طبيعياً" لأنهم في سعيهم لإيجاد تفسير لما هو كائن، يجعلون منه قاعدة ومعياراً لتفسير ما ينبغي أن يكون عليه السلوك.

ثم ينتقل المؤلف من هذا التحليل إلى التساؤل عن مدى صحة المذهب الذي يجعل الطبيعة اختباراً ومعياراً لتحديد ما هو الخطأ، وما هو الصواب، وما هو الخير، وما هو الشر. ويتناول بهذا الصدد الحديث عن العلاقة بين الطبيعة والقانون فيقول بأن كلمة "قانون" مرتبطة عادة بكلمة الطبيعة، وأن

الأولى تحمل معنيين متباينين، أي ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. فعندما نتحدث مثلاً عن قانون الجاذبية، أو قوانين الحركة، أو قوانين النسب في التركيبات الكيماوية، أو قوانين مجموعات الكائنات التي تنظم حياتها ... نجد أن جميع القوانين تدخل في نطاق ما هو كائن. ثم يشير المؤلف إلى النوع الآخر من القوانين التي تشمل قانون الجنايات، والقانون المدني، وقانون الشرف، وقانون العدالة .. وجميعها تدخل في نطاق ما ينبغي أن يكون، وفي ما تتعلق به مشاعر الناس، وأوامرهم وافتراساتهم بشأن ما ينبغي أن تكون عليه الأمور.

ويخلص المؤلف إلى القول بأن النوع الأول من القوانين (مثل قوانين الجاذبية والحركة..) هي ما نقول عنها إنها قوانين الطبيعة؛ والنوع الآخر هو ما يعرف بقوانين البلاد ومبادئ السلوك. ثم يشير إلى قول الفيلسوف مونتسكيو الذي يرى أن للعالم المادي قوانينه، ولعالم الحيوانات الدنيا قوانينه، وللبشر قوانينهم، وأن مجموعتي القوانين الأوليين أشد صرامة من قوانين المجتمعات البشرية، فيلاحظ المؤلف بأن في هذا القول شيئاً من الغموض، وكأنه يوجد نوع من التناقض بين قوانين ما هو كائن ومستديم، وبين قوانين ما ينبغي أن يكون، أي قوانين المجتمعات البشرية.

ويشير المؤلف كذلك إلى أن بعض الغموض يتخلل كتابات السيد جورج كومب حول هذا الموضوع، ومنها انتشر إلى عدد من المؤلفات الشعبية، وأصبح الناس يقرأون نصائح كثيرة تدعوهم إلى إطاعة قوانين الطبيعة مثلما يطيعون القوانين الأخلاقية. ويوضح ذلك الغموض فيقول: عندما أتناول الطعام، فإن فعلي هذا وما ينجم عنه يتم في إطار قانون الطبيعة؛ ولكن إذا تناولت سما فإنه يتم كذلك وفقاً لقانون الطبيعة، غير أن نتيجته تختلف.

ولذلك ينبغي أن يعرف الناس أي نوع من قوانين الطبيعة يمكنهم أن يطبقوه في كل ظرف وحالة. وعلى سبيل المثال عندما يعبر المرء جسراً ليس له

حاجز، ينبغي أن يتم عبوره وفقاً لقانون توازن "توازن الأجسام"، بدلاً من أن يعتمد على قانون الجاذبية فقط، ويسقط في النهر. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً إلا في إطار القوانين الطبيعية، فإنه بوسعنا أن نشغل قانوناً لنتخلص من قانون آخر؛ وكما يقول فرانسيس بيكون في هذا لاسياق: بوسع الإنسان أن يطيع الطبيعة بطريقة تمكنه من التحكم فيها". وكلما تغيرت الظروف، تغيرت إلى حد ما قوانين الطبيعة التي تتصرف في إطارها؛ وكلما غيرنا اختياراتنا للوسائل والأهداف، نضع أنفسنا تحت مجموعة مختلفة من هذه القوانين. فإذا غيرنا المبدأ الذي يقول "إتبع الطبيعة"، إلى المبدأ القائل "أدرس الطبيعة"، وذلك بأن نتعرف على خصائص الأشياء التي نتعامل معها، فإننا نصل إلى مبدأ السلوك الذكي.

وبعد شرح طويل لعلاقة الطبيعة بالعقائد، وبفكرة الخير والشر، يلخص المؤلف رأيه فيقول ما مفاده :

لكلمة "الطبيعة" معنيان رئيسيان: فهي تعني:

- نظام جميع الأشياء بكامله، مع خاصياتها وفعاليتها.

- الأشياء كما ينبغي أن تكون، بصرف النظر عن تدخل الإنسان.

ففي إطار المعنى الأول، يكون المذهب القائل بأنه ينبغي للإنسان أن يطيع الطبيعة لا معنى له، لأنه من تحصيل الحاصل، غداً أن مضمون المعنى لا يسمح للإنسان بأي قوة سوى أن يطيع الطبيعة، حيث إن جميع أفعاله تتم ضمن إطار قوانين الطبيعة المادية والمعنوية.

وفي إطار المعنى الثاني لكلمة "الطبيعة"، يكون نفس المذهب القائل بأنه على الإنسان أن يطيع الطبيعة، كذلك غير أخلاقي ولا منطقي. هو غير منطقي، لأن جميع أفعال الإنسان تهدف إلى تغيير مجرى الطبيعة التلقائي،

المختصر المفيد

وتهدف أعماله المفيدة إلى تحسين هذا المجرى. وهو غير أخلاقي، لأن مجرى الظواهر الطبيعية طافح بالأشياء التي إذا تدخل الإنسان في مسيرتها قد يشوهها ويفسدها.

وهكذا يبدو أن مخطط الطبيعة، عندما ينظر إليه في أوسع مداه وأهدافه، لم يخلق ليكون هدفه الوحيد أو الرئيسي خير البشر أو أي مخلوقات ذات حس ووعي؛ وأي خير ينالونه من الطبيعة يكون، في معظمه، نتيجة جهودهم. فمن واجب البشرية إذا أن تتعاون مع القوى الخيرية النافعة في الطبيعة، ليس بتقليدها، بل بالسعي الدؤوب لإصلاح مجراها، ليخرجوا منها تلك العناصر التي يستطيعون أن يتحكموا فيها، وأن يجعلوها متوافقة مع معايير العدل، والخير، والفضيلة.

آراء من الغرب حول الدين



فيما يلي نبذة موجزة من آراء علماء وفلاسفة غربيين حول عدد من المسائل العقائدية مثل مفهوم الدين ، وهل هو طبيعي أو فوق طبيعي، وهل الكتب الدينية مثل التوراة والإنجيل مقدسة، وحي من الله، أم هي من وضع البشر؛ وي طرح هؤلاء الفلاسفة تساؤلات حول تفسير الكتب الدينية وما تحتويه من أفكار سماوية وعلمانية؛ وحول أساس الدين هل منبعه الإيمان أم العقل؛ وحول العلاقة بين الدين والدولة أي بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية الزمنية.

لا يجدي الحوار في المسائل العقائدية المهمة، إذا لم يكن بين المتحاورين خلفيات وأفكار متقاربة. فبين من ينفي قدرة العقل⁽¹⁾ وكفاءته في الحكم على المبادئ الدينية، وبين الفيلسوف والعالم الذي يدعو إلى لاتفكير لتفسير الظواهر العقائدية وإدراك مغزاها، لا توجد أرضية مشتركة، وهذا يجعل التفاهم عسيرًا، ويظل موضوع الحوار راكداً، ويستحيل التوصل إلى نتائج إيجابية، لأن آراء كل من الطرفين تلغي آراء الطرف الآخر.

ونلاحظ أن أرضية الحوار والجدال مفتوحة في الموضوعات العلمية والفلسفية؛ وأن الأبواب سرعان ما تنسد، وأن سماء الحوار سرعان ما تكفهر عندما يتعلق الأمر بمناقشة القضايا العقائدية. إن الخلافات بين من يؤمنون ومن يكفرون، بين اليهود وغير اليهود، وبين المسيحيين والملحددين، كانت ولا تزال عبئًا خطيرًا كثيرًا ما يدفع المتعصبين إلى العنف والإرهاب.

(1) مثل مذهب الشكوكية الذي يقول بأن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة ولا محققة.

ويلاحظ أن الخلافات الأساسية تتعلق بمنبع الدين نفسه، وبمعناه وتعريفه، بين من يقول بأن الدين ينبع من وحي الإله، من حكمته وعلمه وقدرته، ومعنى هذا أنه فوق الطبيعة؛ وبين من يرون أن الدين ينبع من الطبيعة، من ميّل الإنسان على التفكير في الكون وفي كل ما يحيط به، وهذا يجعل الدين شبيهاً بالفلسفة وبالعلوم الثقافية. ويقول هؤلاء إنه من التوهم الاعتقاد بأن الدين هبة من الله للإنسان، وهو في واقع الحال ينبع من حاجة الإنسان إلى الإيمان بشيء ما، ومن رغبته في التمسك بظاهرة يلجأ إليها تطمئنّه وتخفف عنه أعباء الحياة. ويرى المؤمنون بوحى السماء أن من يقفون عند حدود الطبيعة تنقصهم هبة الإيمان والرغبة في الاتجاه نحو الله واللجوء إلى هدايته.

إن الدين يعني أكثر من مجرد الإيمان بالقلب والاعتراف بقواعده، بل يعني كذلك أداء الفرائض والعبادات، واحترام الشعائر، والمشاركة في القربان المقدس والطقوس المختلفة؛ والدين يعني أن تعطي ما لله لله، وأن تخضع لأحكامه وأن تسعى لنيل عنايته ورضاه وتوفيقه لكي تحظى بحياة راضية في الدنيا والآخرة. فإذا خلت العقيدة من الورع والإخلاص الداخلي، ومن الممارسات الخارجية التي تبرهن على صدق الإيمان فهي نوع من النفاق والتحايل على العباد.

وبناء على مفهوم الدين بين كونه فوق طبيعي، أي وحي من السماء، وكونه طبيعياً، من صنع الإنسان، يتبنى الناس آراء متباينة ووجهات نظر مختلفة حول الوحي، والإيمان، والنبوة، والمعجزات... فمنهم من يعتقد جازماً أن الدين نابع من سلطة ربانية سماوية هي التي تنزل الوحي على العباد؛ غير أن هؤلاء أنفسهم لا يتبعون ديناً واحداً، ولا يتعبدون لله بطريقة واحدة، ولا يؤدون الشعائر نفسها. ونلاحظ أن العلاقات بين الطوائف والمذاهب التي

تتبنى معتقدات مختلفة قد تكون عسيرة ومعقدة لدرجة لا تقل خطورة عن الخلافات بين من يؤمنون بدين سماوي ومن لا دين لهم.

ويلاحظ أن تعدد الطوائف في الغرب واختلاف طقوسها وتعاليمها، تطرح قضية خطيرة هي: من على صواب ومن على خطأ، من الضالّ ومن المهتدي؛ ويجد الناس أنفسهم أمام كنائس ورجال دين يرفض فريق منهم الاعتراف بمعتقدات الكنائس الأخرى التي قد لا تقل مصداقيتها وشعائرها عن مصداقية الطوائف الأخرى، وربما يستغل رجال الدين موضوعات مثل الانشقاق العقائدي، والهرطقة، والإلحاد، والوثنية، فيجعلون منها مرتعا خصباً لينعشوا مجادلاتهم مع من يخالفون آراءهم. يقول المؤرخ غيبون: إن عبارة "الوثنية" تعني عبادة الآلهة الزائفة، ويشير إلى أن المسيحيين يتهمون المسلمين بأنهم كذلك. وتنتشر مثل هذه الاتهامات بالهرطقة، والوثنية، وأتباع البدع وغيرها كذلك بين المسيحيين واليهود، والكاثوليك والبروتستانت.

ومع أن موضوع الدين ومضمونه يطرح فكرة التسامح في أعمق وأوسع مدلولها، فإن التسامح يصطدم بجدار الرفض لأن موضوع الدين يتعلق بمن هو على حق ومن على باطل في معتقداته. والخطورة تكمن في كون أتباع عقيدة ما يعتبرون أنفسهم هم المؤمنون بما أوحى الله، وأن ممارساتهم العقائدية نابعة من القانون الإلهي المقدس، فكيف يعقل في هذه الحال أن يطلب منهم أن يتخلوا عن دينهم وينتقلوا إلى دين آخر لا يؤمنون بمصداقيته. ولهذا نجد أنه من شبه المستحيل الحديث عن التسامح بين طائفة تؤمن بوحى السماء، وأخرى تعتبر دين الأولى مجرد آراء وأحكام مسبقة، دينا قريبا من الخيال وبعيداً عن الحقيقة والعقل، قد لا يجدي معه الحوار والجدال والمحاضرات.

ومع أن الإنجيل والتوراة هما الكتابان المقدسان لدى الغربيين، فليس كل من يقرأهما أو يكتب عنهما يعتبرهما كتابين مقدسين. وكثيراً ما نجد أن الفيلسوف، والمؤرخ، والمسيحي، والعبري، يعترف بمضمون الكتابين، ويوجه

فكره إلى معتقدات أخرى. وما أكثر الناس الذين يقرأون الإنجيل باعتباره مجموعة من الكتابات التي دونها البشر، وتركت تأثيراً بالغاً في الحضارة الغربية. ومهما كان تأثير هذه الكتابات في ميادين الحكمة، والتاريخ، والأخلاق، والشعر... فإنها لا تقتضي اهتماماً خاصاً إلا إذا حصل تمييزها عن الكتب الأخرى بصفقتها "كلمة الله". ومن هنا يبدأ الحوار بطرح السؤال الرئيسي: هل الإنجيل كتاب الله المقدس؟ أم إنه لا يختلف كثيراً عن المؤلفات الأخرى مثل أشعار هوميروس، ومقالات حكماء اليونان؟

فإذا نظر المفكر الغربي إلى الإنجيل على أنه ليس كتاباً مقدساً، يصبح بإمكان القارئ أن يكتشف فيه تناقضات غير منطقية، وأفكاراً وحكايات معرضة للشك والنقد. ولكن إذا اعتقد المرء أن الإنجيل والتوراة هما من الكتب المقدسة التي أوحاها الله إلى المسيح عيسى وموسى (عليهما السلام)، عندئذ تكون لهما سلطة وقدسية تجعلهما فوق أي شك أو تساؤل.

يقول الفيلسوف هوبز: إن الإيمان هبة من الله لا يستطيع أي إنسان أن يعطيها أو يأخذها بواسطة المكافأة أو التهديد. ويرى أن الإيمان يعتمد على براهين نابغة من العقل، أو من أفكار وحوادث اعتاد المرء أن يثق بها؛ وأنه لا ينبع من ظواهر فوق طبيعية، بل من التربية والثقافة والانضباط والتأديب ومن غيرها من الأساليب الطبيعية التي يركبها الله في صفوة عباده الذين اختارهم ليعلمونا كيف نصبح مؤمنين؛ وبالنتيجة يقول هوبز: إننا عندما نؤمن بأن الإنجيل هو كلمة الله، ولم ينزل على أحدنا وحي أو إلهام مباشرة، فإن موضوع ثقتنا وإيماننا هي الكنيسة التي نستمتع إلى كلامها ونثق به.

ويتناول الفيلسوف لوك الحديث عن صحة تفسير المسيحيين لكلام الإنجيل فيقول: على الرغم من أن كل ما ورد في نصوص الإنجيل صحيح، فإن

القاري قد يخطئ في فهمه وإدراك مغزاه. والواقع أن الإرادة الربانية عندما تبلى بواسطة لغة الإنسان يمكن أن تتعرض للغموض فتلتبس مقاصدها. وبما أن مبادئ وحقائق "الدين الطبيعي" واضحة لا غبار عليها، مفهومة لدى جميع الناس، وأن الحقائق والتعاليم الدينية التي تبلى إلينا بواسطة اللغات والكتب (يعني الوحي) معرضة لما يحدث في الكتابة والكلام من غموض ومن خطأ في النقل والتفسير، فإنني أرى أنه من واجبنا أن نتوخي الحزم والعناية في التعامل مع الحقائق الطبيعية ومبادئها؛ وأن نكون أقل حزمًا وإلحاحًا واستبدادًا عند التعامل مع التعاليم والحقائق التي تبلى إلينا بواسطة الوحي.

ويعترف القديس أوغستين بأن تفسير حقائق الإنجيل وتعاليمه ليست مهمة سهلة، وقد تعرض هذا الكتاب المقدس لتفسيرات مختلفة، ويقول: عندما يقول لي رجل "كان موسى يعني ما أقول"؛ ويردّ شخص آخر قائلاً "كلا، كان يعني ما أقول أنا"، يبدولي أن الجواب الصحيح هو: لماذا لم يكن موسى يعني ما قاله كلاهما؟ إذا كان قول كل منكما سليمًا. وكان القديس أوغستين يعتقد بأن ما جاء به الكتاب المقدس حق لأنه وحي من الله، ولكنه كان يفسح المجال واسعًا للتفسير من أجل تحديد ما هو ذلك الحق بالاعتماد على المعايير العادية لما هو حق في التفكير السليم.

ويرى الفيلسوف باسكال أن الدين المسيحي يتضمن بيانات خاصة تبرهن على أنه دين العقيدة الصحيحة. ويقول: كل دين لا تتضمن عقيدته عبادة إله واحد هو أصل كل شيء، هو دين مزيف، هذا هو الحق والصواب، ويضيف "لا توجد عقيدة جاءت بهذا الحق (عبادة إله واحد) إلا عقيدتنا". (فما أعظم جهله بالإسلام)!

ويقول باسكال ما مفاده أنه ينبغي للعقيدة أن تهتم كذلك برغبات الإنسان ونقاط ضعفه؛ وهذا ما فعلته عقيدتنا إذ قدمت أنواعًا من العلاج لذلك، منه "الصلاة". ولا توجد ديانة أخرى غير المسيحية طلبت من الرب

الأعلى أن يمنحها القوة لتحبه وتسير على دربه. وعندما يقرأ باسكال قول المسيح عليه السلام: "إذا كنتم لا تصدقوني صدقوا على الأقل معجزاتي"، يعلق قائلاً: إن المعجزات هي أقوى دليل على صحة العقيدة لأنها تقدم البرهان لمن يداخله الشك من اليهود والوثنيين والملحدين وغيرهم.

ومن المسائل المهمة التي اختلف فيها الفلاسفة وعلماء اللاهوت السؤال: هل الدين مبني على الإيمان أو على العقل؟ يقول الفيلسوف هيوم إن الدين مبني على الإيمان وليس على العقل، وهذا "يعني ضمناً أن المؤمن المسيحي يتخلى عن العقل والتفكير". أما القديس أوغستين، وتوما الأكويني فيريان أنه لا يوجد تعارض بين العقل والإيمان، على الرغم من أن الإيمان يتبنى أشياء لا يستطيع العقل أن يثبتها بالدلائل. والواقع أن ما يقدمه العقل من دعم للإيمان لا يقلل من أهمية هذا الأخير.

ويقول الفيلسوف هوبز: إن الدين الذي يعتمد على قوى فوق طبيعية، ويلجأ إلى الاعتقاد بالمتناقضات والمستحيلات يفقد شيئاً من مصداقيته. ولهذا فمن الأفضل أن لا يتضمن الوحي ظواهر يرفضها العقل. ولكن الدين الذي ينبع من القوى الطبيعية يعتبر نوعاً من الفلسفة، ولا يستطيع أن يرفعنا إلى أعلى من مستوى التجارب العادية، ولا أن يوفر لنا أساليب سلوك تختلف عن تلك التي نبلغها بالتأمل والتفكير في الحياة العادية.

ومن العلماء من يرى أن الدين ليس أكثر من استجابة الإنسان لاحتياجاته العصبية، أو أنه مجرد تدجيل وخداع اجتماعي. ومنهم، مثل فرويد وكارل ماركس، من يعتبرون الأديان السماوية حكايات زائفة، ويرفضون كذلك فكرة الدين الذي ينبع من الطبيعة، ويؤكدون على أن العلم وحده هو الذي يكشف الحقائق ويوجه البشرية نحو حياة الرقي والازدهار.

قرأ العالم فرويد البيتين التاليتين للشاعر غوته :

"من يملك العلم والفن، يملك الدين كذلك، ومن لا علم له ولا فن، فليجأ إلى الدين".

فقال معلقاً: هذه الكلمات من جهة تقارن الدين بأعلى إنجازين حققهما الإنسان، العلم والفن؛ ومن جهة أخرى تعلن هذه الكلمات أنه نظراً لأهمية العلم والفن والدين في الحياة، يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر؛ وبهذا يبرر فرويد ديانة الرجل البسيط، إذ يرى أن من ليس له علم ولا فن يساعده على الحياة، عليه أن يلجأ إلى الدين، لأن الحياة قاسية علينا ولا نستطيع أن نتحملها بدون أدوية ومسكنات تلتف من قلقنا ومعاناتنا.

ويوجه فرويد انتقاداته إلى ما يسميه ديانة الفلاسفة وديانة اللاهوتيين، فينتقد الفلاسفة؛ لأنهم يحاولون أن يصونوا إله الديانة بأن يضعوا في مكانه مبدأً مبهمًا، مجردًا، لا شخصيًا؛ وينتقد رجال اللاهوت عندما يقولون بأنه ليس للعلم حق في أن يتدخل في بحث المعتقدات الدينية، وينكرون بأنه كفاء ليكون حكمًا في قضايا اللاهوت. يقول فرويد "بأي حق يدعي الدين لنفسه مكانة استثنائية بين اهتمامات الإنسان؟ ويجب: لعل السبب هو أن الدين لا يمكن قياسه والحكم عليه بمعايير بشرية، إذ أنه ينزل من مصادر سماوية مقدسة لا يستطيع فكر الإنسان أن يدركها؛ ولكن ما أسهل أن يرفض المرء هذه المبررات (حسب رأيه).

يقول فرويد: "المسئلة التي يدور حولها تساؤل بعض الفلاسفة في هذا المجال هي هل توجد روح قدسية ووحى سماوي؟ ومن الواضح أن الجواب لا يكون مرضيًا ولا نهائيًا إذا توقف عند القول بأن هذا السؤال لا يطرح، لأن قضية الألوهية لا يمكن أن تكون محل تساؤل".

ويشبه كارل ماركس آراء رجال اللاهوت بآراء النظرية الاقتصادية الكلاسيكية التي تنبذ المؤسسات الإقطاعية وتتبنى نظرية المؤسسات البرجوازية وترى أنها طبيعية؛ فكذلك يفعل علماء اللاهوت عندما يؤكدون

بأنه لا يوجد سوى نوعين من الديانات، وأن كل ديانة تخالف ديانتهم فهي زائفة وباطلة لأنها من صنع الإنسان، أما ديانتهم فهي من وحي السماء.

ويشجب أفلاطون آراء العلماء الذين يقولون بأن جميع أنواع الديانات ليست سوى عبارات ملفقة وحكايات خيالية. وكأنه كان يتحدث إلى فرويد وماركس عندما كتب في "القوانين" ما مفاده بأنه عندما يتحدث عن الدين يفرق بين الطبيعة والفن؛ وأن الذين يقولون بأن الآلهة لا توجد بالطبيعة، بل بالفن وبقوانين الدول التي تختلف من دولة لأخرى، فهؤلاء هم الذين يقولون بأن مبادئ العدالة لا وجود لها في الطبيعة، وأن المخلوق النبيل في الطبيعة هو غير المخلوق النبيل الذي تحدده القوانين، وأن مبادئ العدالة لا وجود لها في الطبيعة".

ويرى أفلاطون أن عدالة الدولة وقوانينها ينبغي أن تؤسس ليس على الطبيعة وحدها، بل كذلك على الدين والاعتقاد بالآلهة. وقد ردّ على من يقولون بأنه أمر مروع أن نشرع القوانين على افتراض وجود آلهة فقال: ليس من السهل التدليل على وجود الآلهة، وعلى أنها آلهة خيرة تفكر في العدالة أكثر مما يفكر فيها الإنسان، ويضيف: إن الشخص الذي يطبع القوانين، ويؤمن بوجود الآلهة لا يرتكب أعمالاً شريرة، وينطق بعبارات مبتذلة خارجة عن القانون؛ ومن يفعل ذلك فهو لا يؤمن بوجود الآلهة، أو يعتقد بأنها موجودة ولكنها لا تهتم بشؤون الإنسان، أو أنها تخلت عن مهامها منشغلة بما يقدم لها من قرابين وضحايا وصلوات. وعلى هذا الأساس "فإن السعي للبرهنة على وجود آلهة خيرة هو أفضل مقدمة لجميع ما نضع من قوانين".

واهتم الفيلسوف روسو بالدور الذي يضطلع به الدين في تأسيس الدولة واستمراريتها؛ ويطرح السؤال: أيّ دين هو الذي يعالج طبيعة الآلهة وطبيعة الدولة بصفة متعادلة في عالم الفيلسوف السياسي؟ ويضيف، وهو متأثر بالحضارة المسيحية، "إن الفيلسوف السياسي لا يمكنه أن يعالج موضوع الدين دون أن

يوجهه علماء اللاهوت". ولهذا يرى أنه من الضروري التمييز بين مصادر العقائد السماوية وهو الوحي، وبين دين ينبع من الطبيعة ومن القوانين المدنية.

ويرى روسو أن ما تحتاجه الدولة هو "الإيمان المدني الصريح" الذي يحدّد الملك بنوده ليس بدقة العقيدة اللاهوتية، بل كمشاعر اجتماعية لا يستطيع المواطن بدونها أن يكون مواطنًا صالحًا وفيا ومخلصًا، ثم يوضح روسو ما يعتبره بنود العقيدة الدينية المدنية فيقول: ينبغي أن تكون هذه البنود قليلة وبسيطة، دقيقة وواضحة، دون شروح وتعليقات وتعقيدات ومستثنيات مثل وجود إله قادر، عليم، رحيم وحكيم؛ الدار الآخرة؛ السعادة لأهل الخير والعدل؛ العقاب للأشرار، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين.

ويقول الفيلسوف مونتسكيو: "أما فيما يتعلق بالدين الصحيح فإنني لم أرغب أبدًا أن أجعل مصالحه خاضعة لمصالح سياسية، بل كان هدفي أن أوحّد بينهما، ذلك أن الدين المسيحي الذي يدعو الناس ليحب بعضهم البعض الآخر، فإنه إلى أن يجعل الأمة تنعم بأفضل القوانين المدنية والسياسية؛ ويقدر ما يزداد إيمان الناس بأنهم مدينون لدينهم يزداد إيمانهم ببلادهم، لأنه إذا كانت مبادئ المسيحية متمكنة من قلوب الناس، يزداد شعورهم بقوة أعظم وأسمى من شرف الممالك الزائف، ومن فضائل الجمهوريات البشرية، ومن جور الدول المستبدة.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين الكنيسة والدولة، توجد ثلاثة مواقف رئيسية: يدعو أحدها إلى الاندماج بينهما؛ ويدعو الرأي الثاني إلى تبعية الكنيسة للدولة، أو الدولة للكنيسة؛ ويقول الموقف الثالث باستقلال كل منهما عن الأخرى.

يقول الفيلسوف هوبز عن الدولة المسيحية بأنها مجموعة من الناس يؤمنون بالدين المسيحي، ويوحدتهم شخص الملك، وأنه لا توجد على الأرض

كنيسة عالمية واحدة يخضع لها جميع المسيحيين؛ لأنه لا توجد قوة واحدة تحكم جميع المسيحيين في العالم، ولا توجد دولة مدنية فقط، وأخرى مسيحية فقط، بل هناك دولة مدنية زمنية سكانها مسيحيون.

ويوافق علماء كثيرون، منهم القديس أوغستين وروجر بيكون، هوبز على قوله بوجود دولة واحدة واندماج الحكومة والكنيسة، ولكنهما يجعلان الملك في خدمة رجال الدين، ويجعلان السلطات العليا الروحية والزمنية في يد الحبر الأعظم، لأن الكنيسة في نظرهما تتمتع بسلطة روحية عالمية تشمل الدولة.

ويرى العالم توما الأكويني أنه لا يمكن لقانون مدني أن يكون سليماً وناجحاً إذا كان مضمونه مخالفاً للقانون الإلهي؛ فالمجتمع يهدف إلى بلوغ حياة الفضيلة والخير الأسمى، وهو لا يدركها إلا بقوة الوحي السماوي، لذلك فإن الدولة اللاهوتية وليست المدنية هي التي توجه الناس إلى الهدف المذكور.

ويعارض مارسيلوس من بادوفا آراء توما الأكويني، إذ يفصل الأول الكنيسة عن الدولة، غير أنه يجعل رجال الدين تابعين للملك. ويرى دانتي أن للإنسان هدفين جوهريين: فالإنسان من بين المخلوقات يتصف بالصالح والفساد، فهو وحده بين المخلوقات يعيش على مستويين، فهو مخلوق صالح، ومخلوق فاسد. وبالنتيجة يسعى الإنسان لنيل نوعين من السعادة، إحداها دنيوية عندما تحقق البشرية قواها الفكرية عبر الزمن؛ والأخرى عندما تبلغ البشرية كمالها الروحي وتتمكن من مشاهدة وجه الله. ويرى دانتي أنه على الإنسان أن يسعى لبلوغ هاتين الحالتين من السعادة العظمى بطرق مختلفة، السعادة الأولى عندما يتبع التعاليم الفلسفية ويطبقها على قدراته الأخلاقية والفكرية؛ والسعادة الثانية عندما يتبع التعاليم الروحية التي تتجاوز مستوى العقل البشري وفقاً للقوانين اللاهوتية الروحية، والإيمان، والأمل، والإحسان.

يؤسس دانتي نظريته الخاصة باستقلال الدولة عن الكنيسة انطلاقاً من آرائه حول فلسفة القانون المدني من جهة، وحول الدين والوحي والقانون

الإلهي من جهة أخرى، أي بين العقل والإيمان. يقول دانتي للإنسان عنانان يمسك بكل عنان فارس؛ ويوجهه كل فارس نحو أحد الهدفين (أو إحدى السعادتين) المذكورين. أحد الفارسين هو الحبر الأعظم الذي يقود البشر بواسطة الوحي والإيمان إلى الحياة الخالدة؛ والفارس الآخر هو الملك الذي يقود الناس بواسطة التعاليم الفلسفية إلى السعادة الدنيوية. ويمكن أن ينظر المرء إلى الكنيسة والدولة مثل الشمس والقمر، فالدولة تتلقى بعض النور من الكنيسة حتى فيما يتعلق بقوانينها المدنية. غير أن للدولة منابعها الخاصة من النور الذي ينبعث من العقل. فالسلطة المدنية (الزمنية) لا تتلقى من السلطة الروحية قوتها ونفوذها، ولا مبررات وجودها، وإنما تتلقى منها نور النعمة الإلهية ومباركة الحبر الأعظم لكي تؤدي مهامها على أكمل وجه.

والواقع أن جميع النظريات السابقة التي ترجع في معظمها إلى القرون الوسطى، تعتبر أن الدين ظاهرة فوق طبيعية، وأن للكنيسة كذلك أسساً فوق طبيعية، وأن الدين والكنيسة يهدفان إلى قيادة الإنسان نحو هدف فوق طبيعي. وتختلف تلك النظريات فيما بينها بحسب موقفها من طيبات الدنيا، ومتع الحياة، ومن قدرات الإنسان العقلية، ومن سلطات الإنسان القضائية.

ويرى غيلسون أن اختلاف النظريات المشار إليها تؤكد المبدأ القائل بأن "الطريقة التي يتصور المرء بها العلاقة بين الدولة والكنيسة، والطريقة التي ينظر بها إلى العلاقة بين الفلسفة واللاهوت؛ والتي يتصور بها العلاقة بين الطبيعة والعناية الإلهية، جميعها مرتبطة بالضرورة. وما زالت النظريات الخاصة بالعلاقة بين الدولة والكنيسة متبعة، مع بعض التغييرات، في العهود الحديثة.

ومن مميزات الآراء الجديدة حول موضوع الدين أنها تتبنى أفكاراً أكثر واقعية وتسامحاً، فنجد الفلسفة تدافع عن الدين باعتباره يدعم السلام في المجتمع؛ وفي الدولة العلمانية تعتبر الكنيسة مؤسسة بشرية مدنية؛ وأصبح

المختصر المفيد

مبدأ التسامح الديني لا يعني التسامح ضمن المجتمع الواحد فقط، بل يشمل كذلك التسامح بين الأديان المختلفة. يقول الفيلسوف لوك Locke: "يبدولي أن الدولة عبارة عن تجمعات من الناس تهدف إلى توفير مصالحهم واحتياجاتهم المدنية، وإلى حماية السكان وتحسين ظروف حياتهم؛ وأن الكنيسة مجموعة متطوعة من السكان توجه الناس إلى عبادة الله، وتعلمهم الشعائر الدينية، وتقودهم إلى سبيل الرحمة والخلاص.

ويهاجم الفيلسوف ميل Mill القوانين التي تقيّد حرية الإنسان العقائدية، ويعتبرها تدخلاً غير مشروع في حقوق الفرد، ويقول ما مفاده: إن الفكرة القائلة بأنه من واجب شخص ما أن يأمر شخصاً آخر بأن يلتزم بالشعائر الدينية هي سبب جميع الاضطهادات التي انصبت على الأبرياء".

ويرى هيغل أنه يجب على الدولة أن تطلب من المواطنين أن ينضموا إلى الكنيسة، ولكن ليس لها أن تتجاوز هذا الحد، لأن إيمان الرجل يتوقف على أفكاره ومشاعره، ولا تستطيع الدولة أن تتدخل فيها.

وهكذا يبدو أن المواقف التي يتبناها الناس حول موضوع العلاقة بين الدولة والكنيسة يتوقف على مفاهيمهم المختلفة لموضوع الدين. وينطبق هذا كذلك على وجهات النظر المختلفة حول الحرية العقائدية، والانشقاق عن الكنيسة، والهرطقة، ونبذ العقيدة، ومهنة التبشير والسعي لهداية الملحد، وغير ذلك من الموضوعات العقائدية الحساسة⁽¹⁾⁽²⁾.

(1) المرجع: هذا الموضوع ملخص من موسوعة:

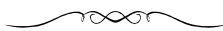
Great Books of the Western World, Decline & fall of the Roman empire, vol. II – Chapter XV (E. Gibbon).

(2) المرجع: هذا الموضوع ملخص من موسوعة:

Great Books of the Western World, The great Ideas (Syntopicon – vol. 3- Chapter 79).



الشعر والحياة



مقدمة



قال معاوية بن أبي سفيان "علّموا أولادكم الشعر، فوالله ما ملكتُ الملكَ إلا به". وقال لي زميل ذات يوم: دعنا من الشعر، ماذا استفدنا منه؟ إنه كلام الأحلام والخيال، العلم هو أساس النجاح والحياة". أزعجتني هذه الملاحظة؛ غير أنها حفّزتني على قراءة الشعر، وإعداد هذا الكتاب الذي أسميته "الشعر والحياة"؟ من البديهي أن الحياة في أبسط أشكالها تتطلب الغذاء والهواء والماء والنور... ولكن في المخلوقات العليا، ومنها الإنسان، تحتاج الحياة الراقية كذلك إلى الحب والعمل والمال، والعلم والفن وغير ذلك؛ لأن الإنسان مادة وروح، منطوق ومشاعر، معدة وفكر. والجواب على زميلي هو أن الشعر تناول جميع هذه الأمور ودواوين الشعراء، قديمهم وحديثهم، تزخر بالحديث عن حياة الإنسان، وعن الطبيعة بجوانبها المادية والمعنوية.

من يسأل "ما فائدة الشعر؟" كمن يسأل ما فائدة البحر، والسحاب، والغابات، والطيور، والأعياد، والموسيقى. صحيح أن منافع العلم كثيرة ومزاياه لا تحصى، ولكن الشعر شريك له، وليس منافساً. ومتى كان الفن مزاحماً للعلم؟ وإذا أزلنا الفن من حياة الإنسان، لا تبقى إلا صورة اللحم والعظم والدم.

أقترح على من يستخف بمزايا الشعر العربي أن يقرأ التعريف العلمي للقمح، لغروب الشمس، لزهرة، أوللعين والشفاه، على سبيل المثال لا الحصر؛ ثم يقارن هذه التعاريف بما ورد في أقوال الشعراء من أوصاف لهذه الأشياء. وسيجد أن التعريفين متكاملان، وضروريان لحياة الإنسان وراحته المادية والمعنوية، وأن الأوصاف الشعرية أقرب إلى قلب الإنسان، وأشد تأثيراً على مشاعره وسلوكه، وأطول بقاء في ذاكرته، وأكثر انتشاراً بين عامة الناس.

الشعر العربي تراث عريق، وثروة ثقافية تشمل جميع مجالات الحياة. إنه

نبت فياض من تجارب الإنسان، وصور وشرائط تعرض علينا أساليب حياته ومنجزاته ونجاحه وفشله. والشعر مرآة تعكس لنا الظروف الاجتماعية، والتطورات التي مرَّ بها الإنسان العربي في حالة بدوه وحضره، ومجده وانحطاطه، وقوته وضعفه. ومرت القرون بأحداثها ومباهجها وآلامها، ولكن بقيت دواوين الشعر تعرض علينا سجلات ومشاهد ولوحات عن مختلف الحقب التي مرَّ بها المجتمع العربي في الشرق والغرب.

وتضم دواوين الشعر العربي، بين أحضانها الرحبة الثرية، أحاديث عن جميع أوجه النشاطات البشرية من العشق إلى الزهد، من المجون إلى دُرر الحكم والأمثال. ويحدثنا الشعراء عن الفرسان والصعاليك، والكرماء والبخلاء، والوفاء وإكرام الضيف واحترام الجار، وعن الطرب واللهو، والشباب والمشيب، وتقلبات الزمان، وعن الحياة والموت.

الشعر نفحة سحرية، ينفثها الشاعر الموهوب في الحوادث وفي الأشياء، فتنتعش ويجري فيها ماء الحياة ونفْسُها. وينشئ لها من أفكاره خيوطاً وأنسجة توسع مجالاتها، وتربطها بحياة الإنسان ورغباته ومشاعره وآماله وطموحاته. الشعر نشيد الحياة وفاكهتها وعصيرها.

يرسم الشاعر لوحات فنية، فيعرض علينا الطبيعة كما يشاهدها بوعيه وإحساسه العميق، فنلمس فيها نبضات الطبيعة، وتقلبات فصولها في أجمل صورها وألوانها ومباهجها، ونسمع موسيقى الحياة الكامنة في حركات أشجارها وزهورها وحشراتنا وطيورها، نغمات وأصوات تنبعث من أعماق الطبيعة، تلمئن الإنسان، تنعش النفس، تطرب العاشق، تسلى الكئيب، تحيي الذكريات وتبعث الأمل في قلوب الجميع.

ولعلَّه من المفيد أن نترك المجال لعدد من الشعراء، ليحدثونا عن بعض آرائهم في الشعر.

◆ الشعر والحياة ◆

يرى حسان بن ثابت أن الشعر مرآة لشخصية صاحبه، وأن أجمل الشعر ما كتب له البقاء لصدقه وانسجامه مع مسيرة الحياة:

وإنما الشعر لب المرء يعرضه ❖ ❖ على المجالس إن كيساً وإن حمقا
وإن أشعر بيت أنت قائله ❖ ❖ بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويقول أبو تمام: إن من مزايا الشعر أنه أوضح لنا سبلا، ويبين لنا معالم، تساعد الطامحين على تحقيق ما يهدفون إليه من إنجازات عظيمة:

ولولا خلال سنّها الشعرُ ما درى ❖ ❖ بناء العلى من أين تُؤتى المكارم

وفي البيت التالي، يرى البحتري أن الشعر ينبغي ألا يُقيد بحدود المنطق والواقعية الضيقة:

كلفتمونا حدود منطقتكم ❖ ❖ في الشعر، يكفي عن صدقه كذبُه

وعندما توهم المعاني في فكر السرى الرفاء، لا يبقى عليه إلا أن يلبسها أحلى العبارات لتظهر القصيدة مثل الجواهر المضيئة على صدر الحسناء:

إذا ما المعاني أومضت لي بروقها ❖ ❖ وساعدها وشي الكلام المنمنم
رأيت التهاب الحلي في جيد غادة ❖ ❖ ترائبها من تحته تتبسم

وجمع الأبيوردى بعض صفات الشعر في بيت فقال:

مُؤيس مُطمع، قريب بعيد ❖ ❖ فهو أنس المقيم، وزاد الرفاق

ويرى الجرجاني أن الشعر الجيد يحرك مشاعر المدوح، ويسلي المشتاق، ويهدئ ثورة الغاضب:

وما الشعر إلا ما استقز مُمدّحا ❖ ❖ وأطرب مشتاقا وأرضى مغاضبا

تجد النفوس في الشعر متعة تفوق ما تجده في زهور الربيع ورياضه ومروجه، لأن مباحج الشعر ونفحاته باقية ومتاحة لمن يطلبها في جميع الفصول.

يقول أحمد شوقي:

أين نُورُ الربيع من زَهْرِ الشعر ❖ ❖ إذا ما استوى على أفئانه
سَرمَدُ الحِسن والبِشاشة مهما
تلتَمسه تَجَرِّده في إِيَّانه

ويقول حافظ إبراهيم إن الشعر يلبي رغبات الناس، فهو يحفز همم
الطامحين، كما يستجيب لورع الزاهدين:

ففي الشعر حثُّ الطامحين إلى العُلا
وفي الشعر زهدُ الناسك المتورِّع
وفي الشعر إحياءُ النفوس ورثها
وأنت لريِّ النفسِ أعذب منبع

ويلاحظ قارئ الأبيات التالية مدى الالتحام بين الشاعر الفتى
أبي القاسم الشابي وشعره. إنه قطعة من أحشائه، ونشيد مشاعره،
وعصير حياته:

أنت يا شعر فلذة من فؤادي ❖ ❖ تتغنى، وقطعة من وجودي
فيك ما في جوانحي من حنين ❖ ❖ أبدي إلى صميم الوجود
فيك ما في خواطري من بكاء ❖ ❖ فيك ما في عواظي من نشيد

والشعر، كما يراه الرصافي، لابد أن يذكر المشاعر، ويهيج لواعج الوجد،
فنلمسه في دمة العاشق، ونظرة العيون الساحرة، ونغمات المطرب، وصراخ
الثكالي، وسجع الحمام؛ يقول الشاعر:

ومن ضحكاتِ الشَّعرِ دَمعةُ عاشقٍ
بها قد شكَا للوَصْلِ ما فَعَلَ الهَجْرُ

ومن لمعات الشعرِ نظرةٌ غادّةٌ
بِنَجْلاءِ تَسْبِي القلبِ في طَرْفِها فترُ
ومن جمّراتِ الشعرِ رُبّةٌ تاكِلُ
مُفَجَّعةٌ أودى بواجدها الدهرُ
ومن نَفحاتِ الشعرِ ترْجِيحُ مُطْرِبِ
تعاوَرَ مَجْرَى صَوْتِهِ الخَفِضِ والتَّبرُ

ويرى محمد مهدي الجواهري أن الشعر، على الرغم من رقة ألفاظه
وسلاسة أسلوبه، يجب أن يتحول إلى سلاح فتاك في يد المناضلين من أجل
الحق والعدل وردع العدوان:

ومن عَجَبِ أَنْ القَوافي سِوائِلا
إذا شُجِدْتَ للحَصْدِ فهي مَناجِلُ
وهُنَّ كماءِ المِزْنِ لُطْفًا ورِقّةٌ
وهُنَّ إذا جَدَّ النَّضالُ مَعاولُ

ويتساءل إيليا أبو ماضي: هل الشعر إلهام، وحي، أم مجرد نفثات
شياطين؟ ثم يجيب: كلا، بل منبع الشعر هو الإنسان بما ينسج من أفكار
ولوحات شعرية هدية لأخيه الإنسان:

ما هُوَ الشعر؟ إنني ما رأيتُ اثنين إلا وفيه يختصمانِ
قال قومٌ: "وحي ينزلهُ اللهُ"، وقومٌ: "نَفَثٌ من الشيطانِ"
ضلَّ هذا وذا، فما حَفَزَ الإنسانَ شيءٌ للشعرِ كالإنسانِ

الأزرق بن علو

ملذات الحياة



ما أجمل ما قاله أبو بكر الكاتب (القرن الرابع)، في مجال دعوة الإنسان إلى اغتنام الفرص المواتية، للتمتع بملذات الحياة التي لا تؤذي المرء، ولا تتسبب في إيذاء الآخرين. وقد صدق في الدعوة إلى أن يأخذ المرء حظه من المتع المعنوية، والملذات الحسية.

يقول أبو بكر الكاتب:

وخيرُ عمرِ الفتى عمرُ يعيشُ بهِ ❖ ❖ مقسم الحال بين الجدِّ واللعبِ
فحظُّ ذلك من علمٍ ومن أدبٍ ❖ ❖ وحظُّ هذا من اللذات والطربِ

وينصح بعض الشعراء الإنسان باغتنام الظروف المواتية، والاستمتاع باليوم قبل فواته، ما دامت الحياة صافية، وصروف الدهر غافلة.

يقول ابن الدهان النحوي في هذا المعنى:

بادرْ إلى العيش والأيام راقدة ❖ ❖ ولا تكن لصروف الدهر تتظرُ
فالعمرُ كالكَأسِ يبدو في أوائله ❖ ❖ صفوا، وآخره في قعره كدرُ

وكما يُنصح المرء أن يكدَّ ويجتهد، وألا يؤخر عمل يومه إلى غده، ينصح كذلك ألا ينسى نصيبه من الدنيا، ويروى أنه عندما بلغ امرؤ القيس نبأ مقتل أبيه، قال: "اليوم خم، وغداً أمر".

وقال يزيد بن معاوية:

خذوا بنصيب من نعيم ولذة ❖ ❖ فكلُّ وإن طال المدى يتصرمُ
ألا إنَّ أهنا العيش ما سمحت به ❖ ❖ صرور الليالي والحوادث نُومُ

أما عمرو بن قنعاس المرادي فيعترف بصراحة بأنه لم يضع فرصة

◆————— الشعر والحياة —————◆

سانحة لينال نصيبه من متع الحياة؛ ويسجل لنا ذلك في أبيات ذات نغمات موسيقية وعبارات واضحة. وبعد أن يعدد مصادر لذاته يقول:

متى ما يأتني أجلي يجدني ❖ ❖ شبعْتُ من اللذذة واشتفيتُ

ويذكرنا إبراهيم الغزى بأن أيام الهناء والصفاء لا تدوم، وساعات التمتع بطيبات الحياة قليلة، لأن الشباب رائل، فلم لا يسارع المرء إلى التمتع بالحياة، ما دامت حوادث الدهر غافلة:

خُذْ ما صفا لكْ فالحياةُ غرور ❖ ❖ والدهرُ يعدل تارةً ويجورُ

بادرْ فإن الوقتَ سيفٌ قاطعُ ❖ ❖ والعمرُ جيشٌ والشبابُ أميرُ

زمن المرح والبهجة والهناء قصير وإن طال، وأيام الهموم ثقيلة طويلة ومضنية، لهذا يدعو ابن وكيع التيسري الناس لأن يستيقظوا قبل فوات الأوان:

ذا العيشُ فافظنْ له وبادرُ ❖ ❖ من قبل أن يظنن الحمائمُ

وانعمْ فعام السروري عندي ❖ ❖ يومٌ، ويوم الهموم عامُ

وماذا يفعل المرء إذا أصبحت حياته رتيبة مملة، وبدأت جذوة نشاطه تخمد؟ لنستمع إلى نصيحة أبي الفتح البستي:

إذا خمدتْ أنوارُ نفسك فاعتمدُ ❖ ❖ لإشعالها خمسا غدتْ خيراً أعوانِ

براح وريحانٍ وساق مُهْفَهْفِ ❖ ❖ ونغمة أَلحانٍ وطلعة إخوانِ

وما رأيُّ جميل صدقي الزهاوي؟ المرء يمر بهذه الحياة مرة واحدة، فلم يقف مكتوف اليدين، ولا ينتهز الفرص المتاحة ليمتع نفسه بطيبات الحياة:

لا تقفْ في وجه لذاتك مكتوفَ اليدين

أنت لا تأتي إلى دنياك هذى مرتين

واغتنم اللذات ما أعطتك دنيالك يدا
فأنت لا تعيش في دنيالك هذي أبدا
وأنت لا تعلم أين - سوف يأتيك الردى.

وهناك عبارة يكررها الشعراء في هذا المجال، ومفادها " بادر.. قبل فوات
الأوان " لأن الزمن لا يقف، والفرصة لا تنتظر، وقد لا تتكرر، ومن هذا القبيل.

قول إيليا أبي ماضي:

قم بادر اللذات قبل فواتها

ما كل يوم مثل هذا موسم

ولنستمع إلى أحمد شوقي يدلي برأيه في الموضوع:

صفوا أتيج فخذ لنفسك قسطها

فالصفو ليس على المدى بمتاح

الأيام تطير، والعمر يطير معها. وكثيرهم الذين ألهاهم التكاثر، وانهمكوا في
مشاغل الحياة وهمومها، وعندما أفاقوا اكتشفوا أنهم أهملوا جوانب هامة في
حياتهم، مثل التمتع بالأسرة والبنين، والجوانب الفنية والمعنوية. ربما نجحوا في
جمع الثروة، لكنهم لم ينفعوا غيرهم، ولم يتمتعوا بثمرات جهودهم.

يقول القاضي أبو محمد عبدالوهاب:

أليس من الخسران أن لياليا ❖❖ تمرُّ بلا نفع، وتحسب من عمري

ولا جدوى في أن يضيّع المرء الحاضر في التحسر على الماضي، ولا في
الاستغراق في حسابات المستقبل، وحمل أعباء الغيب، لأن الأمر كما قال أحدهم:

ما مضى فات، والمؤمل غيبُ ❖❖ ولك الساعة التي أنت فيها

ويعزف عمر الخيام على النغمات نفسها في رباعياته (ترجمة أحمد رامي،

◆————— الشعر والحياة —————◆

التي تغني أم كلثوم جزءاً منها): كُرُّ السنين يدني الأجل، فاعتنم ساعات المتعة
والبهجة، وانعم بالحياة .. ولا جدوى من أن يقضي المرء أيامه في التحسر والقلق.
ومما جاء في هذه القصيدة:

فاجمع شتات الحظ وانعم بها ❖❖ من قبل أن تطويك كف الزمان
تعاقب الأيام يدني الأجل ❖❖ ومرها يطويك طي السجل
وسوف تفنى وهي في كرّها ❖❖ فاقض ما تغنمه في جنل
لا تشغل البال بماضي الزمان ❖❖ ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاته ❖❖ فليس في طبع الليالي الأمان

ومن الناس من يبرح تحت عبء الملذات الحسية، ومنهم من يميل إلى المتع
الفكرية والروحية، ومن يأخذ نصيبه من هذه وتلك. ويرتبط الاختيار أحياناً
بمرحلة العمر، وبميول الإنسان وهواياته، وبيئته وحالته المادية.

يقول الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري:

مَتَّعْ شَبَابَكَ إِنَّ الْعَمَرَ أَطْوَارُ

وكلُّ طَوْرِ لَهُ فِي الْعَيْشِ أَوْطَارُ

إن أنت لم تجن من روض الصبأ زهراً

فليس في دمنة الأيام أزهارُ

أموالُ "رُطْشِلْدَ" في الصحراء ليس لها

قدرٌ ويفضلها في السوق دينارُ

وقيمة الشيء مقدار الهيام به

فإن زهدت فما للماس مقدارُ

إن كنتَ للروح كُن للروح مشتغلاً

أو كنت للجسم فلتهنئك أقدارُ

ومن المفيد الإشارة إلى أمرين، أولهما أن قطعة شعرية لا تمثل رأى الشاعر وأسلوب سلوكه طوال حياته؛ وثانيهما أن متع الحياة وملذاتها أصناف وألوان، ولا تنحصر في مجالي اللهو والطعام والغناء ومغازلة الغانيات. ففي العمل متعة عميقة إذا كان المرء يحب عمله؛ وفي الاستجمام متعة؛ وفي الصيد والقنص والمشاهد الطبيعية متعة؛ وفي خدمة الأيتام والمسنين متعة.

والمتني يرى أن خير جليس هو الكتاب، وأن أعز مكان هو سرج فرسه. وهذا محمود سامي البارودي يخالف كثيراً من الآراء عندما يقول:

سوايَ بتحضان الأغاريد يطربُ

وغيريَ باللذاتِ يلهو ويلعبُ

وما أنا ممن تأسر الخمرُ لبّه

ويملكُ سمعيه اليراع المنقَّبُ

ذكريات وحنين

يحن أبو نواس إلى أيام مضت، فيتذكر الأحاب والأصدقاء، ويذكر كيف فرق الزمان أهل الديار، وأتت السنون على ما كان فيها من أنس ودفء وبشاشة.

يقول أبو نواس:

يا دار ما فعلت بك الأيام
لم تبق فيك بشاشة تستام
عرم الزمان على الذين عهدتهم
بك قاطنين، وللزمان عُرام

وتعاود البحري ذكريات الأيام السعيدة التي قضاها بالقرب من علوة، والليالي الطيبة التي تمتعها فيها بساعات الأنس والحب والعناق والقبلات، فيقول:
تَّاءَتْ دَارُ عَلْوَةَ بَعْدَ قُرْبٍ ❖ فَهَلْ رَكِبْتُ بِلُغْهَا السَّلَامَا
وَجَدَّدْتُ طَيْفُهَا عَثْبًا عَلَيْنَا ❖ فَمَا يَعْتَادُنَا إِلَّا لِمَا
وَرُبَّتْ لَيْلَةٌ قَدْ بَتُّ أَسْقَى ❖ بَعَيْنَيْهَا وَكَفَيْهَا الْمُدَامَا
قَطَعْنَا اللَّيْلَ لَثْمًا وَاعْتَبَقَا ❖ وَأَفْنَيْنَاهُ ضَمًّا وَالتِّرَامَا.

وظل ابن زيدون يحن إلى ولادة، ويستعيد ذكريات الأوقات التي تمتع فيها بوصالها، وتعتبر قصيدته النونية "أضحى التناهي" من أروع قصائد الحنين المفعمة بعواطف الشوق إلى الحبيبة والوفاء لها.

يقول ابن زيدون:

ويا نعيماً رفاناً من غضارته
في وشي نعمي سحبتنا ذيله حيناً

يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلها
والكوثر العذب زقومًا وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثا
والسعد قد غضّ من أفضان واشينا

وقال من قصيدة يذكر "قرطبة الغراء" ويحنّ إلى ليالي المرح الحميدة
التي قضاها هناك:

أَقْرُطُبَةَ الْغَرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ
وهل كَبِيدٌ حَرَى لِبَيْنِكَ تَنْقَعُ؟
وهل لِّلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةُ مَرْجِعُ
إِذِ الْحُسْنُ مَرَأَى فِيكَ وَاللَّهُوْ مَسْمَعُ ❖ ❖
وَإِذْ كَنَفُ الدُّنْيَا لَدَيْكَ مُوْطَأُ

وتنأى المسافة بين الشريف الرضي وأحبابه فيحنّ قلبه إلى الليالي التي
قضاها بقربهم، ويؤكد أنه ما زال وفيا لعهدهم:

مَا سَاعَفْتَنِي اللَّيَالِي بَعْدَ بَيْنِهِمْ ❖ ❖
إِلَّا ذَكَرْتُ لِيَالِيْنَا بِنِي سَلَمِ
وَلَا اسْتَجَدُّ فُرَادِي فِي الزَّمَانِ هَوَى ❖ ❖
إِلَّا ذَكَرْتُ هَوَى أَيَامِنَا الْقُدَمِ
لَا تَطْلُبَنَّ لِي الْأَبْدَالَ بَعْدَهُمْ، ❖ ❖
فَإِنْ قَلْبِي لَا يَرْضَى بِغَيْرِهِمْ

إن البعد عن الوطن والأهل والأحباء، يجعل المرء يعاني من الوحدة
وشدة الشوق، (خصوصا قبل عهد الهاتف المحمول) فتهتز نفسه وتسيل
عبراته، وقد يستولى عليه القلق والأرق والحزن. وتُصور الأبيات التالية
بعض ما يعانیه رجل اشتدّ حنينه إلى وطنه وأهله وأحبابه:

تذكرتُ أهلي في النوى وبلاديا ❖ ❖
وقد طال شوقي للجمي وبعاديا
تذكرت هاتيك الربوع وأهلها ❖ ❖
ويا حبذا تلك الربوع الزواهيا
تطيرُ لها نفسي من الوجد والجوى ❖ ❖
ويُمسي لها دمعي على الخد جاريا

وتهتُرُّ من شوقي إليها جوارحي ❖ ❖ كما اهتز غصنُ مال للريح حانيا
فلا الشوقُ يُدنيني ولا الفكرُ نائيا ❖ ❖ ولا الدمعُ يُجديني ولا القلبُ ساليا

وقال شوقي من قصيدته "الأندلسية" التي نظمها وهو في منفاه بأسبانيا
يحنُّ إلى مصر، هذه الأرض الطيبة التي مرحت فيها مآربه وأنست فيها أمانيه:
لكن مصر وإن أغضت على مقّة ❖ ❖ عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفقت تمائمنا ❖ ❖ وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ❖ ❖ وأربع أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ❖ ❖ ومغرب لجدود من أو الينا
أما إبراهيم ناجي فيشبه الحنين بشراب مرّ، هذا الحنين الذي ينمو
بمرور الزمن، ويستهلك دمه وشببته:

ويح الحنين وما يجرعني
من مُرّه ويبببت يسقيني
لم يرض غير شببتي ودمي
زاداً يعيش به ويفنيني

وقال مفدي زكريا من قصيدة نظمها وهو بعيد عن الجزائر، أثناء ثورة
التحرير، يصف حنينه إلى الجزائر العاصمة، وتشوقه إلى الأحياء التي عاش
فيها أياماً سعيدة:

جزائر .. مهما باعد الخطب بيننا
تُبَاكرني النجوى، وتهفو بي الذكرى
حنيني إلى (القصباء) هاج مدامعي
وشوقي إلى (بلكور) أفقدني الصبرا
وفي حي (باب الواد) ماضي صبابتي
تركت (باب الواد) من كبدي شطراً

ويا فتنة (الأبيار) و(السعد باسم)
ألم تُتسِكِ الأبعادُ، أيامنا العَطْرَاءُ؟
وفي (القبة الفيحاء) عُشَّ خواطري ..
تركنت بها (لما أحاطوا بنا) وكرًا

المال

يحدث أبو العيناء عن آثار الغنى في العلاقات الإنسانية، مؤكداً بأن الدراهم تزيد الرجل فصاحة ومهابة، وتجعله يمشي مختالاً؛ ثم لخص مزايا الغنى في بيتين فقال:

إنّ الدراهم في المواطن كلّها ❖ ❖ تكسو الرجال مهابةً وجلالاً
فهي اللسان لمن أراد فصاحةً ❖ ❖ وهي السلاح لمن أراد قتالاً

وقال أبو الفتح البستي في كون المال يضيف على كلام الغنى فصاحة ويزيده أهمية، والفقر يقلل من قيمة كلام الرجل، ويجعله غير مستساغ:

سحبان من غير مال باقل حصر ❖ ❖ وباقل في ثراء المال سحبان

وقال شاعر آخر مشيراً إلى أن الفقر يغطي فضائل الرجل، ويحط من قيمته، مهما كان فضله وزهده وحكمته:

فصاحة حسّان وخط ابن مقلّة ❖ ❖ وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ❖ ❖ وئودي عليه لا يُباع بدرهم

وقال أبو العتاهية مؤكداً المعنى السابق، ومبيناً أن الناس إنما يقدرّون ذوي الثروة، ويخشون أصحاب السلطة والجاه، وهذان مرتبطان بالثروة:

ما أدلّ المقلّ في أعين الناس لإقلاله وما أقماه
إنّما تنظر العيون من الناس إلى من ترجوه أو تخشاه

ويرى العباس بن الأحنف أنه حتى الكلاب تحترم صاحب الملابس الأنيقة وتضعى إلى كلامه، وهي تنبح عندما ترى البائس الفقير:

حتى الكلاب إذا رأت ذا بيرة ❖ ❖ أصغت إليه وحركت أذناها
وإذا رأت يوماً فقيراً جائزاً ❖ ❖ نبحت عليه وكشرت أنيابها

ومن زاد ماله كثر خلانه وأصحابه ومن يدعون صداقته، ومن فقد
ثروته ابتعدوا عنه وأهملوه؛ يقول أحد الشعراء:

إن قلّ مالي فلا خلّ يُصاحبني ❖ ❖ وإن زاد مالي فكلّ الناسِ خلاني

ويقول المتنبي في هذا المعنى:

إذا قلّ مالي قلّ صحبي وإنّ ثماً ❖ ❖ فلي من جميع الناس أهلاً ومرحباً

إن أذنب الفقير، فذنبه كبير، وإن أذنب الغني غطى ماله وجاهه ذنوبه،
وحاول ذوو السلطة أن يجدوا له المبررات. ومن الشعراء الذين عبروا بصدق عن هذا
المعنى، وقارنوا بين حال الفقير والغني، الشاعر عروة بن الورد (عروة الصعاليك):

دعيني للغنى أسمى فإني ❖ ❖ رأيت الناس شرهم الفقير
ويقصيه الندى وتزدريه ❖ ❖ حليلثه وينهره الصغير
ويمشي ذو الغنى وله جلال ❖ ❖ يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنبُ جم ❖ ❖ ولكن للغني رب غفور

ويشبهه أحمد شوقي في إحدى قصائده المال بتمثال عبده الناس
منذ خلقوا:

والمالُ مُدٌّ كان تمثالاً يطافُ به ❖ ❖ والناسُ منذ خُلِقوا عبادُ تمثال

ويرى هذا الشاعر أن الانهماك في جمع المال داء، وينصح بعدم
الاستسلام لهذه الشهوة القاتلة:

ولم أرَ مثل جمع المال داءً ❖ ❖ ولا مثل البخيل به مصاباً
فلا تقتلك شهوته وزنها ❖ ❖ كما تزنُّ الطعامَ أو الشراباً

وكذلك يرى أبو الحسن التهامي أن المال مصدر للهموم، وأن السعي
المفرط في توسيع الثروة نوع من الفقر:

نزدادُ همًّا كلما ازددنا غنى ❖❖ والفقرُ كلُّ الفقرِ في الإكثارِ

ويقول أبو الطيب المتنبي في هذا المعنى:

ومن ينفق الساعاتِ في جمع ماله ❖❖ مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وبما أن المال ينتقل من يد إلى أخرى، وأن الإنسان معرض للفقر بعد الغنى، فإن الشريف الرضى يكتفي، في إحدى قصائده، بغنى النفس، لأنها فضيلة لا يخشى عليها الزوال:

حسبي غنى نفسى الباقي وكلُّ غنى ❖❖ من المغانم والأموالِ ينتقلُ

ولكن من ذاق مذلة الحرمان وعانى من البؤس والفقر، يعلم جيّدًا أن غنى النفس لا يطيب إلا بعد الحصول على ضروريات الحياة. والفقر كثيرًا ما يدفع المرء إلى مهاوي الضلال، كما يقول حافظ إبراهيم:

ربّ بؤس يُخبّث النفس حتّى

يطرح المرء في مهاوي الضلالِ

ولنستمع إلى معروف الرصافي يحدثنا عن الدينار ويقول:

هو الدينار مُنية كل راجٍ

وبُغية كل من دأب احترافًا

نُحجُّ لأجله بيت المخازي

ونكثرُ حول كعبته الطوافًا

ترى كل الأنام به سُكاري

وغيرَهواه ما ارتشفوا سلاقًا

فحبُّ سواه في الأفواه جارٍ

ولكن حبه بلغ الشفافًا

إذا خطب الوضيعُ به المعالي

أقام له بنو الشرف الزفأفا

وقال أبو العتاهية:

لو رأى الناس نبياً ❖ سائلاً ما وصلوه

أنت ما استغنيت عن صا

حبك الدهر أخوه

فإذا احتجت إليه ❖ ساعة مجك فوه

وقال بشار بن برد:

إني وإن كان جمعُ المال يعجبني

فليس يعدل عندي صحّة الجسد

في المال زينٌ وفي الأولاد مكرمةٌ

والسقمُ ينسيك ذكر المال والولد

وقال الشريف الرضي:

إذا قلَّ مالُ المرءِ قلَّ صديقه، ❖ وفارقه ذاك التحنُّنُ والودُّ،

وأصبح، يُغضي الطرفَ عن كلِّ منظرٍ ❖ أنيقٍ، ويُلهيه التغرُّبُ والبُعدُ

وكم حدثنا الشعراء عن مزايا المال، وغواياته وطغيانه، وتأثيراته على قلوب الناس وعقولهم، وعن هموم الفقير، وما يلاقي في حياته اليومية من شقاء وهوان وظلم. وكم من فتیان البلدان الفقيرة وفتياتها هاجروا أملاً في تحقيق آمالهم، فمنهم من قضى نحبه غرقاً، ومنهم من ينتظر. ويحدثنا إلياس فرحات في الأبيات التالية عن الدينار (أو الدولار) المزخرف الذي يرفع رؤوساً ويخفض أخرى، ويحقق أهدافاً، تظل أحلاماً في خيال الفقير.

يقول إياس فرحات:

يحركُ الناسَ شَيْءٌ ❖❖ عن الحياة مُعْرِى
مزخرف مستدير ❖❖ عليه نقش وطفرا ...
به ضمائر بعض ❖❖ تباع حيناً وتشرى
هذا المليك المفسدى ❖❖ هذا الإله المبرأ
إن لاح يوماً لعبد ❖❖ تراه للأرض - خرا

* * * * *

الـحـب



يرد أحمد شوقي على من طلب منه أن يصف الحب، فيقول:

يقولُ أناسُ لو وصفتُ لنا الهوى ❖❖ لعل الذي لا يعرف الحب يعرفُ
فقلتُ لقد ذقت الهوى ثم ذقتَه ❖❖ فوالله لا أدري الهوى كيف يُوصَفُ

أما على الجارم فيرى أن الحب هو أحلام الشباب وملهاة الحياة

فيقول:

والحبُّ أحلامُ الشباب هنيئة ❖❖ ما أطيب الأيام والأحلاما
والحبُّ ملهاة الحياة وطبُّها ❖❖ ولقد تكون به الحياة سقاما

ويتسامى أحمد رامي قليلاً في وصف الحب، ويوسع نطاقه فيصفه

بأنه لحن النفس، ووتر القلوب، ونبع الشعر، فيقول:

الحبُّ نبعُ الشعر منه تفجرت ❖❖ عينُ المعاني والخيال الساري
الحبُّ لحنُ النفس وقَّعه على ❖❖ وتر القلوب بنانُ موسيقارِ
الحبُّ يفسحُ في الحياة مراحها ❖❖ ويحفُّها ببدائع الآثارِ

أما المتنبي فيحكم حكماً قاسياً على الحب تارة عندما يقول:

وما الحبُّ إلا غرَّة وطماعة ❖❖ يعرض صبُّ قلبه فيصابُ

ويعتذر حيناً للمحبين اعتذاراً صريحاً فينشد:

وعذلتُ أهلَ العشق حتى ذقتَه ❖❖ فعجبت كيف يموت من لا يعشقُ

غير أن أغلبية الشعراء يرون الحب معاناة وآلاما ودموعا وأرقا، ونارا

تتأجج، فيقول قيس بن الملوح (مجنون ليلي):

أظُلُّ رزيعَ العقل ما أطمعُ الكرى ❖❖ وللقلب مني أنةٌ وخُفوقُ
برى حُبُّها جسمي وقلبي ومهجتي ❖❖ فلم يبقَ إلا أعظمُّ وعروقُ

ويقول قيس بن ذريح:

وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حَبَّ لِبْنَى فَوَّادِهِ

يَمُتْ أَوْ يَعِشْ مَا عَاشَ وَهُوَ كَلِيمٌ

وسلب الحب عقل الشاعر مسلم بن الوليد، وترك جسمه شاحبا، بل يرى أنه هلك ولم يبق للناس إلا أن يعزوا أقاربه:

سَلَبَ الْهَوَىٰ عَقْلِي وَقَلْبِي عَنُوةٌ ❖❖ لَمْ يَبْقَ مِنِّي غَيْرَ جَسْمٍ شَاحِبٍ
هَآ قَدْ هَلَكْتُ وَمَتَّ مِنْ أَلْمِ الْهَوَىٰ ❖❖ قَوْمُوا فَعَزَّوْا مَعْشَرِي وَأَقَارِبِي

والحب عند العباس بن الأحنف هموم مضمّنة تفتح أبواب المنية، وصدود الحبيب عذاب لا يساويه عذاب:

سَلَبْتَنِي مِنَ السَّرُورِ ثِيَابًا ❖❖ وَكَسْتَنِي مِنَ الْهَمُومِ ثِيَابًا
كَلِمَا أَغْلَقْتُ مِنَ الْوَصْلِ بَابًا ❖❖ فَتَحْتُ لِي إِلَى الْمَنِيَةِ بَابًا
عَذِّبْنِي بِكُلِّ شَيْءٍ سِوَى الصَّدِّ ❖❖ فَمَا ذَقْتُ كَالصَّدُودِ عَذَابًا

ويعاني قيس بن ذريح من عذاب الفراق، فيقضي نهاره متحدثا عن حبيبته متمنيا لقاءها، ويغشاها الهم عندما يأتي الليل:

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى ❖❖ وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعٌ

ومثله كثير عزة الذي يقضي ليله مناجيا الهموم، ويصبح مريضا موزعا بين اليأس والرجاء:

أَيُّتُ نَجِيًّا لِلْهُمُومِ مُسَهَّدًا ❖❖ إِذَا أَوْقَدْتُ نَحْوِي بَلِيلٌ وَقُودُهَا
فَأَصْبَحْتُ ذَا نَفْسَيْنِ نَفْسٍ مَرِيضَةٍ ❖❖ مِنَ الْيَأْسِ مَا يَنْفَكُ هَمٌّ يَعُودُهَا
وَنَفْسٍ تُرْجَى وَصَلْهَا بَعْدَ صَرْمِهَا ❖❖ تَجَمَّلُ كَيْ يَزْدَادَ غَيْظًا حَسُودُهَا

ويقول شاعر، بعد تذكيرنا بأنه خبير بأحوال الهوى والعشاق، بأن الحب يجمع بين الحلاوة والمرارة، والسرور والبكاء:

الحبُّ صاحبه يبيتُ مسهداً ❖❖ ويطيرُ عنه فؤاده، ويهيمُ
الحبُّ داءً قد تضمَّن في الحشا ❖❖ بين الجوانح والضلوع مقيمُ
الحبُّ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ ❖❖ والحبُّ فيه شقاوةٌ ونعيمُ

والحب شعور عميق يستولي على قلب الإنسان، ويتغلغل إلى أعماق
فؤاده فيسيطر على أفكاره ويوجهها، ويصبح العاشق مغلوباً على أمره، فالأذن
لا تسمع، والعين لا تبصر إلا ما يأتي من القلب، كما يقول بشار بن برد:
وما تبصرُ العينان في موضع الهوى

ولا تسمع الأذنان إلا من القلبِ

ويقول مسلم بن الوليد:

سقتني بعينيها الهوى وسقيتها ❖❖ فدب دبيب الراح في كل مفصلِ

ويقول المتنبّي في نفس الموضوع:

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي ❖❖ فأصبح لي عن كل شغل بها شغلُ

لقد كان المحبون، وما يزالون، يشتكون من لوعة الفراق، وحرارة الأشواق،
فالحشاشة تحترق، والدموع تسيل، والبدن مهمل والفكر مبلبل.

وقد لا تزيدهم فرص التلاقي، وفترات اللقاء العابرة، إلا آلاماً، لأنها لا
تشفي الغليل، بل تزيد القلب سقاماً ونار الحب اضطراماً.

ومن الواضح أن سبب كل تلك الآلام، والأرق والهموم والبلبلية، هو
فراق الحبيبين وصعوبة لقائهما، أو صدُّ الحبيبة وهجرها لحبيبها، يقول
الشريف الرضي:

وكم غادر البينُ المفرق من فتى ❖❖ يُمسحُ قلباً دائماً الخفقانِ
ومنتزع من بين جنبيه زفرة ❖❖ تخلي دموع العين في الهملان
وما الحبُّ إلا فرقةٌ بعد ألفة ❖❖ وإلا حذارٌ بعد طول أمانِ

وعندما يتعذر لقاء الحبيبين يلجآن إلى الخيال، فيتصور الشاعر أنه يلتقي بحبيبته عندما ينظران إلى السماء، أو عندما يضمهما الليل، أو يمرُّ عليهما النسيم.

غير أن هناك من الشعراء من يشك في جدوى القرب، إذا كان من تهواه لا يبادلك الحب والمودة، يقول عبدالله بن الدمينة عن قرب الحبيب وبعده:

بكلِّ تداوينا فلم يشف ما بنا ❖ ❖ على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ❖ ❖ إذا كان من تهواه ليس بندي ود

ويرى شاعر آخر أن المحب الذي لا يصبر على الفراق ولا يشفيه التلاقي، أصبح في حالة خطيرة، فيقول:

إذا كنت لا يسليك عن من تودُّه ❖ ❖ تناء ولا يشفيك طول تلاق
فهل أنت إلا مستعير حشاشة ❖ ❖ لمهجة نفس أدنت بفراق

وإذا كان فراق المحبوب يسبب للعاشقين عناء وآلاما نفسية وبدنية، فإن الشفاء يأتي على يد الحبيب وليس بعلاج الطبيب، يقول الشريف الرضي:

وفي القلب داء في يدك دواؤه ❖ ❖ ألا رب داء لا يراه طبيب
ويقول:

دعوا لي أطباء العراق لينظروا ❖ ❖ سقامي، وما يفني الأطباء في

ويقول شاعر آخر:

ما للمحب إذا تفاقم دأؤه ❖ ❖ غير الحبيب يزوره من راق

ذلك لأن قرب الحبيب يطفى نيران الوجد، ويعالج جروح القلب، ويكون مصدراً للسعادة والمتعة والهناء، قال قيس بن الملوح:

إذا اكتحلت عيني بعينك لم تنزل
 بخير وجمت غمرة عن فؤاديا
 فأنت التي إن شئت أشقيت عيشتي
 وأنت التي إن شئت أشقيت باليا

وقال شاعر آخر كان أكثر صراحة وواقعية من مجنون ليلى:
 العشق داءٌ دويٌّ لا دواء له، ❖❖ إلا العناق وإفشاء السريرات
 وليس يلتد طيبُ العيش من أحدٍ ❖❖ إلا بعضك، أو رشف الثيات
 ووضعك الصدر فوق الصدر تجمعه ❖❖ ضمماً إليك على ظهر الحشيات
 وإذا كان الحب أعمى، فهل يُجدي لوم العاشق الولهان على ما قد يحلُّ
 به من سوء المصير؟ ومحاولة إعادته إلى العقل والحكمة ومنطق الواقع؟ يقول
 ابن الرومي:

لا تطفئن جوى بلوم إنه ❖❖ كالريح تغرى النار بالإحراق
 ذلك لأن المحب مغلوب على أمره، فأذنه لا تسمع غير صوت الحبيب،
 وفكره لا يعي إلا كلامه، وقلبه لا يخفق إلا إليه قال الشاعر:
 ألا ليقل من شاء ما شاء إنما ❖❖ يُلام الفتى فيما استطاع من الأمر
 وقال المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أشواقه ❖❖ حتى يكون حشاك في أحشائه
 وقد يحاول الشاعر أن يكتم سرَّ حبه، ويخفي لواعج وجدده، غير أن
 شرود فكره، ونحول جسمه، وصيحاته ودموعه تفضح أمره. يقول
 البحتري:

علاقة حب كنت أكتم بثها ❖❖ إلى أن أذاعتها الدموعُ الهوا معُ
 إذا العينُ راحت وهي عونٌ على الهوى ❖❖ فليس بسرُّ ما تُكنُّ الأضالعُ

ويقول كُثير عزة:

كريم يميتُ السر حتى كأنه ❖❖ إذا حدثوه عن حديثك جاهله

وكثيراً ما يتساءل العاقل: إذا كان الحب سبباً في كل ما نقرأه في الشعر العربي (وغيره) من آهات وتنهيدات وآلام نفسية وبدنية، وطاقات تهدر في البكاء والتشكي، والتشوق لطيف المحبوب، وضياع النفس والنفيس، فهل جميع الشعراء متفقون على أنه شيء لا بد منه مهما كلف من تضحيات؟

يقول عمر بن أبي ربيعة :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ❖❖ فكن حجراً من يابس الصخر جليداً

ويقول قيس بن الملوح (مجنون ليلى):

وما الناس إلا عاشقون ذوو الهوى ❖❖ ولا خيرَ فيمن لا يحب ويعشق

ويخالفهما أبو فراس في الرأي فيقول:

لقد ضلّ من تحوى هواه خريده ❖❖ وقد ذلّ من تقضي عليه كعاب
ولكنني، والحمد لله، حازم ❖❖ أعزّ إذا دلتّ لهن رقاب

وقد يغير الشاعر رأيه وفقاً لظروف الحياة، أو يتخذ موقفاً معتدلاً، أو يتبنى حلاً وسطاً، فيقول المتنبي، مثلاً:

وإن قليلَ الحب بالعقلِ صالح ❖❖ وإن كثيرَ الحب بالجهلِ فاسد

ويقول العباس بن الأحنف في هذا المجال:

لا عار في الحب إن الحب مكرمة ❖❖ لكنه ربما أزرى بذئ الخطر

وبمناسبة الحديث عن "الحب" أذكر أنني التقيت ذات مساءً برجل إيطالي، قدم لي زوجته قائلاً: واسمها "ليلى". فقلت: أنت أكثر حظاً من قيس الذي لم ينعم بالزواج من "ليلاه". فأجابني مازحاً: كلا، إنه هو المحظوظ، وأنا المجنون.

الحب فطور لذيذ، ولكنه عشاء مرير. فهو منعش جميل في السنوات الأولى من الشباب، قبل أن تتراكم المسؤوليات والمشاكل والهموم المادية والأسرية والنفسية، بعد ذلك قد يتحول إلى صداقة أساسها تبادل المصالح والتنازلات، أو إلى عشاء مرير، فيدخل في نطاق زواج رحلة الصيف وطلاق رحلة الشتاء.

يقول جبران خليل جبران:

كان لي بالأمس قلبٌ فقضى ❖❖ وأراح الناسَ منه واستراح
ذاك عهدٌ من حياتي قد مضى ❖❖ بين تشبيبٍ وشكوى ونواح
إنما الحبُّ كنجم في الفضاء ❖❖ نوره يمحي بأنوار الصباح
وسرورُ الحبِّ وهَمٌّ لا يطولُ ❖❖ وجمالُ الحبِّ ظلٌّ لا يقيمُ
وعهودُ الحبِّ أحلامٌ تزولُ ❖❖ عندما يستيقظُ العقلُ السليمُ

وفي قصيدة عنوانها " المواكب " يشبه جبران خليل جبران الحب بالأعشاب التي لا تزهر، وبالخمر " قليلها مفيد " وكثيرها مهلك. ويضيف أن الحب قد يكون مثل الملك الذي يقيد الفرائش (الزواج) فيصبح كالطير الذي قصت جناحاه:

والحبُّ في الناس أشكالٌ وأكثرها ❖❖ كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمرُ
وأكثرُ الحبِّ مثل الراح أيسره ❖❖ يرضي، وأكثره للمدمنِ الخطرُ
والحبُّ إن قادتْ الأجسامُ موكبَهُ ❖❖ إلى فراشٍ من الأغراض ينتحرُ
كأنه ملكٌ في الأسر معتقلٌ ❖❖ يأبى الحياةَ وأعوان له غدروا

الزواج والطلاق

يحدثنا أعرابيٌّ عن زواجه من امرأتين في وقت واحد، آملاً أن ينعم بينهما بالهناء والدلال، كخروف بين نعجتين، غير أنه كلما أَرْضَى إحداهما سخطت عليه الأخرى، فوصف سوء حظه في قصيدة، منها:

تزوجتُ اثنتين لفرط جهلي ❖ ❖ بما يشقى به زوج اثنتين
فصرتُ كنعجة تضحى وتمسي ❖ ❖ تحاول بين أخبث ذئبتين
رضى هذى يهيج سخط هذى ❖ ❖ فما أنجو من إحدى السخطتين

وتزوج رجل آخر امرأتين فكانت خيبة أمله أكبر من الأول، إذ راح المسكين يعاني من خدوش وجروح، وأحياناً رمياً بالحجارة، وإذا أغمى عليه أفرغت الزوجتان الماء على رأسه، ومما ورد في قصيدته يصف سوء مصيره:

ألقى الخنا والبرح من أم حازم ❖ ❖ وما كنت ألقى من رزينة أبرح
تقطب عينيها وتعصب رأسها ❖ ❖ وتعدو غدو الذئب، واليوم يضح
ولما التقينا غدوة طال بيننا ❖ ❖ سبابٌ وقذفٌ بالحجارة مطرح
أجلى إليها من بعيد وأتقى ❖ ❖ حجارتهما حقاً ولا أتبرح

وتزوج شاعر أربع نساء رغبة في أن يسعد بهن وثقّر عينه، ولكنه ندم ندماً شديداً، بل تمنى لو كان أعمى وأصم، بدلاً من زواجه منهن:

ويا ليتني أعمى أصمّ ولم أكن ❖ ❖ تزوجت، بل يا ليتني كنت مخدج

ثمّ يصف كلا منهن بما فيها من سوء الخلق والسلوك، ويختم أبياته قائلاً:

فهنّ طلاق كلهن بوائن ❖ ❖ ثلاثا بتاتا، فاشهدوا لا ألجلج

وقال رجل آخر وقد طلق امرأته واستعاد حريته:

رحلتُ أنيسةً بالطلاق ❖❖ وعُتقتُ من رِقِّ الوثاقِ
بانَتْ فلم يَألمُ لها ❖❖ قلبي ولم تبك المآقي

وقال الأعشى عن حكاية طلاق:

أجارتنا بيّني فإنك طالقُه

كذاك أمور الناس غادر وطارقُه

وذوقني فتى قوم فإنني ذائقُ

فتاة أناس مثل ما أنت ذائقُه

ويصف لنا الأخطل حالة فشل زواج، فكان الزوج مؤرقاً مهموماً،
والزوجة تنوح على زوجها السابق:

كلانا على همّ بيت، كأنما

بجَنبيه من مسّ الفراش قُروحُ

على زوجها الماضي تنوحُ وإنني

على زوجتي الأخرى كذاك أنوحُ ..

وقال الفرزدق يتحسر على طلاق نوار، ويشبه حاله بحالة آدم عندما
أُخرج من الجنة:

ندمتُ ندامة الكسعي لما ❖❖ غدت مني مطلقة نوارُ

وكانت جنتي وخرجتُ منها ❖❖ كآدم حين أخرجهُ الضرارُ

فأصبحتُ الغداة ألوم نفسي ❖❖ بأمر ليس لي فيه خيارُ

وقالت امرأة تصف رائحة فم زوجها، واسمه قتادة:

ولو أن المنايا أعرضتُ لاقتحمتها ❖❖ مخافة فيه، إن فيه لداهية

فما جيفة الخنزير عند ابن مُغرب ❖❖ قتادة إلا ريح مسك وغاليه

فكيف اصطباري يا قتادة بعدما ❖❖ شممتُ الذي من فيك أتأى صماخيه

ولنقرأ الأبيات التالية لنرى كيف حدّد أبو الأسود الدؤلي أعمال زوجته، إذ يطلب منها أن تشمر عن ساعدها لتجلب الماء وتطحن الحبوب وتعدّ الطعام. وتجد مطالبه عادية، خاصة آنذ. ولكنه كان قاسياً عندما قال لها (في البيت الأول) إته لا يريد لها للصبا:

أصْلَاحُ إِنِّي لَا أُرِيدُكَ لِلصَّبَا ❖ ❖ فِدْعِي التَّشْمُلَ حَوْلَنَا وَتَبْدَلِي
إِنِّي أُرِيدُكَ لِلعَجِينِ وَللرَحَى ❖ ❖ وَلِحَمَلِ قَرِيبَتَا وَغَلِي المَرَجَلِ
وَإِذَا تَرَوَّحَ ضَيْفَ أَهْلِكَ أَوْ غَدَا ❖ ❖ فَخُذِي لِأَخْرَاهِبَةَ المَسْتَقْبَلِ

وكان ذو الإصبع العدوانى يتردد فى زواج بناته الأربع إلى أن استمع إليهن ذات يوم يتحدثن عن رغبتهن فى الزواج، فقالت الأولى:

أَلَا لَيْتَ زَوْجِي مَن أَناسَ ذَوِي غَنَى ❖ ❖ حَدِيثُ الشَّبَابِ طَيْبُ النَشْرِ
لِصَوْقِ بأكِبَادِ النِّساءِ كَأَنَّهُ ❖ ❖ خَلِيفَةُ جَانِ لَا ينامُ عَلى وَتَرِ

وقالت الثانية:

أَلَا لَيْتَهُ يُعْطِي الجِمالَ بَدِيئَةً ❖ ❖ لَهُ جَفْنَةٌ تَشقى بِها النَيْبُ وَالجُزْرُ
لَهُ مَحْكَماتُ الدَهرِ مَن غَيْرِ كَبْرَةٍ ❖ ❖ تَشِينُ فِلا فِانَ وَلَا ضَرَعُ غَمْرُ

وقالت الثالثة:

أَلَا هَلْ تَراها مَرَّةً وَحَلِيئُها ❖ ❖ أَشْمُ كَنصَلِ السِيفِ عِينِ المَهْئَرِ
عَلِيماً بِأَدْواءِ النِّساءِ وَرَهْطُهُ ❖ ❖ إِذا ما انْتَمَى مَن أَهلِ بَيْتِي وَمَحْتَدِي

وقالت الرابعة: زوج من عود خير من قعود.

فعجّل بتزويجهن.

وما أكثر الحالات التي يجبر فيها الأبوان ابنتهما على الزواج من رجل غني، إما حرصاً على توفير حياة الراحة والرخاء للفتاة، أو طمعاً في أن ينالهما شيء من خيره وجاهه. وقد استنكر الشعراء هذا النوع من الزواج إذا كان

فارق السنوات كبيراً بين العروسين، أو أرغمت الفتاة على قبوله. من ذلك قول أبي العلاء المعري:

المال حلُّ كلِّ غير محللٍ ❖ حتى زواج الشيب بالأبكارِ
ما زُوِّجت تلك الفتاة وإنما ❖ بيع الصبا والحُسْنُ بالدينارِ

وللشاعر معروف الرصافي قصيدة رائعة عنوانها "حرية الزواج عندنا"، عبر فيها بحرية وصراحة عن رأيه في العادات التي ترغم الفتاة على الزواج، أو تقدمها لمن يدفع أعلى مهر. اخترتُ للقارئ الكريم من هذه القصيدة الأبيات التالية:

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهم
إذ أكرهوك على الزواج بأشيباً
طمعوا بوفر المال منه فأخجلوا
بفضول هاتيك المطامع أشعباً
قلب الفتاة أجل من أن يُشترى
بالمال لکن بالمحبة يُجتبى
أُتباعُ أفئدة النساء كأنها
بعض المتاع وهن في عهد الصبا
إنَّ الزَّواجَ مَحَبَّةٌ فإذا جرى
بسوى المحبة كان شيئاً مُثعباً
لا مهر للحسنة إلا حُبُّها
فحبُّها كان القران مُحبِّباً
خير النساء أقلُّها لخطيبها
مهراً وأكثرها إليه تحبُّباً.

ويصور لنا أبو ماضي حالة مماثلة تتعلق بفتاة في شرح شبابها،

أجبرها أهلها على الزواج من رجل مسن، ويتحدث الشاعر بلسان حالها فيقول:

لي بعل ظنُّهُ الناسُ أبي ❖ صدَّقوني أنه غيرُ أبي
 أنا لو يعلم أهلي دُرَّةً ❖ ظُلِمْتُ في البَيْعِ كالمخشَبِ
 أخذوا الدينارَ مني بدلاً ❖ أتراني سلعةً للمكسبِ؟
 أشيبٌ لو أنَّه يخشى الدُّجى ❖ شابٌ دُعراً منه رأسُ الغَيْهَبِ
 ليت ما بيني وبين النوم من ❖ فُرْقَةٍ بيني وبين الأشيبِ
 يا لهُ فظاً كثيرَ الحُزنِ لا ❖ يَعْرِفُ الأُنْسَ قليلَ الطَّرِبِ
 يُخْضِبُ الشُّعْرَ ولكنَّ عبثاً ❖ ليسَ تخفى لغةُ المستعربِ

وهذه قصة واقعية (وما أكثر مثلها) لحالة طلاق بالثلاث صدر عن زوج غاضب، فاضطرت الزوجة الشابة إلى مفارقة زوجها، وهي تندب حظها. وندم الزوج على فعلته فراح يبكي زوجته ويتحسر على فراقها. وبعد أن يصف لنا الشاعر موقف الزوجين المحزن بأسلوب عاطفي مؤثر، ينتقل إلى انتقاد المتشددین في الفتاوي الدينية.

يقول الرصافي:

وطلقها على جهل ثلاثاً ❖ كذلك يجهل الرجل الغضوبُ
 وأفتى بالطلاق طلاق بتُّ ❖ ذوو فتيا تعصبهم عصبُ
 فبانت عنه لم تأت الدنيا ❖ ولم يعلق بها الذامُ المعيبُ
 فظلت وهي باكية تنادي ❖ بصوتٍ منه ترتجفُ القلوبُ
 لماذا يا لبيب صرمت حبلی ❖ وهل أذنبتُ عندك يا لبيب؟
 فأطرق رأسه خجلاً وأغضى ❖ وقال ودمعُ عينيه سكوبُ
 لبيبة أقصرى عني فإني ❖ كفاني من لظى الندم اللهبُ
 وما والله هجرُك باختياری ❖ ولكن هكذا جرت الخطوبُ
 فليس يزولُ حبك من فؤادي ❖ وليس العيشُ دونك لي يطيبُ

حول المرأة

أبداع الشعراء في وصف المرأة، وشمل وصفهم جميع أعضائها من شعرها حتى قدميها. قال امرؤ القيس من معلقته يصف شعر صاحبه ويشبهه بعذق النخلة المتشعب:

وَفَرَعٍ يَزِينُ الْمَثْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ ❖ ❖ أَثِيثٍ كَقَنْوِ النَّخْلَةِ الْمُتَعَثِّكِلِ
غَدَائِرِهِ مُسْتَشْزِرَاتٍ إِلَى الْعُلَا ❖ ❖ تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُنْتَهَى وَمُرْسَلِ

وقال بكر بن النطاح عن فتاة تبدو بيضاء ساطعة وسط شعرها الذي يشبه ليلاً مظلماً:

فكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ سَاطِعٌ ❖ ❖ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمٌ

وكثيراً ما يشبه الشعراء وجه المرأة بالصبح وشعرها بالليل.

قال دوقلة المنبجي:

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مُبْيَضٌ

وَالشَّعْرُ مِثْلُ اللَّيْلِ مَسْوَدٌ

ويقول جرير عن العيون الساحرة التي تصرع الرجل القوي العاقل:

إِنَّ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حُورٌ

قَتَلَنَّا ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ

وَهِنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إِنْسَانَا

ويصف عمر بن أبي ربيعة فم صاحبتة بأنه مثل الأبقوان، فإذا

ابتسمت بدت أسنانها بيضاء كالبرد، وهو إلى ذلك يمجُّ رائحة المسك:

يَمْجُ ذَكِي الْمَسْكَ مِنْهَا مَفْلَجٌ
رَقِيقُ الْحَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَشِّرُ
تَرَاهُ إِذَا تَفَتَّرُ عَنْهُ، كَأَنَّهُ
حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَقْحَوَانَ مَنْوَّرُ

ويصف إسماعيل صدقي ثغر من شغف بها بأنه دافئ ورقيق، يكاد يذيله التقبيل:

وَرِقَّةٌ تُغَرِّدُ دَافِيٍّ لَوْلَيْمَتْهُ ❖ ❖ لَخَفَّتْ عَلَيْهِ رِقَّةٌ يَتَهَشَّمُ

ويشبهه بشار بن برد حديث امرأة بالرياض المزدهرة وسحر هاروت:

وَكَا نَ رَجْعَ حَدِيثِهَا ❖ ❖ قَطَعَ الرِّيَاضَ كُوسِينَ زَهْرًا
وَكَا نَ تَحْتَ لِسَانِهَا ❖ ❖ هَارُوتَ يَنْفُثُ فِيهِ سِحْرًا

ويتذكر الشاعر يوسف بن هارون في البيتين التاليين ليالي قضاها ويده اليمنى تحمل الكأس والأخرى تمسك نهد كاعب كتفاح اللجين:

لِيَالِي يَمِينِي تُقْبِضُ الْكَاسَ مَرَّةً ❖ ❖ وَأُخْرَى لَهَا قَبْضٌ عَلَى نَهْدِ كَاعِبِ
نَهْدٌ كَتِفَاحِ اللَّجِينِ كَأَنَّهَا ❖ ❖ لَتَدْوِيرِهَا قَدْ أُفْرَغَتْ فِي قَوَالِبِ

أما الأعشى فيشبهه ثديي صاحبتة قتيلة بالرومانتين:

وِثْدِيَانِ كَالرُّومَانَتَيْنِ وَجِيدِهَا

كجيد غزالٍ غير أن لم تعطل

ومن الأوصاف الجميلة والمطلوبة التي تتكرر كثيراً بصدد الحديث عن جسم المرأة، كونها ذات أرداف ممتلئة مخصبة، وخصر نحيف مجذب.

يقول المعتمد بن عباد:

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَيْتُ أَنْعَمُ جَنَحَهَا ❖ ❖ بِمُخْصِبَةِ الْأُرْدَافِ مُجْدِبَةِ الْخَصْرِ

ويقول عمر بن أبي ربيعة عن موصوفته إن القميص لا يمس بطنها
لبروز نهديها، ولا يلامس خصرها بسبب رديها الممتلئتين:
أَبَتْ الرُّوَادِفُ وَالثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ❖ ❖ مَسَّ البُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا

ولا ينسى الشعراء أن يتحدثوا عن طيب أنفاس المحبوبة التي تملأ
المنزل عطرا، يزيد النفس إقبالا عليها.

يقول بشار عن جارية:

غراء حوراء من طيب إذا نكهت ❖ ❖ للبيت والدار من أنفاسها أرج

ويقدم لنا الشاعر إلياس فرحات صورة مغرية عن موصوفته، فهي
لطيفة هادئة كالحمل، حوى ثغرها طعم العسل ... إلخ:

ففي خُلُقِهَا كُلُّ لَطْفِ النِّسِيمِ ❖ ❖ وَفِي خَلْقِهَا كُلُّ أُنْسِ الحَمَلِ
وَفِي شَعْرِهَا كُلُّ عَطْرِ الرِّيَاضِ ❖ ❖ وَفِي ثَغْرِهَا كُلُّ طَعْمِ العَسَلِ!
وَفِي لَفْظِهَا خَيْرُ مَا فِي الكُرُومِ ❖ ❖ وَمَا فِي كُنُوسِ قُسُوسِ الجَبَلِ
وَفِي وَجْنَتَيْهَا، وَفِي مُقَلَّتَيْهَا ❖ ❖ خِضَابُ الحَيَاءِ وَنُورُ الأَمَلِ

وجمع أحد الشعراء في محبوبته من الحكمة، والجمال، والعفة وحسن
الصوت، ما عرف عن أشخاص يضرب بهم المثل في هذه الأوصاف:
لها حكم ليمان وصورة يوسفٍ ونغمة داودٍ وعفة مريم

ويقول أبو القاسم الشابي عن صاحبتة إن جميع حركاتها لحن
متناسق، حتى "لفتة الجيد واهتزاز النهود".

كل شيء موقّع فيك حتى ❖ ❖ لفتة الجيد واهتزاز النهود

ويؤكد محمود حسن إسماعيل لمحبوبته أنها كل شيء مهم في حياته في

البيتين التاليين:

أنتِ كأسِي وكرمتي ومدامي
والطَّلا من يديك سكرٌ محللٌ
أنتِ فجرى على الحقولِ، حياة،
وصلاة، ونشوة، وتهالُلٌ

غير أن المرأة لم تكن تمثل عند الشاعر دائماً ذلك الإنسان اللطيف البريء،
والرفيق المبهج، بحديثه المنعش، وعيونها الساحرة ... إلخ بل كثيراً ما تحدث
الشعراء كذلك عن صفاتها السلبية وتصرفاتها المزعجة، وعن عنادها ومماطلتها.

يقول مالك بن كعب الخزرجي في هذا الصدد:

إن النساءَ متى يُنهَيْنَ عن خُلُقٍ ❖❖ فإنه واجبٌ لأبْدٍ مَفْعُولُ
وما وَعَدْنَكُ مِن شَرٍّ وَفَيْنَ بِهِ ❖❖ وما وَعَدْنَكُ مِن خَيْرٍ فَمَمَطُولُ

وقال أبو الطيب المتنبي مشيراً إلى أنه لا يدوم للمرأة عهد، وأنها
متطرفة في حبها وفي حقدها:

إذا غدرتُ حسناءً وقتُ بَعْهَدِهَا ❖❖ فمن عهدها أن لا يدومُ لها عَهْدُ
وإن حَقَدتُ لم يَبْقَ في قلبِها رِضَى ❖❖ وإن رَضَيْتُ لم يَبْقَ في قلبِها

وقال أبو تمام عن غدر المرأة، ويلاحظ ما في تعميمه من مبالغة:

فلا تَحْسَبَنَّ هِنْدًا لها الغَدْرُ ❖❖ سَجِيَّةٌ نَفْسِ، كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ

ويصور المتنبي، في البيت التالي، المرأة بمخلوق مظهره مضيء واضح
ولكنه يخفي باطناً غامضاً مظلماً:

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ

وهذا علقمة بن عبده يؤكد لنا في إحدى قصائده بأنه خبير بأحوال
النساء؛ ويقول بأن الرجل إذا شاب رأسه أو قل ماله فلا نصيب له من
حبهن:

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ ❖❖ فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ نَصِيبٌ
يُرِدْنَ نَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ❖❖ وَشَرَّخُ الشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبٌ

وبصدد هروب المرأة ممن قل ماله أو شاب رأسه، يقول ذو الرمة:
أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّبْنَنْ مَنْ قَلَّ مَالُهُ ❖❖ وَلَا مَنْ رَأَيْنَ الشَّيْبَ فِيهِ وَقَوْسًا

ويحذر بعض الشعراء من أن يختار الرجل المرأة على أساس المظهر
وحده⁽¹⁾، يقول أحدهم كم في الزهور الجميلة من سموم، وكم في الأعشاب
المتواضعة من علاج للنفس والبدن:

بِنَاتٍ حَوَاءَ أَعْشَابٍ وَأَزْهَارُ ❖❖ فَاسْتَلْهِمِ الْعَقْلَ وَأَنْظِرْ كَيْفَ تَخْتَارُ
وَلَا يُغْرِيَنَّكَ الْوَجْهُ الْجَمِيلُ فَكَمْ ❖❖ فِي الزَّهْرِ سُمٌّ وَكَمْ فِي الْعَشْبِ عَقَّارُ

(1) وهذا ينطبق على الرجل كذلك.

حول الإنسان

للذئب سمعة سيئة لدى كثير من الناس، ولكن أهل المعرفة يعلمون أن الإنسان أشد وحشية وفسادا في الأرض من الذئب وغيره من الحيوانات المفترسة. فالذئب لا يعتدي على غيره إلا دفاعا عن النفس أو عندما يجوع. والإنسان يعتدي في حالات الشبع والجوع، والغنى والفقر، وهو عالم أو جاهل.

واليكم قول شاعر يؤنسه عواء الذئب ويرعبه صوت الإنسان:

عوى الذئب، فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكادت أطييرُ

ويقول الإمام الشافعي في هذا الصدد:

يعاف الذئب يأكل لحم ذئب

ويأكل بعضنا بعضا عيانا

ويحذر شاعر آخر الإنسان من شرور الإنسان، مقارنة ذلك بسلوك

الذئب، فيقول:

فإن تلق ذئبا فاطلب الخير عنده

وإن تلق إنسانا فقل ربّ سلّم

ويبدو أن كثيرا من الناس، ومنهم الشعراء، يركزون أحيانا، في

ظروف خاصة، على الجوانب السلبية من سلوك الإنسان، وما أكثرها،

فنجد على سبيل المثال أن المتنبّي لم يرفي الناس إلا المخادعة والنفاق:

فلم أر ودّهم إلا خداعا ❖❖ ولم أر دينهم إلا نفاقا

ولا تقلّ نظرة المعري عن ذلك عندما يقول:
فأميرهم نال الإمارة بالخنى
وتقيهم بصلاته يئصيدُ

وللشاعر فوزي المعلوف أبيات معبرة يتحدث فيها عن الإنسان الذي
نسي الخير، وأوغل في الشرور والطمع والأنانية، فيقول في قصيدة عنوانها
"ارتقاء الإنسان".

نسي الخير، ثم أوغل في الشرُّ ❖❖ فداس الضمير في عصيانه
فإذا بالأذى وليد حجاه ❖❖ وإذا بالشرور بنت لسانه
عاث في أرضه فحالت جحيما ❖❖ فأتى الخلد عاثًا في جنانه

أما إيليا أبو ماضي فيذكر الإنسان بأنه كتلة من الطين، تمردت
وتجبرت لأنه لبس الخرز وجمع المال. ويؤكد له أنه مجرد حيوان مُسيّر
ستبلى ملابسه ويتحطم طغيانه:

أيها الطينُ لست أنقى وأسمى

من تراب تدوس أو تتوسدُ

سُدت أو لم تسدُ فما أنت إلا

حيوانٌ مُسيّرٌ مستعبدُ

إن قصرًا سمكته سوف يندكُ

وثوبًا حبكته سوف ينقذُ

ومن الشعراء الذين تحدّثوا بعمق وتمعن عن أخلاق الناس وطبائعهم
أبو العلاء المعري. وكثيرا ما جاء حكمه قاسيا كما في قوله:

ما فيهم برّ ولا ناسك ❖❖ إلا إلى نفعٍ له يجذب

وأفضل من أفضلهم صخرة ❖❖ لا تظلم الناس ولا تكذب

ويرى أن الفساد والشروع تزداد بتكاثر عدد سكان الأرض، ولا يمكن أن تستعيد الأرض طهارتها الأولى إلا إذا اختفى البشر من على ظهرها:
هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطر،

فما بقوا لم يبارح وجهه دئسُ

والأرض ليس بمرجو طهارتها

إلا إذا زال عن آفاقها الأنسُ

هل ينبغي للمرء أن يظل على حذر في معاملاته، وأن يتوجس خيفة، ويشك في نوايا الناس؟ وهل أصبح الناس حقا كما قال الطغرائي:

غاض الوفاء، وفاض الغدر، وانفرجت

مسافة الخلف بين القول والعمل

ولنستمع إلى عبيد بن أيوب العنبري، وهو يؤكد لنا هذا الاتجاه. لقد أصبح ينفر من الناس، ويخشى مناورات الأصدقاء؛ بل تكاد الموازين تنقلب في ظنونه، فتبدو له أقاويل الخير خديعة.

يقول هذا الشاعر:

لقد خُفْتُ حَتَّى لَوْ تَمَرَّ حَمَامَةٌ ❖ ❖ لَقَلْتُ عَدُوًّا أَوْ طَلِيْعَةً مَعْشِرِ

وَحُفْتُ حَلِيْلِي ذَا الصَّفَاءِ وَرَابِنِي ❖ ❖ وَقِيلَ فُلَانٌ أَوْ فُلَانَةٌ فَاحْذَرِ

فَأَصْبَحْتُ كَالْوَحْشِيِّ يَتَّبِعُ مَا خَلَا ❖ ❖ وَيَتْرَكُ مَا نُوَسَّ الْبِلَادِ الْمُدَعَّرِ

إِذَا قِيلَ خَيْرٌ قَلْتُ هَذَا خَدِيْعَةٌ ❖ ❖ وَإِنْ قِيلَ شَرٌّ قَلْتُ حَقٌّ فَشَمْرِ

الخير والشر



في قصيدة عنوانها " الشرّ الكبير والخير الكبير " يتساءل الشاعر القروي،
رشيد سليم الخوري، هل الشر هو أن يهجرنا الحبيب، أن يموت شخص عزيز، أن
يغدر بنا الصديق، أن يستولى علينا الشقاء واليأس؟

وهل الخير هو التمتع بملذات الحياة، نجمع ثروة كبيرة، نقرأ كتابا
ممتعا، يرجع إلينا شخص عزيز من الحرب، نتنصر على البؤس والشقاء..؟

إليك رأي الشاعر:

أَمْزَقْتَ الْجِيُوبَ عَلَى فَقِيرٍ ❖ ❖ أَدُقْتَ مِرَارَةَ الْهَجْرِ الْبَعِيدِ
وَهَلْ أَرخَى عَلَيْكَ الْبَأْسُ لَيْلًا ❖ ❖ يَشِيبُ لِهَوْلِهِ رَأْسُ الْوَلِيدِ
وَهَلْ مَدَّ الشَّقَاءُ إِلَيْكَ كَفًّا ❖ ❖ أَصَابَهَا كَقَضْبَانِ الْحَدِيدِ
وَهَلْ أَصْمَاكَ سَهْمُ الْغَدْرِ مِمَّنْ ❖ ❖ أَرَاكَ تَعَطُّفَ الْخَلِّ الْوَدُودِ
وَهَلْ قَاسَيْتَ ظَلَمَ التَّرِكِ قَدَمًا ❖ ❖ وَهَلْ أَشْفَقْتَ مَنْ ظَلَمَ جَدِيدًا؟
لِعَمْرُكَ كُلُّ هَذَا الشَّرِّ خَيْرٌ ❖ ❖ إِذَا مَا قَيْسَ بِالشَّرِّ الْكَبِيرِ
أَشَدُّ بَلِيَّةً ذَنْبٌ طَفِيفٌ ❖ ❖ يَجْرُ عَلَيْكَ تَبْكِيَتِ الضَّمِيرِ!!



أَدُقْتَ أَحَبَّ لَدَاتِ الشَّبَابِ ❖ ❖ وَهَلْ فَكَّهْتَ نَفْسَكَ فِي كِتَابِ
بِظَلِّ خَمِيلَةٍ غَنَاءٍ فَاضَتْ ❖ ❖ بِهَا الْغَدْرَانُ كَالشَّهْرِ الْمَذَابِ
وَهَلْ نَلْتَ الْغَنَى مِنْ بَعْدِ فَقْرٍ ❖ ❖ مَرَّغْتَ لَهُ جَبِينَكَ فِي التَّرَابِ
وَهَلْ بَدَّدْتَ بِالْأَمَالِ يَأْسًا ❖ ❖ تَلَبَّدَ حَوْلَ نَفْسِكَ كَالضَّبَابِ
وَهَلْ وَافَتَكَ بَعْدَ الْحَرْبِ بُشْرَى ❖ ❖ سَلَامَةٌ مِنْ تُحَبُّ مِنَ الْعَذَابِ؟

لعمرك كلُّ هذا الخيرِ شرٌّ ❖❖ إذا ما قيسَ بالخيرِ الكبيرِ
ألدُّ ملدَّةً صنعَ جميلٌ ❖❖ تنامُ لديه مرتاحَ الضميرِ!!

❖❖❖❖❖

وراح إيليا أبو ماضي يسأل عن أفضل عمل يقوم به الإنسان، فكانت ردود الناس مختلفة. فرأى أحدهم أن أفضل عمل هو ما يمحو الخطايا؛ وقال ثانيهم هو نصره الحق؛ وأجاب ثالثهم أنه التمتع بملذات الحياة؛ وقال غيرهم إنه الحب، أو انتشار العدل، أو ما يجلب الشهرة. أما رأي أبي ماضي فكان غير ذلك:

دَهَبْتُ مُسَائِلًا عَنْ خَيْرِ شَيْءٍ ❖❖ لِأَعْرِفَ كُنْهَ أَخْلَاقِ الْبَرِيَّةِ
فَقَالَتْ لِي الْكَنِيسَةُ خَيْرُ شَيْءٍ ❖❖ هُوَ الزُّهُدُ الَّذِي يَمْحُو الْخَطِيئَةَ
وَقَالَتْ لِي الشَّرِيعَةُ: خَيْرُ شَيْءٍ ❖❖ شُمُولُ الْعَدْلِ أَبْنَاءَ الرَّعِيَّةِ
وَقَالَ الشُّهْرَةُ، الْجُنْدِيُّ خَيْرٌ ❖❖ وَإِنْ كَانَتْ تَقُودُ إِلَى الْمَنِيِّ
وَقَالَ أَخُو الْحَصَافَةِ: خَيْرُ شَيْءٍ ❖❖ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ بِلَا مَرِيَّةٍ
وَقَالَ أَخُو الْجَهَالَةِ: خَيْرُ شَيْءٍ ❖❖ سُرُورُ النَّفْسِ فِي الدُّنْيَا الدُّنْيَاءِ
وَقَالَ لِي الْفَتَى وَصَلُّ الصَّبَايَا ❖❖ وَقَالَتْ لِي الْهَوَى الْبِنْتُ الصَّبِيَّةِ
وَلَمَّا أَنْ خَلَوْتُ سَأَلْتُ نَفْسِي ❖❖ لِأَعْرِفَ رَأْيَهَا فِي ذِي الْقَضِيَّةِ
فَقَالَتْ لَا أَرَى خَيْرًا وَأَبْقَى ❖❖ مِنْ الْإِحْسَانِ لِلنَّفْسِ الشَّقِيَّةِ

ويوضح لنا أبو العلاء المعري بصراحته المعتادة أن الخير لا ينحصر في الصوم والصلاة والتقشف، بل هو كل شيء في تجبُّب الشر: ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمون له ❖❖ ولا صلاة ولا صُوف على الجسد وإنما هو ترك الشرِّ مُطَّرِحًا ❖❖ ونفضُكَ الصَّدْرَ من غِلٍّ ومن حَسْرٍ

ومن الواضح أن الشعراء، كغيرهم من الناس، يختلفون في تحديد ما هو

خير وما هو شر، مثلما يختلف الناس في تحديد ما هو باطل (كتعريف بعض الدول للإرهاب بما يتفق مع مصالحها)، ونلاحظ أن بعض الشعراء يرون أن الشر لا يدفع إلا بشر مثله.

ومن بين هؤلاء عبدالله بن قيس الرقيات الذي يقول:
 بَغِيضٌ إِلَى الشَّرِّ حَتَّى إِذَا أَتَى ❖ فَحَلَّ بِدَارِي قُلْتُ لِلشَّرِّ مَرْحَبًا
 وَأَرْكَبُ ظَهَرَ الأَمْرِ حَتَّى يَلِينَ لِي
 إِذَا لَمْ أَجِدْ إِلَّا عَلَى الشَّرِّ مَرْكَبًا

ومنهم هدبة بن خشرم في قوله:
 وَلَا أَبْتَغِي شَرًّا، إِذَا الشَّرُّ تَارَكِي
 وَلَكِنْ مَتَى أَحْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبِي

ولنستمع إلى رأي الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري وهو يؤكد أن الشر ينفع دائماً:

وَجَدْتُ الشَّرَّ يَنْفَعُ كُلَّ حِينٍ ❖ وَمَنْ نَفَعَ بِهِ حَمَلُ الحَسَامِ
 وَلَيْسَ الخَيْرُ فِي وَسْعِ اللَّيَالِي ❖ فَكَيْفَ نَسُومُهَا مَا لَا يَسَامُ
 وَيَسْلُكُ أَوْسُ بنِ حَبْنَاءَ رَأَى مِنْ ذَكَرُوا فَيَقُولُ:

وَإِنِّي لِأَجْزِي بِالمُودَةِ أَهْلَهَا ❖ وَبِالشَّرِّ حَتَّى يَسَامَ الشَّرُّ حَافِرُهُ

وهذا شاعر يعبر بقوة عن استعداده ليجازي أهل الخير بالخير، ومواجهة من يريد به شرًا بمثله:

وَلِي فَرَسٌ بِالخَيْرِ لِلخَيْرِ مَسْرَجٌ ❖ وَلِي فَرَسٌ بِالشَّرِّ لِلشَّرِّ مَسْرَجُ
 فَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مَقْوُومٌ ❖ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مَعْوِجُ

هذا مبدأ السنّ بالسنّ، وهو قديم جداً. وقد لا يرتضيه بعض الشعراء،

◆————— الشئعروالحياة —————◆

وكثير من الناس، ولكن من يطبق اليوم قول المسيح (عليه السلام): إذا صفحك
شخص على الخد الأيمن، فأدر له خدك الأيسر؟ ثم ماذا يفعل الإنسان إذا
لم ينجه الإحسان إلى أهل الشر؟ ألا يصفق لقول سهل بن شيبان:
وفي الشر نجاة حين لا يُنجيك إحسان

وهذا أمير الشعراء أحمد شوقي يتبنى هذا المبدأ فيقول:
والشرُّ إن تَلَقَهُ بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ ❖ ❖ ذُرْعاً وَإِنْ تَلَقَهُ بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
وما ذلك إلا لأن فعل الشر مسجل في "جينات" كثير من أبناء آدم،
كما قال المعري:
والشرُّ في الجسد القديم غريزة
في كل نفسٍ منه عرق ضاربُ

القوة



كثيرا ما كان الكتاب والشعراء يسجلون مناظرات ومحاورات بين
السيف رمز القوة، والقلم رمز العلم. وقد حلت في عهدنا الدبابات والطائرات
والقنابل الفتاكة والصواريخ الموجهة .. محل السيف والرمح والنبال؛ وحلت
أجهزة أخرى معقدة وفعالة محل القلم. ولم يعد للمناظرات والمقارنات مجال
الآن لأن العلم أصبح وحده هو مصدر القوة وصانع آلاتها المدمرة.

والقوة سيف ذو حدين، هي في يد المعتدي وسيلة لإخضاع المستضعفين
واستغلالهم، وهي ضرورية للمعتدى عليهم لاسترجاع حقوقهم مادية كانت أو
معنوية، فردية أو جماعية. ومن المفيد أن نستعرض معا بعض ما قاله عدد
من الشعراء حول موضوع الدفاع عن النفس، ودحر المعتدي، ونصرة الحق،
وردد الظالم، وصيانة الكرامة.

هذا عنتره بن شداد سهل المعاشرة، كريم الخلق، ما لم يظلم:
أثني على بما علمت فيأني ❖ سهل مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل ❖ مر مذاقته كطعم العلقم

ويقول طرفه بن العبد مذمرا من ظلم الأهل والأقارب:
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على الحر من وقع الحسام المهند

هل ترغب في إنجاز مهمتك دون ضياع الوقت؟ أحضر السيف
والفرس (أو الرشاش والدبابة)، كما يقول عبيد الله بن الحر الجعفي:

إذا كنت ذا رمح وسيف مصم

على سابح، أدناك مما تؤمل

وهذا سعد بن ثابت يضح الأمور في نصابها، فيجازي أهل الخير
بمثله، ويرد على الباغي بقسوة:

وفي اللين ضعف والشراسة هيبة ❖❖ ومن لم يُهَبَّ يحمل على مركب وعر
ومابي على من لان لي من فظاظَةٍ ❖❖ ولكنني فظُّ أبيّ على القسر

إن وجود القوة وحدها لا يكفي، فلا بد أن يدعمها الإباء والنخوة والقلب الذكي.
يقول أحدهم:

متى تجمع القلب الذكيّ وصارما

وأنفًا حميًّا تجتنبك المظالم

ومن أجمل ما قيل في مدح " القوة " ما ورد في قصيدة أبي تمام " فتح
الفتوح " التي يقول في مطلعها:

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتبِ

في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

بيضُ الصفائح لا سودُ الصفائفِ في

متونهنّ جلاء الشكِّ والرَّيبِ

ويؤكد عديُّ بن زيد، لمن يحتاج إلى التأكيد، أن كثرة الأنصار تدرأ
عن الضعيف الأخطار، وتحفظ له حقه:

ومن لم يكن ذا ناصر عند حقه ❖❖ يُغلبُ عليه ذو النصير، ويُضهر
وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجرٌ ❖❖ إذا حضرت أيدي الرجال بمشهر

المفسدون من قوى الشر ذئاب، و"الكلاب" قوة تحمي صاحبها
ومنزله من هؤلاء الذئاب، كما ورد في بيت لعمر بن أبي ربيعة:

تعدو الذئابُ على من لا كلاب له

وتتقى صولة المستأسد الحامي

والمجدُّ، سواء كان سليماً أو مزيّفاً، يناله أصحاب القوة والمال
والسلطان، كما يقول على بن الجهم:
إذا رفع السلطان قوما ترفعوا

وإن هدم السلطان مجدا تهتما

وكثيراً ما يشبه الشعراء بني آدم بالوحوش، بالأسد والذئب خاصة.
ومن ذلك قول المتنبي:

والناس أسدٌ نحامي عن فرائسها

إما عقرت وإما كنت معقورا

ويلاحظ أن المتنبي يمدح القوة من خلال وصفه للمعارك والبطولات،
وثنائه على السيوف والرماح والسهام والخيول. وأحياناً يجعل القلم خادماً
للسيف، كما في قوله:

حتى رجعت وأقلامي قوائلُ لي ❖❖ المجدُّ للسيف ليس المجدُّ للقلم
أكتبُ بنا أبداً بعد الكتاب به ❖❖ فإنما نحن للأسياف كالخدم

وينحو نحوه الأرجاني في هذا المعنى، ويقول إنه عندما حاولت
الأقلام أن تنافس السيوف، غضبت هذه الأخيرة وشقت رأسها:

أو ما رأيت السيف وهو مجردٌ ❖❖ ما زال يحكم بالمنايا والمنى
لما ادعى الأقلام فضلاً عنده ❖❖ غضب الحديدُ فشق منها الألسنا

ويقول رشيد سليم الخوري: ما ضاع حق وراءه سواعد وسيوف:

إن ضاع حقك لم يضع حقان

لك في نجاد السيوفِ حقُّ ثان

مات حق فتى له زنده

كف لها سيفٌ له حدان

ويرى أبو القاسم الشابي في قصيدته "الثعبان المقدس" أن القوي هو الذي يحدد معايير العدل، ويملي بنود السلام على هواه لإخضاع الضعيف واستغلاله. وفي هذه القصيدة يتقدم الثعبان (القوى) ليفتك بالشحورور (الضعيف)، فيخاطبه هذا الأخير قائلاً:

"وسعادة الضعفاء جُرمٌ ..، ماله ❖❖ عند القويّ سوى أشدّ عقاب!"
"ولتشهد الدنيا التي غنّيتها ❖❖ حلم الشباب، وروعة الإعجاب"
"أنّ السلام حقيقةً مكذوبةٌ ❖❖ والعدل فلسفةٌ اللّهب الخابي"
"لا عدل، إلاّ إن تعادلت القوى ❖❖ وتصادم الإرهابُ بالإرهاب"
"لا رأي للحقّ الضعيف، ولا صدَى ❖❖ والرأي، رأي القاهر الغلاب"

ويصدد التشبيه بالحيوانات القوية والضعيفة ومصائرهما على يد الإنسان، يحضرنى بيت لإلياس فرحات يقول فيه:

لو كان عند الضأن بأس ضراغم ❖❖ ما استمرّ الإنسان لحم الضان

ويقترح إيليا أبو ماضي على من يريد أن ينجو من شرّ البشر أن يضطلع بدور الأسد أو الصقر:

تُقْتَلُ الشَّاةُ وَلَا دُنْبَ لَهَا
هِيَ، لَوْلَا ضَعْفُهَا، لَمْ تُقْتَلِ
إِنْ تَكُنْ فِي الْوَحْشِ كَنْ لِنَيْثِ الشَّرِّ
أَوْ تَكُنْ فِي الطَّيْرِ كَنْ كَالْأَجْدَلِ
أَوْ تَكُنْ فِي النَّاسِ كَنْ أَقْوَاهُمْ
لَيْسَتْ الْعُلْيَاءُ حَظَّ الْوَكَلِ!

إن حجة القوي وبرهانه بل وقانونه ينبع من قوته، تماماً مثلما

يستخدم الحيوان المخلب والناب والظفر ليتمكن من فريسته، هذا ما يراه
أحمد شوقي في البيت التالي:

ودعوى القوي كدعوى السباع

من الناب والظفر برهانها

ويضيف أمير الشعراء موضحاً، في قصيدة أخرى، أن سنن الطبيعة
قضت بأن يكون في الحياة قويُّ وضعيف، غير أن الفساد انتشر بين البشر
لدرجة لم يُجدِّ معها وعظ المرشدين والمصلحين:

وترَ الأمرَ يداً فوق يدٍ ❖ ❖ وترَ الناسَ ذئاباً وضيئين
وترَ العزَّ لسيف نَزِقٍ ❖ ❖ في بناءِ الملكِ أو رأى رزين
سننٌ كانت، ونظمٌ لم يزل ❖ ❖ وفسادٌ فوق باع المصلحين

ويلجأ محمد عوض محمد إلى مثال الذئب الذي لا يرحم الخروف،
ليؤكد الفكرة السائدة وهي أن الشركامن في سلوك الإنسان، خاصة القوي
من بني آدم، لأنه ما انفك يذلّ الضعيف ويستغله:

أَتَحْنُو عَلَيْكَ قُلُوبُ الْوَرَى ❖ ❖ إِذَا دَمَعُ عَيْنَيْكَ يَوْمًا جَرَى
وَهَلْ تَرْحَمُ الْحَمَلَ الْمُسْتَضَامَ ❖ ❖ ذئَابُ الْفَلا وَأَسْوَدُ الشَّرَى
وَمَاذَا يَنالُ الضَّعِيفُ الدَّلِيلُ ❖ ❖ سَوَى أَنْ يُحَقَّرَ أَوْ يُزْدَرَى

ونجد معروف الرصافي، في قصيدته " معترك الحياة " يشبه الأرض
بغربال، والأحياء يتحركون في إطاره. يسقط الضعيف نحو الهاوية ويبقى
القوي. ويستخلص الشاعر قائلاً:

فلا عيش في الدنيا لمن لم يكن بها

قديراً على دفع الأذى والمكاره

لعمرك ما هذي الحياة بملبس

لمن حيك من عجز نسيج شعاره

ولكن لمن أمسى بأيدي وقوّة

يجرّ على الأيام فضل إزاره

ويعطينا الرصافي مثلاً آخر على مفعول القوة في الطبيعة نفسها،
وهو أن الشمس تحجب بقوتها النجوم عن أعيننا:

أرى الشمس يُخفى ضوءها كل شارق

وإن كان ينبو الطرف عن مستتاره

ومما ذاك إلا أنهـــــــــــــــــا في

يموج بنور ساطع وقد ناره

فلم يستطع نجمٌ طلوعاً تجاهها

إذا لم يعد بالليل غبّ اعتكاره

كذاك ضعيف القوم إن كان جاره

قويّاً يكن شلواً أكليلاً لجاره

عندما نقرأ قصيدة معروف الرصافي " في معرض السيف " نكاد
نسمع صليل السيف، الذي يُسمع الأصم الذي لا يسمع صوت الحق. وهل
يدوم الازدهار والمجد، وينتشر العلم .. إذا لم تُحمِه القوة. لنستعرض معاً
أبياتاً من هذه القصيدة الرائعة التي تذكرنا ببعض قصائد المتنبي:

والمجد لا تَبْنِيهِ إِلَّا عَلَى أُسُسٍ ❖ ❖ مِنَ الْحَرِيدِ وَالْأَفْهَمُ مِنْهُمْ
لَوْ لَمْ يَكِ السَّيْفُ رَبَّ الْمَلِكِ حَارِسَهُ ❖ ❖ مَا قَامَ يَسْعَى عَلَى رَأْسِ لَهُ الْقَلَمُ
مَنْ سَلَّهُ فِي دُجَى الْأَمَالِ كَانَ لَهُ ❖ ❖ فَجَرًّا تَحُلُّ حُبَاهَا دُونَهُ الظُّلْمُ
وَالْعِلْمُ أَضْيَعُ مِنْ بَدْرٍ بِمَسْبَخَةٍ ❖ ❖ إِنْ لَمْ تُجَلِّلْهُ مِنْ نَوَى الطُّبِيِّ دِيمُ
إِنَّ الْحَقِيقَةَ قَالَتْ لِي وَقَدْ صَدَقْتَ ❖ ❖ لَا يَنْفَعُ الْعِلْمُ إِلَّا فَوْقَهُ عِلْمُ
وَالْحَقُّ لَا يُجْتَنَى إِلَّا بِدِرِّي شَطْبِي ❖ ❖ مَاءُ الْمَنِيَّةِ فِي غَرْبِيهِ مُنْسَجِمُ

إِن أَسْمَعْتَ أَلْسُنَ الْأَقْلَامِ ظَالِمَهَا ❖ ❖ بَعْضَ الصَّرِيرِ كَمَنْ يَبْكِي وَيَنْظِلُّ
فَالْحُسَامِ صَالِلٍ يَرْتَمِي شَرْرًا ❖ ❖ مُفْتَقًا أُذُنَ مَنْ فِي أُذُنِهِ صَمَمٌ
هَبِ الْيِرَاعَةَ رِدَاءَ السَّيْفِ تَأْزُرُهُ ❖ ❖ فَهَلْ عَلَى النَّاسِ غَيْرَ السَّيْفِ

يقول محمد مهدي الجواهري في مطلع قصيدته "عبادة الشر" لا
تنخدع بحديث الناس عن الخير والنبل وكرم الأخلاق .. فهي لغة العاجزين
الضعفاء. ويواصل الجواهري تقديم نصائحه التي تشبه إلى حد بعيد
نصائح الكاتب الإيطالي ميكيافيلي في كتابه "الأمير". وعنوان القصيدة
يعبر بقوة عن رأى الشاعر (في هذه القصيدة) بالنسبة لما ينبغي أن يلتزم
به الإنسان في معاملة الناس:

رِدِّ الْعَيْشَ مُزْدَحِمَ الضُّفَّتَيْنِ

مِنْ الْغِشِّ مُلْتَحِمَ الْمَوْرِدِ

وَجُلٍ فِيهِ أَرْوَعٌ مِنْ تَعْلَبِ

وَأَشْجَعِ مَنْ ضَلَّ يَغْمُ مَلْبَرِدِ

ينبغي للمرء ألا يتردد في اللجوء إلى الحيلة والغش والمناورة والرياء
لبلوغ أهدافه، لأن بني آدم مثل الحيوانات، من بينهم الثعلب والأفعى
والذئب والأسد، بل هم أدهى من ذلك وأشد فتكا ببني جنسهم:

هُمُ النَّاسُ لَا يَفْضُلُونَ الْوُحُوشَ

بَغْيِ التَّحِيُّلِ لِلْمَقْصِدِ

فَلَاتَاتِ سَاحَةَ هَذِي الدُّنْيَا

تُنَازِلُهُ بِبِئْسَ أَدْرَدِ

وَحُدِّ مِخْلَبًا لَكَ مِنْ غَدْرَةٍ

وَنَابًا مِنَ الْكُذْبِ فَاسْتَأْسِرِ

وَلَا تَتَّسِدِينَ بَغْيَ الرِّبَا
وغيرَ النَّفَاقِ فَلَا تُعْبُر
وَصَلِّ عَلَى سَائِرِ المَوْبِقَاتِ
صَلَاةَ المُحَالِفِ للمَسْجِدِ
وَمَا اسْطَغْتِ فَاقْطَعِ يَدَ المُعْتَدِي
عَلَيْهِ وَقَبِّلْ يَدَ المُعْتَدِي
وَمَجْدُ وَضْرِيْعاً بِهَذَا الهَنَاتِ
تَحَدِّي مَكَائِنَةَ ذِي المَحْتَدِ
وَنَفْسِكَ فِي النَّفْحِ لَا تَبْأَهَا
وَعَقْلَكَ فِي الخَيْرِ لَا تُجْهَر

يعبر الجواهري عن آرائه تجاه البشر بكل صراحة ووضوح وقوة: الناس نوعان قوي غالب، وضعيف مغلوب؛ لا ترحم، ولا ترجو رحمة من أحد؛ من يتمسكن ويظهر اللين والابتسامة إنما يفعل ذلك لأنه ضعيف، يعيش عيشة الثعلب؛ لأنه لا يستطيع أن يكون أسداً. ويحكي الجواهري ميكيا فيلي لأنه كشف في نصائحه مدى خبث الإنسان، ووحشيته ومكره ولؤمه وفساده، وأماط اللثام عن حقائق في سلوك البشر حاول الناس إخفاءها خجلاً من أنفسهم.

يقول الجواهري:

إلى رُوح "ميكيا فيل" نَفْحُ تَحْيِيَةٍ
وَصَوْبُ غَمَامٍ يَثْرِكُ القَبْرَ عَاشِبَا
أَبَانَ لَنَا وَجْهَ الحَقِيقَةِ بَعْدَ مَا
أَقَامَ الِوَرَى سِرْثَا عَلَيَّهَا وَحَاجِبَا
وَلَوْ رُمْتُ لِلْعَوْرَاتِ كَشْفَا أَرِيْتُكُمْ
مَنْ النَّاسِ حَتَّى الأَنْبِيَاءِ عَجَائِبَا

أرئيتكم أن المنافع صُورَتْ
 محامدَ والحُرمانَ منها معاشرَبًا
 أرئيتكم أن ابنَ آدمَ نُغْلِبُ
 يُماشِيكَ مَنهُوبًا ويغزُوكَ ناهِبًا
 لحفظِ "الأنايياتِ" سُنَّتْ شِرائِعُ
 على الخلقِ صُبَّتْ مِحْنَةٌ وَمَصائبًا

لا يردع المعتدي إلا القوة، ولا يقهر المغتصب إلا القوة، ولا يطرد المحتل إلا بالقوة، ولا يخضع الطاغية المستبد إلا للغة القوة. فهي الوسيلة الوحيدة لنضال الأحرار ضد قوى الظلم والعدوان. وكم دعا الشعراء بقوة وحماس إلى الكفاح بلغة السيف والمدافع، لاستعادة حرية الشعوب وكرامتها وحقوقها. غير أن هذا الموجز لا يتسع لتناول هذا الموضوع.

وفيما يلي نموذج من شعر الكفاح ولغة السلاح للشاعر الجزائري مفدي زكريا:

وتكلم الرشاشُ، جل جلاله ..!
 فاهتزت الدنيا، وضجَّ النيِّرُ
 وتنزلت آياته، لهابةً
 لواحةً، أصغى لها المستهترُ
 والنار، للألم المبرح، بلسم
 يُكوى بها العظم الكسير، فيُجبرُ
 والنار في "مس الجنون" (عزيمة)
 يصلي بها المستعمر المتكبرُ

وله من قصيدة عنوانها " وتعطلت لغة الكلام " :
لغة القنابل، في البيان فصيحاً
وُضِعَتْ، لمن في مَسْمَعِيهِ صُمَام
و(لوافح) النيران، خير (لوائح)
رُفِعَتْ، لمن في ناظريه رُكَام
و(روائح) البارود، مسك نوافح
سُجِرَتْ، لمن في منخريه زُكَام
والحق، والرشاشُ إن نطقاً معاً
عَنَّتِ الوجوه، وخرَّتِ الأصنام!

المظهر والجوهر

عند الحديث عن مظهر الناس، وما قد يلبسون من أقنعة وأثواب جميلة، يشبه الشعراء ذلك بالبرق الخُّب الذي لا يتبعه مطر، ويغمد السيف ومعدنه، ويسرج الفرس، والطائر الجميل الذي لا يؤكل لحمه، وبالفاكهة الجميلة الفاسدة، بل منهم من يتحدث عن الشكل والحجم، وجسم البغال وأحلام العصافير. ويقول إبراهيم الغزي إن الناس في مظاهرهم مثل جنس النباتات فهي تشمل الفجل والموز والنخيل:

لا تتظرنَّ إلى القوالب واعتبر ❖❖ بجوهر الحيوان وهي عقوله
ما الناس إلا كالتبات، وداخلُ ❖❖ في اسم النبات ثمامه ونخيله

وكم من فاكهة أعجبنا مظهرها، ولونها ولكن كما يقول الفردوق:

كبطيخة الزراع يعجب لونها

صحيحا، ويبدو دائرها حين تُفتح

وكم نعجب بالغصن الأخضر، والعود المزهر ولكن مذاقه مرٌّ

يقول أحد الشعراء:

فلا تحمدنَّ الدهر ظاهر صفحة ❖❖ من المرء ما لم تبُل ما ليس يظهر

وما الزينُ في ثوب تراه وإنما

يزين الفتى مغبوره حين يخبرُ

فإن طرّة راقتك منهم فريما ❖❖ أمرٌ مذاقُ العود، والعود أخضرُ

فالظاهر قد تكون خداعة، وكم من رجل مظهره بئيسٌ، وأثوابه رثة،

وبدنه هزيل .. يحمل نفساً نبيلة وقلبا كريماً.

يقول الحزين الكناني:

وتلقى الفتى ضحماً جميلاً رَواؤه ❖ ❖ يَروَعُكَ في النادي وليس له عَقْلُ
وَأَخْرُتُنبو العينُ عنه مُهَدَّبٌ ❖ ❖ وجود إذا ما الضخم نهنه البُخلُ

وتقول ليلي الأخيلية في هذا المعنى:

ومخَرِّقٍ عنه القميصَ تَخَالُهُ ❖ ❖ وَسَطَ البُيوتِ من الحياءِ سَقِيمًا
حَتَّى إذا رُفِعَ اللُّواءُ رأيتَه ❖ ❖ تحْتَ اللِّواءِ على الخَميسِ زعيمًا

وللعباس بن مرداس أبيات شهيرة يتحدث فيها عن الرجل النحيف
والرجل الطرير (حسن المظهر)، وعن الصقر، وعن الجمل الذي يُصَرِّفُه
الصبي .. ومما جاء في هذه القصيدة:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فتزدريه ❖ ❖ وفي أثوابِه أسدٌ مَزِيرُ
ويُعجِبُكَ الطَّريرَ فتبتليه ❖ ❖ فيخْلِيفُ ظَنُّكَ الرَّجُلَ الطَّريرُ
فما عَظُمَ الرَّجالُ لهم بفَخْرِ ❖ ❖ ولكن فخرُهُم كَرَمٌ وخيرُ

ويقول ابن الرومي: إن الجسم الضخم وإن كان حسن المنظر، ما هو
إلا جيفة ضخمة ما لم تزرع فيه الشيم الكريمة نفساً طيبة:

إذا فقتَ الدَّمِيمَ بحسنِ جسمٍ ❖ ❖ فلا يسبقك بالشيم الشريفُ
فيصبح أفضلَ الرجلين نفساً ❖ ❖ وتصبح أعظمَ الرجلين جيفةً

وقد لا تمنح الظروف المرء أثواباً مزركشة، وتمنحه لساناً فصيحاً، وقلباً
ذكياً ونفساً زكية.

يقول ابن أوس العدوي:

إني وإن كنتُ أثوابي ملفقةً ❖ ❖ ليست بخزٍّ ولا من نسجِ كَتَّانٍ
فإن في المجد همّاتي وفي لغتي ❖ ❖ فصاحة ولساني غير لحانٍ

وفي مجال تعظيم الناس بناء على أفعالهم وليس لمجرد مظاهرهم.

يقول الحريري:

ومن الغباوة أن تُعْظَمَ جاهلاً ❖ ❖ لِحِقَالِ ملبسه وَرَوْنِقِ رَقَشِهِ
أو أن تهين مُهذباً في نفسه ❖ ❖ لِدُرُوسِ بزته وَرِثَّةِ فرشه

ولو كانت الأشياء تقدر بمظهرها، وتُكْتَسَبُ لرونقها، لكان الفرس
يشترى لسرجه الجميل، والسيف يقتني لغمده وحمائله.

يقول أبو العلاء المعري:

فإن كان في لبس الفتى شرف له

فما السيف إلا غمده وحمائل

ويقول أبو الطيب المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له

إذا لم يكن في فعله والخلائق

وقد يلجأ بعض الناس إلى الأسلوب الأنيق، والكلام المنمق
المزخرف، كمظهر يخفون وراءه ضعفهم أو نيات سيئة. وهو مظهر يهدف
إلى المراوغة لقضاء الحاجات. لذلك ينصح الشعراء بأن نحكم على المرء
بفعله لا بحلاوة كلامه.

يقول إبراهيم الغزي:

لحسن إصابات المقالة رونقٌ

وأحسن منهنَّ الإصابة في الفعل

ويكون الختام جامعاً مانعاً إذا أوردنا هنا بيتين للإمام علي بن أبي

طالب رضي الله عنه:

الناسُ من جهة التمثيل أكفاءُ ❖ ❖ أبـوهُمُ آدمُ والأُمُّ حـوَاءُ
فإن يَكُنْ لهمُ من قبلِ ذا نَسَبٍ ❖ ❖ يُفـاخـرون به فالطينُ والماءُ

العلم والمعلم



العلم النافع هو الذي يهدب النفوس، ويثري الحياة، ويبعد الشرور والآلام، ويدفع صاحبه إلى العمل من أجل خير الجماعة وسعادتها، وهو ما يجعل صاحبه من ذوي الأخلاق الفاضلة والآداب السامية. يقول حافظ إبراهيم في هذا الموضوع:

لا تحسبن العلم ينفعُ وحده ❖ ❖ ما لم يتوج ربه بخلاقٍ
كم عالمٍ مدّ العلوم حبائلا ❖ ❖ لوقيمة وقطيعة وفراقٍ

ويقول أبو العلاء المعري:

إذا علمى الأشياء جرّ مضرّة ❖ ❖ إلى فإن الجهل أن أطلب العلماء

فالعلم نور يجلي الدجى، وقوة تستغل لراحة الإنسان وإسعاده وارتقائه.

يقول الشاعر معروف الرصافي:

هو العلم يزكو بالحياة سعادة ❖ ❖ ويجعلها كالعلم محمودة العقبي

ويقارن الطغرائي في إحدى قصائده بين العلم والمال، ويؤكد أنّ العلم أفضل

من الغنى، ويعلل ذلك بأسباب من جملتها:

المال يسلب أو يبيد لحادث ❖ ❖ والعلم لا يخشى عليه السالب

هذا على الإنفاق يغزر فيضه ❖ ❖ أبدا وذلك حين تنفق ناضب

أما أحمد شوقي فهو أكثر واقعية إذ يجعل للمال كما للعلم دوراً في

بناء الحياة.

يقول هذا الشاعر:

يا طالبا لمعالي الملك مجتهدا ❖ ❖ خذها من العلم أو خذها من المال

بالعلم والمال بينى الناسُ ملكهم ❖ ❖ لم بين ملك على جهل وإقلال

ويثني أحمد شوقي على المعلم في قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:
 قُمْ للمعلم وقّه التبجيلاً ❖ ❖ كاد المعلم أن يكون رسولاً
 أعلمت أشرف أو أجل من الذي ❖ ❖ يبني وينشئ أنفساً وعقولاً
 ويردُّ عليه إبراهيم طوقان الذي مارس مهنة التعليم، بقصيدة عنوانها "
 الشاعر المعلم " فيقول:

"شوقي" يقول، وما درى بمصيبتى ❖ ❖ "قم للمعلم وقّه التبجيلاً"
 لو جرب التعليم شوقي ساعة ❖ ❖ لقضى الحياة شقاوة وخمولاً
 ومصدقاً لوجهة نظر إبراهيم طوقان، يقول الشيخ عبدالمطلب من قصيدة
 عن المعلم:

بني مصر ما بال المعلم كاسفا ❖ ❖ يُري الناس فيها يكبرون ويصغر
 سلوا عنه جنح الليل كم بات متعباً ❖ ❖ تمام حواليه النجوم ويسهر
 ويعدد بشارة الخورى فضائل المعلم، ويمجد تضحياته من أجل تربية
 الأجيال الجديدة، فيقول:

أَحْبَبْتُ هَذَا النَّشْءَ
 تَسْقِيهِ عَالِي ظَمَأٍ دِمَائِكَ
 رَوَيْتَهُ أَدَبَ الْكَلامِ



بَيْنَ الْمَحَابِرِ وَالْمَنَابِرِ
 ذَابَ لِيَأْكُ فِي ضُجْحِكَ
 تَشْكُو النُّجُومُ مِنْ السُّهَادِ
 وَكَيْسَ تَشْكُو مَقَاتِكَ

كَمَ وَزْدَةٌ مِنْ غَرَسٍ كَفَّكَ
رَاحَ يَجْنِيهِ سِرًّا سِرًّا وَكَ

أما الشاعر مهدي الجواهري فينادي بمعاودة المعلم والوفاء بحقوقه،
وبإعلاء شأنه وتقدير رسالته، فيقول:

فَاعْطِ الْمُعَلِّمَ يَا "بِلَاسَم" حَقَّهُ
وَاعْضُدْ فَقَدْ عَدِمَ الْمُعَلِّمُ عَاضِدًا
لَوْ جَازَ لِلْحُرِّ السُّجُودُ تَعْبُدًا
لَوْ جِدْتُ عَبْدًا لِلْمُعَلِّمِ سَاجِدًا
لِلْمُتَّعِبِ الْمَجْهُودِ فِي يَقْظَاتِهِ
وَالْمُرْتَمِي طَيْفَ الْمَتَاعِبِ هَاجِدًا

وفي قصيدة لجميل صدقي الزهاوي، مطلعها "العلم ثروة أمة ويسار.."
يعدد الشاعر بعض مزايا العلم (التي أصبحت في عهدنا أموراً عادية) فيذكر
أن العلم يدك الجبال، ويضيء الليل، ويقرب البعيد، ويكشف خبايا البحار،
ويخفف أعباء الإنسان، وأنه مصدر ثروة الأمة وتقدمها.

ويختم الزهاوي القصيدة بقوله:

مَا كَانَ يَفْلِحُ فِي جِهَادِ حَيَاتِهِ ❖ ❖ شَعْبٌ عَلَى كَسَلٍ لَهُ اسْتِمْرَارُ
سَيَمُوتُ رَبُّ الْعِلْمِ مِنْ مَرَضٍ بِهِ ❖ ❖ وَتَعِيشُ دَهْرًا بَعْدَ الْأَثَارِ

ويذكرنا أمير الشعراء، أحمد شوقي، ولعلّ التذكير ينبه الغافلين، بدور العلم
في إنشاء الحضارات وبناء الممالك، فيقول:

الْعِلْمُ فِي سُبُلِ الْحَضَارَةِ وَالْعُلَى ❖ ❖ حَادٍ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ، وَزِمَامُ
بَانِي الْمَمَالِكِ حِينَ تَتَشَدُّ بَانِيًا ❖ ❖ وَمَثَابَةُ الْأَوْطَانِ حِينَ تُضَامُ

حول كفاح الأحرار



قال محمد مهدي الجواهري من قصيدة عنوانها "فلسطين الدامية" يحذر العرب من أن العدوان الصهيوني لن يقف عند فلسطين، بل سيُلحق بها دمشق وبغداد والبيت الحرام (وهذا ما نشاهده اليوم)، في الوقت الذي تزداد فيه إسرائيل قوة وطغيانا، والعرب انقساما وتخاذلا.

يقول الجواهري:

لَوْ اسْتَطَعْتُ نَشَرْتُ الْحُزْنَ وَالْأَلْمَا

عَلَى فِلَسْطِينَ مُسَوِّدًا لَهَا عَمَّا

فَاضَتْ جُرُوحُ فِلَسْطِينَ مُذَكَّرَةً

جُرْحًا بِأَنْدُسٍ لِأَنَّ مَا التَّمَأَا

سَيُأَحِقُونَ فِلَسْطِينَ بِأَنْدُسٍ

وَيَعْظِفُونَ عَلَيْهَا الْبَيْتَ وَالْحَرَمَا

وَيَسْلُبُونَكَ بَغْدَادًا "وَجِلَاقَةً"

وَيَتْرُكُونَكَ لَا لَحْمًا وَلَا وَضَمًا

وله من قصيدة عنوانها "يا ابن الفرائين" يقول في مطلعها مؤكداً ضرورة الوحدة العربية:

دَعَوُ إِلَى الْوَحْدَةِ الْكُبْرَى فَقُلْتُ لَهُمْ:

نُدْرُ لِدَلِكْ مِنِّْي الرُّوحُ وَالْجَسَدُ

هَاتُوا بِهَا عَلَّ أَنْ يُسْتَصْلَحَ الْجَسَدُ
فَقَدْ تَقَطَّعَ عَنْ أَنْيَاطِهِ الْكَبِدُ

ثم يتحدث عن الإرهاب الصهيوني في القدس وفلسطين، وعن الأساطيل التي تجوب الخليج العربي لاستغلال خيراته، وقمع ثورات الأحرار:

ففي "فلسطين" خَيْلُ الرَّجْسِ مُحْكَمَةٌ
رِبَاطُهَا، وَبَيْتُ "الْمَقْدِسِ" الْوَتْدُ
وَقَدْ أَطَالَتْ سَيَاطُ الْبَغْيِ جِلْدَتَهَا
يُشْوَى بِهَا جِلْدُ أَحْرَارٍ وَتُعْتَبَدُ
وَفِي الْخَلِيجِ أَسَاطِيلٌ مَدَاخِنُهَا
طَلَعُ الشَّيَاطِينِ عَلَى رَيْثٍ يُحْتَصَدُ
تَقِيءُ حَقْدًا عَلَى وَاعَيْنَ تَحْدَرُهُمْ
يَحْدُونَ صَرْخَةَ أَيْقَاطِ يَمَنْ رَقَدُوا

ويذكرنا شفيق الكمالي بأمجاد العرب وأيام عزهم .. من اليرموك إلى خيل المنى وصلاح الدين. لعله بذلك يحفز الهمم ويوقظ العزائم.

يقول الشاعر من قصيدته "يا شام منك ابتدأنا":

هَذَا الثُّرَابُ صَلاَحُ الدِّينِ سَالَ بِهِ ❖ ❖ مُرُوءَةٌ وَصَلاَحُ الدِّينِ سَالَ دِمَا
كَأَنَّ أَعْلَامَهُ وَالنَّارُ يَنْشُرُهَا ❖ ❖ أَرَى بِهَا الشَّرْقَ كُلَّ الشَّرْقِ مُحْتَدِمًا
أَرَى بِهَا خَالِدَ الْيَرْمُوكِ مُنْتَفِضًا ❖ ❖ وَالْتَقَى طَارِقًا فِيهَا وَمُعْتَصِمًا
وَتَسْتَطِيلُ فَالْقَى مَيْسَلُونَ بِهَا ❖ ❖ مَجْدٌ يُسَلِّمُ مَجْدًا بَعْدَهُ الْعَلَمَا
وَيَلْمُ مَنْ مَسَّ هَذَا الْأَرْضَ مُجْتَرِحًا ❖ ❖ عَلَى مُرُوءَتِهَا أَوْدَسٌ مُنْتَقِمًا
عُودُ الْعُرُوبَةِ لَوْ هَبَّتْ مُزْعِرَةً ❖ ❖ عَلَيْهِ كُلُّ رِيَاكِ الْأَرْضِ مَا انْعَجَمَا

وفي قصيدة عنوانها " يا بسمة اللوز " يذكر نجيب جمال الدين بالمصير المشترك للعالم العربي، وبالروابط العميقة التي تجمع الشعب العربي من الخليج إلى المحيط، ويبدى حزنه لما يسود البلدان العربية من خلافات وتفرق، يجعلها لقمة سائغة للعصابات الصهيونية. وإليك أبياتاً من القصيدة:

من مطلع الشمس في أقصى الخليج إلى ❖ ❖ باب المحيط .. وأهلي فرقة بدد
يا طيف بغداد إن تبعد فنحن هنا ❖ ❖ نعانق الشوق في أطراف من بعدوا
والرافدان إذا في الشام ما اتقدا ❖ ❖ فهل يرجى لدى المقرورة الوقد
أججت نار صمود، بعد ما بردت ❖ ❖ حمى الرماد بسيناء وقد بردوا
إن الصمود على الأوراس ذو خطر ❖ ❖ كما بمكة أكرم قومنا نجد
كما هناك .. بينغازي وبرقتها ❖ ❖ فالنقد يبقى أميراً إن هم نقدوا
مشوا إلى القدس .. ساروا في جنازتهم ❖ ❖ والنعش لو عرفوا من فيه لآتأدوا
فيه الضحايا على الكتبان نائمة ❖ ❖ فيه الرماد، وفيه طيف من رمدا

ويتساءل عمر أبو ريشة كيف يتغاضى العرب عن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل، وكيف يسكتون على ما يلحق بهم من إهانات، ويسمعون نوح الثكالي وبكاء اليتامى، وكأنهم صم بكم، بل هم عن الرد عاجزون:

ألا إسرائيل تعلموا راية ❖ ❖ في حمى المهدي وظل الحرم
كيف أغضيت على الدل ولم ❖ ❖ تنفضي عنك غبار التهم
أو ما كنت إذا البغي اعتدى ❖ ❖ موجة من لهيب أو من دم
فيم أقدمت وأحجمت ولم ❖ ❖ يشنف النار ولم تنتقمي
اسمعي نوح الحزائي وأطربي ❖ ❖ وأنظري دمع اليتامى وأبسمي

ويكذب معروف الرصافي دعوى الدول الغربية بأنها صديقة العرب، ويؤكد أن سياسة الغرب يناورون ويخادعون العرب لاستغلال ثروتهم، وتمزيق شملهم؛

وأن ما يفتخرون به من مدنية وتقدم أصبح يستغل لإرهاب الضعفاء وابتزاز حقوقهم:

ولو أنصفتنا ساسة الغرب لاغتدت
دمشق لها من ساسة الغرب أعوان
ورقت قلوب للعراق وأهلِهِ،
وأصغت إلى شكوى فلسطين آذان
ولكنهم رائت عليهم مطامع،
فأمسوا وهم صم عن الحق عميان
لقد قيل إن الغرب ذو مدنية،
فقلت: وهل معنى التمدين عدوان؟
وأي فخار كائن في تمدن،
إذا لم يقيم في الغرب للعدل ميزان؟

وفي أبيات أخرى يحذر الرصافي من مكر سياسة الإنكليز، ويهاجم المعاهدات التي تبرم معهم، واصفاً إياها بأنها قيود يكبل القوى بها الضعيف:

وليس الإنجليز بمنقذينا ❖❖ وإن كتبت لنا منهم عهد
متى شفق القوي على ضعيف ❖❖ وكيف يُعاهد الخرفان سيد
ولكن نحن في أيديهم أسارى ❖❖ وما كتبوه من عهد قيود

وللشاعر الجزائري مفدى زكريا قصائد عديدة، يهاجم فيها طغيان الدول الغربية، وما تسلطه من إرهاب وعدوان على الدول الضعيفة. وفي الأبيات التالية: (من قصيدة كتبها بمناسبة الذكرى السادسة للثورة الجزائرية) يرسل صرخة مدوية في وجه أمريكا، حاضنة الطغاة، ويهاجم الغرب معقل الظلم والإرهاب:

وفي أمريكا ، للطغاة (حِضَانَةٌ)

وفي أمريكا ، تصرع القوة الحقا

وفي مذبح الأحلاف، تُزهِقُ أنفُسُ

وَتُخَنِّقُ أنفُسُ الشعوب به، خنقًا

ويُعقد باسم العدل، للجور مجلسٌ

ويُخرق باسم السلم ميثاقها، خرقًا

إذا كان هذا الغرب، للظلم معقلًا

فلا تعتبُوا المظلومَ، أن يقصد الشرقًا!

وفي قصيدة أخرى عنوانها " وقال الله.. " يتحدث فيها مفدى زكريا عن
ثورة التحرير الجزائرية، جاء فيها:

وحرب، للكرامة في بلاد ..

مضت تفنكُ عزتها غلابًا

وأوفدت الرصاص، ينوبُ عنها

يناقش غاصبَ الحقِّ الحسابًا

فأيقظت القنابل من تعامى

وأسدل فوق ناظره نقابًا

ويبدى مفدى زكريا حزنه وأسفه لما آلت إليه حالة العرب من تفرق
وضعف، واكتفائهم بإصدار القرارات التي لا تردع الأعداء، ويحفزهم على اللجوء
إلى القوة لأنها اللغة الوحيدة التي يفهمها المحتل:

ويح العروبة .. كم ديستُ قَداسَتْها!

وسامها الخُلفُ، إفلاساً وخذلانًا!

وعاكفينَ على النُّعمى .. يُهْدِهْدُهُمْ
صفو الليالي .. وما رُقُوا لبلوانَا
ناموا .. وفي الدار (إسرائيلُ) ترصدنا
وأغمضوا دون (إسرائيل) أجنانَا
وفي الجزائر، أشلاءً ممزقةً
راحت، عن العُربِ، قُرباناً، وُغفرانَا
ذروا العواطفَ .. فالرشاشُ، يجهلها
(سجدةُ السهو) لا تحيي ضحايانَا
وصالحُ الدعواتِ .. النارُ تتكرها
ما لم تُقدِّم لها، الأعمالُ بُرهانَا
وليس تُجدي، قراراتُ على ورق
إن لم يكُ الفعلُ، إيضاحاً وتبيانَا
والمغربُ الحرُّ، لا تخبو لواعجه
بالشرق، ما انفكَّ مسحوراً، وولهانَا
عزُّ العروبة، في أعطاف ثورتنا
إن تُسندوا حَربنا، تُرفَع لكم شانَا!

الدنيا



وصف بعض الشعراء الدنيا بأنها ظل زائل، ثوب مستعار، عروس مخادعة، اليوم فتاة لطيفة وغداً عجوز عبوس؛ وبأنها مومس، درب محفوف بالأشواك، بحر لا تسمح أمواجه لمراكبنا أن تستقر، فندق يمر به الزائرون، ليلة عرس، حلم خادع ثم نستيقظ ... إلخ.

وهذا أبو العتاهية يشكو حظه فيها فيقول:

نبغي من الدنيا حظاً فتزيدنا ❖❖ فقراً، ونطلب أن نصحّ فتمرضاً

ويرى ابن الرومي أن صرخة الطفل عند ولادته تؤذن بما سيواجه من مشاكل الحياة:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ❖❖ يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والأفما يبكيه منها وإنها ❖❖ لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ❖❖ بما سوف يلقي من أذاها يهدد

والدنيا لذة وألم، لقاء وفراق، حب وكراهية، هكذا جرت سنة الحياة كما

يراهما المتنبّي:

على ذا مضى الناسُ اجتماعُ ❖❖ وميئتُ ومولودُ وقالٍ ووامقُ

ويشبهه أبو العلاء المعري الدنيا بالأم، ولو كانت زوجة لطلقها:

يا أمّ دفر رعاك الله والدّة ❖❖ منك الإضاعة والتفريطُ والسرفُ
لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها ❖❖ لكنك الأمّ هل لي عنك منصرفُ

ويضيف المعري: ما لكم تزعمون أنكم تكرهونها، وأنتم لها عاشقون

وبمباهجها متيّمون:

وكلُّكم يُبدي لدنياه بغضةً ❖❖ على أنه يُخفي بها كمد الصبِّ

أمننا الدنيا دنيئة وأبناؤها لؤماء أو باش، هكذا يأتي هجوم المعري صريحاً لا
غبار عليه:

حَسَيْتِ يَا أُمَّنَا الدُّنْيَا، فَأُفُّ لَنَا ❖ ❖ بُو الخَسيِّسة، أو بَاشُ أَخْسَاءُ
يَمُوجُ بِحَرِّكَ والأَهْرَاءُ غَالِبَةٌ ❖ ❖ لِرَاكِبِيهِ فَهَلْ لِلسُّفْنِ إِرْسَاءُ

ويقول الحريري إنها:

دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكْتَ فِي يَوْمِهَا ❖ ❖ أَبْكَتْ غَدًا تَبًّا لَهَا مِنْ دَارِ

وليست نظرة ابن نباتة السعدي أقل تشاؤماً، إنها مثل المرأة الحمقاء
الخرقاء تنقض ما تنسج، وتسلب ما تمنح:

هي الخرقاءُ تنقضُ بعد نسجِ

فما فيها لحيٍّ من فلاح

يؤولُ بها الشبابُ إلى مشيبِ

ويسلمه الغدو إلى الـروح

والدنيا عند ابن عبد ربه مثل الشجرة تخضر أوراقها حيناً وتجف تارة؛
عيون تدمع، وعيون مرحة مبتهجة:

ألا، إنما الدنيا غَضَارَةٌ أَيُّكَةَ

إذا اخضرَّ منها جانبٌ جَفَّ جانبُ

فكم أسخنت بالأمس عيناً قريرة

وقرَّتْ عيونٌ دمعها اليومَ ساكبُ

وعثرتُ على قصيدة رائعة لأبي الحسن محمد بن خلف البصري تتضمن
نصائح واقعية. فيما يلي جزء منها:

تري الدنيا وزهرتها فتصبو ❖ ❖ ولا يخلو من الشهوات قلبُ

ويعتب بعضنا بعضاً ولولا ❖ ❖ تعذر حاجة ما كان عتبُ

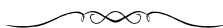
فضول العيش أكثرها هموم ❖❖ وأكثر ما يضرك ما تحبُ
إذا اتفق القليلُ وفيه سلم ❖❖ فلا تُردِ الكثير وفيه حربُ

ولأمير الشعراء أحمد شوقي قصيدة مشهورة (تغنيها أم كلثوم) عنوانها " ذكرى المولد " يشبه فيها الدنيا في تقلباتها بالأفعى التي تغير ثوبها، وفي كونها لا تُؤمّن حتى وإن بدت هادئة هاجعة:

أخَا الدنْيَا أرى دنْيَاكَ أَفْعَى ❖❖ تُبَدِّلُ كُلَّ آوْنَةٍ إِهَابَا
وَأَنَّ الرُّقْطَ أَيْقَظُ هَاجِعَاتِ ❖❖ وَأَثْرَعَ فِي ظَلَالِ السَّلْمِ نَابَا
وَمِنْ عَجَبِ تُشْيِبُ عَاشِقِيهَا ❖❖ وَتُفْنِيهِمْ وَمَا بَرِحْتَ كَعَابَا
فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فَإِنِّي ❖❖ لَبَسْتُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا
لَهَا ضَحْكُ الْقِيَانِ إِلَى غَيْبِي ❖❖ وَلِي ضَحْكُ اللَّبِيبِ إِذَا تَغَابَا



حصاد الأيام



مقدمة



سواء كتب المرء عن التاريخ أو الأدب، عن الجغرافيا أو الكيمياء أو الطب، أو عالج علوما وفنوننا أخرى، فإن موضوع الاهتمام الأول هو "الإنسان". هذا المخلوق الذي تتصارع في نفسه نزعات الخير والشر؛ والحب والكراهية؛ ويغلب على طبعه الأنانية والعدوانية؛ تغريه المذات، ويزعجه الألم، ويقلقه الخوف من الفناء. قيل إنه سيد المخلوقات، ولكنه أشدها تدميرا للحياة وفسادا في الأرض.

عندما أنبأ الله الملائكة بأنه سينشئ مخلوقات أخرى على الأرض قالوا:

﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة: 30)

ثم أمر الله آدم عليه السلام وزوجه ألا يقربا شجرة محددة من أشجار الجنة. غير أن الشيطان أغراهما فخالفا أمر الله، فأخرجهما من الجنة:

﴿ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾

ثم طلب آدم عليه السلام من ابنه قابيل أن يتزوج البنت توأم أخيه هابيل، وأمر هذا الأخير أن يتزوج من البنت توأم قابيل. ولكن هذا الأخير رفض طلب أبيه، وأبى إلا أن يتزوج الفتاة توأمه، ولعلها كانت أطف وأجمل من أختها. ولم يوافق آدم على طلب قابيل، بل أمر كلا من ولديه أن يقدم قربانا لله، وكان أن تقبل الله قربان هابيل، فمالت الغيرة قلب أخيه، وحسده على فوزه برضى الله وأبيه، وبالفتاة الجميلة، واضطربت نار الحقد

والعدوانية، فقتل قابيل أخاه. وكانت الأنانية سببا في إزهاق روح بريئة، وبدأت مأساة البشرية، ودخل الإنسان دوامة الظلم والعدوان.

وسواء رفع قابيل حجرة أو هراوة ليهشم رأس أخيه، فقد استمر الإنسان، عبر القرون في وحشيته وعدوانه، وراح يطور وسائل العنف والدمار، وانتشر الفساد في البر والبحر، واستشرى الصراع بين الخير والشر.

وقد ظل موضوع الخير والشر والإنسان هو اللبنة الأساسية في الكتب السماوية وفي تعاليم الديانات الأخرى. وتقول تعاليم زرادشت (ZARATHUSTRA) الذي عاش في القرن السادس ق.م. تقريبا، بأنه توجد روحان أساسيتان في العالم: روح النور والحكمة والخير، وروح الظلام والفساد والشر؛ وأن الصراع بين هاتين القوتين يتركز في الإنسان. ولذلك أصبح العالم منقسما إلى مملكتين: مملكة أهل الخير، ومملكة أهل الشر، واشتعلت نيران الصراع والحروب بين المخيمين، وستظل كذلك إلى يوم الحساب.

ومن المعلوم أن هناك وجهات نظر أخرى تخالف ما جاءت به الديانات السماوية في موضوع نشأة الإنسان وتطوره لا يحتاج إلى أية تفسيرات تختلف عن تفسير تطور الحيوانات الأخرى. يقول داروين ما مفاده: ينبغي لنا أن نعترف بأن الإنسان بماله من صفات نبيلة، وما يملك من ذكاء وتفكير، نفذ بعقله إلى حركات النظام الشمسي وتكوينه، ولكن على الرغم من ذلك ما زال يحمل في طيات جهازه العصبي طابع نشأته الوضيعة الأولى.

ويرى هذا العالم أنه ينبغي للإنسان ألا يخجل إذا عرف أن دماء حيوانات متواضعة ما زالت تجرى في عروقه: "أما ما يخصني شخصا فأفضل أن أنحدر من ذلك القرد الصغير الذي تحدى أعداءه الأقوياء ليصون صغاره؛ أو من ذلك السعدان الشجاعان، على أن أنتمى إلى الإنسان المتوحش الذي يجد متعة في تعذيب أعدائه وإراقة دماء ضحاياه".

لقد كانت احتياجات الإنسان البدائي محدودة، تنحصر في سعيه للحصول على الغذاء وتأمين وجوده. وعندما تطورت حياته زادت احتياجاته وتعددت رغباته وتنوعت طموحاته وزادت مشاكله. يقول روسو 1778 - 1719: إن أول رجل حدد قطعة من الأرض، وقال للناس: " لا تقتربوا منها " وضع أول لبنة في تكوين المجتمع. ويضيف " ثم جاء رجل آخر فقال " لا تصدقوه... إنه محتال، الأرض ليست ملكاً لأحد...، وشارها ملك لنا جميعاً، فنجم بين الرجلين شجار، تلتها نزاعات وجرائم وحروب ما زالت البشرية تعاني من ويلاتها".

وشعر الإنسان بلذة الملكية والثروة وما تجلبه من قوة وسيطرة على الناس، فأصبح جشعاً وأنانياً، وزاد ظلمه واستبداده. ويقول لوكريتيوس 55-99 LUCRETIUS ما معناه: إن جشع الإنسان، وتلهفه على السلطة وسعيه وراء ملذات الحياة دفعه إلى ارتكاب الجرائم في حق أخيه الإنسان. ولكن رغم ذلك فهو لا يشعر بالأمن والاطمئنان، ما دام شبح الموت يلاحقه. ويتمادى في مغالطة نفسه، محاولاً أن يخفي هوة العدم التي تنتظره في نهاية المطاف، فينغمس في الاحتيال والكذب والغش والقتل ليقوى مركزه ويوسع سلطانه، عساه أن يبعد عن نفسه شيئاً من الخوف والقلق.

ويلطف أفلاطون 348 - 427 ق.م. قليلاً من النظرة التشاؤمية إلى الإنسان عندما يقول: أهل الخير قلة، وأهل الشر قلة. ولو أنك وازنت بين أفخم الأشياء وأصغرها، وبين أسرعها وأبطئها، وبين أشدها بياضاً وأشدها سواداً...، لوجدت أن نسبة التطرف في كلا الاتجاهين قليلة. وكذلك لو أجريت منافسة في ميدان الشرور لوجدت أن أشد الناس فساداً قليلون.

وكان ديمقريطس DEMOCRITUS (ولد نحو 460 ق.م) يرى أن حالة البشر تثير السخرية، لما يحمل الإنسان في نفسه من غرور. وكان دائم الابتسام عندما يفكر في ظروف حياة البشر، أو يتحدث عن مشاكلهم، ولذلك عرف بالفيلسوف الضاحك. وكان لهيراقليطس HERACLITUS النظرة نفسها،

ولكنه كان حزينا على حالة الإنسان وظروف حياته، ولذلك عرف بالفيلسوف الحزين. أما ديوجينيس المتقشف (DIOGENES) (ولد نحو 412 ق.م) فيرى أن البشر ليسوا أفضل من الذباب، ويشبههم بأكياس منتفخة بالهواء. وكان لا يرى لأيّ إنسان تأثيرا على حياته المتقشفة. ولم يكن يكره الناس، بل كان في نظرتة كثير من الواقعية والحكمة،

وهناك رجل يدعى تيمون من أثينا (TIMON OF ATHEN) اشتهر بكرهيته للبشر وحقده على الناس، وكان يرى أن الإنسان مخلوق خطير وشرير لا يستحق الحياة. وقد أنفق هذا الرجل جميع ثروته على أصدقائه، وعندما احتاج إلى مساعدتهم تجاهلوه وهجروه. وتكلم ذات يوم في حفل فقال: " أيها الناس، أملك قطعة أرض فيها شجرة تين قوية. وقد شتق عدد من الناس أنفسهم على أغصانها. وبما أنني قررت أن أبني منزلا فوق الأرض، يسعدني أن أبلغكم أنه على كل من يرغب في شتق نفسه أن يسارع في التنفيذ قبل أن أقطع تلك الشجرة.

ويرى مونتاني (MONTAIGNE 1533 - 1592) أن التصرفات السيئة، مثل الغيرة والحسد وحب الانتقام والأنانية والعدوانية، هي الإسمنت الذي يدعم شخصية الإنسان. ويضيف: " وكثيرا ما نشعر بشيء من اللذة الخفية عندما نشاهد الناس يتخبطون في المشاكل". ويورد الكاتب أمثلة على أنانية الإنسان واحتياله فيقول: يتاجر الإنسان في الخمر والمخدرات فيكون ربحه على حساب خسارة الآخرين؛ وعندما تنقص السلع يرفع التاجر الأسعار فيزيد ربحه ويخسرون؛ وبطبيعة الحال لا يرغب المحامون في أن يخلو مجتمعهم من النزاعات والمحتالين والمجرمين، لأنهم يتاجرون في مشاكل الناس؛ ولا تمتلئ جيوب الأطباء إذا اختفت الأمراض من مدينتهم؛ وينتعش ضباط الجيش في ظروف تسودها المصادمات الداخلية والخارجية. وهكذا يصدق القول: مصائب قوم عند قوم فوائد.

ومن أشهر من تحدث عن مساوئ سلوك الإنسان، ورسم لنا صورة قائمة لما ينبغي أن يفعله الحاكم ليحتفظ بسلطته، والأمير ليبقى على عرشه، الكاتب الإيطالي ماكيافيلي (1469 - 1527) (MACHIAVELLI). فهو يقول إن سلوك الإنسان يتسم بعدم الوفاء بالوعد، وبالمخادعة والجبن والغدر والعدوانية، فإذا نجحت التفّ الناس حولك، وإذا فشلت تخلوا عنك.

ويقول ماكيافيلي هناك طريقتان لحل النزاعات: القانون والقوة. وينصح الأمير بأن يعتمد على القوة لأنه ثبت أن القانون وحده لا يكفي. ويضيف: على الأمير أن يلبس جلد الأسد حيناً وجلد الثعلب تارة. فبدور الأول يخيف الذئب، وبدور الثاني يتجنب الوقوع في حبالل المؤامرات. وينصح الأمير بأن يتظاهر دائماً بالإخلاص والسلوك القويم والأخلاق الفاضلة، " مع العلم أنه لا يمكنه أن يراعى في معاملاته الأخلاق الحميدة، ولا أن يلتزم بواجبات الصداقة، ولا بشرائع الأديان والإنسانية، إذا أراد (أي الأمير) أن يحافظ على الملك.

وليست نصائح ميكيافيلي اللاأخلاقية بالشيء الجديد في ديوان الأنانية والعنف والتناحر بين البشر. وقد عثرت على كلمة لأحد ملوك مصر هو أمينمحيث الأول يوصي فيها ولده (قبل أربعة آلاف عام) بما يلي: " كن قاسياً على جميع من هم دونك! ولا تملأ قلبك بالموودة لأخ؛ ولا تثق بصديق، لأن الإنسان لا صديق له في أيام المحنة "

ويعجبي من الكتاب الذين انتقدوا سلوك الجنس البشري، الكاتب الإنكليزي سويفت (1667 - 1745) (SWIFT) صاحب حكاية رحلات جاليفار (GULLIVER'S TRAVELS). لقد سخر هذا الكاتب من ضيق تفكير البشر وغباوتهم ونفاقهم وأنانيتهم وتناحرهم وجرائمهم ووحشيتهم. وقد جعل بطل رحلاته، بعد عودته إلى وطنه، لا يتحمل أن يعيش وسط الناس، بل اشترى

حصانين وعاش بجوارهما عيشة راضية. ومن أقواله: " إنني أكره ذلك الحيوان الذي نسميه الإنسان، وإن كنت أحبّ زيدا وعمرا وسعيدا".

ولمّ لا يسخر سويقت وغيره من حماقات الإنسان وقد عجزت الديانات السماوية وغير السماوية، وعجز الرسل والحكماء عن إصلاح أمره وتقويم سلوكه؟! وكيف لا يسخط هذا الكاتب أو ذاك الشاعر عندما يشاهد الإنسان يحرق المدن ويدمر الحياة ويفسد في الأرض ويبيع نفسه للشيطان من أجل السيطرة على غيره، أو لمتعة ينالها أو ثروة أو عرش يضيفه إلى مكاسبه.

وتصور لنا مسرحية (1564 - 1593) MARLOWE التي تحمل عنوان " الدكتور فاستوس " حياة شخص قرر أن يبيع روحه للشيطان مقابل أن يلي جميع رغباته ويشبع شهواته. وفي النهاية يقبض الشيطان روحه ويضعها في النار. هكذا يبدو الإنسان وكأن في داخله قوتين متصارعتين، توجهه إحداهما نحو فعل الخير، وتدفعه الأخرى نحو الفساد والإجرام؛ أو كأن له نفسا طيبة خيرة مسالمة، وأخرى شريرة متوحشة. وكم يسوء من يتتبع تصرفات الناس ويقرأ أخبارهم أن يلاحظ أن كثيرا ما تكون الغلبة لنوازع الشر.

ونقرأ في قصة DR. JEKYLL AND MR. HYDE، للكاتب R.L. STEVENSON أن الصراع بين الخير والشر في نفس الدكتور جيكيل أدى إلى خلق ازدواج في شخصيته، فكان جيكيل يمثل الإنسان الطيب، المواطن اللطيف المحسن، وأصبح السيد هايد يمثل الرجل العنيف الشرير، كل ذلك داخل شخص واحد. وأدى به هذا الصراع في النهاية إلى الانتحار.

ويشير كل من فولتير (1694 - 1778) (VOLTAIRE) في قصته الشهيرة CANDIDE، والكاتب الانكليزي الدكتور جونسون (1784) DR.S.JOHNSON (- 1709) في قصته RASELAS إلى أن دوافع الشر لدى الإنسان أكثر قوة وعمقا من منابع الخير. وكم روى لنا الشاعر العظيم شكسبير (1616 - 1564)

في مسرحياته من أخبار الغدر والخيانة والمؤامرات، وكم قدم لنا من أمثلة عن ظلم الإنسان وعدوانيته وأنانيته وجشعه ونكرانه للجميل.

أما الفيلسوف هوبز (1679 - 1588) (HOBBS) فيحدثنا عن مبدئين يتعلقان بحياة الإنسان. يشير الأول إلى حق الإنسان في استخدام الوسائل التي يراها صالحة وفعالة للمحافظة على حياته. وهذا يعني أن الإنسان حرّ في اللجوء إلى الأعمال التي توفر له حاجياته وتضمن حقه في الحياة. ويسمى المبدأ الثاني "قانون الطبيعة" الذي يمنع الإنسان من تدمير الحياة، أي أنه يقيّد حريته المطلقة لجعله فرداً مسؤولاً عن تصرفاته السيئة.

سألت ابني الصغير مرة أن يضيف صفة إلى تعريف الإنسان بأنه: "حيوان ناطق"، فاختر من بين الصفات العشر التي قدمتها له، صفة "أحمق". وعلل ذلك بقوله: "إن المخلوق الذي يلوث الهواء والماء، ويقطع الأشجار، مخلوق أحمق". ويتصرف الناس عامة، وحتى العظماء منهم بحماقة أثناء الظروف القاسية والمفاجآت المزعجة، وفي حالات الفشل والغضب. فمن الناس من يلجأ إلى التدخين أو تعاطي الكحول أو المخدرات الأخرى؛ ومن يكسر الأواني، أو يضرب الأطفال. ويذكر MONTAIGNE حالة الملك الذي "جلد" البحر بسياطه؛ والملك قورش الذي استخدم جيشه للانتقام من النهر؛ وملك آخر نزلت به كارثة فمنع المواطنين من أن يصلوا للإله؛ وقدماء سكان THRACE الذين كانوا يرمون السماء، عندما تبرق وترعد، بالسهم رغبة في أن يعود الإله إلى صوابه.

ومن آراء فرويد (1856 - 1939) (FREUD) الشهيرة قوله بأن ما يوجه سلوك الإنسان هو مبدأ اللذة والألم. أي أن الإنسان أثناء سعيه لإشباع احتياجاته وتجنب الآلام والمزعجات يواجه عراقيل وصعوبات كثيرة. وبذلك يدخل في صراع، خفيف أو شديد، مع أبويه، وفي المدرسة والشارع

ومكان العمل وغيرها. ومما يزيد الطين بلة أنه، في معظم الحالات، لا يقنع بالحصول على الاحتياجات الأساسية، بل ينافس ويصارع ويقاوم ليصبح ثريا وقويًا مسيطرًا.

ويشير فرويد إلى بعض الوسائل التي تساعد على التخفيف من مزعجات الحياة ومتاعبها وآلامها فيذكر:

- 1_ اعتزال الناس، التخلي عن الطموح الجامح، والابتعاد عن مصدر المتاعب، والبحث عن السلام والطمأنينة.
- 2_ الاندماج في المجتمع والتعاون مع الناس بالاعتماد على المرونة في السلوك.
- 3_ اللجوء إلى المتع الفكرية والروحية والدينية والتسامي عن المغريات المادية.
- 4_ اللجوء إلى الكحول والمخدرات، وهو أسوأ الحلول.

لم تجد تحاليل فرويد ونصائحه، لأنها وإن زادت وعي الإنسان ببعض مشاكله، لم تقض عليها ولم تجعله أسعد مما كان. وترك لنا عشرات الحكماء والفلاسفة، قبل فرويد، تراثًا غنيا بالمواعظ والإرشادات والحكم، وجاء الأنبياء والرسول بتعاليم الترغيب والترهيب، فلم ينته البشر عن ارتكاب الجرائم، ولم يخل العالم من العنف والفساد والقتل والحروب.

ويواصل الإنسان توغله في أعماق العلوم، ويتوسع في ميدان الاختراعات التي لا حصر لها. فهل حسن هذا التقدم في ميادين المعرفة من سلوك الإنسان تجاه أخيه الإنسان وتجاه الطبيعة؟ وهل أصبح الفرد اليوم أقل جشعا وأنانية ووحشية مما كان عليه في العهود الغابرة؟ أم أن نزعتة نحو الشر ستؤدي به في النهاية إلى تدمير الحياة؟ بسبب أنانيته وحماقته وإخلاله بسنن الطبيعة وبالأمانة التي تحملها

◆ حصاد الأيام ◆

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

صدق الله العظيم.

شيشرون

M.T.CICERO



ولد شيشرون سنة 106 ق.م. في مدينة أرينوم (إيطاليا) ودرس القانون والفلسفة في روما. ولع نجمه عندما عين مدعياً عاماً في قضية ضد حاكم صقلية، وبذلك انطلق في ميدان السياسة. وبعد بضع سنوات انتخب إلى وظيفة حاكم، وهي أعلى وظيفة في روما. غير أن منافسه كاتيلين دبر مؤامرة للاستيلاء على الوظيفة بالقوة؛ واستطاع شيشرون أن يقضي عليها. ونفي شيشرون من روما لأنه أمر بإعدام عدد من جماعة خصمه كاتيلين دون محاكمة.

عاد شيشرون إلى روما بعد نحو سنة من نفيه، وكرس وقته للمحاماة والكتابة، ولم يهمل النشاط السياسي. وعندما تجاوز يوليوس قيصر بجيشه حدود الروبيكون، متجهاً نحو روما، انضم شيشرون إلى القائد بومبي لمحاربتة، وكان ذلك بداية الحرب الأهلية.

غير أن شيشرون لم يشارك في المؤامرة التي أدت إلى قتل القيصر عام 44 ق.م. وفي الصراع الذي دار بعد ذلك بين مارك أنطوني والشاب أوكتافيان انضم شيشرون إلى هذا الأخير. وعندما تصالح الزعيمان حكم على شيشرون بالإعدام، فقطع رجال مارك أنطوني رأسه ورجليه وعرضت في ساحة الفوروم بروما، أمام الجمهور حدث ذلك عام 43 ق.م.

اشتهر شيشرون بقدرته الخطابية الفائقة، وكتب عن موضوعات متنوعة مثل الخطابة، والسياسة، والفلسفة، والصدقة، وله قصائد شعرية ورسائل؛ ولكنه اشتهر خاصة بمرافعاته القضائية وخطبه.

نبذة من مقاله عن الشيخوخة :

من منا لا يرغب في أن يمتد به العمر وأن يعيش حتى يبلغ مرحلة متقدمة من السن؟ ولكن من الناس من إذا بلغ الشيخوخة يتذمر، فيقول مثلا لقد هجمت عليه بسرعة أكبر مما كان يتوقع. فهل صحيح أن مرحلة الشيخوخة هجمت عليه بسرعة أكبر مما هجم عهد البلوغ على سنّ الطفولة؟ ولو افترضنا أن الشيخوخة أدركته بعد 800 سنة فهل تكون أقل عبئا وإزعاجا مما لو أنها أدركته بعد 80 سنة؟!

والواقع أن هناك أسبابا أربعة تجعل الناس لا يرحبون بمرحلة الشيخوخة. أولا أنها تدفعنا إلى التقاعد؛ ثانيا أنها تضعف البدن؛ ثالثا كونها تحرمنا من كثير من اللذات الجسدية؛ وأخيرا أنها المرحلة التي يتلوها الموت. ولنتحدث عن كل من هذه العناصر.

*** التقاعد:** هل يعنى ذلك ترك الأعمال التي تتطلب القوة البدنية؟ هناك أنشطة عديدة يؤديها المسن عندما يضعف بدنه، إن الأعمال الهامة في الحياة لا تنجز بقوة العضلات فقط. هناك ميزات متوفرة لدى المسنين: التجارب، سداد الرأي، إسداء النصيحة.

والمعروف أن التهور لدى الشباب يعادله التأني والحذر في الشيخوخة ويقال إن الذاكرة تضعف تحت عبء السنين. هذا صحيح ما لم يعمل المرء على شحذها وتنشيطها بالممارسة والاستعمال.

انظر إلى المحامين والقساوسة والفلاسفة، إنهم يحتفظون بذاكرة قوية. لقد ظل الشاعر سوفوكلس SOPHOCLES يؤلف مسرحياته في سنّ متقدمة جدا وظن أولاده أنه يهمل ممتلكاته بسبب كبر السن، فشكوه إلى العدالة مطالبين بحرمانه من صلاحية إدارة أملاكه. وقرأ الشاعر على القضاة مسرحية كان منهمكا في تأليفها، فتبين لهم أن من يكتب ذلك لا يمكن أن يتهم بفقدان الذاكرة، وخسر أولاده دعواهم.

وإذا سئل أيُّ فلاح مسن لمن تزرع...؟ أجاب: أزرع في سبيل الله الذي سمح لي أن أتمتع بما زرع أجدادي، وأزرع ليتمتع أحفادي.

*** ضعف البدن :** العنصر الثاني الذي يجعل الناس يكرهون كبار السن هو قولهم إنه يضعف قوة البدن. والحقيقة هي أنني لا أحتاج إلى قوة الشباب تماماً كما أن الشاب لا يحتاج إلى قوة الثور أو الفيل. بل على المرء أن يستغل ما لديه من قوة وأن يحاول أن يتقن ما يعمل.

وهل يفقد المسنُّ القدرة على تدريب الشباب على متطلبات الحياة؟ أليس هذا من أنبل الواجبات؟ وما على من طعن في السن إلا أن يجعل عبء عمله متوازناً مع طاقته البدنية ومع تجاربه وخبرته الفكرية. يروى أن ميلو دخل مدينة أولديا وهو يحمل ثورا حيا على كتفه.

وماذا تفضل أنت: أن ترزق قوة ميلو البدنية أو قوة بيتاغورس الفكرية؟

لقد قررت الطبيعة مجراها، وهو يسير في اتجاه واحد فقط، الطفولة بضعفها، ومرحلة الشباب بمرحها وحماسها، والمرحلة الوسطى ببرزانتها ونضجها، وفترة الشيخوخة بنضجها وهدوئها. ولكل مرحلة مزاياها. ثم لا بد من التصدي لمرحلة الكبر وممارسة القدر المناسب من الرياضة، وعدم المبالغة في الطعام والشراب، والعناية بشؤون الفكر والروح، فهما مثل الفانوس سرعان ما ينطفئ إذا انتهى وقوده.

*** الملذات الحسية والجسدية:** التهمة الثالثة هي أن كبار السن يحرمان من المتع الجسدية. ويا لها من خدمة يقدمها لنا كبار السن إذا كان يخلصنا من وصمات الشباب وشوائبه ومساوئه التي كانت كثيرا ما تدفعنا لارتكاب الشرور. فاللذة عدوة الفكر الذي يعتبر أسمى ما وهب الله أو الطبيعة للإنسان. وإذا كان المرء لا يستطيع أن يتجنب الملذات بمساعدة العقل والفلسفة، ينبغي له أن يعترف بفضل الشيخوخة التي أنقذته من عاداته السيئة.

ولعلك تقول: إن مرحلة الشيخوخة خالية من ملذات الموائد المزدانة بألوان الطعام ومن متعة الشرب مع الأصدقاء. ولكنها خالية كذلك من الصداع والأرق وسوء الهضم.

لنلتفت إلى ملذات حياة الفلاح التي أجدها من أروع المتع. فنشاطه متنوع ولا يعوقه كبر السن أبداً؛ بل تبدو حياته أقرب شيء إلى حياة الرجل الحكيم. فهو يتعامل مع الأرض الطيبة المطيعة المعطاء، إذ إنها تغل أضعاف ما تتلقى. وهناك الحديقة، والبستان، وتربية الأغنام، والنحل.. و متعة الحياة بين الأزهار. وكم هي متعة الفلاح عندما يدخل مخزن الزيت والخمور، ويشاهد مزرعته تزخر بالخنازير، والمعز، والخرفان، والطيور، والعسل والجبن واللبن. ليحتفظ الشباب إذا بعضلاتهم، وخيلهم، ورماحهم، وسيوفهم، وحفلاتهم، وليتركوا لنا نحن الشيوخ لعبة النرد والطاولة.

*** اقتراب الموت:** ياله من رجل خرف مسكين من لم يتعلم أثناء مسيرة حياته الطويلة أن الموت ليس شيئاً مخيفاً. فإذا كان الموت يقضي نهائياً على وجود الروح، إذا ينبغي أن تتجاهله كلياً. أما إذا كان يسمو بالروح إلى حياة الخلود، فينبغي أن نرحب به. ففي الحالة الأولى لا يشعر المرء بعد الموت بأيّ بؤس أو شقاء، وفي الثانية سيكون سعيداً.

وعلى أية حال من المغفل الذي يضمن في الصباح أنه سيكون على قيد الحياة عند غروب الشمس؟ مهما كان صغير السن. والواقع يشهد بأن قليلاً من الأطفال تمتد حياتهم إلى سن الشيخوخة. وبينما يظل الشاب يتمنى أن يعمر طويلاً، يكون كبير السن قد حقق تلك الأمنية.

ميشيل دي مونتاني

Michel de montaigne



ولد مونتاني عام 1533، في قصر مونتاني الواقع على تل قرب مدينة بوردو. كان أبوه بيير إيكيم ينتمي إلى أسرة تعمل في التجارة، ثم أصبح عمدة المدينة. وكان يعتنق المذهب الكاثوليكي. وتنتمي أمه، من جهة أبيها، إلى أسرة يهودية من أسبانيا، اعتنقت المسيحية، وكانت تميل إلى المذهب البروتستانتي. عهد به أبوه إلى طبيب ألماني ليعلمه اللغة اللاتينية فقط في السنوات الأولى من عمره. وفي سن السادسة أرسله إلى مدرسة GUIENNE في بوردو، حيث قضى سبع سنوات، ثم إلى كلية في تولوز لدراسة القانون.

وفي 1554 عين مستشاراً في محكمة الإعانات في مدينة بيريجو؛ ثم عين عضواً في برلمان بوردو. وهنا تعرف على La Boétie، وهو أديب وقاض، فنشأت بينهما صداقة عميقة ظل مونتاني يعتز بها، ودامت حتى وفاة الصديق عام 1563، وبقي مونتاني وفيما لذكراه طوال حياته. وتزوج سنة 1565، بسيدة تدعى فرانسواز de la chassaigne، أنجبت له ست بنات توفين في سن مبكرة، باستثناء ليونورا. وعندما توفي أبوه ورث مونتاني قصر العائلة، عام 1568.

وكان أول ما نشره عام 1569 ترجمة لكتاب théologie naturelle للمؤلف الأسباني ريمون سيبوند، ترجمه مونتاني من اللاتينية إلى الفرنسية. وفي العام التالي تخلى عن مهامه في برلمان بوردو، وبعد ذلك بقليل اعتزل المدينة إلى ضيعته (القصر) كما تخلى عن اسم "إيكيم". وفي سنة 1571 شرع في تأليف كتابه الشهير "المقالات" ESSAIS. وظل أثناء ذلك على اتصال بالبلاط الملكي. وفي عام 1575 أنشأ مونتاني وساما (ميدالية) كتب عليه "

أعلّق حكّمي "، ورسم على الوجه الآخر ميزانا متوازي الكفتين. وفي 1578 ظهرت عليه أول أعراض مرض " حصى المثانة " الذي عانى منه بقية حياته. بدت له حياة الضيعة رتيبة، فقرر أن يقوم برحلة طويلة، زار خلالها سويسرا، النمسا، ألمانيا، وإيطاليا، ودامت رحلته نحو 15 شهرا. وكان أثناءها يستفيد من منابع المياه المعدنية للعلاج. وفي روما قدم نسخة من كتابه " المقالات " إلى رجال الدين للرقابة، فاقترحوا عليه بعض التغييرات. وزار البابا، ومنح لقب " مواطن روماني ". وعلم أثناء رحلته أنه انتخب عمدة مدينة بوردو، ولم يكن متحمسا للوظيفة العامة، ولكن الملك ألح عليه فقبل المهمة.

وفي عام 1583 أعيد انتخابه عمدة للمدينة (مدتها سنتان). وقام بدور الوسيط في مفاوضات بين هنري الثالث، ملك فرنسا، وهنري نافار الذي سيصبح ملك فرنسا، والذي زار مونتاني في قصره مرتين، في 1584 و 1587. وأصاب منطقة بوردو وباء (1585) فاضطر الكاتب إلى الرحيل عن ضيعته خلال بضعة شهور.

وفي عام 1588 سافر إلى باريس لإعداد الطبعة الجديدة من "مقالاته" وكانت تحدث في المدينة اضطرابات بسبب الصراع بين الملك وهنري دي نافار، فقبض على مونتاني من بين آخرين، وأودع في الباستيل، ولكن سرعان ما تدخلت الملكة الأم، فأطلق سراحه بعد يوم واحد. وفي هذه الفترة التقى بالآنسة ماري غورني التي كانت شديدة الإعجاب بكتابه، تتوق إلى لقائه. وكانت من أوسع السيدات ثقافة، فأعجب بها، ومنحها لقب " ابنتي بالتبني"، وتردد على منزلها عدة مرات. وبعد وفاته (وبموافقة زوجته) تولت طبع "مقالاته" بمساعدة رجل يدعى بيير دي لابراش.

وفي الأيام الأخيرة من حياته أصيب بشلل في اللسان، ولكنه ظل محتفظا بجميع قواه العقلية. وفي 13 سبتمبر 1592، طلب من زوجته

(كتابة) أن تدعو الأقارب والجيران ليودعهم، وأسلم روحه. ودفن بعد ذلك في كنيسة في بوردو.

وفيما يلي مقتطفات من كتابه "المقالات".

*** مصائب قوم :**

كان تاجر يبيع الأشياء التي تستعمل في إعداد الموتى للدفن، فحكم عليه DEMADES الأثيني بأنه لا يحقق أرباحه إلا على حساب ارتفاع عدد الموتى. وهذا حكم غير سليم لأنه لا يمكن أن يتحقق أي نوع من أنواع الربح إلا على حساب أشخاص آخرين، ولهذا لا يجوز أن يشجب أي نوع من الربح في أي تجارة. فتاجر الخمر يحقق أرباحه إذا أدمن الشباب على تعاطيها؛ والمزارع إذا ارتفعت أسعار الحبوب؛ والبناء إذا خربت المنازل؛ والمحامي إذا كثرت الخصومات والمشاكل؛ وحتى أرباح رجال الدين تزداد بتزايد فسوق الناس وموتهم.

إن الأطباء لا يبتهجون إذا اختفت الأمراض وسلم جميع الناس؛ والجنود تزداد مكاسبهم بانتشار الحروب. ولو استبطن كل إنسان مشاعره وسبر خفايا نواياه، لوجد أن رغباته وطموحاته إنما تتحقق على حساب الآخرين. والأطباء أنفسهم يؤكدون أن نشوء أي مخلوق وغذاءه ونموه يكون على حساب فناء أشياء أخرى. تلك سنة الطبيعة.

*** عدم المساواة :**

يبدأ موتتاني مقاله هذا بالإشارة إلى قول بلوتارخ: إن الفرق الموجود بين إنسان وآخر أكبر من الفرق بين حيوان وآخر. ويضيف موتتاني بأنه توجد فروق بين رجل وآخر (يعني المميزات والصفات النفسية) أكبر مما يوجد بين رجل وحيوان.

ثم يقول ما مفاده :

إننا نمدح فرسا لقوة عضلاته وثبات خطوه، لا إعجابا بسرجه المزخرف؛ ونعجب بالسلوقي لسرعته لا لجمال قلالده ... فلماذا لا نقيم الإنسان على أساس خصائصه؟ قد يملك المرء قصرا جميلا، وثروة كبيرة، ونسبا وحسبا ... ولكن هذه الأشياء موجودة خارجه وليس جزءا من شخصيته. إنك لا تشتري خنزيرا في كيس؛ ولا تشتري فرسا مغطى بلباس مزخرف دون أن تنظر إلى ساقيه وحافريه وعينيه. فلماذا تمدح إنسانا مغلفا في أقمشة مزركشة من رأسه إلى قدميه؟ وهل قيمة السيف في غمده؟ تمعن جيدا في جسم الإنسان، وهل يحمل فكرا سليما؟ هل نفسه غنية بأعمال من صنعها أم بأشياء مستعارة؟ هل هي نفس زكية شجاعة راضية مطمئنة؟

مدح جماعة الإسكندر المقدوني بأنه ابن الإله جوبيتر؛ وعندما جرح وسال دمه، ذات يوم، قال لهم: ماذا تقولون الآن؟ أليس لون دمي قرمزي مثل دم أي بشر؟ ومدح شاعر أنتغونوس، ملك اليونان، فوصفه بأنه ابن الشمس. فقال لرفاقه: من يفرغ وعاء فضلاتي يعرف أن هذا غير صحيح. لقد صدق أفلاطون عندما قال: إذا اعتل البدن واختل العقل لم يعد لوسائل الرفاه الخارجية شأن كبير، إذ يكفي وخز إبرة أو انفعال عاطفي ليحرم المرء من الشعور بأنه ملك.

وكثيرا ما تشمئز النفس من الوفرة؛ وأي ملك لا تتبلبل شهيته عندما يجد تحت تصرفه 300 فتاة، أو يخرج للصيد برفقة مئات من مدربي البزاة على الصيد. ولا شك أن ملكا يجلس إلى مائدة العشاء وحوله عشرات الخدم ينظرون إليه، مشهد يستحق الشفقة وليس الحسد. ويروي عن الملك ألفونسو أنه قال: إن الحمير أحسن حالا من الملوك في بعض الظروف. فبوسع الحمار أن يتناول طعامه في هدوء وراحة بال، وهو شيء لا يسمح به الخدم للملوك. وصفق رجال الحاشية ذات يوم للإمبراطور جوليان لحكم أصدره، فقال: أفخر بهذا التصفيق لو صدر عن أشخاص يمكنهم أن يشجبوا عملي لو فعلت عكس ذلك.

وعندما استعد الملك بيروس (PYRRHUS) لقيادة حملته ضد إيطاليا،
سأله مستشاره:

- ما الهدف يا سيدي من كل هذه الاستعدادات؟
- لأصبح سيد إيطاليا بأكملها.
- وماذا بعد ذلك؟
- أغزو بلاد الغال وأسبانيا.
- ثم ماذا بعد أن تحقق ذلك؟
- أغزو إفريقيا.. ثم عندما أخضع العالم لسلطتي أستريح طلبا للهناء والاطمئنان.
- وماذا يمنعك من أن تستريح في هناء واطمئنان منذ الآن؟

* وجهات نظر :

يقول مونتاني من مقال عنوانه ديموقريطس وهيراقليطس:

... للأشياء بحكم الصدف وزنها ومقاييسها وظروفها. ولكن عندما يتبنى المرء هذه الأشياء، يضيف فكره عليها ألوانا وأوزانا من عنده ويكيفها حسبما يشاء. فالموت مثلا حادث مروع بالنسبة لثيشرتون، وهو شيء مرغوب فيه عند كاتو، بينما لا يعيره سقراط اهتماما خاصا. وكذلك نجد أن الصحة، الضمير، السلطة، العلم، الثروة، الجمال، وأضدادها، جميعها تتجرد من لباسها عندما تدخل نفوسنا، وترتدي لباسا جديدا من صنع تفكيرنا، يكون لونه أسمر، لامعا، غامقا، أخضر...

وعلى هذا ينبغي ألا نبحث لأنفسنا عن مبررات فيما يتعلق بالخصائص الخارجية للأشياء، لأن ما هو خير أو شر يتوقف فقط على رؤيتنا لها وتقديرنا لتأثيرها. ثم يقدم لنا مونتاني أمثلة عن اختلاف وجهات نظر عدد من الأشخاص إلى الناس والحياة فيقول:

نظر الفيلسوف ديموقريطس إلى العالم بوجه بشوش، ووقف منه موقفا ملؤه السخرية، ذلك لأنه كان يرى أن ظروف الإنسان تافهة وحالته سخيفة. أما الفيلسوف هيراقليطس فكان يرثى لظروف الإنسان، ويتألم لحياته، ولذلك نظر إلى العالم بوجه يشوبه الحزن والحسرة.

ويضيف مونتاني: أما أنا فأفضل السلوك الأول، ليس فقط لأنه من الأفضل للمرء أن يبتسم من أن يبكي ويتحسر، بل لأنه سلوك يعبر عن الاستخفاف والشذب. أما الحزن على الشيء والإشفاق عليه فيعني أننا نوليّه أهمية ونأسف على ظروفه؛ بينما عندما نضحك من موقف ونسخر من حادث فإننا لا نعطيه أهمية كبيرة.

ويذكر الكاتب حكاية الفيلسوف اليوناني المتكشف ديوجينيس Diogenes الذي اختار أن يعيش في جرة كبيرة، وعندما قال له الاسكندر المقدوني اطلب ما تريد، لم يطلب منه شيئاً. وكان يرى أن الناس ليسوا في شيء أهم من الذباب؛ وهو لا يكرههم، ولكنه لا يعيرهم أهمية خاصة، فهم لا يؤثرون على حياته ولا يغرونه بأسلوب حياتهم. واكتفى هذا الفيلسوف بمشاهدة الناس وهم يتجمعون مثل القطعان، ويسعون إلى الشر أكثر من سعيهم إلى الخير.

ويقول مونتاني: إن موقف STATILIUS من الناس كان مشابها لموقف Diogenes فعندما طلب منه بروتوس أن يشارك في المؤامرة ضد يوليوس قيصر، اكتفى STATILIUS بالجواب بأن العملية عادلة في حد ذاتها، ولكن البشر غير جديرين باهتمام الرجل الحكيم الذي ينبغي ألا يعمل شيئاً إلا لنفسه، لأنه الوحيد الذي يستحق ذلك. ويرى THEODOTUS أنه ليس من الحكمة أن يعرض الرجل الحكيم نفسه للخطر من أجل بلاده، لأنه عندئذ يخاطر بالحكمة من أجل جماعة من السفهاء.

د/ جونسون

DR. S. Johnson



ولد جونسون في مدينة LIECHFIELD سنة 1709. تعلم في إحدى المدارس، ثم عمل على مساعدة أبيه في بيع الكتب، فأتيحت له الفرصة للقراءة وتوسيع معارفه. انتسب إلى جامعة أكسفورد، غير أنه تركها بعد نحو سنة بسبب ضيق الحال وتراكم الديون. وفي عام 1737 انتقل إلى لندن حيث بدأ ينشر مقالات وقصائد في فترات متقطعة، وهنا عانى من الفقر والمرض ومرارة الحرمان مدة طويلة. وقد قال في فترة من حياته: " قيمة الإنسان تنمو ببطء شديد، إذا كبلها الفقر ". وقال في مناسبة أخرى: " من المصائب التي تسطو على حياة الأديب الكدح، الحسد، الفقر، قسوة المنعم، والسجن ".

قبل أن يأتي إلى لندن، تزوج جونسون بسيدة أرملة تكبره بنحو عشرين عاما. وكان لديها بعض المال فأسس مدرسة، غير أن مشروعها لم يكتب له النجاح.

تناول جونسون مجالات وفنون عديدة، فكتب في الصحافة، وألف في الشعر والنقد والقصص والمسرحيات. وأشهر أعماله قاموسه المشهور الذي قضى ثماني سنوات في إعداده. وبعد هذا الإنجاز أصبح من الأدباء عندما منحته الحكومة مرتبا شهريا.

وكان من حسن حظه أن التقى عام 1763 بأديب يدعى BOSWELL الذي لازمه وألف كتابا خلال حياة الدكتور جونسون. كما تعرف في العام التالي على الرسام REYNOLD، فاتفقا على إنشاء النادي الأدبي الذي جمع نخبة من الأدباء والمفكرين، وكان الدكتور جونسون رائدهم في مجال المناقشات الأدبية. وفي عام 1775 حصل على دكتوراه شرفية من جامعة

أكسفورد، بعد أن حرّمه الفقر في شبابه من إتمام دراسته فيها. وفي سنة 1781 انتهى من تأليف كتابه: " حياة الشعراء الإنكليز".

لقد كان هذا الأديب الكبير يتمتع بشخصية قوية ساحرة، واسع الاطلاع، بليغ اللسان، قوي الحجة، قوي العزيمة، شديد الثقة بالنفس، اعتمد على نفسه في كل ما أنجز، على الرغم مما عانى من ظروف الفقر والمرض. وكان رغم كل ذلك مرح النفس كريما، جعل منزله ملجأ للعديد من المعوزين خلال سنوات عديدة. كما كان يدافع عن الفقراء والأجانب ويناهض الحروب. توفي الدكتور جونسون سنة 1784، ودفن في لندن.

ومن أقواله:

- الفقر يعرقل ازدهار الفضيلة.
- الكلمات بنات الأرض، أما الأشياء فبنات السماء.
- وجودك في سفينة مثل وجودك في السجن، غير أن الأولى تعرضك للغرق.
- المكتبات العامة أفضل مكان يثبت لنا كم عبثت الآمال بالناس.
- الحضارة الحقيقية أن يكون لدى الفقير غذاء كاف.
- أفضل أن أعيش غنيا من أن أموت غنيا.
- من يسرق ثيرانا سميحة ينبغي أن يكون سميحا.
- أحب وسائل التسلية العامة لأنها تشغل الناس عن الرذيلة.
- قيل له عن رجل تزوج بعد وفاة زوجته، فأجاب: لقد فضل الأمل على التجربة.
- كل ساعة تمر من حياتنا ... تأخذ منا جزءا من قدرتنا على التمتع بالحياة.
- إذا الحُتَّ في مواساة صاحب الحزن الجديد فقد أزعجته.
- أغلق الموت عينيّن طالما حدقتا في وجه الأناقة.

من كتاب (حياة صمويل جونسون) للأديب جيمز بوزويل



" وجرى الحديث حول الخمر فقال:

جونسون : لم أهرج الخمر بسبب عجزى عن تحملها، فقد حدث أن شربت ثلاث زجاجات دون أن يكون لذلك تأثير عليّ.

بوزويل : فلماذا هجرت الخمر إذا؟

جونسون : لأنني أعتقد أنه من الأفضل للمرء أن يظل مسيطرا على قواه العقلية. وسوف لا أعود إلى تعاطي الخمر حتى تتقدم بي السن، وأشعر بالحاجة إليها.

بوزويل : أذكر أنك قلت ذات يوم إن عدم شرب الخمر يقلل من متع الحياة.

جونسون : لاشك في أن الانقطاع عن تعاطي الخمر يقلل من ملذات الحياة، ولكنه لا يقلل من سعادة الإنسان، بل يشعر المرء بسعادة أكبر عندما يحتفظ بكامل قواه العقلية.

بوزويل : ولكن إذا استطاع المرء أن ينعم بملذات الحياة على الدوام، ألا يكون سعيدا؟ إن معظم الناس يتفقون مع هذا الرأي.

جونسون : لنفرض أن معظم الناس بوسعهم أن يتمتعوا بالملذات على الدوام، فإن الرجل المفكر لا يرضى بذلك. ويوافق معظم الناس على ما ذكرت، لأن معظمهم يجدون متعة أكبر في الملذات الحسية.

بورويل : أعترف أن في الحياة ملذات تفوق لذة الخمر. فأنا أجد متعة في الحديث معك أكبر من ذلك بكثير.

جونسون : عندما نتحدث عن الملذات نعني الملذات الحسية. فعندما يقول رجل إنه تمتع بامرأة، لا يعني الحديث معها فقط، بل شيئاً غير ذلك. ويذكر لنا الفلاسفة بأن اللذة مناقضة للسعادة."

دنييس ديدرو

DENIS DIDEROT



دنييس ديدور أديب وفيلسوف فرنسي، وُصف بأنه كان " موسوعة متنقلة " لقد كان متعطشا للمعرفة، فأخذ من جميع العلوم والفنون بنصيب. وكان غزير الإنتاج تنسكب أفكاره من كل حذب وصوب لتعالج جميع الموضوعات. وقد ارتبط اسمه بإدارة إنتاج أول موسوعة فرنسية. وزاد في قوة هذا الفيلسوف خيال خصب وإرادة زانها الحماس والمثابرة. ولكن دنييس كان كذلك إنسانا رقيق الشعور، ذا عاطفة جياشة، صريحا في تصرفاته، شجاعا في مواقفه، كريما في معاملاته، ممتعا في حديثه، يقدر الصداقة، ويكرم الأصدقاء. ولم تخل حياته من أخطاء وآلام، ومبالغات وتقلبات في الرأي أحيانا. بل لم تخل من ثورة على تعاليم الكنيسة وتمرد على الحياة نفسها. وعانى مرارة الفقر أحيانا، وسعد بملذات الحياة أحيانا أخرى.

ولد ديدور سنة 1713 في مدينة لانغر، شمبانيا، فرنسا. كان أبوه يتعاطى صناعة أدوات القطع والجراحة. تعلم ديدور في المدرسة اليسوعية، وأظهر ميلا لتعاليم الجمعية اليسوعية، فسر ذلك أباه، وأرسله إلى كلية لويس الأكبر (اليسوعية) في باريس لمواصلة تعليمه. وحصل على شهادة الأستاذية من كلية باريس.

ولا نعرف بدقة ظروف حياته ونشاطاته خلال الفترة 1733 - 1740 .. ولكن يبدو أنه تولى عن ارتباطه بالجمعية الدينية المذكورة؛ وتدريب فترة في مكتب أحد المحامين؛ واشتغل لدى بائع كتب؛ ولدى محصل ضرائب؛ وكان يساعد بعض رجال الكنيسة على تحرير المواعظ؛ ويعطي دروسا خصوصية في الرياضيات. كما كان يتابع دروسا في اللغات الإنجليزية واليونانية واللاتينية

والإيطالية، وفي الرياضيات كذلك. وبصورة عامة، كانت حياته في هذه الفترة حياة نقشف وحرمان، خاصة بعد أن قطع عنه أبوه المساعدة.

وفي سنة 1741 تعرف على فتاة تكبره بنحو أربع سنوات، تدعى شامبيون، تعمل مع أمها في تجارة الملابس الداخلية. ولقي صعوبات في سبيل الزواج منها، لأنه لم يكن يملك حتى ما يكفيه لضروريات المعيشة. وطلب المساعدة من أبيه، فرفض، ولقي معارضة شديدة من أمها في بداية الأمر، وفي النهاية تزوجها سرًا، واستقرا في باريس، وظلت هذه الزوجة وفيّة له على الرغم من اختلاف المستوى الفكري، ومما كان له من علاقات غرامية. وقد أنجبت له أربعة أطفال ... توفي ثلاثة منهم في سن مبكرة وعاشت أنجليكا عمرا طويلا، فحظيت من أبيها بكل الحب والرعاية. وكان للكاتب أخت دخلت الدير، وأخ أصبح قسا، وحصل بينهما خلاف استمر طويلا.

كان ديدرو متشوقا للمعرفة، فقرأ من مؤلفات أبيقور، ديمقريطس، لوكريتس، بيكون، مونتاني، وغيرهم. واجتهد في الاطلاع على علوم الطب والتشريح والكيمياء والبيولوجيا، والفيزياء وغيرها، مما أهّله للمساهمة ببحوث هامة في الموسوعة التي كُلف عام 1747، بمساعدة العالم d'ALEMBERT، بإعدادها وإدارة إنتاجها.

وكان قد كلف في العام السابق بترجمة موسوعة تشامبرز CHAMBERS من الإنكليزية إلى الفرنسية. وألف كتابه: " أفكار فلسفية " الذي صدر البرلمان لما تضمنه من انتقادات للعقيدة المسيحية. وفي سنة 1749 أصدر كتابا عنوانه " رسالة عن العميان " أورد فيه أفكارا منافية للدين، فاتهم بالهرطقة وسجن فترة قصيرة.

واصل ديدرو نشاطه الأدبي وتركيزه على إدارة العمليات المتعلقة بإعداد الموسوعة، وتعرف على شخصيات عديدة منهم روسو، والكاتب الألماني غريم GRIMM ودولباخ d'HOLBACH، والسيدة d'EPINAY. وظل

بعض رجال الدين يقتفون آثاره ويتتبعون ما يصدر عن قلمه. وفي عام 1752 حجزت الشرطة في منزله مخطوطا لكتابه المعنون " جولة المتشكك "، بسبب ما ورد فيه من هجوم على تعاليم المسيحية.

في سنة 1756 تعرف على سيدة تدعى صوفي فولاند، وتكونت بينهما علاقة اتسمت بالصدق والانسجام والتعاطف، ودامت حتى وفاتهما. ومن أجلها كتب رسائله المشهورة تحت عنوان " رسائل إلى صوفي فولاند ". ومن جهة أخرى بدأ خلاف بينه وبين الفيلسوف روسو، وتدهورت العلاقات فانتهت بالمقاطعة في عام 1758، بعد صداقة دامت نحو ست عشرة سنة.

وتجدر الإشارة إلى مشروع " الموسوعة " الضخم الذي شاركت في تحرير موضوعاته المتنوعة نخبة من رجال العلم والأدب، وتولى ديدرو ودالمبير (حتى عام 1758 فقط بالنسبة لهذا الأخير) إدارته والإشراف عليه. وقد صدر من الموسوعة 28 مجلدا بين عامي 1751 و 1766، وانتشر بيعها في بلدان أوروبية عديدة.

ومرّ ديدرو بظروف مادية اضطرته إلى بيع مكتبته الخاصة، وحصل على رخصة ملكية تسمح له ببيعها إلى كاترين الثانية، امبراطورة روسيا، مقابل 1500 جنيه ومنحة سنوية. ورغب الفيلسوف في زيارة الإمبراطورة، فسافر عام 1773 إلى مدينة سان بتسبورغ، ولقي ترحيبا حارا، ومكث هناك خمسة شهور، ثم عاد إلى باريس. وبعد أن تعرف على أساليب سياسة الإمبراطورة التعسفية، غيّر رأيه فيها، وشعر بخيبة الأمل. وعلى هذه التجربة ألف كتابا عن حكم الإمبراطورين الرومانيين كلوديوس ونيرون.

وبدأ ديدرو يشعر بعبء السنين، وقد أتعبه مرض في جهاز الهضم أصابه منذ الخمسينيات. وراحت حلقة الرفاق والأصدقاء تتقلص، فمات فولتير وروسو عام 1778؛ وتوفيت السيدة d'Epinay و d'Alembert في 1783. وأصيب ديدرو بسكتة دماغية سنة 1784 لم يشف منها شفاء كاملا. وفي شهر فيفري (فبراير) من السنة نفسها توفيت صديقتة صوفي فولاند؛ وفي جوليا

(يوليو) من السنة المذكورة توفي دنييس ديدرو، تاركاً للثقافة ثروة من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون.

ولا تتسع هذه الصفحات لذكر جميع مؤلفاته، بل تكفي الإشارة إلى عدد منها، بالإضافة إلى ما سبق ذكره:

- "الحلى الزائفة" قصة خيالية فلسفية، حققت انتشاراً واسعاً، ودخلاً أكثر مما كان يتوقع المؤلف.

- "عناصر فلسفية" يشرح فيه فلسفته المادية، ويقدم ملاحظات عن تطور المخلوقات والأجناس.

- "جاك المؤمن بالقضاء والقدر وسيد" رواية تتضمن محاورات، ونوادير، ومغامرات، وملاحظات أخلاقية.

- "حلم دالمبير" محاورة فلسفية.

- "رسائل إلى صوفي فولاند".

- ابن أخي رامو.

مقتطفات من "الموسوعة".

من مقال ورد تحت عنوان : ECLECTISME (1) (الانتقاء الفلسفي) كتبه ديدرو.

"إن تطور المعارف البشرية طريق مرسوم، يكاد يستحيل أن يحيد عنه الفكر الإنساني. ولكل عصر أصناف متميزة من عظماء الرجال...

ومما سبق يتبين أنه يوجد نوعان من الانتقاء الفلسفي المذكور: الأول

(1) تعني هذه الكلمة أن ينتقى الفكر مذهباً فلسفياً محددًا من مجموعة من مدارس التفكير، دون أن يتبنى نظام التفكير في مجموعه.

تجريبي، يتمثل في جمع الحقائق والحوادث وتوسيع نطاقها من أجل دراسة الطبيعة. والآخر منهجي يهتم بالمقارنة بين الحقائق المعروفة، والتأليف بين الحوادث بهدف الوصول إما إلى تفسير ظاهرة ما، أو إلى فكرة ناتجة عن التجارب فالانتقاء التجريبي مشترك بين الرجال المثابرين؛ والانتقاء المنهجي خاص بمن رزقوا حظاً من العبقرية. ومن يجمع بين الاثنين يسجل اسمه بين العظماء مثل ديموقريطس، وأرسطو، وبيكون .

ثم يشير الكاتب إلى الأسباب التي عرقلت تطور " الانتقاء الفلسفي " فيقول:

" إن السبب الأول هو الطريق الذي يسلكه الفكر البشري في مسيرة التطور، لأنه في سعيه هذا ينشغل بالمعارف الأساسية التي تسبق الدراسات الفلسفية في جميع العصور. فالفكر البشري يمر بعهد طفولة، ثم عهد النضج والبلوغ. والحمد لله أنه لا يمر بفترات الانحطاط والشيخوخة والتدهور ."

" فالمعرفة والأدب واللغات وعلم الآثار والفنون جميعها تشغل الفكر البشري في فترات من شبابه وتطوره. أما الفلسفة فلا يركز عليها إلا عندما يبلغ مرحلة الرجولة. وتكون له في شيخوخته مصدر مواساة أو حزن ."

" أما فيما يتعلق بالأسباب التي تؤدي إلى تأخر مرحلة " الانتقاء الفلسفي " المذكور، الذي نعتبره صنفاً خاصاً، فيكفي أن نذكر منها الصراعات الدينية التي تشغل كثيراً من المفكرين؛ والفقر الذي يفرض على العبقرى وضعاً غير الوضع الذي هيأته الطبيعة له؛ والمكافآت التي تقدم لغير مستحقها مما يثيرهم ويجعل أقلامهم تجف في أيديهم؛ وعدم مبالاة الحكومة التي تأخذ في اعتباراتها السياسية ما يناله الوطن من الفنون الترفيحية والأدب (مثل الرسم والموسيقى والرقص)، ولا تهتم بتطوير المهارات النافعة، فلا تخصص من المال ما هو ضروري لإنجاح مساعي رجل عبقرى فيقضي نحبه وتفنى مشاريعه بفنائمه. وهذا يعني خسارة لا يمكن للطبيعة أن تعوضها

بسهولة، لأنه من المستحيل أن يوجد شخصان متشابهان في كل شيء .. وفي كل مرة يضيع فيها اكتشاف، يمثل ذلك نكسة على درب التقدم في ميدان العلوم والفنون، وخسارة على مسرح مجد الجنس البشري وازدهاره ."

من تساؤلات ديدرو حول التعاليم الدينية :

- هل توجد فكرة أشد حماقة من الفكرة التي روجتها الكنيسة والتي تقول بأن الله أرسل ابنه (المسيح)، وهو إله آخر، ليتعذب ويصلب، وتسيل دماؤه على يد الكفار، كل ذلك من أجل أن يحو خطيئة ارتكبها رجل وامرأة (آدم وحواء) منذ آلاف السنين؟
- تقول الكنيسة إن الخبز يتحول إلى لحم المسيح، وإن الخمر يصبح دم المسيح أثناء طقوس القداس التي يقوم بها القساوسة في الكنيسة، وهي عملية تستمر منذ نحو ألفي سنة. فهل هذا منطوق أم خرافة؟
- هل يوافق المسيح على ما تدعو إليه الكنيسة من تعصب واضطهاد وحروب ضد من ليسوا على دينها؟ بل وكذلك فيما بين المذاهب المسيحية المختلفة؟
- بعد مرور آلاف السنين على ظهور الديانات ما زال الإنسان متوحشا كما كان في عصر الوثنية. بل أصبح أشد فتكا بالحياة وأكثر فسادا في الأرض بسبب ما اخترع من آلات الدمار الشامل.
- الطفل يولد على الفطرة. غير أن أسرته ومعلميه ينزعون منه هذه الفطرة، ويلقنونه ما ورثوه من عقائد وأخلاق. وهذا يعني أن الأخلاق تكتسب بالتجارب، وتفرضها التقاليد، ولا علاقة لها بالأديان (أي أنها نتيجة البيئة التي يولد فيها الإنسان). والفضيلة كانت موجودة قبل الديانات.
- لماذا يضيع الشبان والفتيات حياتهم في الأديرة؟

ومن أقواله :

- وما نحن إلا أجهزة أوتارها الانفعالات.
- إنه لمن الجنون أن يسعى المرء للقضاء على العواطف. إن الرجل الورع الذي يعذب نفسه مثل السجين، لكي لا يرغب في شيء، يتحول إلى مخلوق مخيف.
- وطفدوا بين العواطف تناسقا سليما، ولا تخشوا أي فوضى. فإذا كان الأمل متوازنا مع الخوف، والشرف مع حب الحياة، وحب الملذات مع الاهتمام بالصحة، لا يكون هناك متهورون ولا فاسقون ولا جبنا.
- العواطف (الانفعالات) هي التي تسمو بالمرء إلى الأشياء العظيمة، فبدونها لا يوجد امتياز في الإنتاج، ولا سمو في العادات، وتتقهقر الفنون إلى طفولتها، وتصبح الفضيلة صغيرة دقيقة ضعيفة.
- العواطف الخافتة الهادئة تُقلل من شأن العظماء، والكبح الشديد يقتل قوة الطبيعة وعظمتها. انظروا إلى هذه الشجرة، إن الفضل في ظلها وطرارة جوها يعود إلى أغصانها الوارفة. فإذا جاء الشتاء حرماها من أغصانها.
- إذا أردت أن تحقق الجودة والامتياز فعليك بالحماس، ولو كانت مهنتك صناعة الدبابيس.
- إذا لم تحظ أفكارك باستحسان أحد، فهي سيئة. وإذا أعجب بها جميع الناس فإنني أعتبرها ممقوتة.

أفلاطون

PLATO



ولد أفلاطون سنة 428 قبل الميلاد، وينتمي إلى أسرة عريقة مشهورة. اسمه الحقيقي أرسطوقلس، ولقب بأفلاطون، بسبب سعة جبهته وعظيم بسطته. واهتم أفلاطون منذ شبابه بالفيلسوف سقراط الذي كان صديقا لخاله خرميدس، وبرع كذلك في الموسيقى والشعر والرياضيات. وقد عاش الحرب الطاحنة بين أثينا وأسبرطة، التي انتهت بهزيمة بلاده أثينا. كما شهد الصراع العنيف الذي دار بين مجموعة الألغاركية والجماعة الديمقراطية، وكانت سنة عندئذ 24 عاما. وقد طلب منه بعض أقربائه، وكانوا من زعماء الألغاركية. أن يدخل المجال السياسي إلى جانبهم، غير أن ما شاهد من عنف وتطرف لم يشجعه على ذلك.

وبعد أن حوكم صديقه سقراط، وحكم عليه بالموت عام 399 ق.م، قرر أن يتعد عن السياسة، ولجأ إلى ميغارا حيث أقام بعض الوقت؛ ثم قام برحلات إلى بلاد اليونان ومصر وإيطاليا، وازداد اهتمام أفلاطون، خلال هذه الفترة، بالفلسفة وإعجابه بأفكار سقراط. ورجع إلى أثينا عام 387، وأسس الأكاديمية التي أصبحت مركزاً لدراسة الفلسفة والعلوم والرياضيات والقانون.

ومن الحوادث المهمة في حياته أنه زار سراغوصة SYRACUSE عندما دعاه صديقه ديون، عام 367 ق.م. ليضطلع بتعليم الملك الشاب ديونيسيوس الثاني، وتدريبه على أساليب الحكم في ظل القانون. ولم تساعده الظروف على البقاء هناك مدة طويلة. ورجع إلى بلاط الملك المذكور بعد بضع سنوات آملا أن يدعمه بخبرته وآرائه، وأن ينقل نظرياته عن الدولة والحكام إلى حيز التنفيذ، غير أنه لم يوفق في مهمته.

قضى أفلاطون معظم حياته في البحث والتدريس والتأليف. ومن مؤلفاته الهامة كتاب "الجمهورية" الذي يشرح فيه آراءه حول إنشاء مجتمع فاضل. فمنذ نحو ألفين وأربعمائة سنة، كان أفلاطون أول فيلسوف غربي وضع مشروعاً لتأسيس مدينة أو دولة "فاضلة"، يعيش سكانها في ظل حكم القانون والعدالة الاجتماعية، وتسود فيها الأخلاق الفاضلة وطاعة الإله. ويكون الفرد في مجتمع أفلاطون مطيعاً للدولة التي تسيطر على جميع النشاطات الاجتماعية المهمة، لأنه كان يرى أن الإنسان ينزع إلى الشر، ولا بد من كبح جماحه وتحديد حريته، وفرض القانون والنظام على تصرفاته.

ويحاول الفيلسوف في مشروعه أن يجعل من المواطن إنساناً قوياً شجاعاً، قادراً على الدفاع عن نفسه ووطنه؛ وقد كان معجباً بنظام التربية في أسبرطة وبأسلوب حياة سكانها الأشداء. ويحاول في مشروع "مدينته الفاضلة" أن يضيفي لباساً أخلاقياً على الأعمال السياسية، ولكن كثيراً من اقتراحاته في هذا المجال لا يمكن أن تعتبر أخلاقية في معظم الحضارات والأزمان كما سيأتي.

يقسم مشروع أفلاطون المجتمع إلى طبقات ثلاث: الحكام - المساعدون - طبقة العاملين. وتشمل طبقة المساعدین الجنّد، وقوات الأمن، والموظفين. وتشمل طبقة العاملين بقية الشعب من المزارعين وأصحاب الحرف والتجار. ويطلق على طبقة الحكام وطبقة المساعدین اسم "الحرس".

يتولى الحكم في نظام أفلاطون المذكور نخبة من المثقفين، ويكون على رأس السلطة حاكم فيلسوف، أو على الأقل حاكم صالح يكون له مستشار فيلسوف يدعم حكمه. ونظام الحكم دكتاتوري، إذ إن الحكومة تسيطر على جميع المجالات الأساسية في الحياة الاجتماعية. فهي تراقب وتسيطر جميع النشاطات المتعلقة بتكوين الأسرة، وإنجاب الأطفال وتربيتهم وتعليمهم. كما تشرف على النشاط الاقتصادي والإعلامي، وتحدد

النظام الأخلاقي والإله الذي يعبدده المواطنون. ويكون النظام الاجتماعي خليطاً من الشيوعية والفردية.

يقول أفلاطون في كتاب "الجمهورية" (على لسان سقراط موجهها الحديث إلى غلوكون):

"دعني أوضح لك الخطأ الذي يسبب سوء إدارة الدول، والتغيير الذي يمكن الدولة من أن تأخذ شكلها الصحيح. لن تسلم المدن ولا الدول من الشرور، ولا الناس من مفسدهم حتى يتولى الفلاسفة زمام الحكم، أو يتحلى الملوك والأمراء بروح الفلسفة وقوتها، وحتى يجتمع للحاكم الحكمة والحنكة السياسية... عندئذ فقط يمكن لدولتنا أن تحيا وتبصر نور النهار".

ويرى أفلاطون في مشروعه للمجتمع المثالي أن الأسرة ومتطلباتها والملكية الخاصة ومشاكلها من مصادر فساد الأخلاق. وبما أنه يرغب في أن تسود الأخلاق الفاضلة بصفة خاصة لدى طبقة الحكام، فإنه يقترح أن يطبق على طائفة الحرس (قوات الأمن والموظفين) نظام شيوعي بحيث لا يكون للفرد ملكية خاصة به، ولا أسرة خاصة به، فالزوجات مشتركة بين الجميع، والأولاد للدولة تربيهم وتسهر على راحتهم. الآباء لا يعرفون أطفالهم والعكس صحيح. يقول أفلاطون في كتابه "الجمهورية".

"إن إلغاء الملكية الخاصة بين أفراد هذه الطبقة، وجعل الزوجات شريكة مشتركة بين الجميع، يجعلهم حرساً صالحين مخلصين. حيث إنهم في ظل هذا النظام لا يعيثون في البلاد فساداً بسبب "هذا ملكي... وهذا ليس ملكي" ولأنهم في حالة الاشتراكية في المسائل المذكورة، تكون آراؤهم متفقة بشأن ما هو عزيز عليهم".

ويقول الفيلسوف إن اختيار الزوج أو الزوجة، خاصة بالنسبة لطبقة الحرس، ليس عملية شخصية، بل المسؤولون هم الذين يشرفون على انتقاء

الرجال والنساء الصالحين لإنجاب أجيال سليمة العقل والبدن، قادرة على أداء الواجب تجاه المجتمع والوطن. ورغبة في تحسين النسل ينبغي ألا يتزوج الرجل السليم إلا من امرأة سليمة والعكس صحيح. وبما أن الأشخاص المرضى لا ينجبون. إلا أطفالاً مرضى، ينصح أفلاطون ألا يعالجوا، بل يتركوا ليموتوا فيتخلص منهم المجتمع.

والسن المحددة للزواج هي بين 30 و 50 سنة من العمر بالنسبة للرجال، و20 إلى 40 عاماً بالنسبة للنساء. وينبغي أن يتم الإنجاب خلال السنوات العشر الأولى بعد الزواج. والرجل الذي لا يتزوج في الفترة المحددة للزواج يعاقب بدفع غرامة سنوية؛ كما أن الأبوين اللذين ينجبان أطفالاً خارج الفترة المحددة يعتبران مخالفين للقانون.

وإذا كان الهدف من إلغاء العلاقات الأسرية هو تخفيف عبء الآباء والأمهات والحد من طموحاتهم الشخصية ليكونوا نزهاء في خدمة المجتمع، فإن عدم معرفة طائفة من السكان لأبنائهم وبناتهم يؤدي لا محال إلى خطر العلاقات الجنسية بين الأقارب (الآباء وبناتهم، والأمهات وأولادهن، والأشقاء وشقيقاتهم.. إلخ). وحاول أفلاطون أن يبعد هذه العلاقات بقوله إنه ينبغي للآباء والأمهات أن يعاملوا أبناء الجيل الذي يليهم، أي جميع من هم في سن أولادهم، كما يعاملون أطفالهم فيما يتعلق بالزواج والممارسات الجنسية. بل إنه يقترح أن يبعد الكبار عن جيل الشباب حتى لا يفسدوا أخلاقهم.

ومن آرائه المتعلقة بالمجتمع الفاضل أن يكون وزير التربية والتعليم هو أهم موظف في الدولة (بعد الملك أو الحاكم)، لما لعملية تربية الجيل من أهمية. فالدولة تتولى رعاية الأطفال منذ ولادتهم، وتشرف على تعليمهم، وتراقب جميع البرامج والمواد التعليمية. وتتركز المراقبة بصفة خاصة على الشعر والقصص والمسرحيات والرسم ولوسيقى التي ينبغي أن تستغل لتدعيم الأخلاق الفاضلة وخدمة المجتمع والوطن.

ويتضمن مشروع أفلاطون اقتراحات عديدة منها أن تعامل المرأة على قدم المساواة مع الرجل، ففتح لها فرص التعليم والتدريب للمشاركة في الحكم والحرب وجميع المسؤوليات؛ ومنها إباحة نظام الرق على أن يكون العبيد من الأجانب وليس من اليونانيين؛ ومنها السماح لطبقة المزارعين والتجار وأصحاب الحرف بالملكية الخاصة في حدود مقننة، ومنها تركيز الاهتمام على النخبة السليمة الصالحة من الأطفال، وإيواءهم في منازل خاصة لعزلهم عن الأطفال من طبقة "المعادن الرخيصة".

ويشرح الفيلسوف رأيه في التمييز بين الطبقات على النحو التالي (موجهها كلامه للمواطنين في مجتمعه الخيالي: " جميعكم إخوة، غير أن الإله خلقكم من معادن مختلفة. فمنكم من وهبه القدرة على الحكم والقيادة وخلقهم من معدن الذهب ..، وخلق أناسا آخرين من معدن الفضة ليكونوا مساعدين لهم، بينما أنشأ خلقا آخرين من معدني النحاس والحديد ليقوموا بأعمال الزراعة والصناعة...، غير أنه قد يحدث أن ينجب أبوان من معدن الذهب طفلا يكون معدنه الفضة؛ كما يحتمل أن ينجب أبوان معدنهما الفضة طفلا من معدن ذهبي".

" وعلى الحكام أن يحرصوا كل الحرص على نقاء النسل، لذلك يجب أن يراقبوا العناصر عند تزواجها. فإذا ثبت أن أبا من عنصر الذهب أنجب طفلا معدنه خليط من الحديد والنحاس، فالطبيعة تقتضي أن تنخفض رتبته إلى طبقة أدنى، ولا ينبغي للحاكم أن يظهر أي شفقة تجاه الطفل الذي يجب أن ينتقل إلى طبقة المزارعين وأصحاب المهن".

القديس أوغسطين

ST. AUGUSTINE



قضى أوغسطين فترة من شبابه تتقاذفه أمواج الحيرة والشكوك، يبحث عن الحقيق، عن الخالق، عن العقيدة السليمة.

ولد أوغسطين في مدينة تاغستي (سوق أهراس الحالية) على حدود الجزائر الشرقية، سنة 354. كان أبوه وثنيا، موظفا في الإدارة الرومانية في المدينة؛ وكانت أمه تدين بالكاثوليكية وتمارسها بحماس. حرصت على أن يكون ابنها قسا، وكان الأب يودّ أن يصبح الولد محاميا، أرسل الطفل إلى مدينة مداورا (جنوب تاغستي) ليتعلم في مدرستها. وأظهر أثناء تعليمه الابتدائي والثانوي قدرا كبيرا من الذكاء والاجتهاد؛ فشجع ذلك أبويه على السعي لجمع ما يكفي من المال لإرساله إلى مدينة قرطاجنة لمواصلة تعليمه. وساعد رجل من أهل الخير على تحقيق رغبة الأبوين.

كان عمر أوغسطين 17 عاما عندما وصل إلى قرطاجنة، وهناك درس علوم البلاغة والأدب واللغة اللاتينية وغيرها. وعاش مع عشيقته أنجب ولدا أسماه في أول الأمر: "ابن خطيئتي"، ولكن ما لبث أن بدل ذلك فسماه: "هبة الله"، وأحبه ورعاه بلطف وحنان. وقرأ كتابا من مؤلفات شيشرون عنوانه HORTENSIUS دفعه إلى الاهتمام بالفلسفة وكان أوغسطين قد أطلع على الإنجيل فلاحظ بأنه لا يسمو إلى مستوى كتاب شيشرون من حيث الأسلوب والبلاغة والأفكار الفلسفية.

انضم أوغسطين، في هذه الفترة، إلى ديانة "المانية"، وهي خليط من تعاليم زردشت، وبوذا، والمسيح. مؤسس هذه العقيدة هو ماني الذي عاش في

بلاد فارس بين الفترة 277 - 216. وتعتمد الفكرة الأساسية في عقيدة المانية على التمييز بين النور والظلام، فالنور هو الخير والظلام هو الشر. الأول يمثل الله والثاني يمثل الشيطان. وعلى المؤمن بديانة المانية أن يتوخى التقشف والزهد في حياته، فلا يمارس الجنس ولا يأكل اللحوم. وبسبب هذا التشدد قُسم أتباع المانية إلى فئتين: فئة النخبة الذين يتحملون حياة التقشف والعزوبة؛ وفئة "المستمعين" الذين يسمح لهم بالزواج وأكل اللحوم وشرب الخمر وغير ذلك. وبما أن أوغسطين لم يستطع أن يستغنى عن المتع الحسية الجنسية آنئذ، فقد رضى أن يكون في الفئة الأخيرة؛ وظل ينتمي إلى ألمانة طيلة عشر سنوات.

بعد أن أنهى دراسته رجع إلى تاغستي، مسقط رأسه، حيث درّس قواعد اللغة مدة سنة، ثم عاد إلى قرطاجنة فدرّس البلاغة وهي أقرب إلى ما يطلق عليه اليوم: " فنون الأدب واللغة ".

كان أوغسطين رجلا طموحا، ولما لم تتحقق آماله في مدينة قرطاجنة، سافر سنة 383 إلى روما حيث بقي مدة سنة يدرس علوم البلاغة (الأدب)؛ ثم انتقل إلى ميلانو حيث عين أستاذا لتدريس المادة نفسها. ولم تطفئ تعاليم المانية ظمأه للمعرفة، كما لم تجب عن الأسئلة والشكوك التي ظلت تحيره، فواصل البحث أثناء إقامته في روما وميلانو، فدرس الفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ولحقت به أمه في ميلانو وحثته على أن يحضر معها الدروس الدينية التي كان يلقيها الأسقف أمبروزي. كما شجعتة على الزواج، واختارت له عروسا صغيرة السن.

وجد أوغسطين في الأفلاطونية الجديدة أفكارا قريبة إلى قلبه، ولاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن المسيحية. كان قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر، ولا يزال يشعر ببعض الحيرة والتردد في اختيار المبادئ العقائدية التي تطمئن لها نفسه وتستنير بها أفكاره. وكان يبتهل للخالق طالبا أن يهديه وينير له سبيل

الخلاص. وقد روى لنا في كتابه " الاعترافات " الظروف التي اعتنق فيها المسيحية.

فاعتزل في منزل صديق له مع أمه وابنه وبعض تلاميذه يتبادلون الآراء حول موضوعات عقائدية وفلسفية. وبعد فترة وجيزة عاد إلى ميلانو حيث تم تعميده على يد الأسقف أمبروزي، إيدانا بقبوله العقيدة المسيحية وكان ذلك عام 387.

قرر أوغسطين أن يعود إلى مسقط رأسه. فسافر برفقة أمه وابنه وبعض أصدقائه إلى ميناء أوستيا (بالقرب من روما)، وفي هذه المدينة توفيت أمه، فأجل رحيله، وقضى في روما أكثر من سنة قام أثناءها ببحوث حول الديانة المسيحية. ووصل إلى تاغسطي عام 388، وأسس جماعة دينية عاشت حياة تقشف، أشبه بحياة أصحاب الأديار، مركزة على العبادة والدراسة. وتوفي ابنه " هبة الله " في العام التالي.

وأثناء زيارة لمدينة هيبو (عنابة حالياً) الواقعة في شمال شرق الجزائر، ذهب إلى الكنيسة ليستمع إلى مواعظ أسقفها. وكان هذا الأخير قد شعر بدنو الشيخوخة والعجز فطلب من الحاضرين أن يختاروا رجلاً من أختيارهم لمساعدته، فوقع الاختيار على أوغسطين، ورسمه الأسقف قسا ليسهل عليه القيام بمهامه. بل كان يطلب منه أحياناً أن يلقي المواعظ نيابة عنه. وبعد وفاة الأسقف سنة 396 طلب من أوغسطين أن يتولى مهام الأسقفية في المدينة المذكورة، وبقي في هذه الوظيفة حتى وفاته.

كانت مواعظه تجلب أعداداً كبيرة من الناس. فقد كان يخطب فيهم بحماس وصدق، وكانت عباراته تتسرب إلى القلوب وتهز المشاعر. وتصدى أوغسطين لمعالجة المشاكل اليومية، وكذلك للدفاع عن تعاليم المسيحية، وجادل الملحدين من مختلف الفئات والمعتقدات، بخطبه وقلمه، وواصل التأليف، وتحرير رسائله التي تجاوزت 230 رسالة؛ كما كان يفصل في

القضايا الدينية والمدنية ويتولى الإشراف على الشؤون الإدارية والمالية في الأبرشية.

وفي سنة 426 فضل أن يتفرغ لمراجعة مؤلفاته وترتيبها، وتسجيل جميع ما رغب في مراجعته مما سبق من أفكاره، ولذلك عين شخصا لمساعدته على إنجاز المهام الكنسية. وفي هذه الظروف هجم الوندال على شمال إفريقيا، وهزموا القوات الرومانية، وحاصروا مدينة هيبو. وتوفي الأسقف أوغسطين، والمدينة لا تزال تحت الحصار، في شهر أوت (أوغسطس) من عام 430.

ومن أهم مؤلفات القديس أوغسطين كتابان " الاعترافات " و"مدينة الله ". كان عمره نحو 45 سنة عندما أَلَفَ " الاعترافات " التي تعتبر كتابا فريدا من نوعه، يعترف فيه أسقف بخطاياہ وضعفه أمام الرغبات الحسية ومتع الحياة الجسدية في شبابه. ولعله لم يكن يختلف عن كثير من الشباب فيما ارتكب من سيئات، غير أنه كان فتى عاطفيا رقيق الشعور، ذا ضمير حساس، بالإضافة إلى شجاعته التي مكنته من أن يسجل بكل صراحة وأمانة ودقة تلك الاعترافات الجريئة. وهو يصور لنا فيها ما كان يعتلج داخل نفسه من حيرة وشكوك وصراعات. وكم تضرع للخالق أن ييسر له سبيل الرشاد؛ وكم بحث وتساءل وسعى من أجل اكتشاف العقيدة الصحيحة (في نظره) والوصول إلى الحقيقة.

وفي سنة 410 هجم ألريك القوطي وجيشه على مدينة روما، فخربوها وعاثوا فيها فسادا. وأشاع الوثنيون القول بأن تدمير هذه المدينة الخالدة المزدهرة إنما حصل بسبب الذين اعتنقوا العقيدة المسيحية وهجروا الآلهة التي ظلت تحمي روما قرونا طويلة. فتدخل الأسقف أوغسطين في الجدل حول هذا الحدث الجليل، وتصدى للرد على الذين اتهموا المسيحية بكونها السبب في هذه الكارثة، وجاء دفاعه في سلسلة من المقالات شكلت في النهاية كتابا ضخما هو: " المدينة الخالدة " يهدف إلى الدفاع عن المسيحية وتنفيذ

آراء الوثنيين. وقد استمر تأليفه لهذا الكتاب " المسلسل " من عام 413 حتى عام 426.

باعتناق أوغسطين للعقيدة المسيحية اكتسبت مفكراً عظيماً ومحامياً مخلصاً، أصبح بمرور القرون قديساً وقطباً من أقطابها. وكان تأثير تعاليمه على الكنيسة الكاثوليكية كبيراً، وأنارت أفكاره كثيراً لمن جاءوا بعده من رجال الدين حول قضايا عديدة مثل وجود الله؛ والخلود؛ ونسبية الزمن؛ والقضاء والقدر، وهل الإنسان مسير أو مخير؛ وخطيئة آدم؛ والهداية الإلهية، وعلاقة الكنيسة بالدولة، وغير ذلك.

من القضايا الشائكة التي تناولها المفكرون منذ القدم، مسألة القضاء والقدر، وهل الإنسان حرّ في اختيار ما يفعل من خير أو شر، وهل يملك إرادة مستقلة تجعله مسؤولاً على أعماله؟ وهل الإنسان مسير بيد القدر لا حرية له في شؤون حياته؟ وبدأ أوغسطين يتساءل، مثل غيره: " إذا كان قد سبق في علم الله الأزلي، وهو علام الغيوب، أن من الناس من سيرتكون الخطايا فلماذا خلقهم؟ ولماذا يعذبهم...؟ " ولجأ إلى معالجة هذا الموضوع في إطار تعاليم المسيحية التي تبحث المشكلة على أساس الخطيئة الأصلية التي اقترفها آدم وحواء. وقال بأن آدم وحواء كانا يتمتعان بحرية الإرادة والاختيار قبل أن يرتكبا المعصية. وقد كتب على أبناء آدم أن يرثوا خطيئة أبيهم، فأصبح كل مولود يولد وهو يحمل حظه من ذنب آدم.

وبما أن الله كان يعلم مسبقاً بنزوع الإنسان إلى الخطيئة فقد أرسل يسوع المسيح (ابنه في عقيدتهم) ليشفق ويعذب ويصلب من أجل التكفير عن ذنوب كل من يؤمن به. وعلى هذا الأساس تقوم الكنيسة بعمليات القداس من أجل تطهير المسيحي من ذنوبه الموروثة. وليس في وسع المسيحي أن يبلغ مرحلة الخلاص والنجاة بأعماله الصالحة مهما فعل من الخير وابتعد عن الشر. بل لا بدّ أن تتدخل ما تسمى " العناية الإلهية " لتهدى الضالين وتنير طريقهم.

وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى قس بربيطاني يدعى PELAGIUS جاء إلى روما في نهاية القرن الرابع، وعاش كذلك في قرطاجنة وفلسطين. انتقد هذا الرجل فكرة العناية الإلهية، وقال إن العمل الصالح يكفي لخلاص الإنسان. ورفض الفكرة القائلة بأن الله كتب الخطيئة على بنى آدم بسبب المعصية التي ارتكبتها أبوهم. وقال بأن الإنسان يولد صفحة طاهرة، مثل آدم وحواء قبل العصيان، وأنه يتمتع بحرية الاختيار بين الخير أو الشر، وعلى هذا الأساس فقط يحاسب،

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾

ورد عليه أوغسطين بأنه إذا قلنا بأن الإنسان حرّ في اختيار تصرفاته، ولا يحاسب إلا على أعماله، لم يبق معنى لمجيء المسيح وشقاؤه على الأرض وصلبه. ثم ما فائدة القداس الذي تنظمه الكنائس في هذه الحالة؟ وجاء جواب Pelagius بأنه ليس من حكمة الله أن يصبّ اللعنة على بنى الإنسان قبل خلقهم، ويكتب عليهم خطايا لم يرتكبوها. ثم إن القول بأن كل ما يفعله الإنسان مقدر مسبقا، ولا اختيار له في مصيره النهائي، يجعله يتخاذل في عمل الخير منتظرا ما يأتي به القدر المحتوم ورحمة الله ورعايته.

بليز باسكال

BLAISE PASCAL



ولد باسكال سنة 1623 في كليرمون فيرون (فرنسا) وكان أبوه رئيس محكمة الضرائب، وتوفيت أمه وعمره 3 سنوات. وفي 1631 انتقل الأب إلى باريس، واهتم بتعليم أولاده. ودرس باسكال اللغتين اليونانية واللاتينية والهندسة، وساعده أبوه وشجعه على الدراسة لما لاحظ فيه من ذكاء واجتهاد، وهياً له الظروف الملائمة في مجالات العلوم المتوفرة.

كتب باسكال بحثاً هاماً عن الأجسام المخروطية، كما صنع عام 1642 آلة حاسبة ليستخدمها أبوه في حساباته. وواصل بحوثه العلمية فاخترع محقنة وكتب بحثاً عن " الفراغ "، وعن السوائل فأكد ذلك شهرته. وبينما كان باسكال يتابع نشاطاته العلمية، بدأ يهتم بالمسائل الدينية، فاعتنق هو وأفراد أسرته مذهب الـ Jansenisme، وهو مذهب يقول بأن خلاص الإنسان يأتي عن طريق عفو الله ورعايته، وليس بالعمل الصالح فقط؛ وأن هذا الخلاص نعمة من الله يهبها لعدد من أوليائه المصطفين.

وفي عام 1654 بدأ باسكال يفكر في اعتزال العالم لما شاهد من خداع وتضليل ومُقلقات، فدخل ديراً في Port-Royal، غير أنه لم يعتزل الناس كلياً. وبدأ يكتب رسائله Les Provinciales سنة 1656 مدافعاً عن مذهب الـ Jansenistes في معمعة النقاش الديني الدائر بين المذهب المذكور واليسوعيين. وحدث أن شفيت قريبتة من مرضها فاعتبر ذلك معجزة، وبدأ يسجل مجموعة من الأفكار والتأملات والاقْتباسات عن الدين المسيحي، نشرت تحت عنوان Les Penseés .

وعندما اشتد عليه المرض وزع ما يملك على الفقراء، وترك منزله لعائلة فقيرة، وانتقل ليعيش مع أخيه إلى أن توفي سنة 1662، ولم يتجاوز التاسعة والثلاثين من العمر.

من أقواله :

- للقلب حجج وأعداء لا يعرفها العقل.
- حتى الفصاحة إذا استمرت طويلا تصبح مملة.
- إذا اشتكى الفلاح أو الجندي من قساوة القدر عليه، دعه يجرب البطالة.
- عاملان يتحكما في طبيعة الإنسان : الغريزة والتجربة.
- عرف سليمان الشقاء عن طريق المذات، وعرفه أيوب عن طريق الآلام.
- ستجد رسالتي هذه أطول من المعتاد، لأنني لم أجد وقتا كافيا لأجعلها قصيرة.
- ليس بيننا وبين الجنة أو الجحيم إلا الحياة، وما أسهل تحطيمها.
- ما أطفه الرسم، فهو يثير إعجابنا لكونه يشبه أشياء لا نعجب بأصولها.
- الإنسان؟ يا له من وحش، فوضى، متناقضات، أعجوبة، حكم، حشرة حقيرة، مستودع الحقائق، بؤرة الشك والأخطاء، مجد العالم وعاره.
- الإنسان ليس ملكا ولا حيوانا. والمؤسف أن من يفعل فعل الملك، يفعل كذلك فعل الحيوان.
- هل نتبع الأغلبية لأنها على حق؟ كلا، لأنها الأقوى.
- عندما يرتكب الإنسان الشرور بدافع ديني، فإنه يرتكبها بحماس وابتهاج.
- طب نفساً، فما كنت لتبحث عني لو لم تجدني.
- الهدوء العميق في هذا الكون اللانهائي يرعيني.

الملكة إليزابيث الأولى

ELIZABETH I



إليزابيث الأولى من أعظم من حكم انكلترا. ولدت عام 1533، أبوها هو الملك هنري الثامن، وأمها آن بولين Anne Boleyn زوجته الثانية. تزوجها على الرغم من معارضة البابا الذي كان يعتبر طلاقه من زوجته الأولى غير شرعي. ولهذا ظل الكاثوليك يعتبرون إليزابيث ابنة غير شرعية. بالإضافة إلى هذا فقد أمر هنري الثامن (أبوها) بإعدام أمها بتهمة الخيانة، وكان عمر إليزابيث أقل من ثلاث سنوات.

ولم تخل حياتها، قبل توليها العرش، من اتهامات كادت تؤدي بحياتها. فقد أعدم اللورد سيمور أثناء حكم أخيها الصغير إدورد السادس بتهمة أنه كان يخطط للزواج من إليزابيث ليحقق طموحاته السياسية. وكذلك تعرضت الفتاة لمحنة أخرى أثناء حكم أختها من أبيها ماري الأولى عندما اتُهمت بأنها كانت على علم بالثورة التي قام بها السير THOMAS WYAT سنة 1554، وأرسلت إلى السجن في برج لندن حيث مكثت أربع سنوات.

كان عمر إليزابيث 25 عاما عندما جلست على عرش انكلترا، بعد وفاة أختها المذكورة ماري الأولى.

حدث ذلك في نهاية عام 1558، ودام حكمها 45 سنة. كانت الملكة مثقفة، تتكلم عددا من اللغات، مولعة بلبس الجواهرات وارتداء الملابس المزخرفة المرصعة بالأحجار الثمينة؛ وكانت من أنصار العقيدة البروتستانتية.

واجهت اليزابيث انقساماً عقائدياً، إذ كانت البلاد منقسمة بين المذهب الكاثوليكي الذي يمثل الأغلبية، والمذهب البروتستانتي. كما وجدت خزينة الدولة فارغة، الجيش ضعيفاً، والأسطول البحري خاملاً. أما على الساحة الدولية فكان البابا يقف ضدها بسبب مساندتها للبروتستانت، ويهددها بحرمانها من رضى الكنيسة. وكانت فرنسا وأسبانيا تطمعان في السيطرة على انكلترا، وإعادة العقيدة الكاثوليكية إلى مجراها.

وبدأت الملكة بانتقاء مساعدين ومستشارين أكفاء بدون مراعاة الأسر التي ينتمون إليها، وكان أشهرهم سيسل (CECIL) الذي تولى منصب مستشار الملكة مدة 14 عاماً، ثم منصب وزير الخزانة طيلة 26 سنة. وكان لها مساعدون عرفوا بالكفاءة والإخلاص والشجاعة. وكانت إيزابيث امرأة ذكية، متروية في اتخاذ القرارات، أعجب بها كثير من السفراء والأمراء. وكانت كذلك، مثل أبيها هنري الثامن، تريد أن يكون لها الحكم المطلق، ولا تتردد في اللجوء إلى أساليب المراوغة والكذب والعنف، إذا دعت الحاجة، من أجل الوصول إلى أهدافها.

كانت ترفض أن يتدخل البابا في شؤون رعاياها العقائدية، أو في تحديد مسؤوليات الكنيسة. وسعت إلى تحقيق الإصلاح الديني فأصدرت قانون 1559 الذي يجعل المذهب البروتستانتي مذهب الدولة، ويمنع إقامة الطقوس الكنائسية على الطريقة الكاثوليكية، ويفرض على من لا يحضر قداس الكنائس البروتستانتية أن يدفع ضريبة شهرية قدرها عشرون جنيهاً. ولكن الأمور تطورت عام 1570، عندما أصدر البابا بيوس الخامس بياناً يعفى فيه جميع المواطنين الانكليز من طاعة الملكة اليزابيث لأسباب عقائدية. عندئذ أصدرت قوانين جديدة تشدد فيها الخناق على الكاثوليك.

وفي سنة 1569 بدأ يظهر خطر آخر يهدد سلطة الملكة من طرف فئة " البيوريتانز " الذي يعنى " المتطهرين " لأنهم بدأوا بمطالبة الملكة بتطهير الكنيسة

البروتستانتية من جميع الطقوس التي لم تأت بها تعاليم الإنجيل الصحيحة. وكان هدفهم كذلك القضاء على العقيدة الكاثوليكية، والسعي لإخضاع نظام الحكم للكنيسة على عكس ما كانت تهدف إليه الملكة. وعندما شعرت أنهم أصبحوا خطرا على عرشها، قررت ملاحقتهم من أجل القضاء عليهم.

ومن الحوادث المشهورة في حياة إليزابيث أنها بقيت " عذراء " طيلة حياتها. ترى ما السبب الذي جعل الملكة تعزف عن الزواج؟ على الرغم من إلاح رجال الدولة والبرلمان والشعب عليها لتنتقي زوجا في مستوى مجدها وطموحاتها، وعلى الرغم من رغبة كل من له مُلكٌ في أن ينجب من يخلفه على العرش، وعلى الرغم من عدد الملوك والأمراء والنبلاء والسفراء والفرسان الذين تمنوا الزواج منها. وكان مستشاروها ينصحونها بأن زواجها من أحد ملوك أوروبا، مثل شارل التاسع، ملك فرنسا، أو فليب الثاني، ملك أسبانيا، سيحقق لها أهدافا سياسية ويدعم ملكها.

ومن بين الأسباب التي تذكر لتعليق رفضها الزواج القول بأنها كانت تعاني من عائق طبيعي يمنعها من ممارسة العلاقة الجنسية؛ أو أن المانع كان هو تلك الصدمات النفسية التي تعرضت لها وهي طفلة صغيرة عندما أمر أبوها بإعدام أمها، ثم بإعدام زوجة أبيها؛ ولعلها رفضت الزواج خشية أن يشاركها الزوج ملكها، أو أن تصبح انكلترا تابعة لتاج دولة أخرى؛ أو لأنها كانت تجد متعة أكبر في ما حظيت به من ملاطفة الرجال المقربين، وما كانت تحظى به من إجلال وتقدير وهدايا ممن ظلوا ينتظرون الزواج منها.

لا شك في أن تردد الملكة في اختيار زوج لها، وما حدث من تأجيل لرد الجواب الفاصل لمن طلبوا يدها، كان لمصلحة السياسة الخارجية الانكليزية، لأنه مكن الملكة من كسب الوقت لتقوية الأسطول البحري وتدعيم الدفاع ضد من كانوا يفكرون في غزو انكلترا. لقد كان فليب الثاني، ملك أسبانيا، أقوى ملك في أوروبا، وكان راعي الكنيسة الكاثوليكية؛ ويطمح إلى الزواج من الملكة

إليزابيث ليوسع سلطانه وإمبراطوريته. وقد حصلت اتصالات عديدة بشأن هذا الموضوع، ولكن الملكة عرفت كيف تماطل في وعودها مما جعل فليب الثاني يوجب تحالفه ضدها وغزو بلادها.

وكانت إليزابيث أثناء فترة التسوية والمناورة تسعى لدعم الثورة في هولندا ضد الوجود الأسباني، وتساند حركة البروتستانت في فرنسا، وكانت تشجع السفن الانكليزية، بصورة غير مباشرة، على شن غارات ناجحة ضد السفن والموانئ الأسبانية وتهدد تجارتها. وكانت أسبانيا بلدا غنيا بما ينهال عليها من ثروات العالم الذي اكتشفته. واستمرت هذه الحرب الخفية الباردة بين البلدين، وكان كل بلد يكتفى بالاحتجاجات والوعود والمناورات. وكانت الملكة تخطط للمستقبل بحكمة وتريث حتى لا تثير غضب فرنسا وأسبانيا.

ومن المناسب الإشارة كذلك إلى مصدر آخر من مصادر المتاعب التي واجهتها الملكة، ويتمثل في المحاولات التي قامت بها ماري ستيوارت لإقضاء إليزابيث عن العرش. ورثت ماري عرش اسكوتلندا، تزعمت في فرنسا، وتزوجت الشاب فرانسيس الثاني، ملك فرنسا. وعلى إثر وفاته عادت إلى اسكوتلندا. وبما أنها تعتنق العقيدة الكاثوليكية، ظنت أن كاثوليك انكلترا سيجتمعون حولها، ويناصرونها للاستيلاء على عرش انكلترا بدل الملكة إليزابيث. ولكن ساققتها الظروف وسوء الحظ إلى الفرار إلى انكلترا، فلم تجد إليزابيث حلا سوى أن تضعها تحت الإقامة الجبرية. غير أن ماري استمرت في التآمر مع مؤيديها من أجل انتزاع العرش من إليزابيث.

وراد في تفاهم الوضع أن البابا غريغوري الثالث عشر أصدر بيانا، عام 1580، يبيح فيه قتل الملكة إليزابيث. ودفع هذا المسؤولين إلى إصدار قرار صارم لحماية الملكة، ينص على أن أي شخص يكون على علم، من قريب أو بعيد، بالتآمر على الملكة، سيعدم؛ بالإضافة إلى تفاصيل أخرى يضيق المجال عن ذكرها. ولكن بعد بضع سنوات اكتشفت مؤامرة ضد حياة الملكة، جرت

على إثرها محاكمة ماري، ونفذ فيها حكم الإعدام في مطلع سنة 1587. وبالإضافة إلى هذا الحادث الذي هزّ زعماء الكاثوليكية، قام أحد البحارة الانكليز المشهورين يدعى دُريك بهجوم ساحق على السفن الأسبانية في موانئ قادس ولشبونة، ويئس ملك أسبانيا من وعود إليزابيث بشأن زواجها منه، وقرر أن يغزو انكلترا.

جهز فليب الثاني 130 سفينة، زودها بسبعة وعشرين ألف جندي، و2431 مدفعا، انطلقت من ميناء لشبونة في مايو 1588. أصبحت هذه الحملة تعرف باسم ARMADA، وكان هدفها أن تنقل الجيش الأسباني الموجود في هولندا للمساعدة على الهجوم على الأراضي الانكليزية. غير أن هذه الحملة الضخمة فشلت فشلا ذريعا في بلوغ أهدافها لأسباب عديدة.

وكانت من نتائج انهزام الأرمادا الأسبانية أن تدعّم شعور الإنكليز بقوتهم ووحدتهم، وزالت مخاوفهم من الغزو الخارجي، وتدعم المذهب البروتستانتي، وشجعت الأسطول الانكليزي على منافسة الأسطول الأسباني من أجل السيطرة على البحار. واشتهر عهد إليزابيث بأنه كان عصر ازدهار كذلك في ميدان الانتاج الأدبي. كانت الملكة تحب الموسيقى والرقص، وتتمتع بإقامة الحفلات والمهرجانات ومشاهدة المسرحيات. وقد شجعت الإنتاج المسرحي والتمثيل. وبرز في عهدها شعراء وأدباء مثل شكسبير، وبيكون، ومارلو، وسبنسر، وبن جنسون.

توفيت إليزابيث في شهر مارس من عام 1603، وكانت أبدت موافقتها على أن يخلفها جيمس السادس، ملك سكوتلندا الذي حكم انكلترا تحت اسم جيمس الأول. وهو أول ملك من أسرة ستوارت يحكم اسكوتلندا وانكلترا معا.

كاترين الكبرى

CATHERINE II



قررت إليزابيث، إمبراطورة روسيا 1761-1741، أن تجعل بطرس، ابن أختها وحفيد بطرس الأكبر، خليفة لها على العرش. ولد (الخليفة) عام 1728 في KIEL (حاليا في ألمانيا)، وكان عندئذ يعرف بدوق هولشتاين؛ أحضرته إليزابيث إلى روسيا، وارتأت أن تختار له زوجة فجاءت بأميرة ألمانية أصبحت فيما بعد تعرف باسم كاترين، بعد أن غيّرت الإمبراطورة اسمها ومنحتها لقب "الدوقة".

ولدت كاترين في مدينة STETTIN عام 1729؛ وكان أبوها أحد الأمراء الألمان، وتنتمي أمها إلى أسرة دوقات هولشتاين. وكان عمرها 16 سنة وعمر الفتى بطرس 17 عاما عندما تزوجا تحت رعاية الإمبراطورة إليزابيث. وفشل هذا الزواج منذ بدايته، إذ التففت بطرس إلى عشيقته وأهمل زوجته، وعاملته كاترين بالمثل فاتخذت لها عشاقا.

لم يكن بطرس مكتمل الشخصية، لا من الناحية العقلية ولا البدنية؛ وكان في تصرفاته نصيب من السذاجة والبلاهة، وكانت عشيقته تسيطر عليه؛ وكثيرا ما يذمُّ على المسكرات، ولم يكن رجال البلاط من الروس راضين عن سلوكه، فقد كان مرتبطا عاطفيا بقومه الألمان الذين ترعرع بينهم، ومعجبا بأسلوب حياتهم. كما أنه لم يظهر حبه وإخلاصه لوطنه الجديد روسيا.

وعلى الرغم من أنه تقبل العقيدة الأرثوذكسية السائدة في روسيا، فقد ظلت الأفكار اللوثرية التي تشبع بها في ألمانيا تسيطر عليه. ومما زاد الوضع

استياء أنه كان لا يخفي إعجابه الشديد بإمبراطور بروسيا، فردريك الثاني، عدو إليزابيث. كل هذا في الوقت الذي كانت هذه الأخيرة تعده لكي يريث العرش من بعدها. ولكن إليزابيث بدأت تساند كاترين وتقوى معنوياتها التي ساءت بسبب ما لقيته من إهمال زوجها.

وعندما توفيت الإمبراطورة إليزابيث، كانت روسيا منغمسة في حرب السبع سنوات، متحالفة مع فرنسا والنمسا، ضد بروسيا. وارتقى بطرس العرش (تحت لقب بطرس الثالث)، فكان أول ما فعل هو أن أوقف الحرب ضد بروسيا، وحولها من عدو إلى حليف لروسيا، لما تقدم من إعجابه بإمبراطورها.

وشعرت كاترين بالخطر عندما علمت أن زوجها يفكر في التخلص منها. وكانت تجد الدعم والتعاطف لدى الحرس الإمبراطوري ورجال البلاط وكثير من رجال الدولة. وكان من سوء حظ زوجها الإمبراطور أنها سبقته إلى وضع خطة للإطاحة به، بمساعدة عشيقها أورلوف والحرس الإمبراطوري. وفي شهر جويلية (يوليو) من عام 1762 ارتقت العرش. ولم يعمر بطرس الثالث طويلا إذ قتل في سجنه؛ ولا يعرف بالتأكيد ما إذا كانت زوجته موافقة على اغتياله، أم أن أصدقاءها قضاوا عليه ليخلصوها من أية عواقب غير متوقعة.

سبق أن كاترين أميرة ألمانية، كان اسمها "صوفا أوغستا فريديكا". كانت فتاة ذكية موهوبة تواقفة للمعرفة واسعة الاطلاع، تتقن اللغة الفرنسية. لم تكن رائعة الجمال، ولكنها كانت جذابة. وكانت شديدة الطموح، قوية الشخصية والعزيمة، بعيدة عن التعصب الديني، هدفها أن تصبح ملكة، ولذلك صبرت على زوجها العليل طيلة 17 سنة. وكانت واقعية، أحببت روسيا وجعلت مصلحتها قبل مصلحتها الشخصية، ولكنها لم تنس نصيبها من الدنيا. كان المعجبون بها والطالبون لودها كثيرين، وقد تجاوز عدد من اتخذتهم عشاقا العشرين. ولكنها كانت تختار الرجل لمواهبه القيادية

وكفاءاته البدنية، وتختبره في ميادين الحرب أو السياسة أو الإدارة ... بعد ذلك تتخذة خليلاً وتفتح له غرفة نومها.

كانت معجبة بالأدب الفرنسي، وقرأت للعديد من الأدباء والفلاسفة الفرنسيين. وكانت لها مراسلات مع ديدرو صاحب الموسوعة⁽¹⁾، وفولتير، ودا لمبير، وغريم. وقد زارها بعضهم وأعجبت بهم وأكرمتهم.

أنجبت كاترين ابناً عام 1754، أصبح فيما بعد بولس الأول، ثم أنجبت بنتاً وولداً. ويعتقد أن هذا الأخير كان من عشيقها أورلوف.

هذه هي المرأة، كاترين الكبرى التي حكمت روسيا طيلة 34 عاماً، وأصبحت رمزاً لفترة من تاريخ روسيا، يفتخر بها الروس كما يفتخرون ببطرس الأكبر.

كان عليها بعد أن تولت العرش أن تجد مصدراً لتمويل خزانة الدولة الفارغة، فلجأت إلى الاستيلاء على الأراضي التي تملكها الكنيسة والأديرة، وحولت رجال الدين إلى موظفين لدى الدولة. وعقدت العزم على أن تجعل روسيا دولة قوية متطورة، وأن تكون هي مثالا للحاكم "المستنير" الذي قرأت عنه في كتب الفلاسفة. وحاولت أن تخطط لوضع دستور شامل يحقق الإصلاحات الضرورية لإمبراطورية متطورة، على غرار أفكار حركة التنوير الفرنسية التي كانت من عشاقها.

وفي عام 1767 كونت لجنة تشريعية، وجمعت ممثلين عن طبقات النبلاء، وعن مختلف المدن والمناطق، وعن المزارعين (غير الفلاحين من الرقيق الذين يملكهم النبلاء). وتصدرت أعمال هذا "المؤتمر الكبير" تعليمات من الإمبراطورة تتضمن أفكاراً ليبرالية لتوجيه أعمال المؤتمر. وعقدت اجتماعات عديدة لم تسفر عن نتيجة، وبقيت مساعي الإمبراطورة حبرا على ورق.

(1) راجع الصفحة رقم 60.

والواقع أن روسيا كانت لا تزال بلدا زراعيا متخلفا. وكان الفلاحون في مجملهم عبيدا لمن يملك الأرض. وكانت طبقة النبلاء والارستقراطية هي التي تمد الملكة بما تحتاج إليه من مال ورجال لتدعيم جهود الحرب. وكانت كاترين ملكة طموحة ترغب في أن تجعل من روسيا دولة قوية، وتعترف بخير هذا البلد الذي احتضنها وأكرمها وهي أميرة صغيرة مجهولة.

ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه؛ فقد اكتشفت أن البون شاسع بين الإيمان بالأفكار الليبرالية والتفكير في وضع قوانين تحسن ظروف " عبيد الأرض"، وبين تطبيق هذه الإصلاحات وتغيير النظام الاجتماعي الإقطاعي، وتحرير الفلاحين من قبضة أسيادهم. لأن هذا العمل يثير عليها ملاك الأرض والنبلاء، ويحرمها مما تحتاج إليه من دعم لتقوية الجيش والأسطول. وهكذا تخلت عن مشاريعها الليبرالية، وبدأت تنفيذ " إصلاحات " كانت في مجموعها لصالح طبقة النبلاء والإقطاعيين:

- دعمت سلطتهم فيما يتعلق بالتحكم في استخدام عبيد الأرض والاستحواذ على مصيرهم.

- قدمت لهم امتيازات خاصة تحميهم من أيّ دعوى تقام ضدهم، وألغت القوانين التي كانت تلزمهم بقضاء مدة في خدمة الدولة، في الجيش أو الإدارة.

- أعتقتهم من ضريبة الرؤوس، وسهلت لهم استغلال المناجم.

وكان من نتائج هذه الإصلاحات أن ازداد عدد رقيق الأرض فأصبح لا يقلُّ عن 95 في المائة، وأصبح الفلاحون محرومين من حقوقهم الأساسية. وهكذا ذهب ما كانت تحلم به كاترين من إصلاحات ليبرالية أدراج الرياح.

وفي عام 1773 نظم ضابط يدعى بوغاتشوف انتفاضة في منطقة الأورال ساند الفلاحون في توسيع نطاقها. وادعى هذا الثائر أنه بطرس الثالث زوج

الإمبراطورة. واستفحل أمره، فاضطرت كاترين إلى إرسال جيش للقضاء على ثورته، وحكم عليه بالإعدام.

وتجدر الإشارة إلى رجل (من بين آخرين) ممن حازوا ثقة الإمبراطورة، واضطلع بدور هام في تدعيم سلطانها، يدعى بوتكين. كان من الرجال الذين اختبرتهم وأعجبت بهم، فاتخذته وزيرا وقائدا وعشيقا. وكان هذا القائد ذا مواهب واسعة، فاستطاع أن يقود الجيش الروسي إلى النصر على الجيش العثماني عام 1774، وضم إلى روسيا مناطق واسعة في شمال البحر الأسود. وظلت كاترين تكثر له عظيم التقدير حتى بعد أن ألغته من قائمة عشاقها.

سبقت الإشارة إلى ما أظهرته كاترين، قبل توليها العرش وبعده، من اهتمام بحركة التنوير في فرنسا، وبأدبائها وفلاسفتها. وحاولت أن تدخل بعض أفكارهم في مشروع دستورها الفاشل. غير أن ضرورات حكم بلاد واسعة متخلفة مثل روسيا جعلت تلك النبضات التحريرية تتبخر أمام متطلبات الواقع، وطموح الملكة إلى توسيع نطاق إمبراطوريتها.

ثم جاءت الثورة الفرنسية، وأعدم الملك لويس السادس عشر، فاهتزت لهذا الحدث عروش، وشعرت كاترين بالخطر، فبدأت تتخذ الإجراءات الوقائية. وفرضت الرقابة على الكتب والمجلات، وأمرت بسجن أو نفي كل من ينتقد النظام، وتحالفت مع النمسا وبروسيا من أجل تقسيم بولونيا، واستولت على مناطق واسعة من أوكرانيا أملا في أن تحجز هذه المساحات عن بلادها تيارات الأفكار الثورية المنبعثة من فرنسا.

وإضافة إلى ما سبق، من المفيد الإشارة إلى بعض المنجزات الأخرى التي تحققت أثناء حكم كاترين الكبرى. ففي ميدان التوسع الاستعماري، نجحت جيوشها في الاستيلاء على مساحات واسعة في مناطق أرووف والقرم وأكرانيا وليتوانيا. وحصلت روسيا على حرية الملاحة في البحر الأسود، وعلى حق التدخل في القسطنطينية لحماية المسيحيين.

وأنفقت بسخاء على التعليم، وشيّدت المدارس والمستشفيات وشجعت العلوم والفنون والأدب. وألفت قصائد شعرية ومقالات متنوعة ومسرحيات وغيرها. وقد ساعدتها ثقافتها الواسعة على أن تكون بعيدة عن التعصب العقائدي، فسمحت للمذاهب المختلفة بأن تمارس شعائرها بحرية.

توفيت كاترين الكبرى بسبب انفجار شريان في الدماغ، حدث ذلك في شهر نوفمبر من عام 1796، بعد حكم دام أربعة وثلاثين عاما.

سيمون بوليفار

SIMON BOLIVAR



بعد مسيرة طويلة وشاقة في طريق الكفاح، وبعد أن تمكن من تحرير ستة بلدان في أمريكا الجنوبية من سيطرة الجيش الأسباني، وبعد فشله في ضم شمل البلدان التي حررها في إطار اتحاد يعزز استقلالها، ويرفع صوتها أمام القوى الدولية الأخرى، كتب سيمون بوليفار، قبل وفاته ببضعة شهور، رسالة تنم عن مدى شعوره بالخيبة لما ظهر من خلافات ومنازعات بين زعماء البلدان التي حررها. ومما ورد في هذه الرسالة:-

" توليت السلطة خلال عشرين سنة الماضية، بعد ذلك كله توصلت إلى استنتاجات منها :

- أنه من شبه المستحيل أن نتمكن من تسيير شئون هذه البلدان كما ينبغي.
- من يخدم ثورة كمن يحرق البحر.
- الحاجة الوحيدة التي بوسع المرء أن يفعلها هي أن يهاجر.
- ستقع هذه البلدان بلا شك في أيدي مجموعات من المستبدين من جميع الأجناس والألوان،
- سيقضي علينا العنف والجرائم والوحشية، ويحتقرنا الأوربيون ويسيطرون علينا.
- إذا كان من المتوقع لجزء من العالم أن يعود إلى حالة الفوضى البدائية، فسيكون هذا الجزء هو الأقاليم التي حررناها."

ولد سيمون بوليفار سنة 1783 في مدينة كاراكاس، فنزويلا من عائلة ثرية من الأسبان. توفي أبوه وعمره ثلاث سنوات، وتوفيت أمه وسنه نحو تسع سنوات وتولي عمه تربيته وإدارة أملاكه، واختارت عائلته له معلماً خاصاً (أحد المعلمين) يدعى SIMON RODRIGUEZ كان صاحب خبرة وأفكار تحريرية، وكان له أثر كبير في حياته الفكرية.

وعندما بلغ بوليفار السادسة عشرة من العمر، سافر إلى أسبانيا، مدريد، لمواصلة تعليمه، ومكث فيها ثلاث سنوات. واستقر في منزل خاله فلم يجد صعوبة في الاندماج في المجتمع الأسباني. غير أنه لاحظ أن الأسبان المولدين في إحدى المستعمرات الأسبانية مثله لا يحظون بنفس المعاملة والتقدير مثل أولئك الذين ولدوا في أسبانيا. وتعرف على فتاة تدعى ماري تيريز، واتفقا على الزواج. قبل ذلك قام برحلة إلى فرنسا، وأعجب بما سمع من أخبار انتصارات نابليون. وعند عودته إلى مدريد، تزوج وسافر مع زوجته إلى كاراكاس. غير أن القدر انتزع منه ماري تيريز بعد نحو تسعة شهور من زواجهما، فحزن عليها حزناً شديداً بعدها.

وفي سنة 1804، قام برحلة ثانية إلى أوروبا، فزار أسرة زوجته في مدريد، ثم سافر إلى باريس حيث التقى بمعلمه RODRIGUEZ، ويروى أنه حضر حفل تتويج نابليون إمبراطوراً. ثم واصل رحلته مع معلمه إلى إيطاليا. وأثناء وجوده في روما، تعهد بأن يكرس حياته لخدمة البلدان الأمريكية التي ترزح تحت الاستعمار الأسباني، وكانت سنة لا تتجاوز 28 عاماً. وتجدر الإشارة إلى ما كان لمعلمه من تأثير في توجيهه إلى الأفكار التحريرية آنئذ مثل الديمقراطية والمساواة والنظام الجمهوري، وإرشاده إلى مطالعة مؤلفات كبار الكتاب مثل فولتير وروسو.

كانت الإمبراطورية الأسبانية في "العالم الجديد"، في القرن الثامن

عشر، تمتد شمالاً من فلوريدا إلى كاليفورنيا، ونحو الجنوب حتى بيرو والأرجنتين. وكانت مقسمة إلى أربع مقاطعات (أو أقاليم):

- أسبانيا الجديدة (عاصمتها مكسيكوسيتي).

- غرناطة الجديدة (عاصمتها بوغوتا).

- بيرو (عاصمتها ليما).

- لابلاتا (عاصمتها أسونسيون).

وكانت هذه المستعمرات الواسعة تعتبر ملكية خاصة للملك، يعين عليها ولاية مستبدين عادة. وكانت الأقلية القليلة من البيض تسيطر على خيرات البلاد، بينما كانت أغلبية السكان من الهنود والإفريقيين (العبيد) يعانون من الفقر والجهل. وكان الحكام في مدريد يعملون على إخفاء ما تنشره الثورة الفرنسية من أفكار تحريرية ثورية، حتى لا تصل إلى سكان المستعمرات. غير أن رياح التحرر كانت تنقل شيئاً من هذه الأفكار عبر الرسائل والمقالات والمسافرين. كما أن حرب الاستقلال التي خاضتها الولايات الأمريكية ضد بريطانيا كان لها قدر من التأثير على شباب المستعمرات الإسبانية المستنير.

وعندما استولى نابليون على أسبانيا، ونصب أخاه جوزيف ملكاً على عرشها، غضب بعض سكان المستعمرات (البيض خاصة) ورفضوا أن ينفذوا الأوامر الواردة من المغتصب الفرنسي. وشكل المسؤولون في كاركاس مجلساً سياسياً لإدارة البلاد. وفي عام 1810 أرسل المجلس وفداً إلى لندن بهدف عقد تحالف مع انكلترا، وكان بوليفار أحد أعضاء الوفد. وفي لندن التقى بوليفار برجل يدعي ميراندا، وهو قائد ثوري سبق أن حاول تحرير فنزويلا، ولم تنجح جهوده. واستطاع بوليفار أن يقنعه بأن يعود معه إلى فنزويلا من أجل استئناف الكفاح ضد الوجود الأسباني.

وأثناء مداولات الكونغرس في كاركاس، استطاع بوليفار والقائد ميراندا إقناع الكونغرس بأن يعلن استقلال فنزويلا عن التاج الأسباني، وتم ذلك في شهر جويلية (يوليو) من عام 1811. وعندما بدأت ثورة التحرير هذه كان معظم السكان الأصليين والسود لا يكثرثون بها، إذا كان همهم الأول هو كسب قوتهم. والواقع أن بعض السكان البيض كذلك كانوا يخشون أن يفقدوا ثروتهم.

وحدث أن أوكل القائد ميراندا إلى بوليفار مهمة الدفاع عن ميناء PUERTO CABELLO الاستراتيجي، ولكن حدثت ظروف أدت إلى أن يستولي الجيش الأسباني على هذا الميناء الهام. فلجأ إلى طلب الصلح، وقبض عليه وزج به في السجن، قيل أن هذا تم بسبب خيانة من طرف بوليفار. وسمح لهذا الأخير بمغادرة فنزويلا، إلى مدينة قرطاجنة، في إقليم غرناطة الجديدة (حالياً في كولومبيا)، وبذلك فشلت أول معركة من أجل التحرير، كان قائدها بوليفار.

لم ييأس بوليفار، ولم يستسلم، وعرف أن معركة التحرير طويلة وشاقة، وظل طيلة أربع عشرة سنة يخوض المعارك التحريرية .

بعد الهزيمة المذكورة جمع جيشاً من المتطوعين، واستطاع أن يستولي على مدينة كاركاس في صيف 1813. واستمرت المعارك، وأخرجته الجيش الأسباني من المدينة. واتجه إلى هايتي التي استقلت عن فرنسا، وطلب المساعدة من رئيسها، وكان من أصل أفريقي، فقدم له المساعدة بعد أن اشترط عليه أن يحرر العبيد. وأنجز بوليفار وعده فأعتق جميع ما يملك من عبيد، وكانوا يعدون بالمئات. وخاض المعارك، وحقق بعض النصر، ولكنه مني بهزيمة كبيرة في معركة LA PUERTA سنة 1815 .

جمع هذه المرة جيشاً قوامه 2500 رجلاً من الليف الأجنبي من إنكليز وإيرلنديين (وقد أنفق ثروته على حروب التحرير)، واستطاع أن يحرر إقليم

غرناطة الجديدة، وكون جمهورية كولومبيا الكبرى (على الورق) التي كان من المفروض أن تضم غرناطة الجديدة، وفنزويلا، وكويتو (إكوادور). حدث هذا في عام 1819، وكان هذا الانتصار تحولاً إيجابياً في حروب التحرير. وفي جوان (يونيو) من عام 1821، حقق انتصاراً كبيراً في معركة CARABOBO، وتمكن من تحرير فنزويلا نهائياً من سيطرة الجيش الأسباني. واجتمع الكونغرس، وأعلن بوليفار رئيساً للجمهورية الكبرى المذكورة.

كان القائد SUCRE من أشهر قواده وأقربهم مكانة إلى قلبه. وعندما حقق هذا القائد انتصاراً هاماً في معركة PICHINCHA في مايو 1822، تم تحرير إكوادور. وفي مدينة QUITO التقى بوليفار بفتاة حسنة ثائرة مناضلة هي الأخرى، فتعلق بها، ورافقته في حله وترحاله.

اتجه بوليفار نحو الجنوب لتحرير بيرو، وهجم على الجيش الأسباني، وانتصر عليه في معركة JUNIN، في صيف 1824. ولاستكمال تحريره هذه البلاد أرسل قائده SUCRE الذي واجه الجيش الأسباني في معركة AYACUCHO، وكان النصر فيها حليف جيش التحرير. وخاض القائد المذكور معركة أخري في منطقة بيرو العليا، فحررها وأسماها بوليفيا، تكريماً لرئيسه بوليفار. وبذلك بلغ بوليفار قمة سلطانه الذي أصبح يمتد من البحر الكاريبي شمالاً إلى حدود بوليفيا والأرجنتين جنوباً، باستثناء البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال.

وفي عام 1826 دعا بوليفار إلى اجتماع للبلدان التي استقلت عن أسبانيا، يعقد في باناما لبحث موضوع إنشاء شكل من الاتحاد بينها يدعم استقلالها ويعزز مواقفها أمام الدول الكبرى. ولكن هذا الاجتماع لم يحقق الهدف الذي دعا إليه بوليفار، ويبدو أن أفكاره كانت متقدمة على عصره بالنسبة لتوحيد تلك البلدان.

ولم يقف الأمر عند ذلك، فقد بدأت تظهر مشاكل أكبر مما كان يتوقع

زعيم التحرير. فقد كان من العسير تطبيق مبادئ المساواة والأخوة والعدالة والجمهورية الديمقراطية بسبب الظروف الاجتماعية والاقتصادية والمشاكل العرقية وضعف مستوي الوعي لدي السكان . وظهر خلاف بين زعماء البلدان المحررة، وبدأت منازعات، وحاول كل واحد أن يدعم نفوذه الشخصي، فنشأت حرب أهلية وانفصلت فنزويلا عن كولومبيا. بل اتهم قائد التحرير نفسه بالخيانة، وحصلت محاولة لاغتياله في مدينة بوغوتا. وفي آخر مرة تحدث فيها أمام الكونغرس، دعا مرة أخرى إلى إنشاء مجلس يوحد البلدان المحررة وجهودها. وفي النهاية قال عبارته المشهورة (من يسعى إلى توحيد بلدان أمريكا الجنوبية كمن يحرق البحر).

وفي عام 1830 قرر أن يعتزل الحياة العامة، فغادر مدينة بوغوتا متوجهاً إلى قرطاجنة. وبينما كان ينوي أن يركب سفينة ليسافر إلى جاميكا أو إلى أوروبا، بلغه نبأ اغتيال صديقه القائد SUCRE الذي كان يعزه مثل ابنه، فحزن لقتله حزناً عميقاً. وحصل انقلاب عسكري في بوغوتا، فطلبوا منه أن يعود إليهم فرفض. واشتد به المرض فذهب إلى منزل صديق له بالقرب من SANTA MARTA في كولومبيا. وفي 17 من شهر ديسمبر 1830 وافته المنية. وبعد اثني عشر عاماً نقل جثمانه إلى بلده الأصلي فنزويلا.

ويكفي دليلاً على مكانته في تاريخ أمريكا الجنوبية، وفي قلوب الناس، أنه لا تكاد توجد مدينة أو قرية في تلك البلدان، تخلو من شارع أو ساحة أو مؤسسة تحمل اسم سيمون بوليفار.

أبراهام لنكولن

ABRAHAM LINCOLN



ولد لنكولن عام 1809 في ولاية كنتاكي، ثم انتقلت أسرته إلى ولاية إنديانا وعمره تسع سنوات. وتوفيت أمه ولم يتجاوز العاشرة من العمر. كان أبواه فقيرين، ونشأ في بيئة لم توفر له فرص التعليم، فلم ينل من التعليم النظامي إلا القليل. ولكنه قرأ بعض الكتب مثل الإنجيل، وروبينسون كروزو وحكايات EASOP، وسعى بمرور السنين إلى رفع مستوى ثقافته. وما لبث أبوه أن تزوج بامرأة مطلقة لها ابن وبناتان، فأعدت للأسرة الدفء والحنان الذي فقدته. وفي سنة 1830 انتقلت الأسرة إلى ولاية إلينوي.

تعاطى الشاب لنكولن أعمالاً متنوعة مثل الزراعة، ونشر الأخشاب، ومسح الأراضي، وأمين مستودع، وعمل في مكتب للبريد، وورشة لصنع المراكب، واشترك سنة 1832 في حرب ضد الهنود. ثم فكر في مهنة الحدادة، غير أنه قرر أن يدرس القانون، فحصل سنة 1836 على شهادة تخوله ممارسة المحاماة. وانتخب عضواً في مجلس البرلمان المحلي.

تزوج لنكولن عام 1842، وبدأت شهرته تنمو تدريجياً في ميدان المحاماة والسياسة في ولاية إلينوي، إلى أن أنتخب عضواً في الكونغرس عام 1847 (فترة واحدة). وارتقى سلم المسؤوليات في الحزب الجمهوري، فرشحه لانتخابات مجلس الشيوخ الأمريكي. ولم يحصل لنكولن على هذا المقعد، ولكنه حقق شهرة واسعة النطاق من خلال خطاباته ومناقشته مع منافسه. وفي عام 1860 رشحه حزبه للانتخابات الرئاسية ففاز بها، ودخل البيت الأبيض في 4 مارس سنة 1861.

كان لنكولن في بداية فترة رئاسته الأولى متردداً في إعلان سياسته المتعلقة بتحرير العبيد. وكان يخشى أن هذه السياسة تدفع بعض الولايات الحيادية إلى الانضمام إلى ولايات الجنوب الانفصالية. والواقع أن البرنامج الذي انتخب على أساسه رئيساً للولايات المتحدة عام 1860 لم يتضمن الالتزام بتحرير العبيد. غير أن زعماء الولايات الجنوبية كانوا يفكرون في الانسحاب من الاتحاد إذا انتخب لنكولن رئيساً لما عرف عنه من أفكار تناصر قضية العبيد. وبالفعل ما إن حل شهر جوان (يونيو) من عام 1861 (تولى السلطة في مارس) حتى كان عدد الولايات التي انفصلت عن الاتحاد إحدى عشرة ولاية.

كانت توجد حامية تابعة للحكومة الفيدرالية في حصن FORT SUMTER قرب ميناء شارلستون (كارولين الجنوبية)، فأرسل لنكولن فرقة من الجنود لتعزيمها. ولكن جيش الولايات الجنوبية أطلق النار على هذا الحصن في 12 أبريل سنة 1860، وطلب من الحامية أن تستسلم. وبذلك بدأت حرب أهلية مدمرة دامت أربع سنوات. وانتهت هذه الحرب عندما استسلم الجنرال "لي" LEE، قائد قوات ولايات الجنوب الانفصالية في التاسع من شهر أبريل سنة 1865.

وانتخب لنكولن عام 1864 لفترة ثانية رئيساً للولايات المتحدة، فبذل جهداً كبيراً من أجل إدخال تعديل على الدستور يمكن من إلغاء نظام الرق في البلاد. ونجح في دفع الكونغرس إلى الموافقة على هذا "التعديل" في مطلع عام 1865. كما نجح في هدفه الرئيسي وهو الانتصار على الولايات الانفصالية والمحافظة على وحدة البلاد. غير أن لنكولن لم يعمر طويلاً ليتمتع بهذا النصر، إذ قتل بعد بضعة أيام فقط بعد نهاية الحرب الأهلية، وكان اغتياله في 14 أبريل 1865 بينما كان جالساً في مسرح فورد في العاصمة واشنطن، وتوفي في صباح اليوم التالي.

من أقوال لنكولن:

- كما لا أريد أن أكون عبداً، لا أريد أن أكون سيدياً للعبيد.
- من لا يريد أن يكون عبداً ينبغي ألا يسمح أن يكون له عبيد. من يحرمون الآخرين من حريتهم لا يستحقونها لأنفسهم، وسوف لا يتمتعون بها طويلاً في ظل إله عادل.
- لو أستطيع أن أنقذ وحدة البلاد من غير تحرير عبد واحد، فعلت ذلك ولو أستطيع إنقاذ وحدة البلاد بتحرير جميع العبيد فعلت ذلك، ولو أستطيع إنقاذ وحدة البلاد بتحرير بعض العبيد وترك البعض الآخر، فعلت ذلك.
- علينا أن نعاهد الذين قتلوا في هذه المعركة (غيتسبورغ) على ألا تذهب تضحياتهم سدى، وأن يبدأ هذا الشعب حياة جديدة في ظل الحرية، وعلي أن حكومة من الشعب وإلي الشعب لا تنقرض على وجه البسيطة.
- كلما سمعت شخصاً يدافع عن الرق، تمنيت بقوة أن يكون نفسه عبداً لغيره. يبدو غريباً حقاً أن يجرواً رجل على أن يطلب من إله عادل أن يساعده على نيل خبزه من عرق جبين رجل آخر.

هيرودوت

HERODOTUS



ولد هيرودوت نحو عام 484 ق.م في مدينة HALICARNASSUS (الآن مدينة BODRUN في تركيا). وكانت هذه المدينة تحت حكم اليونان ثم حكمها الفرس فترة. قرأ هيرودوت هوميروس، واطلع على الأدب اليوناني. وكان مولعاً بالسفر فزار اليونان الكبرى، وساحل فلسطين، ومصر حيث أقام فترة طويلة. كما زار سوزا، عاصمة الفرس، وبابل، والبحر الأسود وغيره من المناطق.

وفي عام 454 ق.م قتل LYGDAMIS، الطاغية أحد أقاربه، فغادر هيرودوت مسقط رأسه ورحل إلى ساموس، ثم رحل منها إلى أثينا حيث التقى بزعيمها بركليس وبعدد من الكتاب والفلاسفة. وكان يقرأ على الناس فقرات من كتابه "التاريخ"، (قبل إتمامه)، فنال بذلك إعجاباً كبيراً. ومع ذلك كان يشعر في أثينا بأنه أجنبي لأنه لم تكن له جنسية المدينة.

في عام 443 ق.م أرسل الحاكم بركليس جالية لتستقر في مدينة THURII في جنوب إيطاليا، فانضم هيرودوت إليها وكان عمره نحو 40 عاماً. بعد هذه المرحلة اختفت أخباره، ولعله اعتكف على إتمام "تاريخه"، وواصل أسفاره، وظل على اتصال بأثينا، وتشير المراجع إلى أنه ألف كتاباً عن الأشوريين. توفي هيرودوت في مدينة توري المذكورة عام 425 ق.م.

يقول هيرودوت في كتابه "التاريخ" بصدده الحديث عن عادات سكان مدينة بابل :

ومن عاداتهم (وتشاركهم فيها قبيلة إينيتي) أنه في كل سنة تجمع الفتيات اللواتي بلغن سن الزواج في الساحات العامة بكل قرية، ويقف

حولهن الرجال. ثم ينادي المنادي عليهن، ويعرضهن للزواج واحدة تلو الأخرى، مبتدئاً بأجملهن فيطلب أعلى مهر. ويستخدم المبالغ التي جمعها من مهر الحسناوات لتزويج من كن أقل حظاً من الجمال، فيدفع مبلغاً لكل رجل يتزوج إحداهن.

ويحدثنا هيروودوت في الكتاب نفسه عن مصر فيقول: (وفيما يتعلق بمصر، سأطيل ملاحظاتي لأنه لا يوجد بلد فيه هذا العدد الكبير من الأعمال والعجائب التي تتحدى الوصف. ثم يتحدث عن مناخ مصر وعن النيل، ثم يقول بصدد الحديث عن العادات: ... تهتم المرأة بالسوق والتجارة، بينما ينسج الرجل على النول في المنزل، ... وتحمل النساء الأعباء على أكتافهن، بينما يحمل الرجل العبء على رأسه. ويتناول المصريون غذاءهم خارج المنزل...، بينما يقومون بأعمالهم الخاصة (السرية) داخل منازلهم. ولا تتولى المرأة وظيفة الكاهنة سواء كانت خاصة بإله أو إلهة. ولا يجبر الأولاد الذكور على دفع نفقة لأبائهم إذا رفضوا ذلك. أما البنات فيجبرن على ذلك.

وفي مصر يخلق الكهنة شعر رؤوسهم، على عكس ما يحدث في البلدان الأخرى. وعندما يفقد الرجل شخصاً عزيزاً لا يخلق شعر رأسه ولحيته. الناس في البلدان الأخرى يعيشون منفصلين عن الحيوانات، أما في مصر فهم محاطون دوماً بالحيوانات، وهم الشعب الوحيد (ومن تعلم منهم) الذي يمارس عادة الختان. وعندما يكتبون يحركون أيديهم من اليمين إلى اليسار، وليس من اليسار إلى اليمين مثل اليونانيين.

وملابسهم مصنوعة من الكتان، وهم يحرصون على أن تكون نظيفة على الدوام. أما الكهنة فيطلقون الجسد بكامله كل يومين حتى لا يلتصق به أي وسخ أو حشرات، ولمراعاة النظافة عند تأدية صلواتهم في المعابد، فهم يستحمون مرتين في النهار ومرتين ليلاً بالماء البارد. ولا يستهلك الكهنة شيئاً من ممتلكاتهم، بل يعد لهم الخبز من الحنطة، وتحضر لهم لحوم البقر والإوز

وشئ من خمر العنب ... إلخ. وبدلاً من كاهن واحد، تتولى خدمة كل إله جماعة يترأسهم كبير الكهنة).

ويحدثنا أبو التاريخ عن بعض عادات الفرس فيقول:

- عندما يلتقي الفرس في الشوارع، إذا كانوا من المركز الاجتماعي نفسه يقبل كل منهم الآخر على الفم، وإن كان أحدهم أدنى بقليل من مركز الآخر تكون القبلة على الخد. وإذا كان الاختلاف في المركز كبيراً، يسجد من هو أدنى أمام من هو أعلى مركزاً.

- يتبنى الفرس العادات الأجنبية بسرعة. فقد لبسوا زي الميديين، وارتدوا درع الصدر المصري، وعندما يسمعون بعادة أجنبية مغرية يرحبون بها. وأخذوا عادات بعض الشهوات من اليونانيين. ولكل رجل عدد من الزوجات، وعدد من الخيالات.

- يعتبر الفرس أن من أكبر دلائل الرجولة البراعة في استخدام السلاح، يلي ذلك القدرة على إنجاب أكبر عدد من الذكور. ويعلمون أولادهم من الخامسة إلى العشرين من العمر، ثلاثة أمور: ركوب الخيل، تسديد السهام، وقول الحقيقة.

- قبل أن يعاقب السيد عبده، يوازن بين سيئاته وحسناته. وهم يعتبرون الكذب من أكبر الكبائر. يليه في سلسلة الخطايا الدين لأن المدين كثيراً ما يضطر للكذب.

- لا يلوث الفارسيون النهر بفضلات أجسامهم، بل لا يغسلون أيديهم في النهر، ولا يسمحون لغيرهم بذلك.

- وهناك عادة سمعت بها، ولم أتأكد منها بنفسني، تفيد بأن الفرس لا يدفنون من يموت من الذكور بل يترك في العراء حتى يمزق بدنه كلب أو طائر من الجوارح.

- وعلمت أن كهنة قبائل (MAGI) جماعة غريبة يختلفون عن كهنة مصر. فهؤلاء لا يقتلون أي حيوان إلا إذا كان الهدف هو أن يقدم قربانا للآلهة. بينما يبدو أن قبائل ماجي يجدون متعة في قتل أي نوع من الحيوانات، باستثناء الكلاب والإنسان.

وبصدد الحديث عن الإسقيديين SCYTHIANS يقول هيرودوت:

- ينظف المقاتل الإسقيدي جمجمة (أو جماجم) أشد أعدائه كراهية له، ويغطي خارجها بالجلد، وإن كان غنياً يغطي داخلها بالذهب، ويستعملها إناء للشراب. ويفعل مثل ذلك بجمجمة قريبه أو صديقه إذا اشتدت العداوة بينهما وقتله أمام الملك. وإذا زاره ضيف محترم يعرض أمامه ما عنده من جماجم، ويشرح له كيف انتصر على أعدائه وخصومه.

- يقيم حاكم كل ولاية سنويا قدرا كبيرا مملوءا بالخمير، يشرب منه كل إسقيدي قتل عدوا. وإن قتل أكثر من خصم يشرب كأسين. بينما يجلس أولئك الذين لم يقتلوا أعداءهم بعيدا عن الحفلة، وهم يشعرون بالعار.

- إذا مرض ملكهم يوتي بثلاثة عرافين ليخبروه بسبب مرضه وهم يقولون له عادة بأنه مرض لأن أحد رعاياه (ويذكرون اسمه) أقسم باسم الملك، وهو غير صادق في دعواه. فيؤتى بالمتهم، ويبلغه العرافون بما فعل مما تسبب في مرض الملك. فينفي المتهم التهمة ويحتج .. إلخ. عندئذ يأمر الملك بإحضار ستة عرافين آخرين. فإذا أكد هؤلاء أنه مذنب، يتولى العرافون الثلاثة الأوائل قطع رأسه، وتوزع ممتلكاته بينهم. أما إذا أعلن العرافون الستة براءة المتهم، فإنه يؤتى بعرافين آخرين، ثم يؤتى بغيرهم فإذا تأكد في النهاية أن معظمهم أعلنوا براءته، ينفذ حكم الإعدام في العرافين الثلاثة الأوائل الذين اتهموه، ويتم قتلهم على النحو التالي :

تشحن عربة بالحطب ويربط فيها عدد من الثيران. تربط أرجل

العرافين وتقيدهم أيديهم خلف ظهورهم، ثم يطرحون وسط الحطب وتشعل فيه النار فتجفل الثيران وتنطلق بالعربة مذعورة. بعد حين تلتهم الثيران العرافين والثيران. وقد يحدث أن ينفصل العمود الذي تربط منه الثيران عن العربة فتنجو من الموت. وعندما ما يأمر الملك يقتل أي شخص من العرافين، بعد أن يثبت كذبه، فإنه يقتل كذلك أولاده من الذكور، ويترك الحياة لأفراد أسرته من النساء.

فيما يلي مقتطفات من محاضرة (1) للمؤرخ جون بانيل بييرى، يقدم فيها ملاحظات عن كتاب "التاريخ" لهيرودوت.

(1) من المحاضرة الثانية من كتاب: THE ANCIENT GREEK HISTORIANS, JOHN BAGNELL BURY, 1861-1927.

هيرودوت

(للمؤرخ جون بانيل بيرى)

يقول بيرى عن هيرودوت ما مفاده:

- إن هيرودوت - وإن عرف " بأبي التاريخ " - لم يكن أول مؤرخ؛ كما أن أبوقراط " أبا الطب " لم يكن أول طبيب. ذلك لأن القرن الخامس ق.م. في اليونان كان يزخر بالقصص الأدبية والتاريخية.

- لم يتناول هيرودوت في كتابه " التاريخ " الصراع العسكري بين اليونانيين والفرس فقط. بل كتب عن الصراع بين الحضارة اليونانية التي كانت تتسم بالنظام الدستوري، والحضارة الشرقية التي كانت تعتمد على الحكم الفردي. ومع أنه كان فيما كتب يميل بعواطفه نحو اليونان، فقد اجتهد في تصوير الحياة داخل المعسكرين، وقدم للقارئ صوراً حية عن الماضي.

- ينقسم كتابه إلى تسعة أقسام، يعالج القسم الأول أعمال الملك قورش؛ يتحدث القسم الثاني عن مصر؛ أما القسم الثالث فموضوعاته غير متكاملة ولكنه يركز على الثورة التي وضعت الملك داريوس على العرش؛ ويتحدث في القسم الرابع عن اسقيزيا؛ والخامس عن ثورة أيونيا؛ والسادس عن ماراثون؛ والسابع حملات ملك الفرس أحشورش ويتناول القسم الثامن انهزام الفرس في سلاميس؛ والقسم التاسع انتصار اليونانيين في بلاتايا، وميكالي.

- تأثر هيرودوت في كتابته بأسلوب هوميروس، فهو مثلاً يلجأ إلى الاستطراد القصصي، ويجعل الشخصيات في كتابه تتحدث، ويفتح للحوار، وهو بتقليده أسلوب هوميروس يضيف على تاريخه نغمة ملحمية تجعله يسحر القراء.

- يعطي للصراع بين اليونان والشرق معاني أعمق من مجرد الملاحم الحربية والنتائج السياسية. فهو كما يصوره صراع بين شعبيين وحضارتين، تتسم إحداهما بالحرية وطابع دستوري، والأخرى (الفارسية) حضارة شرقية تسودها العبودية وحكم الفرد.

- لا شك أن هيرودوت، عندما زار مصر، كان يحمل معه كتاب HECATAEUS ليسترشده في بحوثه. وقد كان هذا الكتاب مرجعا رئيسيا اعتمد عليه هيرودوت فيما كتب عن تاريخ الشرق القديم، وعن ليبيا واسقذيا.

نجد هيرودوت في جمع معلومات جغرافية غزيرة ومعلومات وافية عن الأعراق البشرية. وأظهر اهتماما كبيرا بشؤون الشرق وحوادثه. وقد اتخذ موقفا حذرا من الأساطير، وأبدع في السرد الملحمي، فهو هوميروس الحروب اليونانية - الفارسية.

السحر والشعوذة



ظل الإنسان منذ نشأته يشاهد فيما يحوط به، وفي الأجواء البعيدة من الأرض والبحر والسماء، حوادث مخيفة تثير في نفسه الحيرة والفرع، وتبعث في نفسه الأمل والاطمئنان أحياناً. وبقي هدفه الأول إبعاد الخطر عن حياته، والسعي للحصول على الغذاء وضمان البقاء.

كان يشاهد ظواهر كثيرة لا يعرف لها تفسيراً ولا يدرك مسبباتها: الشمس تظهر وتختفي؛ القمر وتقلبته؛ السحب في تحركاتها، وما تسببه من برق يخطف الأبصار ورعد يهز الأبدان. ثم ما سرّ هذه المياه التي تتدفق من السماء، وهذه الفيضانات المزعجة والزوابع المخيفة والزلازل المرعبة والبراكين والنيران والدخان؟! والنيرون والدخان؟! والنيرون والدخان؟! والنيرون والدخان!؟

ويشاهد من حوله حياة النباتات بتنوع ألوانها ومذاقها، وحياة الحيوانات في البر والبحر والسماء، فيتساءل من أين وكيف ولماذا؟ ويشعر بالألم، ويرى الناس يمرضون ويموتون، فلا يرجعون، فيحترق ويزداد شعوره بالقلق، وتقوى رغبته في معرفة الأسباب الكامنة وراء كل ذلك.

وذات يوم ظهر في القبيلة أو المجموعة البشرية رجل له خيال فياض وذكاء وجرأة ورغبة في التفوق فقال لمن يتساءلون: إن الأسباب الكامنة وراء ما يصيبنا من كوارث الزوابع والفيضانات وندرة الغذاء وانتشار المرض ... هي مخلوقات خفية لا نراها، هي أرواح شريرة، وشياطين كافرة، وكواكب جائعة غاضبة، وأرواح الآباء والأجداد التي نسيناها، ومخلوقات أخرى من عوالم الجن السفلية. ولا بد من مناجاة هذه القوى الخفية وإرضائها. وهكذا وجد أول دجال أو مشعوذ أو ساحر.

وتطورت ممارسات السحرة وتشعبت، وأصبح الساحر يمارس ما

يسمى بالفن الأسود، ويستعين بقوى فوق طبيعية، مثل الأرواح والجن الكفرة والشياطين، للوصول إلى نتائج شريرة في العادة، أولينجز أعمالاً " فوق إنسانية "، بمساعدة تلك القوى الخفية.

ولم تكن ممارسات السحر منفصلة تماماً عن المعتقدات الدينية الوثنية، كما كانت تختلط بالطب والعلاج، حتى في مصر القديمة التي كان جزء كبير من الطب فيها يعتمد على التجربة الواقعية. وكانت أساليب السحر وحوافزه، وما يحظى به السحرة من تقدير، أو يواجهون من عقاب، يختلف حسب ظروف المجتمع الذي يعيشون فيه، وحسب مستوى وعيه وتطوره ومعتقداته، وكذلك بناء على النتائج التي يتوصل إليها الساحر من ممارساته. وذلك لأن المجتمعات والسلطات كانت تميز بين السحر الذي يجلب الخير والمنفعة، والسحر الذي يجلب (أو يتهم بأنه يجلب) المصائب والأوبئة والمعاناة للناس.

كان السحر المفيد، مثل العلاج، يلجأ إلى استخدام عناصر قد تكون نافعة أو عديمة الجدوى، مثل الأعشاب، والحجامة، والتدليك، والملح، والحرارة، ودم الحيوانات، والطبول، والدخان وغير ذلك. وبمرور الزمن تطورت الممارسات السحرية نحو التجارب العلمية، وتطورت الأفكار الدينية التي صاحبته نحو التوحيد.

لقد انتشرت ممارسات السحر، كما تقدم، عبر القرون، في جميع أصقاع المعمورة لأسباب وأهداف يأتي تفصيلها. وقد حرمتها جميع الشرائع السماوية. ومع ذلك كان الناس، وما يزالون، يلجأون للسحرة، خاصة في المجتمعات التي ما زال الجهل يسيطر على جزء كبير من سكانها. وقد انتشرت أساطير وحكايات، منذ القدم، تشير إلى مدى اهتمام الناس بهذا الفن الغريب.

يروى العهد القديم (سفر صموئيل الأول) أن الملك شاول ذهب إلى

امرأة كانت تستحضر الأرواح، وطلب منها أن تستحضر له روح صموئيل (زعيم ديني وقائد عسكري في بنى إسرائيل) فخافت أنه ينصب لها فخا لمعاقبتها؛ ولكنه طمأنها وأقسم إنه صادق. ولما استحضرت له المرأة شبح صموئيل، ارتقى على وجهه وطلب منه أن يرشده ماذا يفعل بعد أن تخطى عنه الإله في حربه ضد الفلسطينيين .. إلخ. ويروى كذلك أن أحد ملوك مصر، AHMOSE الثاني (حكم بين 570-526 ق.م) تزوج فتاة يونانية رائعة الجمال، غير أنه لم يستطع أن يجامعها. فانزعج وثار تائرتة، وهدد بقتلها ظنا منه أنها سحرته. طلبت منه الفتاة أن يصلي ويقدم القرابين إلى فينوس، إلهة الحب، فزال عنه ما أصابه من عجز.

وتجدر الإشارة إلى ما ورد في القرآن من حديث عن ممارسات السحر في مدينة بابل إذ تقول الآية:

﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ ۗ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفُرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ ۗ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۗ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۗ﴾ .. الآية.

واشتهرت في القرآن قصة سيدنا موسى عندما ذهب إلى فرعون ليذكره برب العالمين، وحاول إقناعه بالمعجزات فألقى أمامه عصاه التي تحولت إلى ثعبان. ولكن فرعون ظن ذلك سحرا فجمع ما لديه من السحرة، وألقوا بحالهم وعصيهم أمام فرعون وجماهير الناس، فتحولت (بل خيل للناس أنها تحولت) إلى ثعابين، وألقى سيدنا موسى عصاه فقضت المعجزة على السحر، والتهمت العصا حبال سحرة فرعون وعصيهم.

ومما يدل على انتشار السحر في مختلف العصور والبلدان ما رواه المؤرخ غيبون (Gibbon) من أن مختلف الطوائف في الإمبراطورية الرومانية كانت تخشى القوى الخفية والآثار التي تحدثها الأعشاب السحرية وعصاراتها

المقينة، والطقوس الشيطانية التي تؤجج الانفعالات، بل ربما تقضي على الروح. ويقول إن قوانين روما شجبت فنون السحر؛ ولكن بما أن هذه الفنون السحرية ترضى رغبات كثير من الناس وتنعش خيالهم وعواطفهم فقد استمرت ممارستها.

ومن قبيل السحر والتدجيل ذلك الرجل الذي ادعى أنه خبير في الكيمياء، وأنشأ مختبراً مع صديق له، زاعماً أنه يبحث عن "الحجرة السحرية" التي تحول المعادن إلى فضة وذهب. وكان يلجأ للمكر والغش والدهاء فيخفي قطعاً صغيرة من الفضة في الفرن، ويوهم الزوار بأنه أنتجها بفعل السحر الخفي. وتوافد عليه الناس ممن يحتاجون إلى تحقيق رغبات خاصة بواسطة قوى خارقة للطبيعة.

والسحرة "يبيعون أرواحهم للشياطين وكفرة الجن" ليحصلوا منهم على المساعدة الضرورية لتحقيق أهدافهم. ويحضرني في هذا الصدد مسرحيتان، الأولى للأديب الانكليزي Marlow وعنوانها "الدكتور فاولستس" الذي يعقد صفقة مع الشيطان، فيبيعه روحه مقابل أن يحقق له جميع رغباته. والمسرحية الثانية للأديب الألماني جوتي، وعنوانها "فاوست" وفيها يتعهد الشيطان بأن يعيد لفاوست الشباب ويشبع جميع رغباته، وينقله إلى بلدان عديدة، مقابل أن يسلمه روحه في نهاية المطاف.

وسائل الساحر وأهدافه

يزعم الساحر أنه ورث المهنة عن أبيه أو جده، أو أنه تعلمها عن خبير ورثها أو مارسها فترة طويلة. ومهما كان ادعاؤه فلا بد أن تجتمع فيمن يمارس السحر (الشعوذة) صفات بدنية ونفسية، وخبرة طويلة تخلق لديه الثقة بالنفس؛ ولا بد أن يملك قوى روحية وسمات مبهمه غريبة تميزه عن غيره، وتجعل الناس يتأثرون بمنظره ونظراته وحركاته، وتخلق القدرة على إقناعهم بأنه يتمتع بخصائص خفية سحرية.

وتلعب عوامل الإيحاء والوهم والتمويه والتدجيل دورا هاما في نجاح الساحر، وسيطرته على عقول زبائنه الصغيرة وأفكارهم البسيطة، لأن التأثير النفسي جزء هام من مهام الساحر. ولذلك يبدو بعضهم وكأنهم قوة كهربائية تصرع زبائنهم، أو كأن لهم قوة مغناطيسية تجذب إليهم ضعاف النفوس، أو كأن ألسنتهم تنفت "سحرا" يخدر الجاهلين ويخضعهم لسلطانهم. ومن عوامل نجاح الساحر أن يتوفر له قدر من الذكاء والدهاء وقوة العزيمة، وأن يكتم الأسرار، ولا يختلط بالناس ليحافظ على هيبته الساحر وما يحيط بأعماله وحياته من غموض. ويلاحظ أن الساحرة تكون، في غالب الحالات، عجوزا، مشوهة الخلق، قاسية، ذات ملامح مخيفة ونظرات حادة، وغير متزوجة.

ويزعم الساحر (أو الساحرة) أنه قادر على أن يجلب الخير أو يسبب الضرر. ولذلك سمي السحر من النوع الأول بالسحر الأبيض، ومن النوع الثاني بالسحر الأسود. فالسحر الأبيض مثلا يشفى الأمراض، ويجمع المحبين، وينعش التجارة، ويحمي المسافر، ويحمي المنزل، ويكثر كمية الصيد في البر والبحر.. إلى غير ذلك. والسحر الأسود يسعى مثلا إلى إفساد العلاقات بين الإخوة أو الجيران، ويسبب الأمراض، ويضعف القوة الجنسية لدى الرجل، ويفسد الزرع والماشية وهلم جرا وخبطا.

وليحقق الساحر والمشعوذ هذه الأعمال يدعى أن له جنودا من الشياطين، وكفرة الجن، والأرواح الطيبة أو الشريرة، والقوى السماوية أو السفلية الخفية، والأشباح الصالحة والغريبة، والفوانيس القديمة السحرية، والوصفات النباتية، والأدوية السرية.. إلخ تساعد على إنجاز مهامه وتحقيق رغباته. وهو يختار منها ما يناسب رغبة الزبون المغفل، والزبون الجاهل، والمتعلم، والفقير، والزبون الغني.

يزعم الساحر أن أعماله تتضمن طقوسا خاصة وشعائر خطيرة أحيانا، تختلف ظروفها ووسائلها حسب اختلاف طلبات زبائنه إن كانت سهلة

ميسرة أو عسيرة وشاقة. فهو يناجى الأرواح والجن والشياطين، أحيانا ليأمرهم بفعل كذا وكذا، وتارة ليطالب منهم المعرفة والقوة لإنجاز مهامه، وحيناً ليخضع لهم ويستجديهم المساعدة.

ومن أخطر الظروف التي ينبغي أن يهيئها الساحر والمشعوذ ليستحضر الشياطين وكفرة الجن والأرواح الشريرة أن يعزل في خلوته مدة سبعة أيام، أو عشرة، ويصوم عن الطعام وألا ينام ليلاً ولا نهاراً، ويواصل تلاوة عبارات وأناشيد غامضة.. إلخ ومن الواضح أن العزلة الطويلة والجوع والعطش والتعب والظلام مدة طويلة تؤدي به إلى الهلوسة وتجعله يرى أشباحاً ويسمع أصواتاً فيظن أنه بلغ المراد.

ويلجأ الساحر (أو الساحرة) أحيانا إلى تنظيم حفلات جماعية، يرتدي أثناءها لباساً خاصاً، ويضع على وجهه قناعاً، أو يرسم عليه خطوطاً ملونة، ويضع على رأسه قبعة أو عمامة غريبة الشكل. ويتجمع الزبائن في حلقة، وقد ارتدوا ملابس مزركشة. وتعتبر هذه الحفلات حفلات رقص صاخبة، فيها تدق الطبول، وتنتشر روائح البخور، وترتفع أثناءها التهليل والأناشيد، ويطوف بعضهم بمشاعل، وأحيانا يأمر المشعوذ بذبح حيوان وسط الحلقة فيزيد منظر الدم من هيبة الحفلة، ويقدم للزبائن مشروباً حاداً، ويوضع وسط الحلقة كانون ترمى فيه مواد تتصاعد منها السنتة ملونة من النار. ويظل الناس يرقصون مدة طويلة حتى يسقط بعضهم من التعب، ويبلغ بعضهم نشوة عميقة، ويغمى على بعضهم، فينامون نوماً عميقاً. وفي الصباح يبلغهم المشعوذ أن العفاريت قد خرجت من أجسادهم، وأن الأرواح الشريرة غادرت المكان.

ولا حدود للوسائل والأساليب التي يلجأ إليها السحرة والمشعوذون: الأتربة والحجارة الملونة، البذور والجنود والزهور، ومختلف أجناس الأعشاب الضارة منها والنافعة. كما يستعمل أنواعاً مختلفة من حيوانات البر والبحر والسماء، يستخدم

في سحره ريشها وشعرها وأظفارها وقرونها وأحشاءها، وأحيانا فضلاتها. أما الطلاسم فحدث ولا حرج، وقد ظن الإنسان منذ القدم أن بعض المواد الغامضة والألغاز المبهمة تحتوي على قوة خفية تجلب الحظ وتبعد الشر. فاستغل السحرة هذه الاعتقادات البدائية الساذجة لدى البسطاء والمغفلين.

إن الخوف في كثير من الأحيان يعطل تفكير الإنسان، ويفقده توازنه النفسي، فيصدق ما لا يُصدق. يضاف إلى ذلك الحقد والرغبة في الانتقام، والجهل كل ذلك يجعل الإنسان فريسة في يد المشعوذين. فالطلاسم، مثلاً، التي يخدع بها الساحر الناس ما هي إلا نقوش ورسوم مبهمه، وأرقام وجداول تتخللها حروف لا معنى لها، وتمائم وتعاويد لا تغني ولا تفقر. ويلاحظ أن من نكبه الدهر في صحته أو ماله أو أسرته قد يصبح كالغريق يتمسك بأيّ غصن قريب، ويلجأ إلى كل ما يجلب له الأمل. ونرى بعض الناس يحملون سواراً أو قلادة، أو خاتماً، أو حزاماً، أو قطعة من ذيل إحدى الزواحف، أو حفنة بذور أو تراب .. يظنون أنها تجلب الحظ وتبعد شر العين الحاسدة.

وتتنوع الوسائل التي يستخدمها المشعوذ أو الساحر بقدر ما يسمح له خياله الخصب وظروفه المادية. وقد يكون هدفه الأول هو أن يخضع الزبون ويؤثر على نفسيته، فيعدّ محاليل كيماوية تبهر الزائر عندما يخلطها أمامه، وتتساعد منها أبخرة وروائح تنعشه وتخره. وقد يعد في منزله أجهزة وأضواء يوهم بها الزبون بأنه يحرك الأشياء عن بعد أو يوهمه أن لديه مرآة سحرية أو فانوسا سحريا؛ ويصنع الساحر أحيانا تماثيل صغيرة من الشمع أو الكتان (في شكل إنسان)، فيحرق الأولى ويخز الثانية بالإبر ليقتنع زبائنه بأن الضرر قد لحق بأعدائهم. وعندما يريد أن يدلى بحكمه النهائي يتظاهر بأنه قد استولت عليه قوة خفية فيتمتم ويرتعش مفتعلاً نشوة غامرة، ويملي على زبائنه ما عليهم أن يفعلوا من محفوظاته القديمة.

وأخيراً، وليس آخراً، أذكر ما يتردد على ألسنة كثير من الناس، وهي

حكاية رجل أتى من اليمن أو السودان أو المغرب، وقد اكتشف كنزاً مدفوناً (لعله في المنام)، وراح يبحث لدى البسطاء طبعاً، عن يد تتوفر في كَفِّها خطوط ومنعرجات خاصة، لأنها حسب زعمه هي الوحيدة التي تساعد على استخراج هذا الكنز دون أن تعوقه الجنون التي تحرس الكنز. وأردت أن أقول للسيدة التي روت هذه الخرافة " لا تصدقي يا حاجة ". ولكنني تذكرت أنني التقيت سنة 1969 بفلاح وأخبرته بأن الأمريكان أنزلوا رجلين على سطح القمر. فأجابني " لا تصدق ذلك، فإن الله لا يسمح لأعدائه بذلك ".

بقى أن أختتم بالإشارة إلى ذلك النوع من " سحر التسلية ". وكان الملوك قديماً يجمعون في قصورهم السحرة المشهورين ليقدموا أمامهم عروضاً مسلية. ثم انتشر هذا النوع من السحر الحلال فغزا الأسواق والمسارح والنوادي. والواقع أنهم يقومون بألعاب وعروض وخدع محبوكة، فيوهمون الناس مثلاً بأنهم قطعوا الفتاة نصفين، وأن الفتى معلق في الهواء، والحمامة تخرج من القبعة، والنار تشتعل من لا شيء، إلى غير ذلك. وقد تطورت خدع سحر التسلية فأصبح يقدم عروضاً شيقة، تسحر العين، وتنعش الخيال وتسلي الصغير والكبير.

الأناجيل ومدونوها



قبل الحديث عن الأشخاص الذين ينسب إليهم تدوين الأناجيل الأربعة (العهد الجديد)، تجدر الإشارة بإيجاز إلى الظروف التي رافقت كتابة هذه الأناجيل.

- بدأ تدوين تعاليم المسيح عليه السلام عشرات السنين بعد صعوده إلى الرفيق الأعلى.

- تندر المعلومات التاريخية السليمة عن الأشخاص الذين ينسب إليهم تدوين الأناجيل.

- تحوط الشكوك ليس فقط بأسماء الأشخاص الذين تنسب إليهم الأناجيل، بل كذلك بالمصادر والروايات التي اعتمدوا عليها، وبتاريخ كتابتها والأماكن التي دونت فيها.

- قبل أن تصبح رواية حياة المسيح عليه السلام وتعاليمه سجلا رسميا تعترف به الكنيسة، ظلت خلال فترة طويلة تراثا شفهيًا يتناقله الناس في شكل حكايات أدبية خاضعة لأهواء الرواة وخيالهم.

- تبنت الكنيسة هذه الأناجيل في أواخر القرن الثاني للميلاد.

- من المؤسف جدا أن الكنيسة تنكرت لأناجيل وكتابات أخرى وقضت عليها، ومنها ما كان يحتوي حقائق أخرى عن حياة المسيح وتعاليمه.

- لم يكن ذلك العصر خاليا من الفرق والطوائف؛ ولا شك أن كل طائفة عملت على تدوين ما يلائم معتقداتها، وشجعت ما يدعم تقاليدها، وتنكرت لما يخالف ذلك.

- لعب الناسخون والمترجمون على مر القرون دورا كبيرا في عمليات التحريف، والتّعديل، والحذف والزيادة، سواء فعلوا ذلك سهوا، عن حسن نية، أو لتحبيذ فكرة أو إلغاء معلومة لا يحبذونها.
- يلاحظ وجود اختلافات بين الأناجيل في عدد من المعلومات والحكايات التي دونتها الأناجيل، فمنها على سبيل المثال من يميل إلى تعاليم اليهودية، ومن يعتبر اليهود طائفة ضالة.
- تعود أقدم نسخة من الأناجيل إلى القرن الرابع. واللّه وحده يعلم ماذا فعل الناسخون بتعاليم المسيح منذ أن صعد عيسى ابن مريم عليه السلام إلى جوار ربه، وكذلك منذ القرن الرابع إلى عهد الطباعة.

إنجيل يوحنا

ينسب الإنجيل الرابع (في ترتيب الكتاب المقدس) إلى يوحنا بن زبيدي. ويرى البعض أنه من أصل فلسطيني، دون إنجيله باللغة الآرامية، وآخرون أنه من أصل إغريقي ألفه باللغة اليونانية في نهاية القرن الأول للميلاد. غير أن كثيرا من النقاد المتخصصين يشكون في أن يوحنا بن زبيدي هو الذي دون هذا الإنجيل. ويرون أن مؤلفه رجل مجهول، وأن فترة تدوينه كانت بين 110-115 ميلادية، وذلك في مدينة أفسوس. وربما اشتركت جماعة في تدوينه.

ويميل مؤلف (أو مؤلفو) هذا الإنجيل إلى تصوير المسيح عليه السلام في صورة إله وابن إله، ذلك أن الإغريق والرومان كانت لهم آلهة قوية جبارة، فجنح المؤلف إلى وصف المسيح بصفات الإله ليكون ذلك أكثر قبولا لدى السكان وتأثيرا على عقولهم، من أن يحدثهم عن تعاليم جاء بها رسول متواضع فقير. وليحقق المؤلف هدفه لجأ إلى المبالغة والتغيير في الروايات المتداولة عن حياة المسيح، وأضاف إلى تعاليمه ما يتلاءم مع أفكار المجتمع الذي نشر فيه دعوته.

ويوضح هذا الإنجيل انفصال الكنيسة المسيحية عن الكنيسة اليهودية، ويعتبر تعاليم هؤلاء معادية لتعاليم المسيح عليه السلام.

وربما يكون المؤلف قد اعتمد على مراجع ومفاهيم دينية وفلسفية يونانية وبابلية وإيرانية ومصرية. وقد قرر رجال الكنيسة في نهاية القرن الثاني إدراج هذا الإنجيل ضمن مجموعة الكتاب المقدس. ونقرأ في مقدمة هذا الإنجيل من الكتاب المقدس ما يلي: " من المحتمل أن يحدد مكان تدوينه في كنيسة من كنائس آسيا الهلينستية (أفسوس)، وليس لنا أن نستبعد استبعاداً مطلقاً أن يوحنا الرسول هو الذي أنشأه؛ ولكن بعض النقاد لا يتبنون هذا الاحتمال، فبعضهم يتركون تسمية المؤلف، ويصفونه بأنه مسيحي كتب باليونانية في أواخر القرن الأول في كنيسة من كنائس آسيا حيث كانت تتلاطم التيارات الفكرية بين العالم اليهودي والشرق الذي اعتنق الحضارة اليونانية."

إنجيل لوقا

يأتي ترتيبه الثالث في الكتاب المقدس، وينسب إلى لوقا. وتشير بعض المصادر إلى أنه كان طبيباً، ويبدو من أسلوبه أنه كان مثقفاً. ويقال إنه رافق بولس، تلميذ المسيح عليه السلام، في بعض رحلاته. ولكن من الممكن أن هذه الأوصاف إنما أضيفت في وقت متأخر إلى شخص مؤلف هذا الإنجيل لتضفي عليه مزيداً من الأهمية والمصداقية.

ويقول النقاد المتخصصون إنه لا يعرف أصل العائلة التي ينحدر منها لوقا، هل هي يهودية أم سورية أم إغريقية أم رومانية، وإن مؤلف هذا الإنجيل يظل شخصاً مجهولاً، ولم يعاصر المسيح عليه السلام، وإن معظم ما ورد في هذا الإنجيل هو من مؤلفه وليس مما أوحى به الله إلى سيدنا عيسى. وقد نقل لوقا عن إنجيلي متي ومرقص، بالإضافة إلى مصادر أخرى، وأورد أشياء كثيرة لم تسجلها الأناجيل الأخرى.

وقد اختلف في تاريخ تأليف هذا الإنجيل، قيل حوالي عام 80 من الميلاد، وقيل في مطلع القرن الثاني؛ وأن ذلك تم في اليونان أو في آسيا الصغرى. ونقرأ في مقدمة الكتاب المقدس لإنجيل لوقا ما يلي:

".. يقول هذا التقليد: إن كاتب الإنجيل الثالث هو لوقا الطبيب الذي ذكره بولس ... ولكن هذا الدليل ليس قاطعا لأن المفردات التي يستعملها لا تختلف عن المفردات التي كان يستعملها أي إنسان مثقف في ذلك الزمان".

إنجيل مرقص

هو الإنجيل الثاني في الكتاب المقدس، ولكنه أقدم ما كتب من الأناجيل. ولا يعرف شيء على وجه اليقين عن مؤلفه، وإن وجد من ينسبه إلى مرقص أحد تلامذة المسيح. ويروى أنه كان كاتباً لبطرس الحواري. تشير بعض المراجع إلى أنه دون سنة 80 ميلادية، باللغة اليونانية، في روما. وربما كان تأليفه نتيجة تضافر جهود عدد من القساوسة دونوه في كنيسة من كنائس شمال سوريا.

يبدو أن المؤلف (أو المؤلفين) اعتمد على مجموعة من الحكايات الشفهية التي كانت شائعة في ذلك العهد عن حياة المسيح عليه السلام وتعاليمه. وقد سجل المؤلف بإسهاب ما انتشر من روايات وأساطير شفوية عن أخبار المسيح وعن "تعذيبه وصلبه وبعثه"، كما دون أخبار سلوك تلاميذ المسيح أثناء محنته؛ ولم ينس المؤلف أن يزخرف حكاياته ببعض أقوال المسيح وتعاليمه وأعماله. وقد نقل متى ولوقا عن مرقص، وإن كان محتوى إنجيل كل منهما يختلف عما ورد في إنجيل مرقص في كثير من حوادثه.

إنجيل متي

ينسب إلى متي أحد الأناجيل التي يضمها الكتاب المقدس (الإنجيل). فمن هو متي؟ وهل هو الذي دون الإنجيل. ومتى وأين ألفه؟ الواقع أنه لا

توجد معلومات مؤكدة عن الشخص الذي دون الإنجيل الأول في ترتيب الأناجيل (وليس من حيث تاريخ تدوينه) ضمن الكتاب المقدس. يقال إنه يهودي، كان موظفاً في مصلحة جباية الضرائب، ويطلق عليه أحياناً اسم ليفى (لاوى). ويروى أن مئى هذا دعا ذات يوم المسيح عليه السلام إلى العشاء، فانتقد أناس المسيح لأنه تناول العشاء في منزل رجل يعمل في جباية الضرائب تحت سلطة روما.

غير أن النقاد المتخصصين يرون أن مئى الذي ينسب إليه الإنجيل ليس من تلامذة المسيح (الحواريين)، ولم يصاحبه، بل عاش في الفترة 75-100 ميلادية. ونقرأ في مقدمة لإنجيل مئى في الكتاب المقدس ما يلي: " فلما كنا لا نعرف اسم المؤلف معرفة دقيقة، يحسن بنا أن نكتفي ببعض الملامح المرسومة في الإنجيل نفسه ... فجميع هذه الصفات توافق صفة يهودي مثقف أصبح مسيحياً ".

وتشير الروايات إلى أنه تم تأليف هذا الإنجيل في سوريا (أنطاكية)، باللغة اليونانية، لأن المؤلف كان يخاطب الناس بما يشير إلى أنه في بيئة يونانية، حوالي سنة 90 بعد الميلاد. أما عن محتوى هذا الإنجيل فيشير النقاد إلى أن المؤلف اعتمد على ما سمع من روايات وأخبار شفوية كان الناس يتناقلونها بعد صعود المسيح بفترة طويلة.

ويعتبر هذا الإنجيل إنجيل المسيحية اليهودية لأن مؤلفه تأثر بتعاليم الكنيسة اليهودية، واستشهد بأقوال وروايات كثيرة من العهد القديم ليقرب تعاليم المسيح من اليهودية، كما تصرف بحرية في ما نقل ولم ينقل، ودون روايات لا توجد في الأناجيل الأخرى.

ماركوبولو

MARCO POLO



ظل نقولا بولو وأخوه مافيو يتنقلان من بلد إلى بلد سعياً وراء تجارة رابحة، تدفعهما كذلك المغامرة، حتى وصلا عاصمة الإمبراطورية الصينية أثناء رحلتها الأولى في القرن الثالث عشر. وعندما عزموا على العودة إلى بلدهما البندقية سلمهما الإمبراطور كوبلاي خان رسالة موجهة إلى رئيس الكنيسة الكاثوليكية، البابا كليمانت الرابع، يطلب منه أن يرسل إليه مائة من العلماء المتفقيين في الديانة المسيحية. وقد عرف عن كوبلاي خان تسامحه تجاه انتشار الأديان المختلفة في بلاده. وعندما وصل الأخوان بولو إلى البندقية كان البابا المذكور قد توفي، فتسبب ذلك في تأجيل عودتهما إلى بلاد الصين.

وفي عام 1271 شرع الأخوان نقولا ومافيو في رحلتها الثانية إلى عاصمة الصين، يرافقهما هذه المرة الفتى ماركو الذي لم تتجاوز سنه 17 عاماً. لاشك في أن الرحلة من البندقية إلى شانغتو، العاصمة، كانت طويلة شاقة ومحفوفة بالأخطار. انطلقت أسرة بولو من البندقية إلى مدينة عكا، ومنها عبر جبال سوريا نحو تركيا، تبريز، فالخليج العربي، وعبر بلاد فارس نحو خراسان في اتجاه البامير، كاشغر، خوتان، عبر صحراء غوبي إلى تانغوت. ثم اجتازوا السور العظيم إلى أن وصلوا إلى شانغتو العاصمة بعد رحلة دامت نحو ثلاث سنوات.

وهنا في هذه المدينة المزدهرة بثقافتها واقتصادها، اشتغلت أسرة بولو بالتجارة، ونجحت أعمالهم وراقت لهم الحياة بجوار هذا الإمبراطور الذي كان

يرحب بالأجانب، ففضلوا الاستقرار. وليس من الواضح تماما ما هي الأعمال التي قام بها ماركو وأبوه وعمه، إلى جانب بعض الأعمال التجارية، أثناء إقامتهم الطويلة في بلاد الصين.

وقد اختلف النقاد في تقييم شخصية ماركو بولو، وفي تحديد الأنشطة والمهام التي اضطلع بها في أرجاء الإمبراطورية الصينية. فمنهم من يرى أنه كان مجرد تاجر مولع بالأسفار، بالغ في الافتخار بمغامراته، وفي وصف ما شاهد أو نقل ما سمع أثناء رحلاته. ومنهم من يعتقد أن ماركو كان شابا ذكيا طموحا، تعلم شيئا من لغة أهل البلاد، ونجح في التقرب من الملك ونيل ثقته. ويبدو مما روى لنا ماركو أن الملك كلفه بمهام عديدة في مناطق مختلفة من الإمبراطورية، ويروى أنه عينه حاكما على مدينة هانغشاو.

وبعد إقامة في بلاد الصين دامت نحو 17 عاما، بدأت أسرة بولو تفكر في العودة إلى البندقية. وجاءت فرصة مناسبة عندما بدأت إحدى الأميرات تستعد للسفر إلى بلاد فارس، فطلبوا من الملك أن يسمح لهم بالسفر، ورافقوها في رحلتها الطويلة بطريق البحر. ودامت رحلة عودتهم إلى البندقية ثلاث سنوات، فوصلوها عام 1295. تزوج ماركو وأنجب ثلاث بنات، واستطاعت أسرة بولو أن تعيش عيشة موسرة بما جلبوا معهم من مال؛ ولو أنهم أثناء مرورهم بمدينة TREBIZONDE (في تركيا حاليا) سرق للصوص معظم ثروتهم.

نشبت معركة بحرية بين البندقية وجنوه، فكلف ماركو بقيادة سفينة حربية. وأسر ماركو واقتيد إلى سجن في جنوه. وأثناء عزلته في السجن رغب في تسجيل أخبار رحلاته وما شاهد في بلاد آسيا. وساعده الحظ على ذلك إذ التقى بسجين يحسن الكتابة واللغة (مزيج من الإيطالية والفرنسية). وعنون ماركو كتابه الله وصف العالم لله، ولكنه عرف بعد ذلك تحت عنوان الله المليون لله، كما اشتهر ماركو نفسه بـ الله ماركو الملايين لله إذ ساد الاعتقاد بأنه كان يبالغ كثيرا فيما يذكر من أرقام في كتابه وأحاديثه.

وقد تضمن هذا الكتاب معلومات كثيرة ومتنوعة عن آسيا، جغرافية وتاريخية واجتماعية. وحظي كتاب الله المليون لله بنجاح كبير، وترجم إلى لغات عديدة، مما خلد شهرة ماركو بولو، وجعله من أشهر الرحالين في القرن الثالث عشر. ويتحدث ماركو في كتابه عن مختلف مجالات الحياة في البلاد التي زارها؛ ويصف بكثير من الإعجاب قصور كوبلاي خان، وما اشتملت عليه من بهجة وزخارف، ويتحدث عن زوجات الملك ومحظياته. ويصف أسواق المدينة وخيراتها، ويذكر أن الصينيين يستعملون عملات من الورق بدلا عن المعادن في معاملاتهم التجارية، ويتحدث عن العاهرات ويذكر أن الدولة تتعهدن بالعناية والرعاية. ويشير إلى حرص المسؤولين على تأمين الطرق التجارية، وأمان المسافرين، وكيف تم إنشاء محطات لاستراحة المسافرين على الطرق الرئيسية.

وتحدث عن مدينة هانغشاو بأسلوب المعجب فوصف مبانيها الرائعة وحدائقها الغناء، وما تمتاز به من وسائل المتعة والتسلية، وحسن أخلاق السكان، وجمال النساء. كما وصف نظافة شوارع هذه المدينة، وحماماتها الكثيرة، ومركباتها المريحة، وأسواقها الزاخرة بشتى السلع والخيرات من كل روج بهيج.

أطلق سراح ماركو بولو من سجن جنوه عام 1299، وقضى بقية حياته في البندقية، إلى أن وافته المنية سنة 1324.

الإمبراطورة تيودورا

وصديقتها



تيودورا فتاة قبرصية من أسرة فقيرة، أبوها يدرب الدببة في أحد الملاعب الشعبية بمدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية. ثم توفي وترك ثلاث بنات في سن صغيرة. واضطرت تيودورا لكسب عيشها في شبابها، فبدأت تمثل في أحد المسارح، وبرعت في تقليد الأشخاص ومحاكاة أصواتهم وحركاتهم وساعدها في مهنتها ما وهبها الله من جمال ورشاقة القوام وعينين ساحرتين وصوت ينعش القلوب، فكثر عشاقها وسلمت جسدها لكثير منهم.

وغادرت القسطنطينية ذات يوم بصحبة أحد عشاقها، غير أنه سرعان ما تبرم بهذه الفتاة الطموحة المغرية. ثم تزوجت وأنجبت طفلاً تركته لأبيه وعادت إلى القسطنطينية. ويبدو أنها سئمت من أسلوب حياتها، وقررت هذه المرة أن تعيش حياة العفة والجد فبدأت تكسب عيشها بالعمل في غزل الصوف، إلى أن وقعت عليها ذات يوم عين رجل فغيّر ذلك حياتها.

كان هذا الرجل هو جوستنيان الأول (لم يكن بعد اعتلى عرش الإمبراطورية البيزنطية)، وأعجب بجمالها ورشاقة قدها وحلاوة صوتها، فاتخذها عشيقته له. وعندما قرر أن يتزوجها واجه معارضة شديدة من أسرته، وكان قانون البلاد يمنع أن يتزوج أحد رجال الدولة من فتاة كانت تمثل على خشبة المسرح، أو كان ماضيها غير مشرف. غير أن جوستنيان عزم على تنفيذ رغبته، وسعى بحزم إلى تغيير القانون على أساس أنه مجحف بحق من يغير سلوكه ويتوب عن أفعاله.

ثم جلس جوستنيان على العرش من عام 527 حتى 565، واشتهر عهده

بالانتصارات العظيمة التي حققها قائده المشهور بليساريوس، وسن القوانين، وشيّد كنيسة القديسة صوفيا، وقبل كل ذلك تزوج تيودورا وأجلسها على العرش إلى جانبه، فبرهنت على أنها ملكة قوية مستبدة.

وكان للإمبراطورة صديقة تدعى أنطونينا، كانت ظروف حياتهما أثناء الطفولة متشابهة. فقد كانت أنطونينا تنتمي لأسرة فقيرة، كان أبوها يسوق المركبات الخفيفة. وكان لكل منهما ماضٍ تحاول إخفاءه، وكان الهدف الذي يجمع بينهما هو السعي وراء السلطة والمال والمتعة، والقضاء على كل من تسول له نفسه كشف الماضي أو الوقوف أمام رغباتهما وطموحهما. ومن جرؤ على ذلك وقد تزوجت إحداهما الإمبراطور والأخرى الجنرال العظيم بليساريوس الذي خاض حروباً عديدة وانتصر في معارك كثيرة ونال شهرة كبيرة. ومع ذلك فقد كان هدفه في الحياة يتلخص في الوفاء للإمبراطور أولاً، والإخلاص لزوجته، أنطونينا، ثانياً: وقد عاش حياته عطوفاً عليها، منقاداً لرغباتها، خاضعاً لسلطانها وسلطان سيدتها وصديقتها الإمبراطورة.

غير أن أنطونينا لم تقلع عن طيشها، ولم تتخل عن تهورها وخلاعتها. فاجأها الجنرال ذات يوم مع أحد الجنود في فراشه فثارت ثأرتة، غير أنها أقنعتة بأساليبها السحرية وحيلاها الشيطانية أنه لم يحدث شيء مما يتصور، وأن الأمر غير ما يظن تماماً، فعفا عنها. وظل بليساريوس يتلقى من حين لآخر أنباء تؤكد خيانتها له مع رجل يعرفه، لكنه كان يتردد في معاقبتها. وكانت أنطونينا تعرف نقاط ضعفه جيداً، وتستغل ذكاءها لتتلاعب بعواطفه. وكثيراً ما كانت الإمبراطورة نفسها تقف إلى جانبها فتبرئها مما ينسب إليها، وتأمره أن يصفح عنها ويصالحها. ومن جرؤ على عصيان أمر الإمبراطورة.

وحدث أن ابن أنطونينا نفسه (ابنها من زوج سابق) اكتشف خيانة أمه، فقرر أن ينتقم لشرفه وشرف زوجها الجنرال. وتعاهد الابن والزوج على

العمل يدا في يد من أجل الانتقام منها ومن عشيقها. ولكن اليد العليا في نهاية الأمر كانت للزوجة، وساعدتها الإمبراطورة على استعادة ثقة زوجها. بعد ذلك أعدت خطة محكمة للانتقام من ابنها، وممن أبلغوا الجنرال خبر خيانتها؛ وكان مصير هؤلاء أن أمرت رجالها بتقطيع أجسامهم إربا وربهم في البحر. أما ابنها فأذاقته الإهانة والعذاب في سجن مظلم، إلى أن نجح في الفرار بعيدا عن القسطنطينية.

وحدث أن اتهم الجنرال بليساريوس بالخيانة ومحاولة التآمر على الإمبراطور، (وربما كان ذلك مناورة للقضاء على شهرته) فتوسلت أنطونينا إلى سيدتها الإمبراطورة لتخفف العقاب عن الجنرال. وما كانت الإمبراطورة لتتخلى عن صديقتها وأمينة معظم أسرارها التي سبق أن قدمت لها خدمات لا تنكر. وتدخلت تيودورا لإصدار عفو عن بليساريوس الذي سرعان ما أفل نجمه، ونسيته الجماهير التي كانت تصفق لانتصاراته. ويروى أنه فقد بصره في آخر سنوات حياته، وعاش متسولا في شوارع القسطنطينية.

أما الإمبراطورة تيودورا، فبعد أن قضت سنوات طفولتها في الفقر والتشرد والخلاعة، وبعد أن أصبحت صاحبة الجلالة، فقد عرفت كيف تستغل ذكاءها ومركزها للتأثير على زوجها وعلى مجرى الأمور. وكان الإمبراطور يحبها ويقدر مشاركتها في حل بعض مشاكل الدولة، فسمح لها بأن تقوم بمهام في شؤون الإمبراطورية، وأن تسهم بآرائها في إصلاح شؤون المجتمع. وعملت الدعاية عملها فأضفت عليها صفات الطهارة والشرف والمجد.

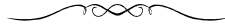
وبمرور السنين أصبحت ملكة مستبدة، لها سجونها وزبانياتها، تعاقب من يقف في طريقها، أو يحاول أن يكشف ماضيها بدون رحمة. وكان من ترميه في السجن لا يخرج منه بكامل عقله أو بدنه ولكنها إلى جانب هذا الطغيان الذي يعتبر جزءا من سيرة معظم الملوك، وقد كان لتيودورا سلطة تتجاوز أحيانا سلطة زوجها، فقد كانت من أعظم نساء الإمبراطورية البيزنطية، وكانت لها صولات

وجولات ومواقف مشهورة في القضايا الدينية، ودافعت بقوة عن الرأي القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة؛ واشتهرت بالدور الذي اضطلعت به في سن القوانين؛ وبدورها في إخماد ثورة كادت تقضي على عرش زوجها؛ ودافعت عن حقوق المرأة؛ وكان لها دور في توجيه سياسة الدولة البيزنطية.

وهكذا جمعت تيودورا بين الفقر والجمال والخلاعة في شبابها، وبين السلطة والذكاء وحسن التدبير وكثير من الحقد والانتقام خلال فترة نفوذها. ويبدو أنها تابت في السنوات الأخيرة من حياتها، وأنشأت عددا من مراكز الخدمات الخيرية، منها مركز جمعت فيه جميع العاهرات للعناية بهن. وقد أحبها الإمبراطور وأخلص لها طوال حياته، وكان حزنه عليها شديدا عندما توفيت سنة 548، وكان عمرها لا يتجاوز 48 سنة.



الإنسان والقلق



مقدمة



يأتي الإنسان إلى هذا العالم في شكل مادة خام، تشتمل على استعدادات عظيمة وقدرات كبيرة، تساعد على الحصول على حاجته. وأثناء نموه، تتطور هذه الإمكانيات والمواهب الكامنة، وتتفاعل مع عوامل عديدة، مثل الأسرة والمجتمع والثقافة والتعليم. فتزدهر هذه القدرات والمؤهلات وتنتعش وتتفتح، إن لاقى ظروفًا ملائمة، وتتخلص وتنكمش وتختنق أو تنحرف، إن لاقى في طريق نموها عراقيل شديدة وتجارب قاسية. وما أشبه هذه المادة الخام، في هذه الحالة، بالبذور التي تزدهر إذا وجدت الماء والنور والترية الصالحة، وتذبل أو تموت إن فقدتها.

ويسخر الإنسان منذ ولادته إمكانياته وطاقاته، لتحقيق حاجاته المادية مثل الأمن والغذاء، وحاجاته المعنوية مثل الحب والتقدير والتفوق. ولهذا يمكن تفسير سلوكه على ضوء استغلاله لما يملك من مواهب وقدرات للحصول على حاجاته المتنوعة، في إطار قدرته على التكيف مع الظروف، والمناورة للتغلب على الصعوبات والعراقيل التي تواجه سبيله.

فالحياة سعى مستمر في سبيل البقاء والتطور والانسجام والمتعة، والاستعداد لمواجهة أزمات الحياة وتقلباتها. وتبدو ضرورة التغيير والتلاؤم في جميع المخلوقات من الحشرات حتى الإنسان. فالمخلوقات الجديرة بالحياة، هي تلك الكائنات التي تملك من القوة والمرونة ما يساعدها على الحصول على حاجاتها، والتكيف مع متطلبات الحياة ومسايرة مقتضياتها.

وما ينفك الإنسان يسعى وراء هدف ما؛ وهو أثناء سعيه يمر بمراحل مختلفة. فقد يعقب الأمل صعوبات غير متوقعة، فتزداد الشكوك ويشتد القلق، وقد تتأرجح الكفة نحو الأمل أو اليأس، حسب شدة صعوبة العراقيل،

وقساوة الظروف التي تعترض سبيل الإنسان. وقد يكون القلق زائراً خفيف الظل كسحابة صيف سرعان ما تتبدد، وربما يكون عميقاً مستديماً. وكل ذلك يتوقف على الهدف المنشود، والفرصة الضائعة، والأمل المفقود؛ وعلى حزم المرء وسعة أفقه ومدى تمرسه بالحوادث، وما لديه من قدرات على مواجهة الشداد والعوائق.

وليس هناك موقف أو أسلوب محدد، يقال عنه إنه أنسب أنواع السلوك وأصلحها، في جميع المراحل والمواقف، سواء كان الوضع يتعلق بشخص أو جماعة أو شعب. ثم إن الناس طبائع ومعادن، منهم من يتمتع بشخصية قوية واستعدادات كبيرة، ومنهم من هو أقل حظاً. منهم من يلتزم بالواقعية، ويبتعد عن الشبهات والمغالات في تصرفاته، ويتجنب من السلوك ما يؤدي إلى هدر طاقته، والتفسير الخاطئ للحوادث. وتكون معاناة هؤلاء من القلق أقل من غيرهم، لأنهم يواجهونه بصفة واقعية مباشرة.

وليس جميع أنواع القلق مضرّة، بل إن قدرة الإنسان على الشعور بالقلق عملية بيولوجية ضرورية للحياة. وهذا هو القلق الإيجابي المفيد، الذي ينبه الإنسان إلى وشك حدوث تغيرات غير ملائمة في محيطه. أما القلق السلبي المضر فهو ما تجاوز الحدود، واستمر حتى في حالة عدم وجود أي خطر حقيقي على الإنسان.

إن الإنسان طاقة نفسية وبدنية دينامية، لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بالتفاعل مع الناس، ولا أن يحكم على نفسه إلا وهو مندمج ضمن البيئة الاجتماعية. فالمعايير التي يزن بها نجاحه أو إخفاقه، ويحكم بها على تصرفاته، تأتي بالمقارنة بما يفعله الآخرون.

ومهما طغى الوجود المادي على الإنسان، فإنه يظل واعياً أن لسلوكه وتصرفاته جوانب نفسية واجتماعية وأخلاقية هامة. وإذا كانت حياة معظم الناس تتسم بالسعي الدائم لحيازة المركز المرموق، والكفاح من أجل الرفاه

المادي، دون أن يعيروا الاهتمام الكافي للجوانب النفسية والمعنوية في الحياة، فالنضال المضي لتحقيق النجاح المادي يقتل الحياة الراضية المطمئنة في نفوسنا. وكلما زادت دوافع الإنسان وطموحاته نحو الكسب المادي والرقى في السلم الاجتماعي، زاد ضغط الحياة عليه، إلى أن تثقل نفسه وبدنه أعباء التوتر والضغوط المتواصلة. ولكن النجاح الحقيقي أشمل من ذلك وأعمق، فهو يتمثل كذلك في تحقيق الرضي النفسي والتوازن العاطفي.

وتهيمن الانفعالات، سواء كانت سلبية أو إيجابية، خفيفة أو عنيفة، على حياة الإنسان وتوجه تصرفاته وسلوكه. والمرء بدونها لا يمكن أن يظل إنساناً، لأنه لا يمكننا أن نتصور إنساناً لا يخاف ولا يأمل، ولا يحب ولا يكره، سواء كان الحب والخوف يتعلقان بأمور الدنيا، أو بحياة الجنة أو الجحيم في الآخرة. وقد كانت الانفعالات وما زالت تتحكم في وتيرة الحياة، وتؤثر في ما يبذل الإنسان من أعمال جليلة، وما يقترف من أعمال شريرة. ولهذه الانفعالات فضل في قدرة الإنسان على مواجهة مصاعب الحياة وأخطارها، بل لولاها لما استطاع أن يصمد في العهود الغابرة أمام الحيوانات المفترسة التي كانت منتشرة آنئذ. فانفعال الخوف مثلاً هو الذي يؤدي إلى عمليات كيميائية داخل البدن. فتزداد قوة العضلات وسرعة الأرجل وعمق التنفس، وكل ذلك يساعد المرء على مواجهة الخطر أو النجاة بنفسه.

والانفعالات هي استجابة البدن أمام مؤثرات البيئة. وإذا كان بوسع الإنسان أن يعبر عن انفعالاته أو يخفيها، فهو غير قادر على تغييرها كلياً. وعندما يحاول المرء أن ينكرها فهو ينكر نفسه وشخصيته، ولهذا كان الحل السليم هو قبول هذه الانفعالات والرضا بها، ومحاولة تخفيف وطأتها، وتوجيهها واستغلالها.

إن الخبرات الانفعالية في مستوياتها العادية جزء لا يتجزأ من حياة الإنسان. فهي تحفز صاحبها على النشاط، وتدفعه نحو الهدف المنشود بقوة

وحماس. فهي للإنسان مثل الزيت والملح والتوابل للطعام، بل أشد من ذلك تأثيراً. غير أنها إذا تجاوزت درجات معقولة وطالت مدتها، تصبح مثل السوسة التي تنخر الحياة وتحطمها تدريجياً. فقد يعاني المرء من القلق، والكآبة، والخيبة لحظة، وربما صحبته سنوات طويلة. وللإنسان في الحياة مطالب ورغبات، وحاجات، وأهداف وآمال، ودوافع، تحركه نحو الارتقاء وتحسين وضعه الفكري والمادي. وهو أثناء سعيه يواجه العراقيل والكوارث، ويعاني الأزمات والأمراض.

ويهدر المرء جزءاً كبيراً من طاقته، إذا كان يعاني من القلق والتوتر والارتباب والصراع، ويشعر بالتعب، ويفقد الاهتمام بعمله وبما يجري حوله، وبالحياة بصورة عامة. وربما أصبح عاجزاً عن اتخاذ القرارات اليومية، فيصاب بالحيرة والارتباك، ويصبح غير قادر على مواجهة متطلبات الحياة ومشاكلها، فينطوي على نفسه، ويزداد سخطه على العالم من حوله. ومتى وجدت هذه السمات في شخص، فهي دليل على نشوء المشاكل الانفعالية التي ينبغي البحث عن مصادرها، ومعالجتها قبل أن تحطم حياة الإنسان.

ولابد من الإشارة إلى بعض الحقائق ومنها أن الإنسان وحدة متكاملة لا تتجزأ، تتمثل في بدنه وتفكيره وانفعالاته. كما ينبغي التأكيد على التأثير المتبادل بين انفعالاته وبدنه، ومنها كون هذه الانفعالات، مهما تعددت وتنوعت، متداخلة متشابكة فيما بينها، وإنما يفصل بعضها عن بعض لتسهيل دراستها وتحليلها. ومنها اختلاف درجات الاستجابة للمثيرات، وردود أفعال الناس في المواقف المبهجة والمزعجة. فالإهانة التي تراق من أجلها الدماء في بلد ما، قد لا تثير إلا تعليقاً ساخراً في بلد آخر. وهذا يدل على مدى نسبية القيم الأخلاقية، واختلاف أحكامها من مكان إلى آخر. ولهذا ينبغي عدم المبالغة في التعميم، لأن لكل إنسان شخصيته المتميزة، كما لكل منطقة أو قبيلة حضارتها وثقافتها وتقاليدها.

ومع ذلك فإن كثيراً من الناس لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة، حقيقة الارتباط الوثيق بين الفشل والقلق والتوتر مثلاً، وبين ما يعانون من أعراض مرضية بدنية. ولكن الأطباء يؤكدون أن الذين يعانون اضطرابات بدنية، نتيجة المشاكل النفسية، يتجاوز عددهم نسبة 50 في المئة بكثير. وتشير جميع الوقائع إلى أن المرض العضوي يؤثر على حياة الإنسان العاطفية والفكرية، كما أن الانفعالات العاطفية السلبية العنيفة، تؤثر على صحة الإنسان تأثيراً سلبياً. فالشخص القلق، مثل الشخص الذي يعاني القرحة المعدية أو الصداغ، كلاهما يشعر بألمه ويواجهه بجسده وفكره معاً.

وما أشد الفرق بين الإنسان القوى السليم والرجل الصالح النشط الذي يخدم نفسه وأسرته والمجتمع، والشخص العليل المضطرب الذي يعيش وهو عبء على الجميع، يصاحبه الشعور بالخيبة والفشل. وتشير الإحصاءات إلى الخسائر الكبيرة التي يتحملها المجتمع، سواء كان المرض نتيجة أسباب عضوية أو نفسية. فإذا تغيب عن العمل خمسمائة ألف عامل في بلد ما مدة عشرة أيام في السنة فقط، يقل الإنتاج بمقدار خمسة ملايين يوم عمل. هذا بالإضافة إلى تكاليف الأطباء والأدوية والمستشفيات، وما تسببه الأمراض من اضطرابات في حياة الفرد وأسرته، وفي أنشطته الاجتماعية بصفة عامة.

وما لم يؤكد الطبيب بطريقة لا تدع مجالاً للشك، أن سبب الخلل البدني هو مرض عضوي، فلا ريب أن السبب هو مجموعة من العادات الانفعالية السيئة، التي تمكنت من الإنسان بمرور الزمن، وأصبحت تسيطر عليه. وهناك إشارات عديدة تنذر الإنسان بأنه ينحرف عن السلوك الصحي، مثل الشعور المفرط بالقلق والتعب والتوتر والكآبة أو العدوانية والفشل. ومما يؤسف له أن كثيراً من الناس يخفون اضطراباتهم النفسية، لأن المجتمع لا ينظر إليهم بعين العطف والاحترام، مثلما ينظر إلى من كسرت رجله أو أجريت له عملية جراحية.

ولهذا فإنه من الأساسي، أن يكون الطبيب قادراً على التمييز بين المريض الذي يعاني من الانفعالات السلبيهة، والمريض الذي يعاني ألاماً عضوياً. ومن الضروري كذلك أن يركز على وحدة الإنسان بدنأً وفكراً، وأن يكون ملمأً بالتغيرات التي تحدث في البدن، ومدى تأثيرها على الفكر، والعلاقات بين العمليات العضوية والنفسية. وقد أثبتت البحوث والتجارب بما لا يدع مجالاً للشك، مدى الارتباط بين الأزمات التي تجابه الإنسان في الحياة، وما تحدثه من هزات نفسية تقلق الإنسان، وتضعف مقاومته وتجعله عرضة للمرض. وأصبح من المؤكد الآن، أن الارتباط وثيق بين الانفعالات وما تحدثه من تغييرات فسيولوجية، وما ينجم عن هذه الأخيرة من اضطرابات مرضية عضوية. وقد أسهب الأطباء في الحديث عن طرق معالجتها، وهذا ما يدعى بالطب النفسي العضوي.

فالإنسان يتعلم منذ ولادته، بفعل ما يتعرض له من تجارب، التمييز بين المواقف التي تهدد أمنه وسلامته، والتي تجلب له الراحة والاطمئنان. وعندما يجد نفسه أمام مواقف خطيرة، يحصل توتر في بدنه، تنتج عنه استعدادات نفسية فسيولوجية تساعده على مواجهة الخطر أو الفرار منه. ولا يختلف الحيوان كثيراً عن الإنسان في مواقف الخطر. وذلك لأن الإنسان ما زال يحمل في رأسه ذلك الجزء البدائي من الدماغ الذي يشترك فيه مع معظم الحيوانات. وهذا الدماغ البدائي هو مركز الانفعالات، والمسيطر عليها والمحرك لها. أما الدماغ الحديث الذي يشغل معظم حجم الجمجمة، والذي تميز به الإنسان عن الحيوانات، فقد نما وتطور تدريجياً، إلى أن بلغ الحجم الذي نعرفه اليوم.

وعندما يشعر المرء بالاطمئنان والابتهاج، أو بالحزن والكآبة والخوف والعدوانية، يكون منبع جميع هذه الانفعالات هو الدماغ البدائي، وهو الجهاز الذي يعمل على حفظ التوازن الحيوي بين مختلف المواد الكيميائية

الموجودة في الدم، وهذا التوازن أساسي لاستمرار الحياة. إن الدماغ البدائي هو الذي ينظم عمليات التنفس، والهضم، ودقات القلب، وضغط الدم، ويحافظ على حرارة البدن في مستواها الطبيعي. وعندما يشعر المرء بالخطر، فإن هذا الدماغ البدائي هو الذي يدفع الغدد الأدرينالية لتصب مادة الأدرينالين في مجرى الدم، بهدف تحفيز الكبد على زيادة إفرازاته، والعضلات على مضاعفة نشاطها، كما يزيد سرعة التنفس ودقات القلب، لإمداد العضلات بالكميات اللازمة من الأوكسجين، والطاقة الضرورية التي تمكن الإنسان من مواجهة الخطر، والاستعداد للطوارئ، أو الهروب والنجاة منه إذا حتمت الظروف ذلك.

وليس من الضروري أن تتمثل مصادر الخطر في حيوان مفترس، أو عدو يحمل خنجرًا، أو سيارة تتجه نحوك بسرعة مرعبة. فالإنسان قوة دينامية تتفاعل مع قوى البيئة والأسرة والمجتمع، وتتأثر بما يتعرض له من تجارب وخبرات، وهو يخضع لما في بيئته من تقاليد وقوانين وأنظمة، أو يثور عليها. وهو أثناء حياته يتعرض لحوافز ومثبطات، وينال حظاً من التقدير أو العقاب، ويواجه كثيراً من المثيرات والمقلقات، والأوامر والنواهي، والعراقيل التي تقف أمام إشباع غرائزه، وتمنعه من بلوغ أهدافه. وهو في سعيه لتحقيق أمنه وسلامته، والحصول على السمعة والمركز، قد يلقى المنافسة والصعوبات. وجميع هذه الظروف والمواقف تعرضه لأنواع ومستويات مختلفة من الانفعالات الإيجابية، إن كلل سعيه بالنجاح، أو الانفعالات السلبية، إن كان مصيره الإخفاق. ولا شك في أن الإنسان في عصرنا يعاني من أخطار عديدة، تتمثل انعكاساتها في العدوانية والخيبة والقلق والعصاب وفقدان الأمن.

وما دام الإنسان علق بالحياة وعلقت به، فمن الحكمة أن يبذل جهده، ويعمل من أجل إصلاح حاله، واستغلال طاقته على أحسن ما يرام. والخطوة الأولى هي أن يتعرف على نفسه وإمكاناته وقدراته، ومصادر قوته ونقاط

ضعفه، ويعترف بأنه تعرض طوال حياته لعدد من الانفعالات السيئة، والعادات المضرة التي سيطرت على تصرفاته، ونغصت حياته وأنهكت قواه البدنية والمعنوية. وسواء انتبه المرء لهذه الحقيقة بعد عشر سنوات أو ثلاثين سنة، فإنه إما أن يستسلم لتلك العادات السلبية، ويرضى بنصيبه من الشقاء والتوتر وسوء المصير، أو ينهض لبداية حياة جديدة، ويستبدل تدريجياً بهذه العادات المزعجة والسلوك السلبي سلوكاً إيجابياً تغلب عليه انفعالات المحبة والاطمئنان والحماس والرضا، يخفف أعباءه ويسهل عليه الاحتفاظ بطاقته ومواصلة الحياة بطريقة أيسر وأفضل. ولا يجدي كثيراً أن يتحسر على الماضي، ويبكي على أخطائه أو فرصه الضائعة، وأن تستبد به أحزانه أو سوء مآله، بل لا يجدي كذلك المبالغة في التركيز على اكتشاف الحكمة وراء البؤس والظلم والشقاء وفقدان العدالة في هذا العالم.

يفتح المولود عينيه فيجد نفسه في أسرة سعيدة أو شقية غنية أو فقيرة، جميلاً سليم الخلق، أو قبيحاً ضعيفاً مشوهاً. وتزداد حيرته عندما يكتشف أن الفناء ينتظره في نهاية المطاف، وأنه لا ذنب له فيما ورث من مشاكل، ولا فضل له فيما ورث من مزايا. ولهذا فمهما بلغ الإنسان في حياته من العلم والتقدم، وحقق من عجائب المصنوعات، وأبدع من روائع المحدثات، فهو لا يقدر دوماً على شراء الهناء والسعادة والصحة، أو على تجنب الفناء، وعلى الرغم من أنه يؤثر على مجرى الحوادث فإنه يعرف أن حياته خاضعة في كثير من الأحيان لقوى خارجة عن إمكانياته وإرادته.

وتجدر الإشارة إلى أن النجاح الحقيقي لا يكمن فقط في اكتساب الشهرة والمركز، والسمعة والثروة والجاه، بل كذلك في الإنجازات الخلاقة التي تساعد المرء على بلوغ الرضا والاطمئنان، وتحقيق الذات والأهداف الإنسانية، مهما صغر شأن هذه الإنجازات وقلت فائدتها المادية. ومن دلائل النضج الفكري والسلوك الرشيد، أن يسعى المرء إلى اكتساب مجموعة من الأفكار

والعادات التي تساعد على أن يحيا حياة هادئة مطمئنة، وتقوده تدريباً نحو تحقيق ذاته، لعله ينعم بعيشة راضية مرضية.

ويشرح هذا الكتاب عدداً من الانفعالات السلبية الضارة ونتائجها، ويقدم بعض النصائح والإرشادات العامة التي تساعد على تخفيف وطأة القلق والتوتر النفسي، واستغلال القدرات الذاتية لمواجهة المشاكل النفسية. فهو إلى جانب التحليل النظري، يضم إرشادات وملاحظات عملية كانت ثمرة القراءة التي اتخذتها هواية في هذا المجال، منذ سنوات عديدة، وكذلك نتيجة ملاحظة سلوك الناس وحركاتهم وردود أفعالهم، والاستماع إلى أحاديثهم.

لقد بدأ اهتمامي بموضوع القلق صدفة. كان ذلك في عام 1972، عندما ذهبت ذات يوم لزيارة صديق يعمل في مكتبة الكونجرس، في واشنطن. كنت أبحث في درج البطاقات عن كتاب يتناول حياة النمل، لأنني شاهدت في اليوم السابق، على شاشة التليفزيون، شريطاً عن حياة هذه المخلوقات العجيبة. وبينما أنا أفتش عن كلمة ANTS، وقع نظري على بطاقة كتب عليها كلمة ANXIETY، وهي تعني القلق. وبمرور الأيام اكتشفت أن موضوع القلق بصورة خاصة، والانفعالات بصورة عامة، أشد صلة بحياتي، خصوصاً لأنني كنت أعاني من توتر شديد في عضلات الكتفين، فبدأت البحث في هذا الموضوع.

أمل أيها القارئ الكريم أن تجد بين صفحات الكتاب ما يساعدك على زيادة الوعي والاهتمام ببعض الحقائق في سلوكك، وعلى تقبل نفسك والرضا عنها، كخطوة أولى نحو الانسجام معها ومع من حولك، والاعتراف بكيانك كمخلوق مختلف عن بقية المخلوقات. ولعله سيساعدك كذلك على الاطمئنان الفكري والاسترخاء العضلي، إذا كنت من المتوترين المفرطين في الطموح، الذين لا يرضون عن أنفسهم مهما حققوا من أهداف، بدلاً من الاستمرار في خضم القلق والشعور بالخيبة والفشل.

الأزرق بن علو

طبيعة القلق

- لا توجد راحة الفكر الدائمة في هذه الحياة، لأن الحياة نفسها تتمثل في الحركة والتغيير، ولا توجد حياة بدون رغبات، ولا خوف، ولا قلق، تماماً كما لا توجد حياة بدون معنى .
HOBBS

- الحب والخوف لا يأكلان بملقعة واحدة . (مثل أسباني)
- على قدر إحساس الرجال شقاؤهم وللسعد جو بالبلادة مشرب
(إبراهيم عبد القادر المازني)

- وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا
(ابن المعتز)

- أرى العقل بؤساً في المعيشة للفتى ولا عيش إلا ما حباك به الجهل
(البحتري)

- المصيبة واحدة فإن جزعت كانت اثنتين.
(على بن أبي طالب)

- استراح من لا عقل له.

ما هي طبيعة القلق؟ هل هو استعدادات موروثية، يأتي الإنسان إلى هذا العالم مجهزاً بها عندما يولد؟ أم هو سلوك يكتسبه بمرور السنين؟ وكيف

نعرف القلق؟ هل هو نتيجة ذلك الصراع الذي يواجه الإنسان عندما يضطر للاختيار بين الاستجابة للرغبات والحوادث المثيرة، والامتثال للأنظمة السلوكية وضبط النفس؟ أم نعرف القلق بأنه ذلك الشعور الغامض الذي يستحوذ على المرء عندما يشعر بعدم الارتياح، وبأن شيئاً مكروهاً سيحدث وأن خطراً يهدد وجوده؟ وهل نعني بهذا الوجود وجوده العضوي فقط، أم العضوي والنفسي والمعنوي، أي جميع ما يؤمن به الإنسان من قيم وأفكار وتقاليد. أم نقول عن القلق أنه زيادة درجة الانتباه والحذر، عندما يشعر الشخص بهذا الخطر؟ هذا الانتباه الذي يزيد من استعداد المرء وحماسه لمواجهة المكروه. وفي هذه الحالة يكون للقلق خصائص الدوافع التي تهيب الإنسان وتحفزّه لمزيد من النشاط واليقظة، وتؤثر في ردود أفعاله.

وهل نعرف القلق بأنه حالة من الخوف الغامض المعمم، الذي تنتشر سحبه حول المرء، ويكون نتيجة عوامل عديدة وتجارب ماضية، تركت آثاراً سلبية في حياة الإنسان مثل الشعور بالذنب، والندم، وعدم الارتياح للمذات الحية، أم هو حالة من فقدان التوازن النفسي والبدني، بدرجة خفيفة، تثيره صراعات داخلية، وتكون نتيجة الاستثارات الانفعالية؟

وهل نعرف القلق على أساس التغيرات الفسيولوجية، وما ينتج عنها من توتر في جسم الإنسان، وردود أفعال الجهاز العصبي المستقل الأخرى، التي تصاحب الدوافع، مثل ارتفاع دقات القلب، وضغط الدم، والعرق، والصداع، والأرق، وعدم القدرة على التركيز، وارتعاش الأطراف، وغير ذلك؟ أي على أساس تصرفات الشخص القلق وحركاته التي يمكن معاينتها. وهل نكتفي بالتقارير والتحليل التي يقدمها الشخص القلق عن نفسه ويصف فيها ما يحدث داخل نفسه، وتفسيره لسلوكه؟ وهل يوجد تعريف واحد شامل للقلق؟ أم يعرف وفقاً لرأى الملاحظ، والموقف الذي يتخذه والنظرية التي يتبناها؟

وهل القلق هو الخطر نفسه الذي يحيط بالإنسان؟ أم يكمن في تفسير

الإنسان للخطر وطريقة تصوره له؟ صحيح أن القلق جرس الإنذار، لأنه ينبئ بفقدان التوازن في طريقة الحياة وأسلوبها، ويعني أن سلوك الإنسان القلق الذي يتبعه في معالجة ما يعترضه من مشاكل غير ملائم. إن الأجوبة والتعاريف متعددة، وهي تختلف باختلاف مفهوم القلق والنظرية التي يتبناها الإنسان.

وتأتي كلمة قلق في أصلها من *ANGUSTIA*، وهي تعني الضيق الذي يحصل في القفص الصدري لا إرادياً، نتيجة عدم قدرة البدن على الحصول على مقادير كافية من الأوكسجين. ويلاحظ أن الشخص إذا شعر أنه مهدد، يعيش في عالم معاد له ويتوقع مكروهاً، ينطوي على نفسه وتنكمش علاقاته مع المحيط، ومعنى هذا أنه سيعيش في عزلة وضيق، وهو إجراء اضطراري ليحمي نفسه من العالم المعادي. وهذا يشبه إلى حد كبير ضيق القفص الصدري لدى الشخص القلق، وشعوره أحياناً بالاختناق. فالشخص الذي يضيق تنفسه يبدو وكأنه يرفض أن يفتح نفسه للهواء الآتي من العالم الخارجي، وهذا ما يزيد في تركيز مشاعره حول نفسه ورفضه للمحيط الخارجي، وكأنه يعيش داخل قوقعة مجازاً وحقيقة. فبقدر ما تزيد درجة شعور المرء بالقلق، يزيد انطوائه على نفسه، وتصبح قوقعته هي عالمه بحدوده الضيقة.

وإذا كان هناك اتفاق بين علماء النفس على أهمية القلق ومدى تأثيره على السلوك، فإنه لا يوجد بينهم اتفاق فيما يتعلق بمسببات القلق ومصادره. ويلاحظ في هذا المجال تعدد النظريات واختلاف التعاليل والتفاسير.

فيرى فرويد أن الهدف الأساسي للأنا هو المحافظة على سلامة الذات واطمئنانها. وأن القلق الواقعي ينتج عن غريزة المحافظة على النفس، أما القلق العصابي فيحدث عندما تهدد النزعات الغريزية الكيان النفسي.

عندئذ ينهض الأنا للدفاع عن طريق الكبت، ولكن الكبت لا يخفي سوى الأفكار، أما الطاقة النفسية فتحتاج إلى تصريفها عن طريق القلق. ويقول فرويد، في نظريته الأخيرة عن القلق، إن الكبت ينتج عندما يحدث صراع نفسي يغمر الشخص الذي تتجاذبه النزعات الجنسية والرغبات الغريزية من جهة، ومطالب الضمير والحياة الاجتماعية من جهة أخرى. فيستنفر المرء وسائل الدفاع بما فيه الكبت. ذلك أن كبت النزعات الخطيرة التي يجرمها المجتمع، والدوافع والأفكار التي تشذّبها الأخلاق، يساعد إلى حد ما على تخفيف وطأة القلق والأزمات النفسية.

ويذهب العالم النفسي أدلر ADLER، إلى أن سعى الإنسان وراء التفوق يلعب دوراً هاماً في خلق القلق، يتجاوز في الأهمية مسألة النزعات الجنسية. وهو يرى أن هدف كل إنسان هو التفوق على غيره، وعندما يفشل سعيه يصاب بالقلق .

ويوافق جولد شتاين GOLDSTEIN مع كيركجارد وفرويد على ضرورة التمييز بين القلق والخوف، ويقول: " في حالة الخوف هناك رد فعل دفاعي مناسب، وهجوم أو فرار، أما في حالة القلق فتضطرب حركات المرء وتصرفاته، ويتدهور مستوى وعيه بالعلاقات بين الذات والأشياء المحيطة به".

أما كارن هورني K.HORNEY ، فتري أن نظرية فرويد لا تولى العوامل الاجتماعية الأهمية التي تستحقها، وتقول إنه لا يمكن إدراك طبيعة القلق دون فهم الظروف الاجتماعية التي ينشأ فيها. وهناك من يؤكد نظرية الشعور بالذنب مثل مورير MOWRER ، ويرى أن القلق لا ينتج عن الأعمال التي يرغب الإنسان في ارتكابها، ولكنه لا يجرؤ على ذلك، مثل العلاقات الجنسية المحرمة؛ بل ينشأ عن الأعمال التي فعلها وندم على فعلها. ومعنى هذا أن الإنسان يثور على مطالب الضمير وسيطرته، لا ضد مطالب الغريزة.

ويقول ه.س. سوليفيان H.S SULLIVAN : إن أهم مصدر للقلق هو

الفشل في العلاقات الإنسانية. فالأطفال الذين يعانون من الرفض والحرمان في علاقاتهم مع الأبوين والأشخاص المهمين في حياتهم، معرضون للقلق أكثر من غيرهم. أما كارل روجرز CARL ROGERS، فيعتقد أن رغبة النمو كامنة في كل إنسان، ويصاب المرء بالقلق عندما لا تتوافر لديه فرص النمو والارتقاء. وهناك نظرية أخرى ترى أن القلق هو الحالات الفسيولوجية، مثل ارتفاع دقات القلب وضغط الدم وغير ذلك، التي تخلق التوتر لدى الإنسان، وأن هذه الحالة الفسيولوجية تصاحب ظهور الدوافع المحرمة التي تخلق الصراع النفسي. وتذهب نظرية أخرى إلى أن القلق في جوهره استجابات يتعلمها الفرد من التجارب المزعجة التي يمر بها. فالطفل الذي يتعرض لخبرات مزعجة يلجأ إلى التعميم، ويخاف من المواقف والحوادث التي تشبه التجارب المخيفة التي عانى منها. ويرى الفيلسوف كيركغارد KIERKEGARD أن منبع القلق عند الإنسان يكمن في قدرته على الاختيار. فالإنسان يملك حرية التصرف، ويواجه عدداً لا يحصى من الاختيارات، وهذا هو منبع قلقه.

ونحن نلاحظ في الحياة اليومية أن الإنسان يشعر بمسؤولية عندما يواجه مسألة اختيار مهنته، أو زوجه، أو موقفه تجاه شخص أو فكرة أو حادثة مهمة. فمن مميزات الإنسان وعيه لوجوده وفنائته، وإمكانيات الاختيارات المتوافرة أمامه. وهذه الإمكانيات تعني الحرية التي يتمتع بها المرء في اختيار تصرف دون آخر، واختيار الفعل أو عدم الفعل. ويكون هدف الحرية عادة تنمية شخصية الإنسان من الناحية المادية والروحية. وقدرة المرء على وعيه لهذه الحرية المتمثلة في تعدد الاختيارات عنصر من عناصر القلق لديه. وقد يمر الإنسان أثناء مختلف مراحل نموه بأزمات ويواجه تحديات وصراعات. وهو في كل ذلك مضطر إلى الاختيار بين هذا النوع من التصرف أو ذاك، بين الطاعة والثورة، بين مسايرة متطلبات العائلة والمجموعة أو تحديها، بين الخير والشر. ولكن إمكانيات الاختيار هذه تجعله يشعر بالمسؤولية، لأنه

يحيا وسط مجتمع يراقبه ويحاسبه، ويرضى عنه أو يعاقبه.

فالمرء ما دام حياً سليماً مدفوع بقوة الحياة لأنه ينمو ويتعلم ويلعب ويعمل ويحب ويكره ويتقبل أفكاراً ويتبنى آراء من نوع أو آخر. وكل هذه الأنشطة، بدنية كانت أو روحية وفكرية، تكون في البداية جديدة على الإنسان الطفل والشاب والراشد، وحتى الموت يظل المرء يلاقي ويجابه أشياء جديدة في حياته. وبما أن جميع هذه الحوادث والمواقف والتصرفات الجديدة تتضمن اختيارات، وهذه الاختيارات تحمل الإنسان مسؤولية، وتسبب له التردد والحيرة، فهي تفسر جزءاً كبيراً من طبيعة القلق.

كما أن حرية الإنسان وقدرته على الاختيار، تعني قدرته على الخلق والإبداع والتجديد، وكلما زادت إمكانيات المرء في هذا المجال زاد قلقه، لأن النمو والابتكار والارتقاء يتطلب توسيع مجالات الاختيار، وهذا يستدعي نوعاً من التحدي والمغامرة، وكل ذلك يساعد على تفسير القلق.

وقد قام علماء النفس بتجارب عديدة متنوعة، على القرود والفئران والكلاب وغيرها، لاكتشاف طبيعة القلق وطرق معالجته. غير أن النتائج لا يمكن أن تطبق بحذافيرها على الإنسان. ومما يعيق مزيداً من التقدم في هذه البحوث أن العلماء لا يستطيعون إخضاع الإنسان، إخضاعاً كاملاً، طفاً كان أم بالغاً، لظروف اصطناعية في المخابر أو معامل التجارب، مثلما يخضعون بقية الحيوانات. كما أن الباحث لا يقدر على تتبع حياة الطفل بدقة وموضوعية علمية، ما دام هذا الأخير يواصل حياته العادية تحت ظروف معقدة، وعوامل تتغير باستمرار.

ولهذا ما زالت النظريات الصادرة عن المخابر محرومة من العنصر الأساسي الذي هو مشاركة الإنسان كمادة للبحوث. ومهما كانت النتائج التي توصل إليها الباحثون في ميدان القلق، وما يتصل به من دوافع وغرائز إنسانية، باستخدام الحيوان، فإن هذه النتائج لا تنطبق بالضرورة على دوافع

الإنسان المعقدة.

وبينما يمكن القول إن قلق الإنسان يبدأ، مثل القلق لدى القرد مثلاً، عندما يعجز عن إشباع حاجاته، ويزداد شدة بازدياد الحاجة، أو عندما يكتشف عجزه عن إيجاد الوسائل لحل مشاكل الإشباع، فإن التشبيه يقف عند هذه الحدود. إن من أهم الأهداف التي يسعى إليها الإنسان طوال حياته هي أن يجد التعاطف والتفاهم والتقدير لدى أخيه الإنسان. وينتج معظم القلق لدى الإنسان عندما يفشل في تحقيق هذه الأهداف، أكثر مما ينتج عندما يعجز عن إشباع حاجاته البيولوجية.

أسباب القلق (*)

- في وسع العقل وهو في مكانه مقيم، أن يخلق جحيماً من الجنة أو جنة من الجحيم.
MILTON

- ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

(المتنبي)

- تقل دواعي النفس وهي ضعيفة وتقوى هموم القلب وهو مفامر

- لا تعبر الجسر حتى تصل إليه.

- ومعظم النار من مستصغر الشرر.

- من علت همته طالت همومه.

- الأشجار العملاقة تنبت من بذرة صغيرة.

- لا تلم الإله لأنه خلق النمر، بل احمده لأنه لم يجعل له جناحين .

J.FAIOVICH

(*) راجع طبيعة القلق ص 77.

إن الحياة تسعى مستمر في سبيل التطور والانسجام والحصول على المتعة، والاستعداد لمواجهة مشاكل الحياة ونقلباتها. وتبدو ضرورة التغيير والتلاؤم في جميع المخلوقات من الحشرات حتى الإنسان. والمخلوقات الجديرة بالحياة هي تلك الكائنات التي تملك من القوة والمرونة ما يساعدها على التكيف مع متطلبات الحياة ومسايرة مقتضياتها.

وما ينفك الإنسان يسعى وراء هدف ما. وهو أثناء سعيه يمر بمراحل مختلفة. فقد يعقب الأمل صعوبات غير متوقعة، فيزداد الشك والقلق، وقد تتأرجح الكفة نحو الأمل أو نحو اليأس، حسب شدة العراقيل وصعوبة الظروف التي تعترض سبيل الإنسان. وربما كان القلق زائراً خفيف الظل، كسحابة صيف سرعان ما تتبدد، وقد يكون عميقاً مستديماً. وكل ذلك يتوقف على الهدف المنشود، والفرصة الضائعة، والأمل المفقود، وحزم المرء وسعة أفقه، ومدى تمرسه بالحوادث، وعلى رصيده البيولوجي وظروف تربيته وحظه في الحياة.

وليس هناك موقف أو سلوك محدد، نقول عنه إنه أنسب أنواع السلوك وأصلحها في جميع المراحل والمواقف، سواء كان الوضع يتعلق بشخص أو جماعة أو شعب. إن الناس طبائع ومعادن، منهم من يتمتع بشخصية قوية واستعدادات كبيرة، ومنهم من هو أقل حظاً. منهم من يلتزم الواقعية ويبتعد عن الشبهات والمغالاة في تصرفاته، ويتجنب أنواع السلوك التي تؤدي إلى هدر طاقاته؛ وتكون معاناة هؤلاء من القلق أقل من غيرهم، لأنهم يبتعدون عن تفسير الحوادث تفسيراً خاطئاً ويواجهون القلق بصفة مباشرة.

إن القلق قديم قدم الإنسان، ومن الناس من لا يعرفون أن ما يشعرون به من عدم الارتياح والضيق، والانفعال وحدة الطبع، هو نتيجة القلق. ولكن علاماته لا تخفي وإن اختلفت درجاته. فالقلق يصيب جميع الطبقات والفئات صغاراً وكباراً، نساء ورجالاً، الأغنياء منهم والفقراء. ونلاحظه لدى

رجل الأعمال المذموم في منافسة ذوى مهنته، ولدى الموظف الطموح الذي يهمل واجباته نحو عائلته، والمعلم الذي لم يعد يتحمل مهنته، والتلميذ الذي يدرس لإرضاء أبويه طوراً ويفر من المدرسة أحياناً، والرجل الذي أصابه مرض مزمن في الوقت الذي كان يستعد فيه لتحقيق مشاريع هامة، ولدى الفتاة التي خابت في زواجها فتبددت أحلامها عندما علمت أن زوجها يخونها، وأصبحت مضطربة حائرة بين الاستسلام والرضا، ومغادرة بيتها أو معاملته بالمثل. فالخيبة والصراع والفشل، وفقدان الأمن، والشعور بالضعف والإهانة، وغيرها من المشاعر السلبية كلها تسبب القلق. ويزداد مستوى شعور المرء بالقلق بزيادة إحساسه بالحياة وتعمق شعوره بما يجرى حوله.

ومما لا شك فيه أن أحد مصادر القلق الهامة هو كون الإنسان كائناً مفكراً واعياً لوجوده وفنائه. فوجود الإنسان مصدر لقلقه. ولا يسلم من القلق إنسان على ظهر البسيطة. فالحياة الواعية تعني القلق. وإنما الفرق بين الناس في درجة القلق الذي يصابون به، ومدى قدرتهم على تحمله، وردود أفعالهم في هذه المجالات.

ويؤكد بعض العلماء مدى تأثير الوراثة على نوع القلق وشدته. فالمولود يأتي إلى العالم وهو مزود بقبليات واستعدادات متنوعة، منها ما يجعل بعض الناس أقدر على تحمل الأمراض ومواجهة التجارب الشديدة، ومنها ما يؤهل آخرين للوقوع فريسة لعدد من الاضطرابات البدنية والنفسية. وما زال البحث العلمي في هذا المجال مستمراً.

والقلق السلبي المرضي مهما كانت مصادره هو علامة العصاب التي لا تخيب. وأغلب البالغين العصبيين كانوا أطفالاً يعانون من القلق. وحتى عندما يحاول الشخص كبت قلقه فإنه يظهر في شكل اضطرابات نفسية بدنية لا يمكن إخفاؤها. غير أن مسببات القلق لا تقتصر على مرحلة معينة من حياة الإنسان، فنقول عن مراهق تجاوز مرحلة الطفولة دون مشاكل، أنه

سيعيش سليماً هنيئاً، ولن يعرف القلق إلى نفسه سبيلاً. كلا، إذ قد ينشأ القلق في أي وقت تكون فيه حياة الفرد معرضة للخطر الغامض الذي يهدد كيانه دون أن يعرف معالمة وحدوده، ومن غير أن يقدر على مواجهته، سواء كان يهدد أمنه وكرامته أو مثلاً علياً يؤمن بها وأفكاراً ومبادئ يعتبرها أساساً لحياته.

وقد ينشأ القلق النفسي عندما تنزع الغرائز القوية، مثل غريزتي الجنس والعدوانية، نحو التحقق ويعجز الفرد عن كبها. فالمجتمع يمنع الإنسان من إشباع مثل هذه الغرائز، ويحدد أنواعاً من العقوبات المادية والمعنوية للمحافظة على مستويات مقبولة من السلوك. ويجد الإنسان نفسه بين تحدي قوانين مجتمعه المحلي وأنظمتة، مع ما يترتب على ذلك من عقاب، وكبح جماح غرائزه واحترام هذه الأنظمة ليجنب نفسه مغبة الأزدراء والحرمان والإهانة. ومن المعروف أن الهدف الأساسي الذي يوجه سلوك الإنسان طوال حياته هو تجنب الألم والحصول على اللذة .

وقد تختلف المعايير من شخص إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، حول ما يعتبره البعض لذة مباحة ويراه الآخرون أمراً مرفوضاً وقبيحاً. كما تختلف المعايير الشخصية حول نوع المتعة ودرجاتها الدنيا والقصى التي يتوقف عندها الشخص. ويظهر هذا التباين في الحكم بالنسبة لأنواع هامة من السلوك، كاستعمال المخدرات وتعاطي الخمر، وإباحة العمليات الجنسية المحرمة، وغيرها من الأعمال التي ترفضها بعض المجتمعات وتعاقب عليها، وتعتبرها مجتمعات أخرى سلوكاً فردياً مباحاً ما دام لا يضر بالمصلحة العامة.

أما معايير الألم ومستوياته فتتقارب إلى حد كبير. فكل ما يهدد وجود الإنسان مصدر للألم والخوف والقلق. وإذا كان التهديد صادراً عن تأنيب الضمير ومحاسبته أدى إلى القلق المرضي، وإذا كان التهديد يمثّل خطراً ملموساً ومباشراً، كأن تجد أفعى في فراشك، أو تدخل سيارتك فتجد شخصاً

داخلها شاهراً مسدساً نحوك، أدى إلى الخوف الطبيعي المقبول.

ولكن للذة والألم مدلول أعم وأشمل. فالحرمان من شيء محبوب ألم، وفقد شخص عزيز كذلك. وفي الحقد والاعتداء والغيرة ألم لأنها تخالف أحكام الضمير. وكذلك في مساعدة المريض لذة، وفي فقدان العطف والمحبة ألم، وفي وجودهما لذة. في الحيرة والتردد والمرض ألم، وفي الاطمئنان والصحة لذة. فالفتش ألم والنجاح متعة وبهجة.

ومن مسببات القلق أن يتبنى المرء معتقدات متناقضة، أو مخالفة لسلوكه الظاهري، كأن يظهر الإيمان والتمسك بالأخلاق والالتزام بالأنظمة والتقاليد، فيعتقد الناس فيه الخير والصلاح، وإذا خلا إلى نفسه أطلق العنان لنزواته، وارتكب ما يخالف هذا السلوك، وكأنه شطر نفسه شطرين: نصفها يعرض على الناس مخادعة، ونصفها يمثل حياته السرية الحقيقية. وهذه الهوة التي تفصل بين ظاهره وباطنه تكون مصدراً للقلق الأخلاقي. وهكذا لا بد من حد أدنى من الانسجام النفسي، وتقبل الذات والرضا عن النفس، ليتمتع المرء بالاطمئنان والصحة الفكرية والبدنية.

إن الإنسان طاقة نفسية وبدنية ديناميكية لا يمكن أن يحقق ذاته إلا بالتفاعل مع الناس، ولا أن يحكم على نفسه إلا وهو مندمج ضمن البيئة الاجتماعية. فالمعايير التي يزن بها نجاحه وإخفاقه، ويحكم بها على تصرفاته تأتي بالمقارنة بما يفعله الآخرون. وإذا كانت العزلة مقلقة ومزعجة، فإن الحياة وسط مجتمع عبء لا يستهان به. ونحن نلاحظ أن الحياة الاجتماعية تزداد تعقيداً، ويزداد شعور الإنسان بأنه ليس سيداً لمصيره، وأن وجوده مهدد بعوامل لا سلطان له عليها، وأنه مدفوع نحو الحصول على المزيد من كل شيء. تسود هذه الحمى المجتمعات المتقدمة اقتصادياً بصورة خاصة، وقد غزت بلاداً أخرى. فأصبحت قيمة الإنسان تقاس بما يملكه من مال ومركز.

وبما أن الإنسان في حاجة إلى تقدير الناس ونيل إعجاب الآخرين واحترامهم، فإنه يجد نفسه مندفعاً في وسط هذا الخضم التزاحمي الذي يشجع الطموحات التي لا نهاية لها. ويندفع الأفراد اندفاعاً نحو إنجاز الأعمال الكبرى، وهذه لا تتحقق إلا بالتسابق والتنافس، وكثيراً ما يتحدى هذا التنافس القيم الإنسانية فيتبع سياسة " الغاية تبرر الوسيلة "، ويصبح دور التاجر والصانع وصاحب النفوذ أن يحققوا أهدافهم مهما كانت النتائج. إن ما نشاهده من تسابق واندفاع نحو المزيد من الكسب والاستهلاك المادي، نحو " الكمال "، دون هوادة، يسبب توتراً في سلوك الإنسان وحياة العائلة اليومية، ويؤدي إلى إهمال العلاقات الإنسانية المبنية على القيم الروحية. وكفى بذلك مصدراً للشقاء والقلق. وكثيراً ما تكون نتيجة هذا التسابق، الخيبة والفشل وهما مصدر غنى بمشاعر القلق. فالخيبة تحدث ثورة جامحة في نفس الإنسان. ولا يثور المرء على نفسه فحسب، بل وعلى عائلته وما في مجتمعه من أنظمة وقوانين، مادية كانت أم معنوية. وحتى في انزواء الفاشل وعزلته، ثورة يُعبر بها عن سخطه على حمى التنافس الإنساني، وانسحابه من ميدانه البغيض.

فكم من أهداف ورغبات لم تتحقق بسبب المستويات العالية المطلوبة التي يفرضها المجتمع. وكم من أحلام تحطمت أمام الشروط والمعايير القاسية، وتحطمت معها نفوس لا ذنب لها إلا أنها لم تكن قادرة ولا معدة لتلبية المتطلبات؛ وكان نتيجة ذلك القلق. ويصدق ذلك على طفل لم ينجح في امتحاناته، وعلى شاب لم تتوافر لديه إمكانيات زواجه بفتاة أحلامه. وعلى رجل أعمال لم يقدر على منافسة الآلة، وعلى زوجة لم تحصل على الهدايا والمزايا التي حصلت عليها جارتها، وهلم جرا.

فمهما بلغت النزعة نحو الكمال، لا بد من استعمال التعقل وتحكيم المنطق، لكبح جماح المنافسة المضرّة ومنح الفرص للجميع. والواقع أن

القدرات متفاوتة، محدودة عند البعض وغزيرة عند الآخرين. صحيح أن كل إنسان يتمتع بقدرات فكرية جبارة لا يستغل منها إلا نسبة ضئيلة أثناء حياته، فتدفن معه دون أن يستفيد منها. غير أن ذلك لا يجدي معه الضغط والتنافس، ولا يكفي فيه انتشار حمى الإنجازات الكبرى في مجتمع ما. ويلاحظ أن البلدان التي يسيطر عليها التسابق دون رحمة ولا هودة، مثل الولايات المتحدة، تعاني من أكبر نسبة من المصابين بالأمراض النفسية.

ويلجأ بعض الأشخاص كثيراً إلى مقارنة أنفسهم بغيرهم. وإن كانت هذه المقارنة تفيد أحياناً في توضيح بعض المزايا والخصائص، وتحديد بعض المواقف، فإن المبالغة فيها خطأ بيّن. إنك شخص فريد من نوعك، لا يوجد شخص آخر في العالم كله يشبهك في كل شيء. فأنت نتيجة وراثية وظروف عائلية محيطية خاصة، خلقت لديك قدرات واستعدادات لا يمكن أن يشابهك فيها أي إنسان آخر حتى أخيك. وتسير حياتك على درب وفقاً لصدف الاحتمالات قد تجعلك أحسن أو أتعس خطأً من صديقك الذي تخرج من دورتك، بعد أن قضيتما في نفس المدرسة والجامعة عشرين سنة. لذلك لا ينبغي التركيز على ما نال صديقك وما خس، وما أضعت أنت وما ربحت، فإن المقارنة قد تحفز أناساً وتزيدهم حماساً، أو تملأ نفوسهم بالغيرة والخيبة والحقد، وتُضيع عليهم ما لدّ مما لديهم من طيبات الحياة. فأنت لست في حاجة إلى أن تكون مديراً كبيراً، أو تملك حساباً ضخماً، أو منزلاً على الشاطئ لتتمتع بنوم عميق، وفسحة جميلة، وأكل لذيذ، أو لتسعد بمحبة أهلك ورفاقك.

وينبغي الانتباه بهذا الصدد إلى التمييز بين القلق العادي المحفز والقلق العصابي المرضي. وسواء كانت مصادر القلق تأتي من المحيط الخارجي، أو تنبع من داخل الذات، فإن كل تجربة فيها من القلق بقدر ما فيها من الجدة والمغامرة. فأول علاقة حب، وأول سيارة تسوقها، وأول

امتحان مهم تشترك فيه، وأول مباراة تشترك فيها، تسبب لك مقداراً من القلق المحفز يشدد أو يخف حسب أهمية الموقف ومدى استعداداتك.

ومن مصادر القلق المرضي تلك الأفكار والمشاعر المكبوتة، والخيالات والتصورات الشاذة، والذكريات اللاأخلاقية التي تترك شعوراً بالذنب وامتعضاً في الضمير، أفكار يشعر حاملها أنها مكروهة أو محرمة. وكل نشاط بدني أو فكري مخالف للتقاليد والنظم الأخلاقية المتعارف عليها في مجتمع ما، من شأنه أن يقلق راحة صاحبه النفسية، ويحطم هدوءه وثقة الناس به. ويحاول المرء أن يُبقى هذه الأعمال والأفكار المنوعة سرية، وهذا يكلفه جهداً ويستحوذ على اهتمامه، ويحول جزءاً من تركيزه الخلاق إلى حماية نفسه من التهديد الداخلي والخارجي، وبذلك يزيد توتره وانطوائه وتقل فعاليته وإنتاجه.

ولا حاجة هنا إلى التأكيد على الدور الهام الذي تلعبه الغريزة الجنسية في حياة الإنسان، إذ أنها من أقوى الغرائز وأشدّها عناداً وأكثرها اتصالاً بالحياة العائلية والاجتماعية. لهذا يلاحظ أن المجتمعات في أغلب الأقطار والأمصار، تحرص على وضع حدود وأنظمة لتقنين العلاقات الجنسية، وتحديد مسؤولياتها. ويظهر القلق الناتج عن الكبت الجنسي خاصة لدى المجتمعات التي تتشدد فتفرط في منع الاختلاط، وتركز على العقاب لمنع السلوك " اللاأخلاقي "، بدلاً من الاعتماد على التربية والنصيحة والإرشاد والإقناع. وبما أن المسائل الجنسية ومشتقاتها محاطة بسحابة من الغموض، فهي تظل لغزاً يزيد الشباب والفتيات رغبة في التطلع إلى معرفة ما وراءها من أسرار ومتعة.

وبما أن النشاط الجنسي شديد الاتصال بالنظم الأخلاقية والدينية، فإنه يجعل من يتعدى حدوده يشعر بالعار وتوبيخ الضمير، ويحاول إخفاء الحادث وكبت التجربة ونسيانها. غير أنه لا يمكن أن تمحي التجربة

الإنسانية محوًّا كاملاً، فيظل أثر الكبت يلازم صاحب التجربة في شكل قلق. ويظهر هذا القلق في تصرفات متنوعة قد تتمثل في أنواع الحيل الدفاعية المعروفة بـ "الفوبيا" مثل الخجل أمام الجماهير، والخوف من الأماكن الضيقة أو العالية، ونسيان بعض الأشياء، والمبالغة في غسل اليدين، إلى غير ذلك من النتائج التي سيأتي الحديث عنها في المكان المناسب.

والسبب في ذلك واضح، إذ أنه أسهل على المرء أن يغسل يديه عشر مرات يومياً، من أن يحمل عبء القلق، فكأنه قام بعملية تكفير وتعويض، وبصفة لا شعورية، عقد صفقة مع الضمير مفادها: بما أنني فعلت كذا وكذا من الأشياء الممنوعة التي تجلب سخط الضمير والناس والقلق، فإنني مستعد للقيام بأنشطة أخرى، أو التخلي عنها، بقصد تخفيف عبء القلق ومحاسبة الضمير.

إن الإنسان لا يرغب في مواجهة جميع الناس بمساوئه التي يمكن إخفاؤها، مثل الأفكار العدوانية والنزعات الجنسية والدوافع الأخرى المكروهة. لأن ظهور العيوب والتصرفات اللاأخلاقية يفقده الاحترام. فهو يفضل أن يكبت ما من شأنه أن يزعجه ويضر بسمعته، والكبت مصدر للقلق. فإذا فكر شخص في ارتكاب عملية جنسية محرّمة، أو خطط للإيقاع بجاره للاستيلاء على منزله، فإنه لا يؤذن في الناس بذلك. بل مجرد التفكير فيه يبعث بإشارات خطر تنبئ من داخله وتنذر قائلة: ستعاقب، ستفقد مركزك، ستصبح منبوذاً ...

ولا يحيا الإنسان ولا ينتعش إلا في وسط الجماعة. لذلك يشعر بالقلق عندما يقوم بأنشطة أو يدلي بأقوال تجلب له نقمة الجماعة، وتوبيخ الضمير وملاحقة القانون. فالقلق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتقدير الذات. والشخص الذي يعاني من القلق يقاسي كذلك من فقدان تقدير الذات، أو من الخوف من ذلك. وهذا يظهر مرة أخرى مدى أهمية آراء الناس فينا، وتأثير حكمهم

علينا. ولذلك كان للانتقاد والرفض تأثير سلبي علينا، وخاصة عندما يصدران من الأشخاص المهمين في حياتنا. ويعطي كثير من علماء النفس أهمية كبرى لعلاقتنا مع الناس في نشأة القلق منذ الولادة إلى أن يترك الإنسان هذا الوجود .

وهكذا يبدو بوضوح أن القلق لا يصدر عن سبب واحد، وأنه ليس مرضاً محدداً يمكن القضاء عليه بالجراحة والأدوية. وهو ليس فقط نتيجة تجارب مؤلمة حدثت في الماضي البعيد (فترة الطفولة)، وظلت مكبوتة، لذلك يكفي إخراجها إلى حيز الوجود وميدان الشعور لحل اللغز، فيرتاح الإنسان ويشفى من القلق.

إن القلق كالنهر الذي له منابع عديدة، وتتوقف قوة النهر وغزارة مياهه واستمرارها على مصادر المنابع وغزارتها. والقلق ينبع من حياة مرت بظروف قاسية وعانت من تجارب مؤلمة، أو لاحقت بعناد أهدافاً غير واقعية أو متناقضة. وينتج كذلك عن إتباع المرء سلوكاً يتنافى مع الشرائع والأنظمة السائدة التي يعتز بها المجتمع، أو تبنيه صورة نفسية لا تمثل حقيقة إمكانياته وقدراته، ولا تتناسب مع مؤهلاته، أو عندما يعاني المرء من صدمات وأزمات، ويصادف عراقيل ومثبطات أينما اتجه، وحيثما حل وارتحل، أو يكون قد جاء إلى هذا العالم، لسوء حظه، غير مزود بالعدد والقدرات الكافية للحياة، كأن تجعله استعداداته منذ مطلع حياته حساساً ضعيفاً عصيباً متشائماً، أو غير ذلك من الأسباب.

وقد ينتج القلق عن صراع نفسي مصدره الدوافع الفردية، كالغريزة الجنسية مثلاً، أو عن صراع مصدره العراقيل الاجتماعية والمحيطية. ويكون الأول أعمق وأشمل من النوع الثاني. والصراع الداخلي بين رغبتين يخلق لدى المرء حيرة عندما يعجز عن تحديد أيهما أقل خطراً، أو يصاحب هذا الصراع الخوف من العار، أو من عذاب الآخرة، أو من عقاب السلطات التي يهملها

الأمر. وكل ذلك يؤدي إلى الشعور بالفشل والقلق. فإذا نفذ الفرد رغباته وهو شاعر بمناقضتها للأخلاق يظل قلقاً، ولو حاول إظهار عكس ذلك. وإن كتبها فقد تكون عاقبة ذلك وخيمة.

ومن مصادر القلق تلك المواقف والحالات التي يتوقع فيها المرء مكروهاً أو تغييراً مهماً في حياته، ولكنه يجهل مصيره، ولا يعرف الاتجاه الذي سيأخذه هذا التغيير. والانتظار في مثل هذه الحالات عناء يعرفه كل من تحمله. فالمريض الذي ينتظر أن تجري له عملية لا تعرف نتائجها، والجندي الذي يتوقع هجوماً لا يعرف متى يحدث، والسجين الذي ينتظر حكماً يجهل مضمونه، والمرأة التي سيق ولدها أو زوجها للحرب، أو اختطفت ابنتها، قد يبلغ بهم القلق أن يعلنوا عن استعدادهم لتحمل أسوأ النتائج ليتخلصوا من مشقة الانتظار.

وهناك أسباب أخرى تقلق الإنسان وتعكر صفو حياته، فإذا كنت تقوم بعمل تمقته، وتكره من يعملون معك، أو كان لك جار قوي متجبر يظلمك ويسيء إليك، دون أن تجد طريقاً للخلاص منه، أو كنت مضطراً للعيش مع قريب له لسان حاد، وطباع تغاير طباعك، أو اضطررت للقيام بأعمال تخالف مبادئك ومعتقداتك، فإن كل ذلك يجعلك قلقاً متوتر الأعصاب.

ونجد بعض الأشخاص يوجهون جميع عنايتهم إلى أفراد عائلتهم والأهل والأقرباء، ويبالغون في الاهتمام بخدمة غيرهم لدرجة إهمال أنفسهم. ومثل هذا التصرف لا يدل دائماً على الإيثار الممدوح أخلاقياً. بل قد يمثل نزعة مرضية نحو التضحية تؤدي إذا استمرت طويلاً إلى سخط المرء على نفسه وعلى أولئك الذين فضلهم عليها. وكأن هدف هؤلاء الذين يبالغون في إيثار الآخرين، هو تعذيب أنفسهم والتكفير عن شعورهم بالذنب. فهم يرغبون في أن يسترعوا الاهتمام إلى أنفسهم لأنهم في حاجة إلى مزيد من التقدير والعطف. غير أنه لا بد أن يكون المرء راضياً عن نفسه

ليخدم غيره بمحبة وإخلاص وتفان حقيقي، وهذه الصفات لا تتوافر لدى هذا النوع من الأشخاص.

وهناك عوامل أخرى قد تؤدي إلى عدم رضا المرء عن نفسه. وعدم الرضا عن النفس صفة من صفات القلقين. ومنها عدم تحقيق الذات، أي عدم بلوغ الأهداف التي يعتبرها الشخص جزءاً من حياته، تغني وتنتعش بتحقيقها، وتشقى وتبتئس إذا فشلت في ذلك. وليس ضرورياً أن تكون هذه الأهداف مادية، إذ أنه لا يخفي دور القيم الأساسية والمبادئ الأخلاقية والدينية وأهميتها في حياة معظم الناس. وقد سبقت الإشارة إلى الارتباط الوثيق بين القلق وتقدير المرء لنفسه وثقته بها. فوجود القلق دليل على فقدانه لجزء من هذه الثقة والتقدير.

يظل الطفل منذ ولادته، وأثناء سنوات طويلة بعد ذلك، في حاجة إلى مساعدة الكبار له وعطفهم عليه، وموافقته على أنشطته، وتوجيههم وتشجيعهم له. وتستمر الحاجة إلى نيل محبة الكبار ورضاهم، بعد أن تتسع مجالات نشاط الطفل، وتنتقل من محيط الأسرة الضيق إلى المحيط الاجتماعي الواسع. ويستغل البالغون حاجة الطفل إليهم لتربيته على الطريقة التي ترضيهم وترضى المجتمع. ولكنه عندما يبلغ أشده، ويصبح مستقلاً مادياً عن البالغين والأشخاص المهمين في حياته، يظل بحكم الضرورة خاضعاً لكثير من أنظمة المجتمع وتقاليده، ويبقى في حاجة إلى المجموعة الإنسانية التي يعيش وسطها.

إن جميع العوامل التي تحدث خللاً في انسجام العلاقات الإنسانية واستمرارها وتناغمها، إن كانت قاسية ومباغته، تحدث قلقاً في نفس الإنسان، وخصوصاً عندما تكون هذه العلاقات متينة وعميقة. وتتعدد مناسبات الفراق في حياة الإنسان، فالجنين يفارق بطن أمه، ثم يبتعد المولود عنها قليلاً عند فطامه، وتتلو مناسبات أخرى يفارق فيها المرء أهله ومنزله،

كأن يسافر للدراسة، أو لأداء الخدمة العسكرية، أو بعد الزواج، أو يفارق المرء قريته أو وطنه بحثاً عن العمل وسعياً وراء الرزق، وفي جميع هذه المناسبات يحدث ما يدعي بقلق الفراق.

ولكن أليست هذه هي سنة الحياة؟ فالحياة في جوهرها تعني التغيير والتجدد والنمو، وبدون ذلك لا توجد الحياة. والإنسان بطبعه ميال نحو الارتقاء والتجدد. وهذه العمليات تتطلب اختياراً، وتضطر الإنسان إلى اتخاذ قرار لفائدة التغيير، وإلا ظلت الأوضاع تسير على وتيرة مملة. وبما أن التغيير يعني تجارب جديدة ومواجهة مواقف غير مألوفة، فلا غرابة أن يكون ذلك مصدراً للقلق.

ولعل عوامل التجدد والتبدل والقلق الجماعي، لم تكن في زمن ما أقوى مما هي عليه في عصرنا هذا الذي أصبح فيه الأمن الجماعي مهدداً نتيجة انتشار الأسلحة الفتاكة، وبسبب ما شهده هذا القرن من تغير سريع في جميع المجالات الاجتماعية والعلمية والدينية. فقد كثرت فيه الثورات، وتغيرت القيم بسرعة مذهلة نتيجة التقدم التكنولوجي، وازداد فيه شعور الإنسان بالعزلة، على الرغم من تضاعف عدد سكان الأرض أثناء الأربعين سنة الأخيرة، وأنه أصبح يعيش في مدن مزدحمة بالسكان ويسكن عمارات ضخمة مكتظة. وانتشر الخوف وساد الشعور بالخيبة، باكتشاف الإنسان لحقائق جديدة حول الأرض التي يعيش فوقها والعوالم الأخرى التي تحيط به. كما تضاعفت المنافسة واشتد التسابق بين الأفكار والأيدولوجيات، بسبب انتشار وسائل المواصلات لدرجة لم تعهد من قبل، وتدهورت العلاقات الإنسانية التي كانت تتمثل في التعارف والتعاطف والتفاهم، بسبب التوسع في استخدام الآلات التي تلهي الإنسان وتأخذ جزءاً كبيراً من وقته، وكل ذلك لم يزد إلا قلقاً وشعوراً بالخيبة والضعف والعزلة والخوف من المستقبل.

نتائج القلق

- من الآثار السلبية العميقة التي يمكن أن يخلقها العقاب لدى الإنسان زيادة الخوف، واللجوء إلى المكر والمخادعة، وكبت الرغبات لدرجة أن العقاب قد يُروّض الإنسان ولكن لا يجعله مخلوقاً أفضل.
NIETZSCHE

- عندما نستسلم للخوف من الشرور، نصبح فريسة لشرور الخوف .

BEAUMARCHAIS

- المشكلة الصغيرة إذا صاحبها القلق، يتضاعف عبئها وينتشر ظلها.

- من يتقرب الرياح لا يزرع، ومن يتطلع إلى السحب لا يحصد.

- إذا كان التعب ينهك البدن، فإن القلق هو المنجل الذي يحصد الفكر.

(كاتب عربي)

- قال البشاشة ليس تسعد كائننا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغماً
قلت ابتسم ما دام بينك والردى شبر فإنك بعد لن تتبسماً

(إيليا أبو ماضي)

- وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

(ابن المعتز)

يؤدي القلق إذا طال إلى اضطرابات في السلوك ينتج عنها هدر

للطاقات. فالطفل الصغير عندما يواجه الرفض والقساوة من الكبار يشعر أنه مهدد بالفناء. غير أن قلقه هذا لا يسمح له بالقتال أو الفرار كما يفعل البالغ، لأنه لا يحسن أيّاً منهما. ولهذا يوجه طاقاته مرغماً للتكيف مع المحيط وإرضاء أولى الأمر، مهملاً نزعاته الداخلية التي تحفزه على تحقيق الذات. وهكذا يؤدي القلق إلى تجنيد طاقات البدن واستخدامها لأهداف ثانوية. ولكن البدن لا يقدر على أن يظل مجنناً متحفزاً لمدة طويلة، مهما كانت الأخطار المتوقعة. لأن ذلك يستنزف طاقات المرء، ويؤدي إلى الوهن والتعب والمرض.

ونلاحظ أن الشخص القلق يشكو من توتر مستمر في جزء ما من بدنه،

ومن عصبية عامة، وقلة الصبر والتحمل. ويعود سبب ذلك إلى زيادة في أنشطة الجهاز العصبي المستقل، وهذا النشاط الفائض يؤدي إلى أعراض متعددة مثل عدم انتظام دقات القلب، واضطرابات معوية ومعدية، وتوتر عضلي، خاصة في البطن ومؤخرة الرقبة، وفي الكتفين، وبرودة في الأطراف، واضطرابات بصرية. فقد لوحظ أن القلق إذا استمر طويلاً يسبب إفراز مادة الأدرينالين بدرجة تؤدي إلى زيادة حساسية العين للضوء. كما ينتج عن القلق المرضي ارتفاع عدد نبضات القلب، وضغط الدم، واختلال الميتابوليزم، وغير ذلك من الاضطرابات النفسية البدنية. وبتكرار حالات القلق يزيد شعور المرء بالإرهاك والضعف، وتظهر عليه حالات التوتر النفسي. وكل ذلك يجعله عرضة للأمراض، فتصاب أقل الأعضاء مقاومة وأضعف الحلقات في الإنسان. وقد يؤدي ذلك إلى انسحابه تدريجياً من معركة الحياة، فيترك الأعمال التي تشعره بالضعف، وربما تمادى به الأمر إلى أن يصبح عالة على غيره.

ويلاحظ أن القلق يرفع درجة الحساسية للألم، والاستجابة في حالة

الفرع، ويجعل المصاب به سريع الاهتياج، كثير الحركة يعاني من بعض

الاضطراب في النطق، ترتجف بعض عضلات وجهه أو يديه أو رجليه (حالات شخصية لا تعمم). كما يتصل سلوك الشخص القلق بالتهرب من الواقع، ومحاولة الإفلات من المشاكل بطرق عشوائية. وهو يكرر أحياناً نماذج السلوك بدقة وانتظام، رغبة في تنظيم تصرفاته وتجنب المفاجآت. غير أن هذا يزيد في مشاكله، ويجعل محاولاته رتيبة متحجرة.

وقد تتداخل الحوادث اليومية وتختلط في فكره فتزيد تصرفاته ارتباكاً. وهو يشكو من عدم القدرة على التحمل، وضعف الذاكرة، لأنه غير قادر على التركيز على موضوع واحد، إذ أن شدة التوتر في بدنه تنافس الحوادث الأخرى، وتستولي على جزء كبير من وعيه وطاقاته. ويتلقى دماغ الشخص القلق باستمرار معلومات عما يحدث داخل بدنه ويجول بخاطره من أفكار، مع شيء من المبالغة والتركيز على صور دون أخرى، لأن هذه المعلومات تأتي عن طريق الأعصاب، وبعضها لدى القلق أكثر حساسية ونشاطاً من البعض الآخر.

ويظهر أن الحيوان أكثر "حكمة" من بعض بني الإنسان في هذا المجال، فهو عندما يشعر بالخطر والقلق، ينفق من طاقته ما يتناسب مع الموقف سواء في القتال أو الفرار. وعندما يختفي الخطر يزول القلق، ويسترخي البدن والعضلات، وينسى الحيوان ما حدث فيواصل حياته غير متحسر على ما فات، ولا واع ولا متطلع لما قد يحدث.

إن لمحات وجه الإنسان ونظراته، وطريقة حديثه، وانتظام حركاته، أو عدم انتظامها، تنبئ بكثير مما يجول في القلب والفكر. فالقلق يسبب جفاف الجلد وشحوبته، ويقضي على منظره الغني بالصحة والحيوية، ويفقد العينين نظراتهما الثاقبة، ويسبب تقلص الأطراف وبرودتها، ويقضي على تلقائية حركاتها وارتخاء عضلاتها، ويسبب جفاف الفم والحلق، والتلعثم، ويؤدي إلى الإجهاد المزمن، والشيخوخة المبكرة.

والشخص القلق يحمل في فكره شعوراً مرضياً كئيباً، ويعاني من ضغوط انفعالية حقيقية. فهو شارذ الفكر، قد يدور في نفس المكان بدون سبب، ويبحث عن مصدر الخطأ بدون نتيجة، ويكثر من المماطلة، وقد يكون شخصاً مثالياً كمالياً، يبالي في المحافظة على دقائق الأمور ويضع الأشياء دائماً في مواضعها، لأنه يخشى أسوأ ما يمكن أن يحدث، وتتسم ردود أفعاله وأحكامه بالمبالغة، فهو مثلاً يبالي في الخوف من الجراثيم والأمراض، ويغسل يديه كلما شك في شيء، ويشعر بفقدان الأمن، ويتوقع دائماً أن يحدث خطر من حيث لا يدري، ولذلك نراه في جهاد مستمر مع المحيط ومع الحياة، لا يستطيع أن يسترخي، وهو متعب دائماً وشقي. والشقاء يخلق المرض.

وليس القلق بعادة واحدة سيئة يسهل التخلص منها؛ بل إن الشخص القلق يكون في الغالب غير واعي للأسباب التي تجعله قلقاً. فهو يفضل أن يستمر في حياته كما هي لأنه يشعر بالعجز عن اكتشاف الأسباب. فمثله كمثل من يشعر بخلل في محرك سيارته فيتجاهله، ويتمنى ألا يكون الأمر خطيراً. وقد يدفع القلق صاحبه إلى تحريف الوقائع وتغيير الحقائق، والابتعاد عن الواقع، لينسج عالماً في خياله يساعده على التقليل من قلقه. غير أن المناورات التي يلجأ إليها الشخص القلق لنيل شيء من الهناء والثقة، إذا طال تمسكه بها واستحوذت على سلوكه، تخلق له مزيداً من المشاكل.

ومن نتائج القلق أنه يضيق مجال وعي الإنسان، وذلك عندما تتدخل الذات في حالة القلق الشديد، فتضعف أو تحرف مجال التعبير أو النشاط الذي يتضمن شحنات انفعالية تحمل ذكريات سيئة بالنسبة للشخص. ويعني تدخل الذات أن الإنسان يهتم كثيراً بالإشارات والمشاعر الداخلية، وهذا يمنعه من التركيز على ما يعمل أو يرى أو يسمع، فيصبح أقل دقة في أنشطته، وأقل قدرة وتأهيلاً لتعلم الأعمال التي تحتاج إلى الحركة والتركيز والإدراك. فالقلق يجعل المرء يوجه جزءاً كبيراً من اهتمامه نحو الداخل،

ويصبح العالم الخارجي وما يجري فيه ثانوياً ما عدا المقلقات، ويركز على إحساساته، ويطيل التفكير حول ما يشعر به من اضطرابات نفسية وجسدية، فهو مثلاً يراقب تنفسه ويعدّ دقائق قلبه، ويفسر كل انحراف صحي، ولو كان طفيفاً، على أنه نذير بالخطر.

ومن نتائج القلق أنه يجعل صاحبه مفرطاً في التواضع أحياناً، وأكثر تمسكاً بالقواعد والأوامر، ومحافظاً على الأنظمة، وأكثر انقياداً لذوى السلطة، وتأثراً بالأساليب العاطفية عادة. وكثيراً ما يعترف بضعفه وحساسيته وغلطاته عن طواعية لأنه يرغب في الابتعاد عن المشاكل، وفي نيل شكر الناس واعترافهم. وهو بوجه عام يميل إلى اليأس والانقباض والانتقاد، والتبرم بالأوضاع، لأنه يسعى للكمال، ويستثار بسهولة، غير أن عواطفه سريعة التقلب بين الحب والكراهية، وبين الرضا والإقبال، والسخط والإدبار. وهو يشعر بالوحدة، قليل الأصدقاء، لأنه يفضل أن يركز على نفسه، ويندمج في ذكريات الماضي وأحلام المستقبل.

ويشعر الشخص الذي استولى عليه القلق أنه فشل في جانب كبير من حياته، ولو كان الواقع يشهد له بعكس ذلك. لأن شدة القلق حطمت ثقته بنفسه، وجعلته لا يرضى عنها ولا يعترف لها بفضل. وحتى عندما يشعر هذا النوع من الناس بنجاحهم، فإنهم غير قادرين على التمتع به، بل يزيد اهتمامهم بأهداف أخرى وانغماسهم فيها. وكأنهم يريدون أن يقنعوا أنفسهم ومن حولهم بأنهم حقاً أهل للمزيد من النجاح والاحترام.

والإنسان القلق يعيش في دوامة من الشكوك، تجعله يحيا في حلقة مفرغة وتوتر منهك، فهو يخشى اتخاذ القرارات لأنه يخاف ارتكاب الغلطات، ولأنه شديد الحساسية بالفشل - خاصة ما كان منه أخلاقياً، كما أنه شديد المحاسبة لنفسه، يتلهف إلى إنجاز أهداف ترفع من مكانته وتزيد في سمعته، غير أنه من جهة أخرى، يحجم عن مجابهة المسؤوليات إذا

أسندت إليه، لأن ذلك قد يكشف نقاط ضعفه، ويفضل الاعتماد على الآخرين. وقد يخيب ظنه بعد حين، عندما يكتشف أن الناس لا يعترفون له بما يستحق من تقدير وأولوية، وهذا يخلق لديه كثيراً من الغيظ والخيبة ومشاعر العدوان، ضد نفسه وضد الآخرين. وهكذا ترتبك الأمور وتزيد المواقف في شعوره بالعجز والسخط، وقد يخيم ضباب الشك والحيرة والفشل على نفس المصاب بالقلق، حتى يصل إلى حالة من الشعور العميق بالخوف من المستقبل والتبرم بالحياة.

ويغلب على بعض القلقين كبتهم لانفعالاتهم، وخوفهم من التعبير عن مشاعرهم على حقيقتها. ويمكن القول إن ما نشاهده لدى كثير من الناس من الحركات، مثل تحريك الأصابع، وفرك اليدين، ولس الساعة، واللعب برياط العنق، وتغيير وضعية الجلوس، وكثرة التدخين، والحركة بغير هدف، ومشط الشعر، وغيرها، كل ذلك يعبر عن مشاعر وانفعالات لا تزال خفية عن مجال الوعي .

ويقال عن الشخص القلق أنه متوتر، محتار، متقلب، يصعب التنبؤ بردود أفعاله أحياناً. ويبدو تفكيره مشتتاً، وتأثره بالمواقف العاطفية سريعاً وعميقاً، بل من السهل تحويل سروره إلى حزن، وحزنه إلى مرح. ويلاحظ كذلك أن مجال تصرفاته لا يتصف بالاعتدال دوماً، إذ يتراوح بين المحافظة والتخوف والانكماش والركود في أغلب الأوقات، والمجازفة والإقدام وعدم المبالاة أحياناً أخرى.

وليس من السهل تعليل هذا السلوك بالنسبة لكل فرد، ولكن يمكن القول عموماً، أن الفروق الفردية في الاستجابة للانفعالات والمثيرات الداخلية والخارجية تتأثر بنشاط الغدد، والبنية البدنية، والاستعدادات الوراثية، ونشاط الجهاز العصبي المستقل وغير ذلك، من جهة، وتتأثر بنوع التربية والتعليم العائلي والمدرسي الذي يوجه المرء لردود أفعال وتصرفات خاصة في مواقف معينة، من ناحية أخرى.

وقد يغمر القلق حياة شخص ما، كنتيجة لسلسلة من الحوادث المزعجة التي هددت كيانه لفترة طويلة أو غمرت حياته المبكرة. ولقد جهزت الطبيعة الإنسان بما يمكنه من مواجهة الخطر، أو الدفاع عن نفسه أو الفرار. ولكن عندما يشعر طفل، عمره ثلاث سنوات مثلاً، بأنه مهدد، فإنه لا يستطيع الدفاع ولا الفرار من أشخاص أكبر منه. لذلك فإن وقع القلق على نفسه أشد من وقعه على الراشد الذي يفكر في وسائل عديدة للخروج من المأزق.

ومن صفات القلقين إحساسهم بمخاوف غير معقولة أو غير واقعية، ومصاحبة الشعور بالذنب والنقص والإهانة لهم. ولعل ذلك ناتج عن ارتكابهم لأعمال كانت ضمائرهم تؤمن بأنها محرمة اجتماعياً وأخلاقياً ودينياً، مثل أعمال السلب والعدوانية والخيانة والعمليات الجنسية الشاذة والمحرمة. والإنسان لا يعيش فقط مع الصور والمفاهيم التي يكونها لنفسه، بل أنه مقيد بمجموعة من الأنظمة والقوانين الأخلاقية والاجتماعية. وعندما تكون دوافع الجنس والعدوان والغضب والانتقام - لديه قوية، يشعر بأنها ستؤدي إلى سخط المجتمع عليه أو معاقبته له. وهذا الصراع بين الرغبة في إشباع الدوافع، مع ما ينتج عن ذلك من عواقب وخيمة، وإرضاء المجتمع بكبت الدوافع وترويض النفس على السلوك "المقبول"، هو أساس القلق والأعراض العصائية التي تصيب الإنسان.

يكره الشخص القلق نفسه وفي أغلب الأحيان يكره ما يحيط به. وليس من السهل اكتشاف هذه الكراهية، لأنها قد لا تكون جلية واضحة، بل تظهر في شكل سلوك الكبرياء أو اللامبالاة أحياناً، أو إهمال شؤون البدن، أو في شكل الكآبة، أو الإذعان المطلق أو غير ذلك. وقد يكون الشعور بالذنب وراء هذا النوع من التصرف والإحساس. فنلاحظ أن الشخص القلق شديد المحاسبة لنفسه، يلومها على الصغيرة والكبيرة، ويجد دوماً نقصاً في تصرفاته، يعزي نجاحه للحظ، ويتواضع لدرجة أنه لا يعترف حتى بنجاحه، وتكسو حياته مسحة من الشقاء.

ويتجنب الشخص القلق المواقف التي تجعله يقارن نفسه بالآخرين، خشية أن يطلع الناس على أماكن ضعفه، وتفضح حقيقة أمره، خاصة إذا كان من النوع الذي يكون لنفسه صورة خيالية أعلى مما هو عليه في الواقع، ويضطر لتجنب المواقف التي تكشف ادعاءاته، ويخشى أن تخرجه أمام الناس. كما يلجأ أحياناً إلى المبالغة في تبرير تصرفاته التي تكشف مواطن ضعفه.

والواقع أن القلق يؤثر تأثيراً سلبياً على فعالية المرء وكفاءاته، ويقيد وعيه، ويبعده عن ملاحظة دقائق ما يجري من حوله في الظروف الحالية. فالقلق يخل بالتوازن المنطقي، ويعرقل سهولة الحديث وسيولة الكلام، ويوثق المخيلة، ويقتل الحماس، ويضعف البصيرة، ويبدد القدرة على التركيز، ويضيق مجال الإدراك، ويبطئ ردود الفعل، ويهدر جزءاً كبيراً من طاقات المصابين به. وقد يزيد القلق في حساسية الإنسان فيجعله أكثر تجاوباً مع المناظر المحزنة، وأشد تعاطفاً مع المواقف المزعجة، ويؤثر على معنوياته فيجعله متشائماً، يميل إلى الانعزال، وربما وقع الشخص القلق في نوبات بكاء، أو في تأمل عميق يشبه أحلام النهار. كما يتسبب في أعراض مرضية كثيرة مثل إضعاف شهية المرء، وطاقته الجنسية، وفي الهستيريا والإنهاك العصبي .

ومن نتائج القلق، إذا طال واستحكم، أنه يضعف القدرة على التكيف والانسجام، لأنه يشوش ليس وعى المرء لذاته فحسب؛ بل كذلك تصوره للعلاقة بين الأشياء وبين الناس من حوله. ولا شك أن تحقيق الانسجام العائلي والمحيطي يستلزم القيام بأعمال معينة، أو التخلي عن تصرفات محددة، ويفرض على المرء أساليب سلوكية، وأنظمة أخلاقية يرضاها المجتمع. وكل ذلك يثقل كاهل المصاب بالقلق. فإذا لم يوفق المرء في الامتثال، والتلبس بالصورة المرضية، ربما دفعه ذلك في النهاية إلى الإهمال وعدم المبالاة، وجعله يشعر بالخيبة وفقدان الثقة والاحترام، وأصبح يعيش على هامش الحياة.

ولا يخفي أثر هذه النتائج على المصاب بالقلق، وما تخلقه لديه من اضطراب فكري، وهبوط نفسي، وشعور بالذنب، والشقاء، والنقص، والتشاؤم، والتبرم، والسخط على العالم. ويعزى للقلق تأثير كبير في الميل للسكر والاعتداء والانتحار، وعمليات الطلاق، والعنف ضد الأطفال والضعفاء. كما نلاحظ أن بعض الأشخاص القلقين يبالغون في ملاحقة وسائل اللهو والتسلية، للهروب من الهموم والمخاوف، وتجنب الوحدة والعزلة المقلقة.

ونلاحظ أن أغلب المصابين بالقلق يقعون فريسة للمخاوف الوهمية، نظراً إلى شعورهم بالضعف، وحرصهم الشديد على حياة تكتنفها السلامة والانتظام والأمن. وبما أن احتمالات الفشل لا تفارق أذهانهم، فإنهم يتبنون فلسفة تشاؤمية، كما يسيطر على أبدانهم وعضلاتهم مواقف دفاعية، ولذلك يغلب عليهم التوتر. ومن المعروف أن معظم الذين منوا بفشل ذريع في أعمالهم، وخاصة في حالات مجابهة الخطر، يظلون يحملون في أذهانهم بذور الخوف والشك عند الرغبة في القيام بأعمال مماثلة، أو عند وجودهم في مواقف مشابهة. وهم دائماً على استعداد للتراجع. وليس معنى هذا أن الشخص القلق يهدأ ويسترخي، ويتوقف عن المحاولة؛ بل إنَّه شخص متحفز، متوتر يغلب عليه التردد، ويختار الأعمال المألوفة عادة، ويفضل أن يحتمي بأشخاص آخرين. وهو مع ذلك يجد نفسه مدفوعاً إلى التعويض عما يشعر به من حاجة للأمن والتقدير في عيون الناس وعند نفسه. ويفعل ذلك لتأكيد مكانته ورفع شأنه لدى الناس؛ بل هو أحياناً عبد لآراء الناس فيه، لدرجة تفقده حرية التصرف والاستقلال الشخصي.

ويلجأ بعض القلقين، ممن واجهوا الفشل والخيبة، إلى التركيز على الابن أو البنت أو أحد المقربين، وتشجيعه ودفعه نحو النجاح، سواء لبلوغ المركز أو العلم أو الثراء. وهم يفعلون ذلك وكأنهم يدفعون أنفسهم إلى التعويض عما فاتهم، والبروز أمام أعين الناس. وفي كل ذلك محاولات لتغطية

فشلهم. غير أن هذا السلوك الذي يتمثل في دفع الأبوين أطفالهم نحو مزيد من الإنجازات، تفوق طاقتهم في ظروف معينة، قد يسيء إلى تقدم الأطفال الطبيعي، بسبب ما يتعرضون له من ضغط وإحاح وتحفيز متواصل، لا يراعى مستوى قدراتهم العقلية والبدنية.

وقد يلزم القلق صاحبه حتى خلال الخبرة التي تكررت في حياته دون أن تهدد سلامته. ذلك لأن نفسية الشخص القلق لا تألف بعض المواقف العادية، والتجارب البريئة، والخبرات السابقة على الرغم من تكرارها. ولعل السبب في ذلك أن هذه المواقف والخبرات تكون قد ارتبطت في ماضي حياة الشخص بظروف هددت وجوده وتركت ذكريات مزعجة في نفسه.

وعلى الرغم من أن هناك مجالات سلوكية واسعة تتشابه فيها تصرفات القلقين وردود أفعالهم، فإنه ليس من الممكن وضع قاعدة شاملة تحدد سلوكهم وتميز مواقفهم. فمن الناس من إذا أصابه القلق وأزعجه، حاول الاختلاط بمن هم في مثل حاله وظروفه النفسية، ليستفسر عن أحاسيسهم ومدى تأثرهم، وليشد بعضهم أزر البعض الآخر. وهذه الحاجة إلى الناس طبيعية تمكن المرء من مقارنة مشاعره بمشاعر الآخرين، والتعرف على آرائهم في مثل هذه الظروف المتشابهة. وبما أن ظروف الشخص القلق غامضة فإن المصاب يرغب في معرفة كيف يشعر الآخرون وماذا يتوقعون. هذا ما لم يكن مصدر القلق يتعلق بأمور سرية يخشى المرء إفشاءها، أو بانفعالات نفسية تجلب له الانتقاد والازدراء إذا انكشفت.

ومن الناس من يستسلم للقلق وينطوي على نفسه، ويعجز عن مواصلة السير والتأثير على مجرى الحوادث، فينسحب من المعركة، ويفضل أن يظل منفرداً. وتختلف درجات الانسحاب والانطواء، فقد يلجأ القلق المذعور إلى عالم الخيال والسلبية، فيصبح غائباً وهو أمامك لشدة وقع القلق على نفسه، وعجزه عن مواجهة الموقف. وقد يزداد تركيز الشخص القلق على نفسه،

وتعلقه بأمور الفكر والحوادث النفسية الداخلية، فيقضي أو يكاد على اهتمامه بالأنشطة البدنية أو الاجتماعية الخارجية، وقد يبلغ انطوائه أن يصبح لا يهتم بأحوال الناس من حوله. بل من الناس من يضع حاجزاً بينه وبين مشاكله فيصبح لا يراها على حقيقتها، ويزيد ذلك من شمولها وسيطرتها عليه.

ومن القلقين من يبحث عن شخص قوي يثق به، في العائلة أو خارجها، يفضي إليه بمشاكله، ويعتمد عليه في نيل مقدار من الثقة والأمن والاطمئنان. وهذا النوع من الناس يخشى الاستقلال برأيه، لأنه لا يقدر على الاختيار واتخاذ القرارات الضرورية تحت ضغط القلق. وهو يفضل، عند الشدائد، الالتجاء إلى الناس، والاعتماد عليهم واستشارتهم لمعرفة رأيهم، والاستنارة بتوجيهاتهم، حتى يظل ماشياً على الدرب السليم، وتمسكاً بالأنظمة والقواعد الاجتماعية. وسبب ذلك أنه يصعب عليه الاحتفاظ بتوازنه العاطفي، والاستمرار في أنشطته العادية، نتيجة البلبلة والفوضى التي نشرها القلق في فكره وبدنه.

ونلاحظ نوعاً آخر من القلقين يثور ويكافح ويعتدي، ساعياً لحل مشاكله، وإيجاد وسائل تساعد على مقاومة القلق. وكذلك نلاحظ في بعض حالات طغيان القلق وتسلطه، أن الشخص يتصرف تصرفاً عشوائياً عدوانياً، يفقد المراقبة على نفسه، ويصبح في ذعر لفترة تطول أو تقصر. والواقع أن الفرق بين شخص نقول عنه أنه "طبيعي" وآخر نصفه بقلق خفيف أو شديد، يكمن في درجة الشعور ومستوى الانفعالات عمقاً وزمناً. فالقلق مبالغ في الانفعالات والمشاعر السلبية العادية، وكلما زاد تأثير الانفعال على السلوك، ظهرت علامات العصاب على الشخص.

وهذا أمر يسهل تفسيره. فعندما يشعر المرء بأي تهديد لشخصيته وسلامته، سواء كان التهديد نابعاً من داخل الإنسان أو من محيطه

الخارجي، فإن بدنه كله يستعد للدفاع سواء كان الخطر واقعياً أو خيالياً. وكم شخص تراه من بعيد فيبدو لك هادئاً، طبيعياً في تصرفاته ومعاملته وتكيفه. وهو في حقيقة الأمر متوتر الأحشاء، يصرف طاقات كبيرة ليكبح جماح رغباته، والتلبس بمظهر التوازن والأناة. ولا يقدر على الاستمرار في إنفاق تلك المقادير من الطاقة دون أن يدفع الثمن، بل سيؤثر عليه الضغط والتوتر، وتظهر عليه آثار التعب والإرهاق.

ومن سمات المصاب بالقلق أنه يعيش في خضم مظلم من الهواجس والمخاوف. فهو يتجاهل حاضره، ويقتحم الماضي فيلجأ إليه بأفكاره، ليعيش من جديد اللحظات السعيدة أو السيئة التي تركت أثراً في نفسه، كما أنه لا ينفك يتطفل على المستقبل محاولاً تصور حياته ومصيره بعد سنوات من الزمن الحاضر، لأنه يخاف من المستقبل الغامض. ولعل في الهروب من الحاضر استخفافاً به، وتجنباً للواجبات والأعباء التي تثقل كاهله. ولهذا يبدو الشخص القلق وكأنه يدور في حلقة مفرغة، متوجساً خيفة من حوادث ليست خطيرة أو لا وجود لها؛ غير أنها تشغل باله وتبليبل أفكاره.

ويشعر المصاب بالقلق بأن أهدافه فارغة وأن مساعيه تذهب سدى. بل قد يرتاب حتى في جدوى علاقاته مع الناس، لأنه يرى أن الحياة كلها مهزلة. ولذلك يهمل علاقاته الاجتماعية والعائلية، ويعزف عن الاحتفاظ بلوازم ووسائل الانسجام التي تنظم علاقاته مع الناس والمحيط، ويزداد شعوره بالعداء والعدوان.

إنه يدور في حلقة مفرغة لا يستطيع أن يخرج منها، ويبدو وكأنه سجين ظروف شيطانية لعبت بأفكاره وعكست مرآتها، وركزتها على داخل نفسه، فأصبح مسحوراً مذعوراً، لا يقدر على أن يتحرر من قبضة هذه الأفكار، ولا أن يستفيد مما يقدم له من نصائح.

غير أن القلق من جهة أخرى قد يجعل المصاب به قوى الاندفاع، قليل

الآناة والمثابرة، يجيد في مواقف أحياناً، ويفشل في نفس المواقف مرات، ولذلك يصعب التنبؤ بتصرفاته بدقة، لأنه سريع التأثر بما يعترضه من انفعالات، يتماوج طبعه بين السرور والكآبة، والرقّة والغضب، والرأفة والقساوة، فهو متأثر سريع الاستجابة للمؤثرات، قليل الثقة بالحياة.

ومن المؤكد أن وجود القلق له صلة وثيقة باحترام الذات. ومعنى هذا أن نقص احترام المرء لنفسه، يقلل اهتمامه بالعلاقات البشرية، كما يخفض درجة المهارات، ويعرقل التعبير عن المشاعر والأفكار. لأن الذات تتدخل في المواقف المشحونة بالقلق، وهذا يزيد الوضع تعقيداً، ويؤدي إلى الارتباك وكبح السلوك. وكأن تدخل الذات يعني أن المرء يستخدم جزءاً من طاقته لعرقلة مهاراته. وهذا عكس ما يحدث في حالة الخوف لأنه يزيد انتباه المرء ويقظته، ويقوى وعيه وتركيزه على مصدر الخطر.

ويشير علماء النفس إلى أن القلق عندما يتجاوز حدوداً معينة، يضعف قدرة الإنسان على إدراك المواقف المعقدة والإحاطة بها، والاستجابة لها بفعالية. ومعنى هذا أن الإنسان يصبح أقل شعوراً بما يتضمنه عدد من التجارب والظروف التي يعيشها، وأن قدرته على التعلم والاستنتاج والتلاؤم تتأثر بصورة عكسية بمدى عمق قلقه، وأن استجاباته وردود أفعاله تقل دقة وعمقاً وشمولاً. وقد أثبتت التجارب أن الأشخاص المصابين بقلق شديد يتعلمون المسائل المعقدة بصعوبة، لأنهم لا يقدرّون على التركيز العميق لمدة طويلة، غير أنهم يتعلمون المسائل البسيطة بسهولة أكبر من غيرهم. وقد لوحظ أن هؤلاء الأشخاص لا يرغبون في القيام بأعمال تتأجها غير مؤكدة، خشية أن يفشلوا، ويجدوا أنفسهم في موقف يدعو للسخرية والاستهزاء. والسبب في ذلك أن الشخص القلق يحمل عن نفسه صورة أعلى وأكمل مما هو عليه في الواقع، لذلك يخشى أن تفضح الظروف حقيقته وتظهر عجزه.

وتجدر الإشارة إلى أن الآثار السلبية المذكورة هي نتيجة القلق العصابي

الذي يرافق الإنسان مدة طويلة، أما في حالة القلق الواقعي، فإن الشخص يتقبل قلقه على أنه انفعال تشاركه فيه جميع المخلوقات، ويستمر في الإنتاج والتمتع بالحياة.

ومن نتائج القلق أنه يجعل بعض الناس يهملون فرص النمو الشخصي، والانفتاح نحو الخارج، والاندماج في الناس، لأن ذلك يعرضهم لمواقف مجهول مصيرها، وهم يحجمون عن المغامرات، ويترددون أمام المجازفات، لأن ذلك يزيد في قلقهم. ورغم أن المصاب بالقلق، قد يندفع في بداية الأمر متحمساً نحو تحقيق أهداف تتجاوز إمكانياته، فقد لوحظ أنه سرعان ما يغير اتجاهاته، لأنه يتأثر بسهولة بآراء "الناصحين"، ولا يستفيد كثيراً من تجاربه الماضية، وقد يكرر نفس الغلطات التي سببت له المتاعب. إن القلق يضعف المعنويات، ويجعل المرء أقل إقبالا على التجارب المعقدة، لأنه لا يملك الصبر والمثابرة للاستمرار في الأعمال التي تتطلب جهداً وعزماً ووقتاً طويلاً.

ويؤدي القلق إذا طال إلى تفكك الشخصية وانحلالها، فيضعف البصيرة، ويشوه المعالم التي يهتدي بها الإنسان نحو أهدافه، فيصبح كالتائه في ليل مظلم، لا يقدر على تحديد الأولويات والتمييز بين الضروري والكمالي. وهو أثناء تردده بين الحذر أو الاندفاع نحو المجهول، قد يفضل مغامرة يشك في فائدتها ويواصل مشروعات يرتاب في نتائجها. وهو غالباً ما يفعل ذلك مدفوعاً بأفكار غامضة وانفعالات سلبية سيطرت على حياته. والإنسان أضعف من أن يقدر على مقاومة تيارات التوتر والضغوط طوال حياته. ويأتي يوم يثقل العبء على كاهله، وتظهر عليه أعراض الإنهاك.

وعلى الرغم من أن هناك من القلق ما يهدر الطاقات ويقيد الهمم، ويضعف الإنتاجية الفكرية والبدنية، فلكم سمعنا عن أناس تحدوا سطوته، وعاشوا بحماس ناجحين في أعمالهم، ومسيطرين على الصعوبات والعقبات

التي اعترضتهم، ولو أن القلق لم يمكنهم من استغلال جميع إمكانياتهم، والاستفادة من قدراتهم وطاقاتهم.

وقد يكون القلق علامة على اضطرابات أخرى، واختلال في التوازن الحيوي. وهو دليل على أن علاقتك بالواقع أصبحت ضعيفة ومضطربة، وأن ثقتك بالحياة بدأت تتدهور. إنه نداء من الأعماق يندرك، ولو بصوت خافت أحياناً، بأن العقل والجسد معاً أصبحا غير قادرين على الاستمرار في نمط الحياة، وأن الفكر أصبح لا يستطيع أن يتولى القيادة بطريقة مضمونة سليمة. فالقلق في هذه الحال يعني أن أسلوب حياتنا، والأهداف التي نسعى إلى تحقيقها، تتجاوز إمكانياتنا ومواردنا النفسية والبدنية، وأن العبء أصبح أثقل مما نستطيع أن نتحمل. وهو يعني كذلك أن قدرتنا على الوعي السليم والحكم المتزن، قد أصبحت معرضة للخطأ وسوء التقدير.

وعندما يطول القلق النفسي تسوء حالة المرء، وتظهر عليه أعراض فسيولوجية كالصداع، وضعف الشهية، وسرعة التنفس، وتوتر العضلات، وضعف الطاقة الجنسية لدى الرجل، والبرودة الجنسية لدى المرأة. ويذكر فرويد عدداً من الأعراض مثل النسيان، وفلتات اللسان، والأحلام، وإلقاء النكت، مشيراً إلى أنها تعبير غير صريح عن نزوات الإنسان، للتخفيف من الضغط الذي تفرضه التقاليد ضد التعبير الصريح عن هذه النزوات.

وصاحب القلق يرنح تحت ثقل الوسواس والشكوك السلبية، فهو يشعر بأنه مغلوب ومضطهد أحياناً، وأنه عاجز ضعيف لا حول له ولا حيلة تارة أخرى، ويصاحب هذا الشعور ألم نفسي وإحساسي بالخيبة والمرارة والنقمة. ولذلك ينغمس طوراً في الأنشطة المسلية، ويفرط تارة في الأعمال الجدية هرباً من نفسه ومن آلامه. وقد تتنازعه الانفعالات السلبية العميقة، فيفشل في تفسير الوقائع بموضوعية، وتصبح أعماله وتصرفاته مع الناس متقلبة لا تخضع لقاعدة ولا تتسم بالاستمرار والاستقرار والنظام. وقد ينكر اليوم أشياء

قام بها بالأمس، أو يستغرق في تخیلات ليعوض عن فشله وعزله، ويضيق مجال علاقاته وأنشطته خوفاً من التعرض للانتقاد.

وربما دفع القلق صاحبه إلى أن يفعل أشياء لا يستطيع لها تفسيراً، ولو أنه يجتهد دائماً لإقناع نفسه والبحث عن المبررات. ويكون شعوره بالألم عظيماً عندما يكتشف أن أهدافه بعيدة المنال، وأن قدراته محدودة، وأن الصورة التي يحملها عن نفسه غير مطابقة للواقع، ولما يكنه الناس له من تقدير واحترام.

ولكن ليس هذا هو حال جميع القلقين. فالقلق يدفع بعض الناس إلى الاسترسال في الخيال والهروب من الواقع، والتهور في التصرف، والانغماس في النزوات المغرية، بينما يحفز صاحب الضمير اليقظ والطبع السليم، على العمل من أجل تحقيق ذاته، ويدفعه إلى التعويض عما يشعر به من آلام ونقص، بأن يقوم بأعمال يجد فيها اللذة والسلوان. فالناس يختلفون في سلوكهم وفقاً للطرق التي يتبعونها لإشباع الرغبات، والحصول على اللذة، ومجابهة المشاكل وتجنب الألم. وقد يجد شخص لذة كبيرة في العمل في حديقته، تفوق لذة الطعام الشهوي الذي ينتظره، ويجد شخص آخر لذة لا تعوض في إتمام لعبة "الداما" أو الشطرنج، بينما يجد آخر لذة ممتعة في تصليح خلل كهربائي في منزله، وهلم جرا.

الحيل الدفاعية



- تنسج دودة القز بيتها وتظل سجيئة داخله، وتنسج العنكبوت بيتها وتبقى طليقة خارجه.
(حكيم صيني)

- لحياة البادية مزايا ثمانية عن حياة المدينة: لا توجد فيها قيود مكانية وزمانية ضيقة، ولا زوار غرباء، ولا تنافس من أجل المناصب، ولا هموم تعكر القلب الغيور، ولا نزاع من أجل الخطأ والصواب، ولا ازدحام على مقالات الصحف، ولا اغتياب للمسؤولين والحكام، ولا مثيل لما فيها من لحم طازج وخمر صافية.

(حكيم صيني)

- وربما صحت الأجسام بالعلل.

(المتنبي)

- بعض الشر أهون من بعض.

- من المؤسف أن تحمل العذاب الفكري أيسر على الإنسان من تحمل الألم البدني، ولو أجبرت على الاختيار بين تأنيب الضمير وألم الضرس، لاخترت الأول.

HEINE

تجرى داخل البدن عمليات كيميائية مستمرة وأنشطة تلقائية دائمة، تعمل للمحافظة على صحة الإنسان. كما توجد عمليات نفسية ينبغي أن تظل متوازنة لكي ينعم الإنسان بالحياة السليمة. وقد تصاب العمليات الأولى بخلل، كأن تدخل الجراثيم البدن مثلاً فتنشط ذلك الميكانيزم الخاص بمحاربة الجراثيم الغازية، وقد يختل التوازن النفسي، فتنشأ عمليات دفاعية آلية للمحافظة على توازن الإنسان الداخلي، وعلى تلاؤمه مع المحيط. وكلما تعرض المرء لموقف خطير، سواء كان بديناً أو نفسياً، يحدث نوع من الاستثارة والتأزم النفسي، وتحصل تغييرات فسيولوجية، ويسعى الإنسان إلى معالجة المشكلة ومجابهة الخطر، مستوحياً خبراته السابقة، ومعتمداً على طاقاته ومهاراته، ويبدل جهداً يتناسب مع ما يتطلبه الموقف.

ويمكن القول من الناحية النفسية، أن عدم القدرة على معالجة الموقف الطارئ ينتج عن عوامل عديدة منها، أن يكون المرء قد مر بتجارب سيئة أثرت عليه وحطمت ثقته بنفسه، أو لم يبلغ درجة معينة من النضج، ولم يكتسب تجارب غنية تمده بالعون، أو تكون الظروف المعاكسة له شديدة قاسية، أو تكون لديه رغبة لا شعورية في معاقبة نفسه وتحمل الآلام أو غير ذلك. ويتعلم المرء في حياته أنواعاً من السلوك الإيجابي تساعده على النجاح، وتجعل أعماله أكثر فعالية، بينما يكتسب الناس عادات وأفكاراً سلبية تحد من فاعليتهم وتعرقل نجاحهم.

وهكذا يبدو أن النجاح والسعادة لا يأتیان عفواً، بل إنهما نتيجة التجارب والخبرات والعمل، والاستعدادات وكثير من الحظ. وهما يتطلبان كثيراً من النضج والواقعية والحكمة في كيفية استغلال المرء لطاقاته ومواهبه، وإشباعه لرغباته ودوافعه. ولكن ماذا يحدث عندما يواجه الفرد تجارب مزعجة مقلقة لا يقدر على السيطرة عليها، ولا على تحملها؟ إنه يحاول أن يخادع نفسه بطرق وأساليب ملتوية. فقد يدمن على الخمر، أو يلجأ إلى المخدرات الأخرى. وقد يلجأ إلى

الأحلام، أو الكبت، أو إلى التعويض، أو الإسقاط، إلى غير ذلك من وسائل الدفاع النفسية اللاشعورية. فما هي هذه الوسائل، ولماذا يلجأ إليها؟ الواقع أن القلق الشديد مزعج لدرجة تجعل الإنسان يضحى بجزء من تصرفاته العفوية وحياته الغنية الطليقة، ويقيد نفسه بمختلف وسائل الدفاع النفسية، للخلاص من القلق أو التقليل من سطوته.

ويلجأ المصاب إلى واحدة أو أكثر من حيل الدفاع النفسية بطريقة آلية وغير واعية، أي أنها تصبح عادات لا شعورية تساعد على إضعاف قبضة القلق والتوتر النفسي، وعلى طرد الحيرة والشكوك، ومنع الانفعالات السلبية الأخرى من الظهور إلى حيز الوعي. فوسائل الدفاع هذه تعمل على مستوى لا شعوري، وتتدخل عندما يعجز المرء عن مواجهة الواقع المرير، ويرغب في إخفاء الحقائق المزعجة، لتمنع حالته من التدهور إلى مستوى الحضيض، أو للمحافظة على الصورة التي كوّن لها لنفسه. وكأن وسائل الدفاع هذه ترفع معنوياته وتجعله يشعر بالأمن والاطمئنان مؤقتاً. ونحن نعرف أن الشخص يسعى عادة إلى إخفاء مواطن ضعفه وتبرير سلوكه، والمحافظة على قدر من احترام الذات، والحصول على احترام الأشخاص المهمين في حياته وتقبلهم له. ولا تتدخل وسائل الدفاع إلا عندما يعجز الفرد عن حل الصراعات والقضاء على القلاقل التي يتخبط فيها.

ولابد من القول إن هذه الحيل يستخدمها الأشخاص العاديون والمضطربون، ولكن بدرجات مختلفة. فهي أساليب من السلوك يخدم بها المرء نفسه، وليست علاجاً حقيقياً يستعمله الشخص عن وعي بغية التخلص من آلامه والحد من متاعبه النفسية. والدليل على ذلك أن الصراع والانفعالات التي سببت القلق تظل كامنة. ولا يقتصر المرء عادة على نوع واحد من وسائل الدفاع، لأن ذلك يقلل من مرونة تصرفاته، ويجعل سلوكه متجمداً، ومعاملته متشددة تتبع نفس الوتيرة، وتكرر بنفس الطريقة.

وليس ت هذه الحيل الدفاعية متساوية فيما تترك من آثار على الشخص. وهي وإن كانت تخفف من قبضة القلق، فإن بعضها يبعد المرء عن الواقعية أكثر من البعض الآخر. والواقع أننا نتكلم عن هذه الوسائل منفردة، ونقسمها ونفصلها عن بعضها في الشرح النظري بهدف زيادة الإيضاح، أما في الحياة الواقعية العملية فإننا نعرف أن الإنسان وحدة لا تتجزأ، وأن هذه الوسائل تعمل بطريقة معقدة، وتتداخل مع بعضها بدرجات مختلفة.

ومن حيل الدفاع الكبت؛ فالمرء يكبت تجارب مخيفة عاشها في طفولته، أو صدمات شديدة في أي فترة من حياته، أو الأعمال التي تخالف العادات والتقاليد والأخلاق، وتهدد الصورة التي كونها عن نفسه، أو كونها المجتمع عن الفرد. وإذا تجاوز الكبت حدوداً معقولة يصبح منبعاً للاضطرابات النفسية، وهو يستنزف طاقات كبيرة من الإنسان.

ومن حيل الدفاع التعويض، إذ يحاول كثير من الناس أن يبذلوا جهوداً زائدة للتعويض عن تقصيرهم في نشاط ما. فالشخص المنحدر من عائلة فقيرة يحاول أن يصبح غنياً أو عالماً، والفتاة التي ينقصها الجمال الجسدي تسعى لاكتساب مهارات تعويض عن هذا النقص، والطالب الذي ينقصه الذكاء يبذل جهداً أكبر لحفظ الدروس، ويلجأ الأشخاص المصابون بعاهاات إلى التعويض كأن يصبح من قطعت رجله سباحاً ماهراً، أو من كان أعمى أستاذاً مشهوراً.

ومن حيل الدفاع الإنكار، وهو أن يتظاهر المرء بتجاهل الواقع وعدم المبالاة بالخطر، وإن كان يتخذ الإجراءات ويجتهد للابتعاد عنه بصورة غير مباشرة. ومنها الإسقاط، بأن يصف المرء الآخرين بالأشياء المكروهة التي يتصف بها، كأن يتهمهم بالكذب أو الاعتداء أو البخل ليبرر تصرفاته. ومنها أحلام اليقظة التي تساعد المرء على الهروب من الواقع المرير، كأن يحلم المريض بعودة صحته، والضعيف بأنه أصبح قوياً قادراً على القضاء على

المعتدين عليه، والفقير بأنه تزوج امرأة ثرية أو ربح في اليانصيب، والجائع بأنه أمام أكالات شهية يسيل لها لعابه، والطالب بأنه نجح في الامتحان.

ومن وسائل الدفاع النكوص ، وهو أن يتصرف الطفل مثل أخيه الصغير، رغبة في الحصول على نفس المعاملة من الأبوين، أو يأتي البالغون بأعمال المراهقين أو الأطفال هروباً من أعباء المسؤولية وضغط الحياة اليومية. ومنها SOMATIZATION، وهو أن يتقبل المرء الأعراض الفسيولوجية للخلاص من القلق أو الشعور بالإثم أو غيرها، أي أنه يفضل أن يعاني من آلام جسدية معينة بدلاً من معاناة الانفعالات المزعجة. ومنها الأفعال والأفكار القهرية، وهي أن يقوم الإنسان بأعمال أو تستولي عليه أفكار معينة في أوقات أو أماكن محددة أو بصورة آلية لا شعورية، كأن يستحم كل يوم في الساعة الحادية عشرة ليلاً، أو يكرر كلمات لا معنى لها. ومنها التبرير، وهو أن يخترع المرء أعذاراً لإقناع الناس بأسباب فشله من أجل المحافظة على ثقتهم واحترامهم، وإبعاد الشعور بالنقص عن نفسه، ومنها حيلة العقلنة، بأن يرفض الشخص التعليل أو التفسير الحقيقي للحوادث، ويعمد لتحليلها بطريقة عقلانية.

ومنها DELUSIONS الأوهام ، فعندما تصبح المثيرات الخارجية مقلقة يلجأ المرء إلى بعض التصورات والأفكار للتخفيف من وقع القلق على نفسه. ومنها مشاعر العدوانية، بأن يصبح المرء كثير الانتقاد، قليل التسامح، يفكر في الانتقام. ومنها التقمص وهو عكس الإسقاط، لأن المرء يتلبس بأعمال الشخص الآخر. ومنها نشوء الارتكاس أو رد الفعل بأن يقوم المرء بأعمال عكس ما يرغب فيه. ومنها التثبيت، وهو ألا يبلغ الإنسان درجة من الرشد تكون في مستوى من بلغوا سنه.

ومن وسائل الدفاع أنواع الفوبيا أو المخاوف المرضية المختلفة، مثل الخوف من الأماكن المغلقة، ومن ركوب المصعد، والإفراط في الخوف من

ركوب الطائرة، ومن الأماكن العالية، ومن الجراثيم، والحشرات، ورهاب الدم، والموت .. إلى غير ذلك. وهي تعد من وسائل الدفاع، لأن الشخص القلق يفضل أن يقيد قلقه، فينيطه بشيء للتغلب عليه أو التقليل من شموله وخطوته.

ترجع المخاوف المرضية في أغلب الأحيان إلى تجارب قاسية عاشها الشخص في طفولته، وحوادث هزت نفسه، وصدّات ضعفت توازنه في أي فترة من حياته، فجعلته يفقد الثقة في الأنظمة والقوانين الطبيعية التي تُسيّر الحياة الفردية والجماعية والبيئية. وتتعلق هذه المخاوف أحياناً بمختلف أنواع السلوك الشاذة التي تخالف الضمير والأنظمة الاجتماعية. فإذا أخذنا كمثال حالة الأشخاص الذين يخشون الرعد، أو ركوب البحر، أو الأماكن العالية، أو التحدث أمام الجماهير، أو مشاهدة الدماء، نلاحظ أنهم يخشون هذه المواقف رغم اقتناعهم بأنه لا خطر فيها على الآخرين.

ويمتنع من يعانون من هذه المخاوف المرضية الوهمية عن القيام بأي نشاط يحرك شعور الخوف والقلق في نفوسهم. فإذا اضطّر أحدهم مثلاً إلى التحدث إلى الجماهير، أو مساعدة جريح، اضطربت حركاته، وجف حلقه وانعقد لسانه، وزادت نبضات قلبه، وهو لا يدرك الأسباب الكامنة وراء هذا القلق.

ويمكن القول باختصار أن الشخص عندما يواجه أزمات تهدد كيانه، ويعاني من تجارب تعرضه للخطر، يستولى عليه القلق، ويتعرض لعملية نفسية دينامية تربط في النهاية بين قلقه، وموضوع خارجي كالخوف من الأماكن الضيقة أو العالية، إذ أن السيطرة على هذه المواقف أسهل من السيطرة على القلق.

والواقع أن المخاوف المرضية قد تجعل حياة بعض الناس عسيرة ومعقدة. فإذا أصبح المرء يخشى أن يركب الطائرة، وأن يستحم في البحر، ويرهب زمجرة الرعد، ويرتعد بدنه من رؤية الدماء، أو الحشرات، ويخشى

الاختلاط بالناس، فلا شك أن حياته تفقد كثيراً من المرونة وتصبح محدودة الآفاق.

ويمكن للطبيب الخبير في هذه الحالة أن يدرس سلوكه، وأن يتفحص طريقة تفكيره، ويرشده إلى الوسائل التي تساعد على تربية سلوكه وتنظيم تصرفاته، ليخرجها من سيطرة الانفعال ويقربها تدريجياً من الواقع.

وربما كان علاج من يعاني من المخاوف الوهمية هو حمله على التعود تدريجياً على المواقف التي ترهبه، إلى أن تعود إليه الثقة بها، ويطمئن إلى الحياة العادية كما يراها الآخرون. ولا يرى علماء النفس ضرراً في حمل المرء على قبول القلق الناتج عن القيام بالأنشطة اليومية؛ (كالاختلاط بالناس وركوب المصعد ...)، لأن بديل ذلك هو فقدان المرونة ومزيد من العزلة.

وتوجد بالفعل طريقة لمعالجة من يعانون من القلق والمخاوف الوهمية، تتلخص في وضعهم في المواقف التي تخيفهم (بعد تهيئتها)، بحيث يتعرضون للمشاهد الحقيقية العادية التي تثير مشاعر القلق في نفوسهم. ولا بد من تكرار هذه المواقف لكي يتبين الشخص القلق أن المكروه الذي كان ينتظر حدوثه، عند المكوث في مكان مغلق مثلاً، لا وجود له. وترى النظرية الداعية إلى طريقة العلاج المذكورة، أن مسببات القلق الكامنة في اللاشعور تتضاءل قبضتها تدريجياً، ويزول ارتباطها بهذه الحالات التي كان يخشاها الشخص القلق.

وينبغي التحذير بهذا الصدد، من الخلط بين الدعوة إلى أن يعرض الشخص القلق من جديد للمواقف التي تخيفه، وهي مواقف مقبولة وعادية في نظر الناس، كما سبق ذكر بعضها، وبين النهي عن تكرار التجارب المزعجة المنبوذة، كأن يهين الأب ابنه أمام أقرانه، أو تتعرض فتاة للاعتداء عليها، أو يعاني شخص نتيجة حادثة قاسية أصابته، إذ ليس معقولاً أن يشفى تكرار الإهانة من الإهانة، ولا تكرار الاعتداء من آثار العدوانية.

والجدير بالذكر أن الشخص القلق، في حالات كثيرة، لا يدرك منبع

الانفعالات الهدامة التي ترهقه، ومدى ارتباطها بتفكيره وصحته، وبالقيم التي يؤمن بها. وقد لا يساعد مستواه الفكري على استيعاب الشرح والتفاصيل التي يقدمها الطبيب. فإذا جاء فلاح إلى الطبيب يشكو عسر الهضم مثلاً، فإنه يكتفي بأن ينصحه بالإقلال من أكل كذا وكذا، ومن التدخين وغيره بالإضافة إلى تناول الدواء الملائم. وكذلك في حالات المخاوف الوهمية يصعب تحديد أسبابها، ولذلك ينبغي للطبيب أن يساعد المريض بعبارات مبسطة على معرفة بعض المعوقات التي تمنعه من مواصلة نشاطه العادي، وإعطائه الإرشادات التي تعيد إلى نفسه بعض الثقة والطمأنينة. ويعود إلى الطبيب الخبير المعالج أن يقرر نوع التفاصيل والتعليقات التي يقدمها للمريض نظراً إلى اختلاف مستويات الأشخاص والمؤثرات المتنوعة التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار.

ولا شك أن قدرة الفرد على التخلص من المخاوف الوهمية، تتوقف كذلك على مقدار ما يتمتع به من استعدادات وكفاءات ومرونة وتجارب. فكلما عادت كفة قدراته واستعداداته كفة عبء القلق، أو زادت عليها، كان الخلاص من هذا الأخير أيسر وأخف. وكلما زاد شعور المرء بالعجز عن مكافحة المخاوف التي تهدد نشاطه وهدوءه، ثقل عليه العبء وعسر الخلاص منه، ولذلك يُنصح المصاب بالقلق أن يقدم على كل ما شأنه أن يدعم ثقته بنفسه، ويُزيد عدد تجاربه الناجحة، ويُعزز الجوانب الإيجابية في حياته؛ ويتجنب الحوادث التي تزيد شعوره بالفشل والخيبة.

وقد يحتاج الأشخاص المسنون إلى بذل جهد أكبر للتخلص من الأوهام والوساوس التي أصبحت جزءاً من أسلوب حياتهم، والتكيف مع المتطلبات الجديدة، والتخلص من المخاوف الوهمية والعادات السيئة التي أصبحت متحجرة لدرجة يصعب تفكيكها وضمحلها.

النجاح في الحياة

- ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الدُّنْيَا﴾ (قرآن كريم)

- حياة الرجل العادي، وحريته، وسعادته، وما يملك تحت رحمة أشخاص
قلائل لا يعرفهم، وهم منهمكون في نزاعات لا يعرف تفاصيلها.

مقتبس من دستور "عصبة الأمم"

- لا يشعر بالسعادة الحقيقية إلا أولئك الذين يركزون على أعمال ترتبط
بسعادة غيرهم، وعلى تحسين مستويات الحياة الإنسانية بصفة عامة.

J.S. MILL

- من يركض وراء النجاح كمن يقود سفينة في أعالي البحار، قد يلقي ريحا
طيبة، وقد تحوط به رياح عاتية تحطم حياته.

- الرأي العام لا يسأل عادة عن الوسائل والأساليب التي حقق بها المرء
نجاحه، إنه يرى بريق النجاح أكثر مما يرى حقيقة العالم المتواضع

- رأيت أقل الناس همًا أشدهم قنوعا وأرضاهم بما هو فيه
ولا خير فيمن ظل يبغى لنفسه من الخير ما لا يبتغى لأخيه

- المرء يغلط في تصرف حاله ولربما اختار العناء على الدعة
كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة

◆————— الإنسان والقلق —————◆

- النجاح ألا تحتاج إلى الأشياء التي لا تستطيع الحصول عليها، وأن تعجب بها من غير أن ترغب فيها.

- عندما يشير الحكيم بأصبعه إلى القمر، لا يتجاوز بصراً الأحمق موقع أصبع الحكيم.

(حكيم صيني)

- النجاح مفهوم دينامي، نسبي، غير موضوعي، وهو يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالانفعالات الإيجابية أحياناً، وبالانفعالات السلبية الضارة تارة.

النجاح مفهوم دينامي :

يرى معظم الناس في هذا العالم أن النجاح طموح لا يفتر، وتطور وتقدم متواصلان، وتلهف لا يهدأ، ورغبات متتابعة، وتطلعات مستمرة، وكسب لا ينقطع من القليل إلى الكثير، ومن الكثير إلى الأكثر، وتنافس جامح، وتسابق لا ينتهي، وجشع لا يهدأ، كثيراً ما يجعل الإنسان لا يميز بين الوسيلة والغاية. وكما تتعدد الرغبات والأهداف التي يسعى المرء إلى النجاح في الوصول إليها، وتختلف بصورة عامة بحسب مراحل العمر التي يمر بها:

(1) النجاح في مرحلة الطفولة الأولى.

(2) النجاح في مراحل الدراسة وتعلم المهنة.

(3) النجاح في الحصول على العمل المناسب.

(4) النجاح في الزواج وتكوين الأسرة.

(5) النجاح في التمتع بشيخوخة سعيدة.

وكثيراً ما يسير التفكير على النحو التالي: " عندما أنجح في البكالوريا أو أتعلم المهنة، سأجتاز مرحلة هامة في حياتي ...، عندما أنتهي من الدراسة الجامعية ستتفتح أمامي مجالات واسعة ". ويواصل الشاب سعيه نحو " النجاح "، مزوداً بالشهادة التي حصل عليها، أو المهنة التي تعلمها، مخططاً لتحقيق الرغبات التي يسعى إليها، مدفوعاً بما أوحى له به الأسرة والبيئة من أفكار وتعاليم، وبما جهزته به الطبيعة من إمكانيات غزيرة أو ضئيلة.

ويواصل حياته وهو يحدث نفسه: " عندما أجد العمل المناسب سأستريح واطمئن، وعندما أحصل على المنزل المريح ستكتمل راحتي ...، وعندما أجد الزوجة (الزوج) الملائم سيتم هنائي وسعادتي ...، وعندما أصبح مديراً، وعندما أجمع ثروة، وعندما يكبر الأولاد ويستقلوا ...، وعندما أشفى من هذا المرض ...، وعندما أتقاعد ... ".

وهكذا، فكلما حقق رغبة، بدت له رغبات، وكلما بلغ هدفاً، عنت له أهداف، وكلما اجتاز مرحلة اندفع إلى التي تليها، وكلما اجتاز "عندما" تآقت نفسه إلى "عندما" أخرى. وكلما صعد درجة في سلم النجاح، تغمره مؤقتاً موجات ضعيفة أو قوية من الشعور بالثقة والغبطة والتفوق والعزة. وقد يقف قليلاً أو طويلاً ليتمتع بثمار نجاحه، غير أنه سرعان ما يعتبر هذه الدرجة خطوة نحو الصعود في سلم النجاح، ووسيلة لبلوغ أهداف أخرى، وكلما ارتقى سلم النجاح تفتحت أمامه مجالات أخرى على مسرح الحياة.

وعندما يجد الطالب لنيل الشهادة أو تعلم المهنة، ويحرص الموظف على التقدم في سلم الوظيفة، والفلاح على إنتاج محاصيل غزيرة جيدة، وصاحب المصنع على تطوير مصنوعاته، والتاجر على فتح أسواق جديدة، فإنما يسعى كل واحد من هؤلاء إلى تحقيق أهداف ليست مقصودة في حد ذاتها، بل إنما هي مطلوبة كوسيلة لتحقيق الأمن والاطمئنان، ولتتمتع بالحياة، أو لبلوغ الشهرة والتفوق والسلطان.

النجاح مفهوم نسبي :

والنجاح أمر نسبي يختلف مدلوله في المكان والزمان، وحسب ظروف الإنسان وإمكانياته. فيختلف محتواه باختلاف سن الشخص، وثقافته ومستوى تعليمه، ومدى طموحه، وصحته، ومبادئه، والبيئة التي ترعرع فيها، والأخلاق التي نشأ عليها، وغير ذلك من الحوافز، والمعوقات، والاستعدادات، والتطلعات.

فقد ينحصر النجاح لدى بعض الناس في الأمور الأساسية مثل الغذاء، والأمن؛ وتتسع مجالاته لدى آخرين فتشمل رغبات لا تشبع ومجالات لا حدود لها. والنجاح بالنسبة للفلاح المعدم في بنجلاديش وأنجولا وكولومبيا يتمثل في الحصول على قوت الأسرة، وهو في نظر رجل الأعمال في نيويورك،

والفئات الثرية في تكساس، سويسرا، أو استراليا، يشمل عمليات مثل ارتفاع أسعار السندات، والهيمنة على السوق، والتغلب على المنافسين، وتوسيع المصانع، والتحكم في أذواق المستهلكين، وبناء القصور، وتنظيم الحفلات الفاخرة... إلخ.

وسواء كان النجاح ينحصر في نطاق كسب العيش الضيق، أو يتسع نطاقه حتى ينسى صاحبه نفسه وأهله وراحته، فإنه لا يتحقق إلا بقدر مناسب من الطموح، وهناك الطموح المعقول الذي يعتبر انفعالاً إيجابياً ضرورياً للبقاء والارتقاء، فلا بد للمرء أن يكد ويجد لتحقيق التقدم المادي والمعنوي.

وأى إنسان عاقل لا تغريه المغامرة الناجحة والتغلب على الصعوبات؟ إذا كان هذا يعني استغلال طاقاته وإمكانياته الفكرية والبدنية لتطوير الحياة وخدمة البشرية. والطموح فضيلة إذا كان لا يدفع صاحبه كالسيل فيجرف الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل، ويدمر الطبيعة، ويستعبد الإنسان، ويحطم التواضع، ويخفق الاعتدال، ويقضي على الرحمة والتعاطف. وحبذا الطموح إذا كان وسيلة لإنجاز الأعمال المطلوبة، وتحقيق الأحلام والآمال، شريطة أن يتقدم صاحبه متئداً مستقيماً وليس على أربعة مثل الحيوان؛ ومن غير عرقلة سير الحياة، والإخلال بنظام الطبيعة الحيوي. وحبذا الطموح إذا كان يهدف إلى تحقيق أكبر قدر من الراحة والسعادة لأكبر قدر من السكان، وإلى توسيع المعارف، واكتشاف أسرار الطبيعة واستغلالها، وإلى تعميم الخيرات.

وكم نلاحظ في الحياة العادية من أناس مندفعين في طموحهم، لا يقفون عند حدود، فيعيشون في جو من التنافس المميت، وتصبح رغبتهم العارمة في النجاح دافعاً إلى العدوانية وسبباً في القلق. ولعل هذا النوع من الطموح هو الذي أغرى آدم بإتيان المعصية، ودفع قابيل إلى ارتكاب الجريمة.

ونحن نشاهد، بل ونلمس، في إطار هذا الجو التنافسي بين الشركات والبلدان، ما يواجهه الإنسان اليوم من أخطار تقلق باله، وتعكر صفو حياته، وتهدد مصير الأجيال القادمة، نتيجة تلوث الماء والهواء، والأنهار، والبحار، وتسمم الغابات، والسحب، والمزروعات، وتدهور البيئة الحيوية. والسبب في هذا كله هو التسابق دون هوادة نحو المزيد من النجاح، ولكن بأي ثمن! ولا يمكن لعجلة هذا النجاح أن تستمر في الصعود دون تعديل مسراها، ولولم يحصل هذا لما استطاع الإنسان أن يتحمل أعباء نجاحه.

النجاح والانفعالات :

يبدو مما سبق ذكره أنه ينبغي التمييز بين النجاح الظاهري المحدود، والنجاح الحقيقي الشامل. ويرتبط هذا الأخير ارتباطاً وثيقاً بالانفعالات الإيجابية الصحية مثل التفاؤل، والحماس، والمرح، والاطمئنان، والثقة بالنفس، والمحبة، وفعل الخير، والإقبال على الحياة. وهو عكس الفشل الذي يفقد المرء الإمكانيات الإيجابية، ويملاً حياته بمشاعر العدوانية، والحقده، والأناية. وليس للإنسان الحق في أن يحتكر لنفسه ثمار النجاح، كما ليس له الحق في أن يستغل خيرات الأرض من غير أن يشارك في إنتاجها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولهذا لن يكون النجاح حقيقياً إذا لم يشارك الناجح الآخرين في مسرته ومنجزاته. وليس ضرورياً أن تكون هذه المنجزات ضخمة عظيمة، بل يكفي أن يشعر المرء بدافع خيري داخلي يحمسه لتحقيق إمكانياته، وأن يتقبل المرء منجزاته مهما كانت محدودة القيمة، ما دامت تحقق له الرضا وتبعده عن الشعور بالقلق.

وللنجاح مجالات متعددة: مادية، وروحية، واجتماعية وفردية، وأخلاقية وثقافية، وعاطفية، وغيرها. ونجاح الإنسان خاضع لقوى خارج إمكانياته وعوامل اجتماعية وطبيعية لا يتحكم فيها وحده. غير أنه يستطيع أن يؤثر عليها ويوجهها ويستغلها، وأن يتوقف عند حدود معينة أو يتعداها.

وقد يكون هذا الإنسان عالماً أو زعيماً أو ثرياً أو قائداً أو ممثلاً، ولكنه يظل بعيداً عن النجاح الحقيقي، لأنه مهما حصل على الشهرة والسلطة قد لا تتوافر له العوامل النفسية الأساسية لراحته وسعادته.

فلا بد أن تتوافر في النجاح الحقيقي الجوانب الروحية والعاطفية، والأخلاقية. فإذا حقق امرؤ نجاحه بالحيل والمناورات والأساليب غير المشروعة، وضى بصحته وراحة أسرته وتربيته أولاده، واعتبر النجاح معركة يناضل فيها بدون هوادة، وينافس من غير رحمة، ودخل هذه المعركة متلهفاً متوتراً، وأصبح كالوحش مكشراً، يغتزم الفرصة لتحطيم منافسيه الضعفاء وليبني صرح نجاحه على حسابهم، وهو أثناء بناء صرح نجاحه تتلاطم في فكره موجات العدوانية والانتقام، وتسرى في أعصابه كهرباء الخوف من الفشل، ويحس في أمعائه بتقلصات عصبية محرقة، وتقض مضجعه هموم التردد والحيرة والشعور بالذنب، فلا شك أن هذا النوع من النجاح يكلف صاحبه غرامة نفسية، ويحرمه من راحة الضمير، ويبعده عن الرضا عن النفس والاطمئنان إلى من حوله.

وللنجاح الظاهري بريق مزيف، يضيف على صاحبه صورة لامعة تغطي العيوب والغلطيات ويحيطه بهالة من التحبب والاحترام قد يتجاوز بكثير ما هو أهل له، فيدفع صاحبه إلى الغرور والكبرياء والأنانية. ولا شك في أن النجاح يجلب النجاح، مثلما المال يجلب مزيداً من المال. وبما أن الناس ينخدعون بالمظاهر عادة، ولا يحكمون على الشخص إلا بما يملكه من ثروة وسلطة، فإن الناجح يجعل ذلك سبيلاً لبلوغ اعتراف الناس به وتقديرهم له. غير أنه يظل يدور في حلقة مفرغة، كلما اتسعت ثروته ونما سلطانه قال هل من مزيد. ولعله يدرك في النهاية أن سعادته معلقة بعوامل خارجية، وأن حياته فارغة ونجاحه فاشل ناقص ومزير. إنه مثل الدخان يتصاعد نحو

السماء ليلوث الأجواء النظيفة، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

أما شجرة النجاح الحقيقي فتأتي بثمار طيبة، يمكن تلخيصها في أن صاحبه يتمتع حقاً بالانفعالات الإنسانية الخيرية الإيجابية التي تجعله ينعم بتفكير واقعي سليم، وتزيد حياته صفاء واستقراراً، فلا يتغير سلوكه في حالات الرخاء والشدة، وتجعل نجاحه نعمة له ولغيره، وتساعد على بلوغ التوازن النفسي والتكامل الذاتي والعاطفي، وعلى الوئام والتوافق والانسجام مع من حوله، وترفع معنوياته، وتزيده ثقة بنفسه، وبالمستقبل والحياة.

ومن ثمار النجاح الحقيقي أن يعيش المرء بقلب طيب قنوع منشراح، وفكر لا تكدره الهموم العادية، وضمير هادئ، ونفس راضية، ورغبات محدودة، يشعر بأنه واحد من ملايين البشر التي تقطن هذا الكوكب، وأنه مُركَّب من الذرات السابحة في هذا الكون الفسيح.

ولكن لا تتوافر في الإنسان الصفات المذكورة، ولا يصل إلى هذه المرحلة من التفكير السوي إلا إذا حصل على الأساسيات من غذاء وأمن وعطف، وعلى التربية السليمة التي تنمي في نفسه المشاعر الطيبة، وتسمح لتفكيره بالدخول في دائرة النجاح الكبيرة الشاملة، وتساعد على تطوير طاقاته لينفتح نحو الخارج، بدلاً من الانكماش على أنانيته، وهذا يعني إشراك غيره فيما يكسب من خيرات مادية ومعنوية.

ولا يمكن للمرء أن يصل إلى النجاح الحقيقي بدون قناعة واعتدال. وهو يتمثل في التمتع بما حضر من غذاء وشمس وهواء، والبساطة في القول، والعلاقات مع الناس دون تصنع، وفي التصرفات العفوية الصريحة حسبما يمليه الطبع، وفي أن ينمي أحسن ما فيه، ويكبح أسوأه، وأن "يفقد" نفسه ويبحت عنها في غيره من بنى الإنسان، وأن يكون له عمل يؤديه بحماس، وطموح محمود يبقى جذوة الأمل والحياة مشتعلة في نفسه.

قال أحد الحكماء " لا تقل أنا أغنى منك، ولهذا فأنا أفضل منك؛ وأنا أفصح منك فأنا أعلى منك شأنًا "، بل العلاقة المنطقية أن تقول: " أنا أغنى منك، ولهذا فممتلكاتي أوسع من ممتلكاتك، وأنا أفصح منك، ولهذا فأسلوبي أوضح من أسلوبيك، لأن وجودك كإنسان لا ينحصر فقط في ثروتك أو فصاحة لسانك ".

طرحت على عدد من الناس السؤال التالي (1): " ما هورأيك في النجاح في الحياة؟ "، وفيما يلي وجهات نظر من تفضل منهم بالإجابة:

* موظفة بلغارية، عمرها 41 سنة

السعادة والنجاح قد يكمنان في أبسط الأمور وأقلها كلفة، وفي أن تكون تصرفات الإنسان الظاهرية تعبر حقيقة دون نفاق ولا تصنع ولا تكلف عن مشاعره الداخلية. ويظن كثير من الناس، ممن تدعهم المظاهر، أن النجاح أن يكون المرء نجماً سينمائياً لامعاً، أو موسيقاراً أو فناناً ذائع الصيت، أو زعيماً كبيراً، أو غنياً واسع الثراء.. إلخ، والحقيقة هي ما نقرأ عن حياة الكثير من هؤلاء، وهي أنهم لا يتمتعون دائماً بالسعادة والهناء.

* موظف مصري، عمره 43 سنة

النجاح في نظري هو قدرة الشخص على تأكيد ذاته، وبيت الثقة في نفسه من خلال إنجازات معينة تحتل بؤرة شعوره، وتكسب حياته معنى فريداً. وتتولد عن النجاح حالة من الارتياح والشعور بالرضا، تؤدي إلى نوع خاص من التكيف الاجتماعي، يكون في الغالب إيجابياً نتيجة الثقة بالنفس وتأكيد الذات، وقد يكون سلبياً إذا صاحبه حالة من الترفع والرجسية.

(1) طرحت ذلك السؤال على عدد من موظفي منظمة الأغذية والزراعة في روما (FAO) وعلى غيرهم.

ولقد كانت النتائج المبهرة التي حققها أعلام الفكر والفن والأدب، بمثابة نقطة انطلاق لهم وجذوة أضواء الطريق لغيرهم، لكنها لم تكن بالضرورة معياراً لشعورهم بالرضا والسكينة، فكثير منهم قضي نحبه بيديه.

* موظفة فرنسية، عمرها 25 سنة

النجاح عندي هو أن تضع رجلك أينما تريد، شريطة أن لا تدعس على إنسان آخر، وأن تختار العمل الذي يناسبك، وليس ما يرضى أبويك. وليس من الضروري أن يصير المرء مهندساً أو طبيباً أو محاضراً مشهوراً، بل قد يضم قلب الفلاح البسيط سعادة يحسده عليها الملوك.

* موظف إنجليزي، عمره 48 سنة

النجاح ! أيها الإله العنيد المزيف، كم رفعت من آمال، وحطمت من أحلام ! عندما تصبح إنجازاتك هدفاً في حد ذاتها، تغشى البصر وتطمس الأفق. كم داست باسمك الطموحات الفردية المتوحشة أناساً أبرياء، وحطمت راحتهم، وكرا متهم، وأمنهم.

أيها الإله الزائف المتقلب، إلى متى تتحمل ذنوب الأشخاص الذين حطمت أبدانهم ومعنوياتهم، فأصبحوا جثثاً مبعثرة تحت أقدامك !؟

ولكم يقاس النجاح في عالمنا المتحضر بالمعايير الخارجية (الهستيريا):
صياح الجماهير، وأكداس الأوراق المالية !

ولكن للنجاح جانبه الإيجابي المشرق عندما ننصت لنداء الضمير، نتبع المعايير الداخلية. ومن الحكم الشهيرة الداعية للاعتدال والتواضع " لا تفرط فيما تطلب"، "ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه". والإنسان الذي يستطيع أن يقاوم المغريات المادية الجامحة المهلكة، يستطيع أن ينعم بالدفء الداخلي الذي ينتج عن أي انتصار فردي مهما كان متواضعاً، أو عن مجرد الاقتناع بأنه بذل قصارى جهده.

*** طالبة تونسية، عمرها 22 سنة**

النجاح في رأيي أن يوفق المرء في إيجاد العمل الذي يحبه، وأن يكون مستقراً في حياته الزوجية، وأن تكون تصرفاته لإرضاء ضميره، وليس فقط للمباهاة أو إرضاء الناس.

*** سيدة مصرية، عمرها 49 سنة**

كل إنسان يحمل على وجهه خماراً يظهره على غير حقيقته، ومن يستطيع أن يرى الإنسان من غير خماره يصل إلى حقيقة الإنسان الشاملة العالمية، ومفادها أن البشر متشابهون في حاجاتهم وآمالهم وآلامهم. ولهذا تهدف الأديان إلى التغلب على الفروق الظاهرية للوصول بالناس إلى المحبة والتفاهم، وهذا هو النجاح في رأيي، لأن المحبة تقضي على الانفعالات السلبية مثل الحقد والغيرة والحسد والعدوانية، وبذلك يزول الشعور بالضعف، وينتشر الأمن، فيعيش الشخص مطمئناً في حياته، وهذا هو أساس الأخلاق الفاضلة.

*** طالب جزائري، عمره 22 سنة**

النجاح في الحياة أن يساعدك الحظ وأنت في بطن أمك، فيجهزك باستعدادات وراثية سليمة، وأن يبتسم لك بعد ميلادك، فتجد نفسك عندما تفتح عينيك في أسرة موسرة، وأن يحالفك أثناء حياتك، فلا تموت في وقت مبكر في حادث سيارة أو غيره.

*** رجل أعمال فلسطيني، عمره 54 سنة**

النجاح هو انسجام الشخص مع نفسه، والانسجام داخل الأسرة، والعمل بجد ومواظبة وطموح وحماس، والحصول على الخبرة الكافية، والتخطيط للحياة، ولا بد أن يكون للمرء حلم وأهداف عظيمة يسعى لتحقيقها.

*** فلاح جزائري، عمره 51 سنة**

النجاح طاعة الله، وأن يحصل المرء على قطعة أرض ليعيش مستوراً، ولا يمد يده طمعاً في غيره، وأن يطول العمر حتى أزواج أولادي، وأحج بيت الله.

*** موظف مصري، عمره 44 سنة**

النجاح في الحياة هو القدرة على الحياة بدون آلام جسدية ولا نفسية، وهو قدرة المرء على كسب الرزق، وتقبل المجتمع له، وقدرتي على العطاء، وإنتاج شيء تستفيد منه الإنسانية جمعاء. ويكون النجاح أسهل على من حالفهم الحظ.

*** موظف إيطالي، عمره 46 سنة**

النجاح في الحياة في رأيي هو القدرة على تحقيق أشياء يعترف لك الناس بها، وليس الركض وراء الثروة التي إذا تجاوزت حدوداً معينة تصبح عائقاً في طريق السعادة. وهو ألا يكون الإنسان معتمداً على غيره، وأن يحقق التوازن العاطفي والفكري، وأن يحتفظ المرء بحريته الخاصة في عمله وتنقلاته واختياراته. والنجاح ألا يتعمق المرء كثيراً في تحليل أمور الحياة، لأن هذا قد يؤدي إلى بلبلة الفكر وحيثته.

*** سيدة استرالية، عمرها 29 سنة**

يبدولي أنه يوجد نوعان من النجاح: ظاهري وخفي. فالظاهري يعني أنك تملك منزلاً وسيارة، وتتقدم في السلم الوظيفي، ولك زوجة حسنة، أو زوج لطيف، وأطفال موهوبون... إلخ، وهو يتمثل في الأشياء التي يمكن أن يشاهدها أصدقاؤك ويعجبون بها.

أما النجاح الخفي فليس من السهل تحديد جميع خصائصه، لأنه أسلوب حياة لا يمكن شراؤه، وهو يتمثل في السلام الداخلي، وأن تتصرف

وفقاً لطبعك دون تكلف ولا تصنع، وأن تعيش على حقيقتك دون محاولة إقناع الناس بالاختفاء وراء المظاهر.

*** حارس إيطالي، عمره 55 سنة**

هناك النجاح الكاذب والنجاح الحقيقي، وعندني أن هذا يتمثل في المحبة والإيثار. إن جميع الناس يفتشون عن المودة والعطف والمحبة. ولو سادت هذه الصفات لساد العدل، ولو ساد العدل لساد السلام.

*** موظفة صينية، عمرها 33 سنة**

ليس النجاح أن يكون الإنسان مثل الحمار يحمل أسفاراً، ولا أن يعمل مثل الحيوان ليلاً ونهاراً، بل النجاح في أن يكون ماهراً في استغلال الفرص والظروف، والحصول على أكبر قدر من المتعة بأقل جهد ممكن. والنجاح في أن تترك الأمور تأخذ مجراها، بدلاً من إفناء العمر في محاولة إحداثها أو منع ذلك، وعندما تنضج التينة تسقط من تلقاء نفسها.

*** موظف هولندي، عمره 39 سنة**

النجاح عندي أن أفعل ما أحب، وأقول ما أحب، وأقرأ ما أحب، وأذهب إلى أين أحب، ومتى أحب، من غير ضرر ولا ضرار؛ وأن أقلل من الساعات التي أقضيها في المكتب لأقضي وقتاً أطول مع زوجتي وأولادي ومكتبي.

*** موظف باكستاني، عمره 52 سنة**

النجاح في رأيي أن يكون حالك اليوم أحسن من أمس، وأن يتجاوز دخلك في الشهر مجموع المصاريف، وأن تكون معدتك سليمة، وزوجتك ماهرة في الطهي، وبعد ذلك أترك لغيري أن يغرق في الثراء كما تغرق الذبابة في العسل.

*** موظف جزائري، عمره 56 سنة**

حياة الإنسان فوق ظهر البسيطة أشبه بمغامرة مأسوية، ونهايك

بنجاح نهايته الفناء. ويحتاج الإنسان في محاولاته ومساعدته لتحقيق النجاح إلى قدر كبير من الحظ والذكاء. ومحاولاته أشبه بلعبة نرد يلقي اللاعب فيها بمكعباته فيحصل على أرقام مختلفة يستغلها في تركيباتها المتعددة حسبما تسمح له به الظروف. ولا شك في أن النجاح الشريف يتطلب قدراً من الحكمة والفضيلة، ولكن لا ينبغي أن نخادع أنفسنا، أو نغطي الشمس بالغربال، إذ أنه إلى جانب الأخلاق الفاضلة والحظ، لابد من المال لتحقيق قدر من السعادة. ونحن نعيش في عالم مادي يخضع للقوة ولا يرحم الضعيف.

* صحفي كندي، عمره 41 سنة

النجاح موضوع شائك يحتمل تعاريف متعددة. ولا أستطيع أن أوجز لك رأي في فقرة واحدة، ولكن أذكرك نبذة عن حياة جون ديفسون روكفيلر (1839-1937) الذي حقق نجاحاً هائلاً في الأعمال، وهو صاحب شركة ستاندرد أويل المشهورة. ولكن أنهكته الهوموم وحطمه القلق وهو يركض وراء الكسب بدون هواية، وينافس بدون رحمة، حتى أصبح وهو في الخمسين من عمره يعاني أمراضاً نفسية وبدنية حرمته من التمتع بالحياة.

وبدأ يشعر بالفشل على الرغم من جميع ما حقق من نجاح ظاهري، وكان عنيداً بخيلاً لم يحظ بقدر من المودة والاحترام ممن كانوا يعملون معه، بل وحتى من بعض أقربائه. وعندما شعر بخطر القلق يهدد صحته، ونصحه الأطباء بأن يبتعد عن مجال الأعمال وأن يستجم ويسترخي ويغير نظرتة للأمور، أدرك أن هذا هو سبيله الوحيد لعلاج متاعبه. وراح جون د. روكفيلر، الذي كان ينهار نفسياً إذا خسر صفقة واحدة، يتبرع للمشروعات الخيرية بسخاء. وهكذا كان الجزء الأول من حياته مثلاً على الجشع والركض وراء الثروة بعناد لا يرحم، ثم رجع إلى نفسه، بعد أن كادت تقضي عليه متاعب الجشع، فكان الجزء الأخير من حياته مثلاً على البذل والسخاء، وفي ذلك عبرة لمن يعتبر ويتعظ بغيره.

الختام



- سأل لاوتسي أحد تلاميذته النصيحة فأجابه قائلاً: انظر في فمي، هل أسناني موجودة؟ قال: لا. قال: هل اللسان موجود؟ قال: نعم. فقال الأستاذ: تحطمت الأسنان لأنها صلبة، وبقي اللسان لأنه مرن. LIU HSIANG

- للحياة هدفان، الحصول على ما نرغب فيه أولاً، والتمتع به ثانياً، ولا يحقق المرحلة الثانية إلا ذوو البصيرة. LOGANI. P. SMITH

- لا يمكن التخلص من العادة برميها من النافذة، بل لابد من إنزالها من السلم، درجة بعد درجة. MARK TWAIN

- لا يحق لنا أن نستهلك السعادة دون إنتاجها، مثلما لا يحق لنا أن نستهلك الثروة دون إنتاجها. G.B. SHAW

- الإنسان مجموعة من العلاقات، وحزمة من الجذور، ثمرتها العالم.

EMERSON

- عندما يريد الناس القيام بعمل ما، لا يسألون عن الحقائق فقط، بل إنهم يفضلون دافعاً واحداً يقنع القلب ويثير الحماس بدلاً من عشر حقائق جافة.

KEITH LEAVITT

- الحياة مثل الآلة الموسيقية، يجب أن تتوتر ثم تسترخي لتعطي أنغاماً ممتعة.

DEMOPHILE (VI B.C.)

تحدث في حياة كل إنسان عوامل تعرقل انتظام حياته وانسجامها، أو تسبب خللاً في علاقاته الإنسانية، أو تهدد موارد أمنه وراحته. وأمام هذه الظروف الطارئة التي تختلف شدة وعمقاً، يواصل المرء منذ ولادته محاولات التكيف مع المحيط، ويسعى إلى الانسجام مع الناس والبيئة والظروف المتغيرة، فهو ينفق من طاقته لمواجهة التجارب والخبرات الجديدة، وتعلم المهارات والعلوم، ويبدل جهداً لمجابهة ما يعترض سبيله من عراقيل ومشاكل في حياته اليومية.

فإذا لم تنجح محاولاته في تحقيق الهدف المطلوب، وكانت التجارب مزعجة وقاسية، فلم تساعد طاقته المحدودة على تحملها، ولم يمكنه مستوى الجهود التي يبذلها من إزالة العراقيل، والقضاء على المشاكل التي تواجهه، شعر بتوتر نفسي وبدني. فالإنسان يكون عرضة للتوتر مثلاً عندما يتقدم إلى الامتحان، أو يشرع في عمل جديد، أو يبتعد عن عائلته لأول مرة، أو يغير أسلوب حياته، أو يتعلم مهنة جديدة، أو يطرد من عمله ... إلخ.

ولهذا يمكن القول إن التوتر، على اختلاف درجاته، يأتي نتيجة ما يبذل المرء من محاولات شاقة، وما يعترض سبيله من تجارب قاسية وحوادث مكروهة، ونتيجة ما يعانيه من مشاعر وانفعالات مؤلمة، ومواقف متعبة، يعجز عن التغلب عليها أو التكيف معها. فالذي يتعرض للبرد القارس، أو الحرارة الشديدة يشعر بالتوتر، والذي يعاني من الخوف أو المرض أو الجوع أو الإهانة يشعر بالتوتر، وكذلك الشعور بفقدان الأمن، وبالذنب، والصراع، والخيبة، والغضب، والاحتقار، يخلق توتراً في بدن الإنسان، ويجعله يشعر بالقلق والتعب والتأزم النفسي.

وتزداد عوامل التوتر في المدينة عادة، لأن الفرد يضطر لقيادة سيارته يومياً، ويتعرض لمقدار أكبر من المنافسة وضغوط المهنة، وتتعدد الاختبارات، ويواجه العديد من مواعيد الدفع والقبض، وكثيراً من الأنشطة التي تزيد معها

احتمالات الفشل والخيبة. ففي المدينة ينفق المرء بصفة عامة طاقات أكبر من أجل التلاؤم والانسجام، بالمقارنة بساكن القرية الذي يعيش حياة أكثر هدوءاً وأقل اضطراباً، ويتعرض لمقدار أقل من ضغط الحياة وسرعتها وتقلباتها ومطالبها.

غير أن مقدار ما يعانیه الفرد من توتر، يتوقف كذلك على ما ورث من آباءه وأجداده من طاقات واستعدادات فكرية وبدنية، وعلى تجاربه النفسية واستجاباته للضغوط العائلية والاجتماعية، ومدى طموحه واستعداده للمنافسة، ورغبته في أن يحرز قصب السبق، ويحتل المكانة المرموقة والمركز الأول.

كما ينتج التوتر عن كل ما يؤثر تأثيراً سلبياً على الفكر أو البدن، كاختلال توازن العمليات الفيسيولوجية، والأمراض والآلام العضوية، والاضطرابات النفسية التي تستنزف طاقة كبيرة من الإنسان، وتعرض بدنه لدرجة أكبر من الهلاك والبلى. وهكذا يتضح أن الناس ليسوا سواسية في المعاناة من التوتر، وفي استجاباتهم للمثيرات، فمنهم من يبدو وكأنه قيثاره شددت خيوطها بقوة، فهي تصرخ لأقل لمسة. وهذا الصنف حساس للحوادث، ينفعل لأقل تغيير معاكس، وتكون ردود فعله شديدة أكثر مما تقتضى الظروف، وهو لذلك يستهلك طاقاته ويستثار بسرعة، ويشعر بالضعف والشيخوخة قبل الأوان، لأن شمعة حياته تظل تشتعل من طرفيها.

ومنهم من تتصف حياته بالهدوء، واستجاباته للحوادث بالاعتدال، وتكون تصرفاته متوازنة وفقاً لما يتطلبه الموقف. وهذا الصنف يستهلك طاقاته الحيوية بحكمة، ويستثمر موارده باعتدال وتوازن، فيما من شأنه أن يحقق له التقدم ويجلب له الراحة والاطمئنان. وإذ قلنا إن الإنسان عبارة عن مقدار محدود من الطاقة، تتجدد بالصيانة والوقاية وحسن الاستهلاك، وتتدهور بسوء الاستخدام، فإنه لا يكون في وسعه أن يستمر في تبذير أكثر مما يسمح به تكوينه من إمكانيات وموارد، دون أن يلقي بنفسه إلى التهلكة.

وإذا لم يكن بوسع المرء أن يتجنب التوتر كلياً، فيمكنه على الأقل أن يقيم طاقاته، ويحصى موارده، ويستهلكها ويستثمرها بطريقة لا تخل بتوازنه النفسي والبيولوجي.

إن تاريخ الإنسان والحيوان يشهد بأن البقاء كان دائماً للكائنات التي استطاعت التكيف، ونجحت في التطور مع تغير ظروف الحياة. فالإنسان يكرس طاقاته لإشباع رغباته ودفع الأخطار. ونحن نعرف أن الفرد يجابه المشاكل أولاً في فكره، فيحللها ويعللها ويقيم مدى خطورتها، وبعد ذلك تتدخل الأعضاء بصورة عملية لإنقاذ الموقف وحفظ التوازن وإقرار الأمن. وعندما يعجز البدن عن تحقيق الانسجام والتوافق والتكيف خلال فترة طويلة، تظهر الأعراض النفسية - العضوية في المعدة أو القلب أو الجلد أو الرأس... وتسيطر على المرء علامات التوتر والإنهاك، فيتذبذب تفكيره، وتنقص فاعليته ويضعف إنتاجه، وتنخفض قدرته على التركيز والتنسيق والإنتاج.

وعندما يجد المرء نفسه عاجزاً عن مواجهة الظروف القاسية، وتحمل الخبرات المقلقة لمدة طويلة، أو يصبح غير قادر على القيام بأعماله اليومية، تكون الخطوة السليمة عندئذ أن يعرض نفسه على الطبيب الخبير الذي يقترح وسائل عديدة للعلاج، تهدف أساساً إلى تهدئة المريض، وخلق مقدار من الثقة في نفسه يمكنه من استئناف نشاطه، والعودة إلى مجرى الحياة الطبيعية. يبحث الطبيب تاريخ حياة المريض بعناية، ويفحص جسمه بدقة ويشرح له العوامل التي أثرت عليه والسبل والوسائل الناجعة للتخلص منها. ولا بد من اتباع ثلاث خطوات هامة هي (1) التعرف على نوع الانفعالات السلبية العنيفة. (2) البحث عن مصادرها ومسبباتها وآثارها. (3) إتباع الوسائل المفيدة لمعالجتها واستغلال طاقاتها لتحقيق الأهداف الإيجابية.

ومن المهم التأكيد في نهاية هذه الصفحات على أهمية الانتباه للانفعالات السلبية التي تزحف غير مرئية وتتطفل تدريجياً على حياة المرء.

وتظهر آثارها بعد فترة في شكل أعراض متعددة ومتنوعة يجب على المرء ألا يهملها، بل أن يتصدى لمعالجتها قبل أن تتمكن منه وتتحكم في سلوكه. ومن هذه الأعراض: التوتر المستمر في العضلات، مثل الكتفين والرقبة والبطن، مع خطفه نحو الداخل، والتوتر في عضلات الحلق، مما يجعل المرء يشعر بكتلة في حلقه وبتجربة الاختناق، كذلك آلام المفاصل والظهر، وبرودة الأطراف وارتعاشها وعرقها، واضطراب حرارة البدن، وشدة الحساسية، والفتور الجنسي، وتكرار التبول في فترات قصيرة مع صرف كمية قليلة في كل مرة، واضطراب التنفس، والتشنج العضلي، وسرعة الكلام مع عدم الوضوح، والشعور بالإجهاد المزمّن والتعب حتى في الصباح، واضطراب عمليات الهضم، والقرحة، والبدانة، ومرض الربو، ومرض السكر، والعرق المفرط، والصداع، وفقدان الشهية وغيرها.

كما أنه من المهم أن ينتبه المرء إلى ما قد يظهر على سلوكه من تصرفات مقلقة أو غير عادية، وألا يتردد في تحليلها وتعليلها ومعالجتها، كأن يشعر بالانقباض المستمر، ويميل إلى الانطواء والعزلة، ويتجنب فرص التسلية والترويح عن النفس، ويفرط في محاسبة النفس، وفي الحرص على النظام، ويعاني من التصلب السلوكي، وصعوبة الانتماء والانسجام، وأحلام اليقظة، أو من سرعة الاستثارة العاطفية، والشعور بالدونية، أو يبالغ في الحرص على السلوك التعويضي، ويفرط في انتقاد الناس، ويميل إلى الزهو وحب السلطة والشعور بالعظمة دون مبرر سليم، أو يعاني من تشتت الانتباه وضعف الكفاءة، وصعوبة التركيز، أو من الكف، أو من ازدواج المشاعر، والشعور بالاضطهاد، والسلوك المتخبط ومن أنواع الفوبيا المذكورة، إلى غير ذلك.

وإذا كانت هذه الأعراض المرضية النفسية العضوية، والآثار الانفعالية المزعجة لا تؤدي بحياة الإنسان بسرعة، فإن أقل ما يقال عنها أنها تضيق مجال وعيه، وتجعله منقبضاً متشائماً، يشعر بالمرارة وخيبة الأمل، غير قادر

على القيام بواجباته ولا على التمتع بملذات الحياة. وفي كثير من الحالات تنتهي بجعل حياته جحيماً يصعب أن يتحملة هو ومن حوله. وعلى الإنسان أن يختار بين أن يستسلم لتيار الانفعالات، ويظل يتخبط بين موجاتها وعواصفها، ويستمر في سلوك سلبي، فيضيع ما بقي من عمره في الشقاء والآلام والحيرة، أو يأخذ بزمام الأمور ويسعى لتغيير طريقة تفكيره وأسلوب حياته، بقدر الإمكان، ويقود سفينة حياته بعزم وحكمة حتى تصل إلى الأمان، وتعود المياه إلى مجاريها.

لقد سبق الحديث عن القلق العادي الخفيف الذي يساعد الإنسان على الانتباه وحسن الأداء في حياته اليومية. ووجود هذا القدر الخفيف من القلق لا يعني أن الشخص في حاجة إلى العلاج، بل لابد من تقبله واستغلاله بقدر الإمكان. غير أن المرء يعاني أحياناً من صدمات تهز توازنه، ويتعرض لمشاكل تنغص حياته، ويمر بتجارب تهدد كيانه وأمنه، وعندئذ قد يحل به القلق العصابي الذي يتجاوز الحد الذي يمكن تحمله. وتتنوع أساليب مواجهة القلق ومعالجته، وطرق التخفيف من وطأته، لأن ذلك يتوقف على مصدر القلق ومسبباته، ودرجته، وما يترك من آثار سيئة في نفس الإنسان.

فقد يشتمك جارك القوي ظلماً وعدواناً، فتنزعج وتزول شهيتك، ويقل نومك وتقلق، فتذهب إلى الطبيب وأي دواء سيفيدك؟ والواقع أن علاجك الحقيقي هو أن يأتيك هذا الجار معتذراً مستسماً، أو أن ترد له الصاع صاعين، أو أن يأتيك أشخاص مهمون يؤكدون لك بأنهم يقفون إلى جانبك، ويضمنون سلامتك، ويعترفون لك بأنك أفضل من جارك - في نظرهم - عقلاً وقدرًا وحكمة واحتراماً.

وقد يكون مصدر قلقك مخاوف غير منطقية، تدفعك إلى تصرفات غير مقبولة. وهنا يتطلب الأمر اكتشاف هذه المخاوف وتحليلها واقعياً، واستعمال العلاج الملائم لمواجهتها. وربما كنت من أولئك الذين لا ينفكون

يركضون وراء مطامح غير معقولة، وهم مدفوعون بالرغبة في التعويض عن نقص يشعرون به، فإذا عجزوا عن تحقيق آمالهم، حلت بساحتهم الخيبة والفشل والقلق.

وقد يرتكب شخص أعمالاً تحرمها الأخلاق والقانون والعرف، ويفعل ذلك ليبرهن لنفسه وللآخرين على مدى استقلاله، أو شجاعته، أو قدرته على التأثير في مجرى الحوادث. ويمكن أن يكون مصدر القلق بنية الشخص لأنه طويل جداً، أو ضخم بشكل يثير الاهتمام أو عكس ذلك، أو به عاهة كالتأتأة مثلاً. وربما كان منبع قلقه هو تجاربه السلبية، وفشل العلاقات مع أهله والمقربين، أو كبت المرء أشياء تصيبه بالعار لو اطلع عليها الناس، وهو شديد الحرص على إخفائها رغبة في المحافظة على احترام الذات ومركزها.

ويعاني عدد كبير من الناس من القلق، ويشعرون بفراغ عميق في حياتهم، عندما يكتشفون حقائق شاملة حول ذواتهم ووجودهم، ويفكرون في نهايتهم المحتومة، ويعترفون أنها نهاية محدودة في الزمان، وأن قدرتهم وحيلهم عاجزة تجاه الموت الذي يقف لهم بالمرصاد. وعندما تسيطر مثل هذه الأفكار على الإنسان يجدر به أن يواجه الحقيقة الأليمة التي تحملها جميع الناس من قبله، وأن يركز على الحاضر، ويقوم بأنشطة إيجابية لتحقيق الذات وتربية النفس على الفضائل، مثل الإخلاص والشجاعة وعمل الخير، والاختلاط بالناس، ومواجهة الحياة بأمل وتفاؤل.

ويحسن بالإنسان عندما تحل به الأزمات النفسية أن يتجنب أساليب العلاج المؤقتة، كالاتتماد على الأدوية، واللجوء إلى الخمر والمسكرات، والانهماك في المهدئات والمخدرات والملهيات والملذات، والإفراط في الأكل والشراب وغير ذلك. لأن جميع هذه الحلول مؤقتة، تكون لها عواقب وخيمة إذا سيطرت على الإنسان ولم يقدر على التخلص منها. والواقع أن أي وسيلة أو حيلة أو عادة يلجأ إليها المرء لمقاومة المقلقات في ظروف نفسية عصيبة، قد لا

تزول حتى إن نجحت في إنقاذه مما يزعجه. ولا تقتصر هذه الوسائل على هذه الحلول المؤقتة، بل تشمل كذلك جميع الحيل الدفاعية التي سبق ذكرها، ووسائل أخرى مثل الحركات البدنية العصبية، كتشنج العضلات وتوترها، أو تكرار كلمات معينة، أو اللجوء إلى الاعتداء أو الكذب في ظروف حرجة. وبطول الزمن قد تزول الدواعي الأساسية، غير أن هذه العادات والحركات تظل عبئاً يسيء إلى سلوك الإنسان ويضعف كفاءته.

فعندما تواجه كارثة أو مشكلة عويصة، حاول الاحتفاظ بتوازنك وتفكيرك السليم، ولا تدع الخوف يبلبل أفكارك، بل حلل الموقف والأسباب التي أدت إليه، وقدر النتائج ومدى خطورتها بصورة موضوعية. وربما يتلاشى معظم قلقك عندما تكتشف أن النتائج ليست بالخطورة التي كنت تتصورها. وينصح الأطباء من يغلب على سلوكه الطابع الانفعالي أن يتدرب تدريجياً على كيفية تنظيم طاقاته الانفعالية، وتوجيهها إلى إنجاز أعمال مقبولة اجتماعياً، تجلب له الاعتراف مثل الرياضة والهوايات، واللعب مع الأقران، والتنافس البناء، والاهتمام بالمباريات والمسابقات، والأنشطة الاجتماعية والثقافية والخيرية التي تساعد من جهة على تصريف طاقة الشخص، وتجعله يشعر بالرضا عن نفسه، لما أدى من أعمال تحقق بعض مطامحه وتزيد ثقته بنفسه.

وليست الأنشطة المذكورة مفيدة فقط للشخص الذي يتسم سلوكه بالانفعال، بل ينصح كل إنسان باستغلال مهاراته وكفاءاته وطاقاته في ما يحقق ذاته الحقيقية، ويشبع حاجاتها ورغباتها المادية والمعنوية، في حدود القيم السائدة، وفي ظل الاعتدال والمصلحة العامة، ومن غير معارضة العادات والقوانين العادلة، أو الأضرار بحقوق بني الإنسان ومصالحهم.

ولا يكون الكلام عن العلاج كاملاً دون الرجوع إلى الفكرة الأساسية التي سبقت الإشارة إليها وهي أن يعامل الإنسان نفسه، ويعامله الناس، كوحدة

متكاملة لا تتجزأ. ولهذا يجدر التأكيد على ضرورة المحافظة على التوازن بين مختلف العناصر النفسية والفكرية والروحية والمادية التي تشكل شخصية الإنسان. ومعنى هذا أنه ينبغي الالتفات كذلك إلى العوامل التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من برنامج العناية بالصحة والوقاية من الأمراض، كاحترام حدود البدن وطاقاته، والاعتدال في تعريضه لعوامل الاستثارة، وتحقيق التوازن بين الحياة المملة الرتيبة، والحياة المملوءة بالتحديات والمجازفات والمغامرات، وبين العمل والاستجمام، والاعتدال في الأكل واستهلاك المواد الدهنية الحيوانية والسكر والحلويات، وخصوصاً بالنسبة للأشخاص الذين لا يقومون بأعمال عضلية، والعمل على العودة إلى الوزن الملائم بالنسبة لمن يتجاوز وزنهم الحدود المتعارف عليها طبيياً، والامتناع عن التدخين، وتجنب الأماكن الملوثة بالدخان وغيره.

ويلاحظ أن معظم الناس، وخصوصاً من يقضون ساعات طويلة جالسين في المكاتب لا يحركون إلا أصابعهم أو ألسنتهم، يجهلون أو يتجاهلون دور النشاط البدني في علاقته بالصحة البدنية والفكرية. ولهذا ينبغي التأكيد على أن الرياضة تساعد على الوقاية من الأمراض العضوية، وتخفف وطأة الانفعالات مثل الهبوط النفسي والكآبة والحزن، كما أنها تقوى جهاز التنفس، وتزيد الثقة بالنفس، وتحسن نوم الإنسان وشهيته. وليس من الضروري أن يشارك المرء في النوادي الرياضية، ويشترى المعدات الغالية، ليتعاطى رياضة السباحة أو التنس أو ما شابهها، بل يكفي من لا تسمح له ظروفه بذلك أن يركب الدراجة أو يمشي يوماً لمدة نصف ساعة، بدون توقف، ليعطي بدنه حظه من النشاط الضروري. أما من يفضل قضاء وقته في الأماكن المزدحمة، فهو يحطم أجهزته الحيوية بحرمانها من الحركة، وباستنشاق الهواء الملوث.

ومن وسائل العلاج أن يسعى المرء إلى إحداث جو من التلاؤم

والانسجام والتوافق، ليس مع نفسه فحسب، بل كذلك مع من حوله من المخلوقات، وأن يظهر فكره من الانفعالات والعادات السلبية كالحسد والحقد والشك والغيرة والبخل والشعور بالدونية، ويملاً قلبه بالأفكار والمشاعر الطيبة كالمحبة والحلم والثقة والصبر والسماحة وتقدير الناس والإيثار والقناعة. ولا شك أن هذا أسهل على المرء وأليق به من أن يحاول أن يجعل العالم يتلاءم مع رغباته وعاداته.

ومن الأمور التي تساعد المرء على خلق هذا الانسجام، تجنب عادات الانتقاد والجدال الحاد. وهناك أناس يسعون إلى إثبات وجودهم أو تفوقهم عن طريق اللجاج والعناد، والطرق الملتوية والأساليب العدوانية. وينسون أن أقرب طريق إلى نفس الكريم هي الكلمة الطيبة والإحسان والاعتراف بالجميل. والحكيم من نزل عن كبريائه وأنانيته واحترم رأي غيره ولو كان مخالفاً لآرائه. وإذا احتدم الجدل مع من لا يحترم شعور الآخرين ولا يراعى آداب الكلام، كان السكوت أو الانسحاب خيراً من الاستمرار في جويحفز المشاعر ويثير الأعصاب، ويرفع درجة الضغط والانفعال.

إن الإنسان مضطراً لأن يعيش وسط نخبة من الأهل والأقارب والأصدقاء والزملاء والجيران، ومن الحكمة أن يجنح إلى السلم، ويتخلى عن الانتقام والتنافس المعيب، وادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. أما الانتقاد من غير مبرر وجيه، فيعني البحث عن هفوات الناس وتقصى نقائصهم وعيوبهم، والتركيز على الجانب السلبي من الحياة. وهذا الانتقاد يكهرب النفوس، ويحرك بواعث الأنانية والعناد والدفاع عن النفس، ويشعل نار العداوة والبغضاء، ويعرقل سبل الحوار والتفاهم، ويثير المشاعر السلبية ويوقظ الأحقاد. وقد لا يكون من السهل على المرء الذي تعود لسانه على الانتقاد أن يتحول فجأة إلى النطق بالعبارات اللطيفة والكلمات الطيبة، ولكن أصعب الأمور بدايتها. غير أن التجارب

أثبتت أن تقدير الناس والاعتراف لهم بالجميل، له نتائج عظيمة على العلاقات الإنسانية وعلى نجاح المرء في الحصول على حاجاته والعيش في راحة واطمئنان.

وإذا تأمل المرء قليلاً وجد أنه ليس هناك تناقض بين إحسانه إلى نفسه، وإحسانه إلى الناس والتعاطف معهم ومبادرتهم بالمودة. فتكريم زوجتك يزيد في تفانيها في خدمتك، وخدمتك جارك تزيد في تقديره لك، واحترامك لأبيك وجدك ومعلمك ورئيسك في العمل يزيد في تفانيهم في خدمتك، وكل ذلك يزيد في شعورك بالأمن والاطمئنان، ويقوي قدرتك على التمتع بالحياة، وتحمل المزعجات والصعوبات.

ومما يساعد على تخفيف أعباء الحياة ويزيد المرء ارتباطاً ببنى الإنسان أن يوجه تفكيره، من حين إلى آخر، إلى عجائب الكون وأسرار العالم، ودقائق المخلوقات وعظائرها وأشكالها، وكفاحها من أجل البقاء، وإلى حركات النجوم والكواكب ونظامها، والخلايا والذرات ونشأتها وبيئاتها، وعناصر تطورها وفنائها.. لقد بدأت الحياة منذ مئات ملايين السنين، فما وجودك إلا ومضة، وما أرضك إلا ذرة من هذا العالم الفسيح. فكر في علاقاتك مع هذا العالم اللامتناهي في الاتساع، وسترى أنك صغير فعلاً، وتكتشف أنك من أعجب المخلوقات، وستبدو لك مشاكلك، إذا وضعتها في هذا المحيط المترامي الأطراف زمنياً ومكاناً، صغيرة ويسيرة ومؤقتة عابرة. حاول أن تخدم غيرك، وأن تخفف من كبريائك، وأن تندمج في الطبيعة ومع المخلوقات، وتسعى إلى القيام بالأعمال التي تهتمك لدرجة أنك تذوب فيها وتنسى نفسك ومشاكلك.

وما لم تفعل ذلك فقد تعيش أيامك بين الحيرة والتشاؤم والصراع مع من حولك، وتحيا تحت عبء القلق المخيف، محاولاً الهروب بوسائل لا تجلب عليك، في الأمد البعيد، سوى مزيد من الألم والندم.

والحقيقة أن كل إنسان يتعرض في وقت أو آخر لمشكلة تهز كيانه وثقته،

فيفقد شخصاً عزيزاً أو يخسر صفقة، أو يواجه إفلاساً، أو يصاب بمرض عضال أو غير ذلك. فالمقلقات والمخاوف سواء خفت أو تفاقمت جزء من الحياة، وقد تتكاثر بمرور السنين. وما على المرء إلا أن يوطد نفسه لتقبل ما يحدث من تبدل وتغيير، وكل ما لا مناص منه، وفي الوقت نفسه، عليه أن يعمل على تقليل الآثار السلبية باتباع فلسفة موضوعية سليمة إيجابية، والتعاون مع الحياة، وبأن يتصرف حسبما تسمح به كفاءاته وقدراته وسنه وصحته.

وليس من الضروري أن يحاول المرء أن يتناسى حاله وسنه كلياً، وينافس الشباب فيما يقومون به، ما لم تؤهله لذلك صحته وإمكاناته. كما أنه ليس من الحكمة أن تضخم آلامك وأوجاعك ومصائبك وهمومك، وتظل تشكو وتنوح وتندب حظك، لأن هذا سيبعد الناس عنك، ويقلل رغبة أقاربك في التعامل معك.

ومن المفيد أن يحاول كل من يعاني من الانفعالات السلبية أن يحلل ظروف حياته تحليلاً واقعياً، ليتعرف على العوامل المسببة لها، فربما استخلص أن مصدر ما يعانيه من قلق هو ظروف مؤقتة عابرة، تعود إلى ضغوط الحياة اليومية وما تخلفه من توتر وتعب. ولهذا يجدر بالمرء أن يتعرف على دواعي القلق ثم يلجأ إلى الوسائل التي تخفف من سطوته، مثل الاستجمام وتعاطي الهوايات، والقيام بالنزهات والرحلات، والتدريب على الاسترخاء والتنفس السليم، واستشارة الطبيب الذي يقدم النصائح الضرورية ويرفع معنويات المريض، بإبعاد الشكوك والحيرة والغموض، ويشير ببعض الأدوية إذا لزم الأمر.

وربما كان مصدر القلق هو وجود فرق كبير بين درجة تقدير المرء لنفسه وتقدير المجتمع له، فإذا أدركت الجماعة والعائلة ذلك سعوا إلى إظهار المزيد من الاعتراف بدور الشخص القلق والتعاطف معه، فربما ساعد هذا على إعادة الثقة إلى نفسه، وإيمانه بجدوى الأعمال التي يقوم

بها. ولهذا ينصح المصاب بأن يبذل جهداً لتعزيز روابط الإنسانية بمن يحيطون به، وتجديد علاقات المودة معهم وينبغي تشجيعه على تعزيز علاقات الصداقة، لأن ذلك يقوى في نفسه الإحساس بالانتماء إلى المجموعة، ويدعم شعوره بالأمن، ويخرجه من عزلته.

من المفيد أن يتعلم المرء كيف يراقب أفكاره السلبية، ويوجه تصوراته إلى الوقائع الإيجابية والتوقعات المريحة، لأن الفكر قد يتعود أن يرى الخطر في حوادث عادية، ويتمثل المخاوف في مواقف بريئة، وينزعج لأقوال وتصرفات لا تحرك ساكناً لدى بقية الناس.

وربما كان المصاب بالقلق في حاجة ماسة إلى المساندة العائلية. ويجد بعض الراحة عندما يفضي للأشخاص المهمين في أسرته بهمومه. عندما يتحدث إلى بعض أصدقائه من ذوى الخبرة بما يحز في نفسه، لأن هذا يخفف كثيراً من عبء التوترات النفسية التي يرنح تحتها. ويجدر التنبيه إلى أنه ينبغي عدم الإفراط في المواعظ الأخلاقية والدروس الإرشادية، إذ أنها تنفر المريض وتضاعف قلقه، كما يجب الابتعاد عن اللوم والتأنيب، لأن ذلك يضعف ثقة الشخص بالقلق بنفسه. بل يلزم التأكيد له أن تصرفاته وردود أفعاله عادات تعلمها، وفي وسعه أن يتخلى عنها تدريجياً، ويكتسب بدلها عادات أخرى، إلى أن يأتي عليها النسيان. كما ينبغي تشجيعه على التعبير عما يجيش في نفسه، والقيام بما يرضى مشاعره الطيبة من أعمال، ولو كان ذلك لا يجلب له رضا الناس أجمعين.

ومن الوسائل التي تساعد الإنسان على الشعور بالراحة والاطمئنان أن يكون له هدف في الحياة يجعل لها مغزى، وأن يحب ويشعر أنه محبوب، وأن يحصل على ما يكفيه من المال، ويحقق بعض التقدم الذي يجعله راضياً عن

نفسه. وهذا يستلزم أن يحقق الفرد الانسجام مع نفسه ومن حوله، وأن يتفاعل مع الظروف التي تواجهه ويتكيف معها بما يناسبها. والحياة لا تخلو من تقلبات وفترات هبوط وارتفاع، وصحة وألم، وأمل وتشاؤم. وقد يتعب من يطلب الكمال، ويشقى من لا يقنع بالاعتدال. فالشخص السليم يسعى إلى القضاء على أسباب القلق إذا استطاع، أو على بعضها، ويدرب نفسه على التعايش السلمي مع ما بقي منها.

كل امرئ يهدف إلى الحصول على الثراء والأمن والنجاح، والشهرة والعزة والاطمئنان. ولكن الحكيم من اعتدل في مطالبه، واغتنام الفرص للتمتع بما لديه، وعرف كيف يسعد بالمتع قريبة المنال، قبل أن يضيع العمر في الركض وراء الأهداف البعيدة. فاتباع فلسفة واقعية تركز على الحاضر دون إهمال المستقبل، والقناعة دون الركود، والرضا دون التواكل، والعلاقات الإنسانية والأخلاقية السليمة، كل هذا يساعد على خلق الاطمئنان والهدوء النفسي.

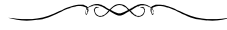
والحقيقة أن الإنسان في حاجة إلى فترات من الهدوء والراحة والتأمل، يعود فيها إلى نفسه ليتعرف عليها. ويتأمل باسترخاء وكسل في حصيلة حياته، ويتأكد من صحة أسلوب حياته وسلامته. ويصح هذا القول بصورة خاصة في المناطق الحضرية، ولدى بعض الناس العصبيين الذين لا ينفكون يركضون وينافسون صباح مساء، يشعرون بالضيق بمجرد أن يتوقفوا عن النشاط.

ونحن إذا ألقينا نظرة إلى الناس من حولنا، وجدنا معظم المشاكل النفسية يسببها السعي المتواصل للتفوق، وعدم القدرة على تحقيق التوقعات التي نرنو إليها ونزحف نحوها، والأهداف التي يتوقعها منا الغير. فإذا انخفضت مستويات

هذه التوقعات والأهداف حتى يصبح سعيها معتدلاً، وتنافسنا إنسانياً معقولاً، يمكن أن يخفف ذلك من الأزمات الانفعالية والضغط النفسية، ويزيد إقبالنا على الحياة ومحبتنا لأنفسنا، ويقلل من تدمرنا وسخطنا، فيجعل علاقات الناس بعضهم البعض أكثر تعاطفاً وإنسانية.



كلمات تنعش الحياة



مقدمة



يضمّ هذا الكتاب مجموعة من المقالات تتعلق بحسن المعاملة وأساليب السلوك الحميد الذي يعطي للحياة معنى، ويعود بالخير والاطمئنان على صاحبه وعلى الناس من حوله. وخير بداية هي الإشارة في هذه المقدمة إلى بعض ما جاء في الذكر الحكيم وسنة الرسول الكريم ﷺ، من آيات وأحاديث تحت على التمسك بالأخلاق الفاضلة، لعل في هذا تذكير للناسين والمتناسين، وتنديهاً للمعرضين المتحاملين على الدين عن جهل أو متعمدين.

وقد تناولتُ بعض الآيات من الذكر الحكيم وبعض الأحاديث الشريفة فكرة الخيرة والشرِّ، وتحدثت عن خلق آدم وأسرته الأولى، وشرحت غواية الشيطان والرعاية الإلهية. وأوضح الدين الحنيف أنواع الخير والشر، والغواية والهداية، والفضائل والرذائل، والطيبات والخبائث، ونظم العلاقات بين الناس على أسس متينة من المحبة والإحسان، والعدل والمساواة، والتضامن والتكافل، وتضمن كل ما يساعد المسلم على أن يكون مخلوقاً اجتماعياً مسؤولاً، يعيش وسط مجتمع مستقر آمن متضامن.

الدين المعاملة، ومن أسس المعاملة التي حث عليها الإسلام "الإحسان" لأنه مفتاح القلوب، وجسر متين للتواصل والتراحم والتكافل، يوثق الروابط بين الناس، وينعش العلاقات، ويؤكد انتماء المسلم إلى مجتمع يسوده التضامن والمودة. ومن الآيات التي حثت على الإحسان ما ورد في سورة النساء: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ (سورة النساء : 36).

يوصي الإسلام برعاية الضعيف والفقير، والاشتراك في الخيرات بالإحسان والمعروف، بذلك يصبح المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. ويلخص هذا التعاضد والتحابب ما جاء في الحديث الشريف: [لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه]. وقد ورد في حديث آخر: [أفضل الفضائل أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتصفح عمن ظلمك].

ومن يتبع تعاليم الدين الحنيف يجد أن سبل البر والمعروف، ومسالك الإحسان، تشمل جميع نشاطات الحياة ومجالاتها. فقد جاء في حديث رواه البخارى [تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة].

ومما يوثق علاقات المودة بين الناس، نشر "الكلمة الطيبة" التى لا تكلف جهداً، ولكنها من دعائم أخلاق المسلم. وقد جاء في الذكر الحكيم في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿٢٥﴾ (سورة إبراهيم: 24، 25).

وللمحافظة على هذه العلاقات يطلب كذلك من المسلم أن يكون ليين الجانب، سمحاً مرناً في معاملاته، وأن يعفو عند المقدرة، وألا يطلق العنان لغيظه. جاء في الذكر الحكيم ﴿ وَاللَّكَّظِيمِينَ الْعَظِيمِينَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران: 143).

ومن الأخلاق الفاضلة التى جاء بها الإسلام الدعوة إلى التزام الصدق في القول، والوفاء بالوعد، وحفظ الأمانة، وكلها تعمق الثقة بين الناس، وتعزز الروابط، وهي برهان على استقامة سلوك المسلم في معاملاته. ومما ورد في

الذكر الحكيم في هذا الموضوع في سورة النحل: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النحل: 91).

وجاء في حديث رواه البيهقي أن رسول الله ﷺ قال:

[اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، أصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم].

وتعتبر شهادة الحق وإقامة العدل أساساً لرعاية حقوق الناس وضمان سلامتهم، وتحقيق الاطمئنان والاستقرار في نفوس الناس. ومما جاء في الذكر الحكيم في هذا المجال في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (سورة النساء: 135).

وفي سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْمُونَ ﴾ (سورة البقرة: 42).

وفي سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (سورة النساء: 58).

وكما أمر الدين الحنيف بالعدل والإحسان وشهادة الحق والوفاء بالوعد، حرّم الكذب والغش والاحتيال، وشدد على الصدق والأمانة في معاملات البيع والشراء، وأوجب على المسلم أن يحترم حقوق الناس، وأن يوفي الكيل والميزان. جاء في سورة الشعراء: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ ﴿ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (سورة الشعراء: 182 - 183).

وفي باب حسن المعاملة والسلوك النبيل، ورد في حديث رواه أبو هريرة

(أحب إليه عبداً سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا قضى، وسمحا إذا اقتضى⁽¹⁾).

ومن مكارم الأخلاق أن يتجنب المسلم الكبرياء والخيلاء، وأن يلقي أخاه بالبشاشة، ويعامله باللين والرفق والتسامح والاحترام وصدق القول. وقد جاء في سورة لقمان (يعظ ابنه):

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (سورة لقمان : 18-19).

وكم أكد الدين الحنيف على أن المسلم أخو المسلم، وحرّم عليه أن يؤذيه بيده أو بلسانه. وقد جاء في الذكر الحكيم في سورة الحجرات:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ءَمَنَ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَبِ ﴿١١﴾﴾ (سورة الحجرات : 11).

ونهى الإسلام عن الغيبة والنميمة في جميع صورها، وقد ورد في الذكر الحكيم في سورة الحجرات:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾﴾ (سورة الحجرات : 12).

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي]. (رواه الترمذي والبيهقي)

ومن أخلاق المسلم أن يحسن إلى جاره وضيّفه وقريبه وصديقه وأجيريه. وقد أوصت آيات وأحاديث نبوية عديدة على هذا السلوك الحميد. وقد

(1) طلب حقه برفق.

سبقت الإشارة إلى ما ورد في سورة النساء حول الموضوع. وجاء في حديث رواه الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: [حَقُّ الْجَارِ إِنْ مَرَضَ عُدَّتُهُ، وَإِنْ مَاتَ شَيَّعَتْهُ. وَإِنْ اسْتَقْرَضَكَ أَقْرَضْتَهُ وَإِنْ أَعْوَرَ سَتَرْتَهُ وَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ هَنَأْتَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ عَزَّيْتَهُ، وَلَا تَرْفَعُ بِنَاكَ فَوْقَ بِنَائِهِ، فَتُسَدُّ عَلَيْهِ الرِّيحَ، وَلَا تُؤْذِيهِ بِرِيحٍ قَدْرِكَ، إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا].

وجاء في حديث آخر: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

والواقع أن ما جاء به الإسلام من قيم نبيلة يشمل جميع الناس، سواء كانت المعاملة في المنزل أو الحي أو الشارع أو العمل أو المدرسة... ومن الأحاديث التي ضمت مجموعة من النصائح والوصايا التي لو طبقت تجعل المسلم يعيش في أمان من شرور أخيه المسلم، الحديث التالي:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تحاسدوا، ولا تناجسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكفوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره. التقوى ههنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه).

(رواه مسلم)

ويُرجب الإسلام في كل ما يوثق علاقات التآخي والتكافل بين المسلمين، ويدعم شعور الفرد بالانتماء إلى مجموعة أو مجتمع يحميه ويرعاه عند الحاجة. وقد جاء في حديث طويل رواه أبو هريرة، أن النبي ﷺ قال:

(مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ...).

وقد ترك الرسول ﷺ ثروة غزيرة من الأحاديث التي ترغّب المسلم في الالتزام بالأخلاق الفاضلة. من ذلك قوله ﷺ: (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة قائم الليل وصائم النهار).

وقوله ﷺ: (إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً).

وقد جعل ﷺ للجلوس على الطرقات حقوقاً يجب على المسلم أن يلتزم بها، وهي: (غض البصر، وكف الأذى، وردّ السلام، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر).

وأوصى الرسول الكريم ﷺ، ألا يهجر المؤمن أخاه أكثر من ثلاث. ومن درر حكمه، عليه الصلاة والسلام: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار) و (كاد الحليم أن يكون نبياً). و (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا خلا من شيء إلا شاناه).

وفتح الإسلام أبواب الرحمة ومسالك التوبة والغفران. وقد جاء في الذكر الحكيم آيات بينات تشرح الصدر وتنعش الحياة. ونجد في سيرة الرسول الكريم وأقواله وصاياه وحكمه تبشر بالرحمة وتهدى إلى سبيل الرشاد، وتفتح أبواب الأمل. فمما ورد في الذكر الحكيم:

- ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: 56).

- ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة الأعراف: 156).

- ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (سورة الزمر: 53).

- ﴿وَنَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة: 155).

- ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (سورة البقرة: 46).

ومن أحاديث الرسول الكريم ﷺ، ما رواه مسلم عن أبي ذر:

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، أو أزيد؛ ومن جاء بالسيئة فجزاء

سيئة سيئة مثلها، أو أغفر؛ ومن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً؛ ومن أتاني يمشي أتيته هرولة؛ ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة).

وفى حديث رواه الديلمي:

(لولا الأمل ما أرضعت أم ولداً، ولا غرس غارس شجراً).

وفى حديث آخر:

(إن الأمل رحمة من الله لأمتي).

وليس ما أوردته في هذه المقدمة الموجزة من آيات وأحاديث عن أخلاق المسلم سوى قطرات من بحر، عسى أن تهدى بعض القلوب القانطة، وتدخل بصيصاً من الأمل عليها؛ وعسى أن تُطمئن بعض النفوس المتمردة، وتضيء شمعة في دربها، فيتسرب الأمل إلى أعماقها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

(سورة ق: 37).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد: 11).

صَلَّى
عَلَيْهِمُ
السَّلَامُ

الأزرق بن علو

الإنسان

جاء في الذكر الحكيم :

﴿ إِذَا الْإِنْسَانُ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ رُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج الآيات : 19، 20، 21).

قال الإمام عليّ رضي الله عنه متحدثاً عن سلوك الإنسان:

... فَإِن سَنَحَ (1) لَهُ الرِّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ، وَإِن هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الحِرْصُ، وَإِن مَلَكَه اليَأْسُ قَتَلَهُ الأَسْفُ، وَإِن عَرَضَ لَهُ الغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الغِيْظُ، وَإِن أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحْفِظَ، وَإِن نَالَهُ الخَوْفُ شَغَلَهُ العِذْرُ، وَإِن اتَّسَعَ لَهُ الأَمْنُ اسْتَلْبَثَهُ الغِرَّةَ (2)، وَإِن أَفَادَ مَا لَّا أَطْعَاهُ الغِنَى، وَإِن أَصَابَتْهُ مَصِيبَةٌ فَضَحَهُ الجِرْعُ، وَإِن عَضَّتْهُ الفَاقَةُ شَغَلَهُ البِلَاءُ، وَإِن جَهَدَهُ الجُوعُ قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ، وَإِن أَفْرَطَ بِهِ الشَّبَعُ كَطَّنَهُ البَطْنَةُ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مَضْرٌّ، وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مَفْسِدَةٌ.

الناس :

الناس لا يقسمون إلى أختيار وأشرار؛ بل إلى رجل خير نصفه شر، ورجل شرير نصفه خير. ولا يقسمون إلى سعيد وشقي؛ لأن الزمن يمر بسرعة، وللدهر تقلباته، وقد تجلب للأول دموع الحزن، وللثاني ابتسامة البهجة. ولا يقسمون إلى غني وفقير، لأننا عندما نقيّم ثروة الرجل ينبغي أن نقيّم كذلك حالة ضميره، وصحته، وسعادته؛ وكذلك لا يقسم الناس إلى متواضع ومتكبر لأن من يتكبر على بني جنسه ليس إنساناً.

(1) سَنَح: ظهر.

(2) الغرّة: الغفلة.

الناس صنفان: أولئك الذين يرفعون الأعباء، والذين يركزون على من يحملون الأعباء. وسؤالي إليك هو: هل تحاول أن تخفف حمل الذين يرفعون الأعباء؟ أم أنت ممن يعتمد على غيره ليرفع عبئه من العمل والهموم المتاعب؟
إيلا و لكوكس

الإنسان:

أكثر ما يظهر الإنسان على طبيعته عندما يكون وحده، منعزلاً، لأنه في هذه الحالة يترك التكلف؛ وكذلك عندما يفعل ويتملكه الغضب، ففي هذه الحالة يخرج الانفعال من مبادئه؛ وعندما يندمج في تجارب جديدة، ففي هذه الحالة لا تنفعه عاداته. وتشبه طبيعة الإنسان حيناً الأعشاب النافعة، وطوراً الأعشاب الضارة، فليسقِ الأولى؛ وليقتلِ الثانية من جذورها.

ف. بيكون (1)

دبابة..

إذا خلا المرء من الإخلاص والوفاء فهو في نظري أعمى؛ إنه مثل دبابة بدون مقود، فكيف يمكنه أن يسير في طريق الحياة.

كونفوشيوس (2)

راهب في برج الكنيسة :

صعد راهب إلى ... أعلى بيت في الكنيسة على أمل أن يكون أقرب إلى

(1) أديب وفيلسوف إنكليزي، 1561 - 1626.

(2) فيلسوف صيني شهير، 550 - 478 ق.م (عاصر الفيلسوف الكبير لأو دسو).

اللَّه، ومن ثم ينقل كلمة الرب إلى عباده. مكث هناك سنوات يتعبد ويقرأ عن اللاهوت، ومن حين لآخر يلقي ببعض ما يكتب إلى عامة الناس.

وعندما اقترب أجله، ناداه الإله: انزل يا عبدي لتموت على الأرض. وسأل الراهب بأعلى صوته: إلهي أين أنت؟ فأجابه الربُّ: أنا هنا على الأرض، بين عبادي، لا أفارقهم.

وليام س. دوان

أبعاد :

ما قيمة الإنسان في خضم الطبيعة المترامي؟ إنه لا شيء بالنسبة للكون اللانهائي؛ ولكنه يبدو وكأنه كل شيء بالنسبة للعدم؛ أم أنه حل وسط بين لا شيء وكل شيء.

باسكال

ثقة :

أحبّ الإنسان، هذا المخلوق القدر؛

أحب الإنسان، هذا النذل الحقير؛

أحب هذا المخلوق المخادع، الماء العكر؛ مثل المثانة الممتلئة بالغرور؛

أحب هذا المخلوق المتقلب، كريشة في مهب الريح؛

هذا المخلوق المتوحش، سفاك الدماء؛

وعلى الرغم من أفعاله ومفاسده ...

فإني أثق به من أجل خياله الجبار، وحبّه للحرية؛

أثق به من أجل ابتسامته وحيويته وضعفه؛
ومن أجل ما أرى في نظراته من عطف وحنان،
ولأنه يمد يد المساعدة للمحتاج، أحياناً.

لوسيان جاك (1)

عقيدتي:

عقيدتي أن أفعل الخير؛ وأتحمل الألم دون شكوى؛ أن أسعى نحو ما
يشرفني؛ وألا أركض وراء المكاسب إذا كانت تسبب خسارة الآخرين وآلامهم؛
وأن أقدم كل يوم عملاً يخفف من شقاء البؤساء والمحرومين.

عقيدتي أن أغض الطرف عن هفوات من هم في محيطي؛ وألا انتظر
تصفيقاً واعترافاً لا أستحقه؛ ألا أستبق الحوادث؛ وألا أركض وراء قضية
حتى أتأكد من صلاحية مبادئها؛ وأن أعرف واجباتي (قبل حقوقي) وأسعى
دوماً إلى إنجازها.

س. أ. كايزر

الخير والشر:

أنت صالح، يا صاح، إذا جاهدت لكي تعطي الناس من ذاتك. ولكنك
لست بالشرير إذا سعيت وراء منفعة نفسك. لأنك في سعيك وراء منفعة
نفسك تشبه جذر الشجرة الذي يريق دموعه على الأرض ثم يمتص الحليب
من ثديها. الحق أقول لك، أن الثمرة، لا تستطيع أن تقول للجذر: كن مثلي
ناضجاً، جميلاً، جواداً، يبذل كل ما فيه لأجل غيره. لأن العطاء حاجة من

(1) شاعر فرنسي، 1898 - 1961.

حاجات الثمرة لا تعيش بدونها، كما أن الأخذ حاجة من حاجات الجذر لا يحيا بغيرها.

جبران خليل جبران

من كتابه: النبي

مَثَلُ القنَافذ :

اجتمع عدد من القنافذ في يوم بارد، والتصق بعضها ببعض الآخر لتحافظ على حرارة أجسامها. غير أن وخز أشواكها عند التلاصق كان مزعجاً فتفرقت. ولكن شدة البرد جمعتها من جديد، وخفت هذه المرة من احتكاكها والتصاقها فلم تشعر بوخز الإبر.

وهكذا بالنسبة للبشر، فإن خوف الإنسان من العزلة يدفعه إلى التعارف والتقارب ليعيش وسط الناس. غير أن اختلاف المصالح والطبائع يخلق المشاكل. والبعد المناسب الذي يجعل البشر سعداء هو الملاطفة والأدب وحسن المعاملة، واحترام حرية الآخرين وراحتهم.

شوينهور (1)

كل مشاكلنا تأتي من كون الإنسان لا يستطيع أن يعيش منعزلاً.

ج. دي لا بروفيار (2)

رجل صالح :

تسألني ما مذهبه؟ ما عقيدته؟ لست أدري. كنت أراه يتجول في شوارع

(1) فيلسوف ألماني، 1788 - 1860 .

(2) أديب فرنسي، 1645 - 1696.

المدينة، يساعد المتعبين والمحتاجين، ويخفف من أعباء الأشقياء، ويحاول أن يدخل قليلاً من الأمل والبهجة على قلوب التعساء واليوساء.

تسألني عن عقيدته؟ لا يهمني لون عقيدته ولا فلسفته وعمق أفكاره ألا يكفي إحسانه وعطفه وحنان قلبه؟! ألا يكفي أنه ليس أنانياً، ولا يخضع لسلطان البخل والجشع؟ انظر إلى عمل يديه، كم غرس من أزاهرواقتلع من أشواك، وجلب الدفاء والبسمة والأمل إلى وجوه شاحبة جائعة.

إنه يؤمن بالله وبإخوانه البشر. وربما لم يفعل كل ما فعل على أساس العقيدة. وكل ما أعرفه عنه أنه عاش حياة إنسان فاضل.

ه. ن. فايفر

الحب والكراهية:

شاهدت رجالاً يكبلون إخوانهم في السلاسل، وتجاراً يخطفون اللقمة من أفواه الأطفال. سمعت صليل الحديد ودوي القنابل في المعارك، ورأيت وجوهاً جمّدت الموت ملامحها.. فبكيت وقلت: العالم كله كراهية.

وشاهدت أمهات يحضن أطفالهن بلطف وحنان، وشيوخاً يمسون بأيدي عجائز قوس الدهر ظهورهن وأطفالاً يمرحون ويضحكون حول المدفأة في بيوت عمتها البهجة، وسمعت العاشقين يهمسون بعبارات الوفاء والحب والتضحية.. فقلت في نفسي العالم كله محبة وابتهاج.

مجهول (1)

(1) تتكرر عبارة "مجهول" بالنسبة للكلمات التي لا يعرف اسم كاتبها.

الإسانية العامة (1) :

ليس لصاحب وطن من الأوطان، أو صاحب دين من الأديان أن يقول لغيره ممن يسكن وطناً غير وطنه، أو يدين بدين غير دينه: أنا غَيْرُكَ، فيجب أن أكون عدوَّك، لأن الإنسانية وحدة لا تكثُرُ فيها ولا غيريَّة؛ ولأن هذه الفروق التي توجد بين الناس في آرائهم ومذاهبهم، ومواطن إقامتهم، وألوان أجسادهم، وأطوالهم وأعراضهم إنما هي اعتبارات ومصطلحات، أو مصادفات واتفاقات، تُعرضُ لجوهر الإنسانية بعد تكوينه، واستتمام حَلَقه، وتتواردُ عليه تواردَ الأعراض على الأجسام؛ ففي كل بلد، وفي كل عصر، يستعجم العربي، ويستعربُ الأعجمي، ويُسلم المسيحي، ويتمسح المسلم، ويلحدُّ المؤمن، ويؤمن الجاحد، ويستشرق المغربي، ويستغربُ المشرقي، ولو شئت أن أقول لقلتُ إنه لا يوجد فوق رقعة الأرض من لا يزال يمسك حتى اليوم بطرف سلسلةٍ ينتهي طرفها الآخرُ بوطن غير وطنه، ودين غير دينه، وأمة غير أمته.

إذا جاز لكل إقليم أن يتنكر لغيره من الأقاليم، جاز لكل بلد أن يتنكر لغيره من البلاد، بل جاز لكل بيت أن ينظر تلك النظرة الشزراء إلى البيت الذي يجاوره، بل جاز للأب أن يقول لولده، وللولد أن يقول لأبيه: إليك عني، لا تمدَّ عينيك إلى شيء مما في يدي، ولا تطمَعُ أن أوثرِكَ على نفسي بشيء مما اختصصتها به، لأنني غيرك، فيجب أن أكون عدوَّك المحارب لك، وهناك تنحلُّ كلُّ عقدةٍ وتنفصمُ كلُّ عُروةٍ، ويحمل كل إنسان لأخيه بين أضلاعه من لواعج البغض والمقت ما يرنقُ عيشته، ويطيلُ سهدهُ، ويقلقُ مضجعه ويحبب إليه صورة الموت، ويُبغض إليه وجه الحياة، وهناك يُصبح الإنسان أشبه شيء بذلك الإنسان الأوَّل في وحشته وانفراده، يقرب وجهه في آفاق السماء وينبشُ بيديه طبقات الأرض فلا يجد له في الوحشة مؤنساً، ولا على الهموم معيناً.

(1) من مقال لمصطفى لطفي المنفلوطي، من كتابه: النظرات (الجزء الثاني).

الجامعة الإنسانية أقرب الجامعات إلى قلب الإنسان، وأعلقها بفؤاده، وألصقها بنفسه؛ لأنه يبكي لمصاب من لا يعرف - وإن كان ذلك المصاب تاريخاً من التواريخ أو أسطورة من الأساطير؛ ولأنه لا يرى غريقاً يتخبط في الماء، أو حريقاً يتلظى في النار، حتى تحدّته نفسه بالمخاطرة في سبيله، فيقف وقفة الحزين المتلهف، إن كان ضعيفاً، ويندفع اندفاع الشجاع المستقتل إن كان قوياً، ويسمع وهو بالمشرق حديث النكبات بالمغرب فيخفق قلبه وتطير نفسه لأنه يعلم أن أولئك المنكوبين إخوانه في الإنسانية، وإن لم يكن بينه وبينهم صلة في أمر سواها؛ ولولا أن ستاراً من الجهل والعصبية يسبله كل يوم غلاة الوطنية والدين أو ثجّارهما على قلوب الضعفاء السدج، لما عاش منكوباً في هذه الحياة بلا زاحم، ولا ضعيف بلا معين.

الانسجام:

أيّتها المخلوقات التافهة الأنانية المفسدة التي يسمونك "بالمخلوقات الناطقة العاقلة" ما لكم تعيشون في نزاع وصراع وفوضى؟ وتفسدون الأرض الطيبة؟ ألا تنظرون إلى الكواكب العظيمة كيف تسبح في الفضاء اللانهائي، بحركة متناغمة متناسقة. وكذلك أرضنا الطيبة الصغيرة تواصل رحلتها، يصحبها قمرها، منذ ملايين السنين بانتظام وانسجام، غير عابئة بتفاهاتنا وسخافاتنا وأناياتنا وحمافتنا. ولكن حذار! لن تسكت طويلاً عما نلحقه بها من فساد. وسيكون انتقامها شديداً.

توماس غ. سبّرثغر

الحياة



حديث شريف : طول الأمل:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين:
في حب الدنيا، وطول الأمل) (متفق عليه)

غريزة الحياة :

على الرغم من جميع ظروف البؤس والشقاء التي تخنق الإنسان، فإن له
في أعماق غريزته قوة جبارة تدفعه نحو الحياة.

باسكال (1)

تفاؤل:

من المؤسف أن يحاول المرء أن يخفف من مصائبه بقوله: "إنما خلق
الإنسان ليشقى". فلا شيء أكثر مجلبة للاكتئاب من أن يواسي المرء نفسه
بقوله: الحياة كلها شرور؛ لا جدوى من العلاج؛ هكذا حكمت السماء؛ هذا
قدري المحتوم؛ إنما خلق الإنسان ليشقى، وما شابه ذلك.

مونتسكيو (2)

(1) فيلسوف فرنسي: 1623 - 1662.

(2) أديب فرنسي: 1689 - 1755.

مراحل العمر السبعة:

إنما الناس في هذه الحياة ممثلون، لكل منهم باب يدخل منه، وآخر يخرج منه.

وكل فرد يمثل أدواراً عديدة، ويمر بسبع مراحل. أولها: الرضيع، يتقيأ ويموء مثل القط في حضن مربيته.

ثانيها: الطفل، يئن ويبكي، يدبّ ببطء حاملاً محفظته، ذاهباً إلى المدرسة وعائداً منها.

ثم دور العاشق، يتنهد ويتأوه مثل الفرن الساخن، يتلو على عشقته عبارات الحب.

يليه دور الجندي، له لحية صغيرة، ينطق بأيمان غريبة، يغار على الشرف سريع إلى الخصام، ينشد شهرة واهية ولو كانت في فم المدفع.

بعد ذلك يأتي دور القاضي ببطنه المستدير، ونظراته القاسية، ولحيته بشكلها الرسمي؛ ينطق بأقوال حكيمة وأحكام عصرية". وتأتي المرحلة السادسة، فيبدو الشخص هزياً في سرواله الفضفاض، وجواربه واسعة على ساقيه، صوته يرتعش، ونظارته تنحدر على أنفه.

وتأتي المرحلة الأخيرة، فيشتد عليه النسيان، وتتفتت الأسنان، ويضعف سمعه وذوقه وبصره، ويستولى عليه العجز كأنه طفل صغير.

شكسبير (1)

(1) الشاعر الإنكليزي الشهير: 1564 - 1616.

تأملات:

فكرتُ في الحياة، في الشهرة، وفي الدروب الشائكة التي تؤدي إليها. فكرت في الفتیان وهم يناجون أحلامهم؛ وفي رجال الأعمال وهم يتنافسون في أسواق الربح والخسارة، وكثيراً ما تتحول المنافسة إلى صراع؛ فكرت في الشباب الذين يفنون شبابهم للحصول على أشياء لا تجلب لهم المتعة والسعادة، وفكرت في أناس مثاليين احتارت عقولهم أمام صراع الحياة، وحكمة الإله، وأتعبهم واقع الإنسانية المرير.

فكرت في الذين قامروا فربحوا، وفي الذين غامروا فخسروا؛ وكذلك فكرت في النساء السيدات المحظيات المتميزات، وفي الفقيرات الشقيات الخادمات المتواضعات؛ وفي العروسين أثناء شهر العسل، والحب الذي انتحر، والمرأة المنزوية مع أطفالها في زاوية مهملة.

فكرت في جحود الإنسان الذي ينكر الجميل؛ وفي الابن الكنود لذي يتنمّر على ضعفاء الأسرة؛ وفكرت في الذين يصارعون الأمواج، ومن يشقون في أعماق الأرض لكسب لقمة العيش؛ وفكرت في ويلات الحروب، وطغيان السلطة ومعاناة الأبرياء.

وكم أود أن أنسى، ولا أتذكر إلا ما هو جميل، لعل الحياة تدبُّ من جديد والأمل ينتعش، ويعود الإنسان إلى الإحسان.

ماكس أرمان

كيف تنعش حياتك :

انظر إلى الناس من حولك، منهم من يبدو في طور الشيخوخة وهو لم يتجاوز الأربعين؛ ومنهم من يحتفظ بالشباب والفتوة وهو في السبعينات من عمره. لا شك أنه من الحكمة ألا يتحدى المرء إعاقات السن، أو يتجاهل حدود الشيخوخة

◆ كلمات تنعش الحياة ◆

ومتاعبها؛ ولكن ليس من الحكمة أن ينقطع المرء عن ممارسة نشاطات هوقادر عليها، والاندماج في خدمات بوسعه القيام بها، ويدخل في حلقة الكسل والشكوى من العلل. لجرّد أنه بلغ الخمسينات أو الستينات.

فعلى المرء أن يتمسك بروح الشباب ونشاطهم ومرحهم وحيويتهم وحماسهم، وأن يندمج في معترك الحياة ما وجد إلى ذلك سبيلا. اعتن بمظهرك، وبجسمك واستقامة قوامك أثناء مشيك وجلوسك؛ فالرقبة المنحية، والبطن المتدلي، والقامة المعوجة متعبة جداً، وتوحي للناس بأنك شيخ مهموم.

ركّز كذلك على الجوانب النفسية والفكرية التي ترفع معنوياتك، وتزيد حيوية وانتعاشاً. اقرأ كل يوم شيئاً.. يجعلك مواكباً لأحداث الحياة الاجتماعية والثقافية، والسياسية والرياضية، لتثري حديثك بما يزيد ثقتك بنفسك وبقدراتك. وأليس علاقاتك ونشاطاتك لباس الحماس والتفائل، مما يجعلك تشعر بالقوة، ويقرب الناس منك.

الألم :

لماذا كل هذا الشقاء والمعاناة واليأس؟ لماذا كل هذا الظلم والحقد والوحشية؟ ولماذا الألم؟

العزلة والوحدة والحسرة والاكتئاب، والحزن على من يموت، إنها مشاعر مؤلمة. ولكن لماذا تكون الحياة مؤلمة إلى هذه الدرجة؟!.

لماذا يُعذّبُ الذين يحبون بسخاء، ويعيشون شرفاء، أولئك الأخيار الأوفياء الطيبون، لماذا يعذبون؟ بينما تعيش أفواج من المخلوقات الأنانية دون أذى.

لعل الجواب هو أن الفئة الخيرة الصالحة لها ضمير ووعي وإحساس

مرهف. والألم هو الثمن الذى يدفعه الإنسان النبيل الحساس الذى يتجاوب مع من حوله. فبقدر ما يكتمل وجدان المرء وينمو وعيه الإنساني، يزداد شعوره بالألم. ألا ترون أن الحب العميق فيه لذة وألم. فالألم يدل على عمق الحياة وسعتها وشمولها وثرائها وإنسانيتها.

إلزي روبنسون

كيف تنسجم مع الحياة؟

كما ترى الناس يرونك؛ وكما تحكم عليهم يحكمون عليك؛ وكما تخاطبهم يخاطبونك، إن لطافة أو خشونة. فسلوكك وأفكارك هي التي تجلب قلوب الناس نحوك أو تبعدها عنك. وكيف يطمح شخص في أن يكرمه الناس أو يصادقوه إذا كان من أخلاقه الأنانية والكبرياء، والحسد والغيرة، وقلة الصدق؟ وعدم قدرة المرء على التلاؤم والتفاهم مع الآخرين يعني أنه عاجز عن تطويع تصرفاته لتتلاءم مع سلوك الآخرين (السلوك الحميد طبعاً)، وأنه لا يملك من المرونة والتسامح ما يسهل اندماجه في الأسرة و"الثلة"، والمجتمع. ولا يمكن للمرء أن يحقق النجاح المعنوي والمادي وهو يعيش في عزلة عن الناس. ومما يدعم نجاح المرء:

- أن يتقبل ظروف حياته بالبشاشة والرضى، لا بالسخط والتبرم.
- أن يجعل نصب عينيه دائماً: أَحِبِّ لغيرك ما تحب لنفسك، وكره له ما تكره لها.
- أن يقدر خدمات أقل عامل في السلم الاجتماعي، تماماً مثلما يقدر خدمات أكبر معلم.
- أن يواصل العمل والبناء، بعد الفشل، ولو اضطر للبدء من الصفر.

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

- أن يبذل قصارى جهده وينجز عمله بحماس على الدوام، وليس فقط عندما يتوقع مكافأة، أو يندر بعقاب.
- ألا يضيع وقته في الأحلام الفارغة والتمنيات المعسولة، أو التصرفات التافهة، بل يكرس جهوده ووقته للعمل المنتج.
- أن يتعرف جيداً على أحسن مهاراته وأفضل إمكانياته في إنتاج ما يفيد الناس، سواء كان في مجال تصليح السيارات أو صنع الحلويات.... إلخ.
- أن يحسن معاملة الناس، ويلتزم بمواعده.
- أن يجعل الحاضر نصب عينيه، لأن عمل اليوم هو مفتاح المستقبل.

هرولد شرمان (1)

الشعور بالخيبة:

كثيراً ما يشعر المرء بالخيبة عندما يسير وراء الأوهام، وابتعد عن الواقع، ويضيع وقته في الركض وراء أهداف عقيمة فيفشل ويرتبك ويتألم. ولكن سرعان ما تنقشع الغيوم، ويكتشف أن ما واجه من متاعب لم تذهب سدى. لقد زادت التجارب حكمة وقوة وعزماً. وكما أن النار تطهر المعدن من الشوائب، فإن مشاكل الحياة تحرر أفكار المرء من الأوهام، وترده إلى الواقع، وتبعده عن الطموحات الكاذبة والمظاهر الزائفة؛ وتجعله أكثر تقديراً للحياة في ظلال القناعة والصدقة، والعمل الجدي الخالي من المطامع والأوهام.

باسي ب. ديكر

(1) من كتابه: Your Key to Happiness.

حياة الرجل العادي، وحرّيته، وأملكه، وسعادته، ومستقبله، جميعها في أيدي عدد قليل من الناس لا يعرفهم؛ وهم غارقون في نزاعات معقدة لا يفهمها.

عصبة الأمم وفكرة الديمقراطية

اقتراحات تنعش حياتك:

❖ متع حواسك بما .. يحوط بك:

ألوان السحب وتنقلاتها، مشهد غروب الشمس، زرقة السماء، مشهد النجوم، ألوان الأشجار في الخريف، شاهد زوجتك وهي تعدّ أكلة لذيذة، حيّ جارك، وهو ينظف حديقته وساعده إن رغب في ذلك. ربما كان هناك عالم من حولك من الحيوانات الداجنة والأليفة والطيور والحشرات، حاول في أوقات فراغك أن تتمتع بأصواتها وألوانها وحركاتها.

❖ تجنب عادة البحث عن خلل في بدنك:

تعود بعض الناس على التشكي، وهم لا يفتأون يبحثون عن مرض في أيّ عضو من أعضائهم. فممنهم من يستمر في الشكوى من "شيء" غامض في معدته، أو مفاصله، أو من صداع... إلخ، حتى عندما يؤكد له الطبيب أن حالته عادية وجسمه خال من العلل.

❖ العمل صحة وعلاج:

تعلم أن تحب عملك، وأن تنجزه بحماس، لأن الشخص الذي يكرر لنفسه بأن العمل شيء رتيب وممل وكريه، يعرض بدنه (في المدى الطويل) لانفعالات مضرّة. مهما كان نوع عملك فهو يدر عليك نقودا لشراء ضروريات الحياة.

❖ خطط للمستقبل:

بصورة واقعية معقولة، ولكن لا تطل التفكير فيه لكي لا يتحول حالك إلى التردد والخوف. عد إلى الحاضر وركز عليه لأنه سُلّم المستقبل. والمستقبل ابن الحاضر وصورة عنه، فإن عالجت حاضرک بحكمة وحزم ونشاط ومثابرة لا ريب أن مستقبلک سيكون مزدهراً.

❖ القناعة، ثم القناعة:

هناك أناس لا يقنعون ولا يشبعون ولا يرضون بشيء، سواء أكثر ما لديهم أو قل؛ وحتى في الحالات التي لا يقدرّون فيها على تغيير ظروفهم لا يتوقفون عن التذمر. ومن الواضح أنه توجد حالات كثيرة ليس من المعقول أن يطلب من المرء أن يقنع ويرضى بوضعه فيها، أو يجنح إلى الكسل والالتكال. وخير الأمور أوسطها، كما قيل، بين الرخص المزمّن من أجل جمع الثروات والشعور بالخيبة لأدنى نكسة في مجال الربح والخسارة، وبين القناعة الإيجابية والسعي الحكيم الذي يوازن بين الاحتياجات المادية والنفسية.

* هل تحب الخير للناس؟

ليس من الممكن أن يعيش المرء في عزله كاملة. ويلاحظ أن من الناس من يجدّ في البحث عن هفوات الناس وعيوبهم، ويلوم الآخرين على ما يعترض حياته من مشاكل، وهو سلوك يدل على عدم النضج وقصر النظر.

إنه لمن أروع الأخلاق أن يُقبل المرء على الناس، ويحسن معاملتهم ويساعدهم، ويعطف على من هو جدير بالعطف منهم، ويشارك بجهده أو ماله في المشروعات الإنسانية مهما كانت صغيرة. ومن أعمق المتع وألذها وأكثرها بقاء أن يخلق المرء البهجة في نفوس من حرمتهم الظروف من وسائل المتعة والراحة والاطمئنان.

❖ صباح سعيد:

أبدأ يومك بوجه بشوش وكلمات طيبة تنشر حولك التفاؤل والمسرة في قلوب الناس.

❖ المشكلة:

أيُّ مشكلة لا تعني نهاية الحياة. حاول أن تواجه المشاكل أولاً بالأناة والتحليل والثقة، واعمل لتحويل الفشل إلى نجاح.

جون. أ. شندلر⁽¹⁾

إبدأ .. بشجاعة ! :

لا تترك متاعب الماضي وآلامه وهمومه تثقل كاهلك؛ بل افتح صدرك إلى أمل جديد، وشدَّ عزمك نحو بداية شجاعة. لا تسمح للفشل أن يحطم أحلامك.
الأسواق تضيق وتتسع، والعملات ترتفع وتنخفض، والناس منهمكون في غمرة التنافس والتباهي والتسابق دائماً لكسب المزيد. وماذا يفعل الضعيف؟ الأشقياء؟ الجوعى؟ المعذبون في الأرض؟ المرضى؟ المظلومون؟
فلننسَ النفس الأمانة بالسوء، ولننتجواز حدودنا الضيقة، عسى أن يكون للحياة معنى.

شارل ل. وغنر

- الحياة لا تسمح بالتأجيل؛ فاغتزم فرصة المتعة في حينها؛ فكل يوم يمر يقلل من قدرتنا على التمتع بملذات الحياة.

د. صمويل جونسون⁽²⁾

(1) مقتطف من كتابه: كيف تعيش 365 يوماً في السنة.

(2) أديب إنكليزي، 1709 - 1784.

احتفظ بحيويتك :

- افتح فكرك وقلبك للأفكار الجديدة؛
- قف عند حدود إمكانياتك، فالاعتدال رأس الحكمة؛
- عش خارج نفسك، فكّر في الآخرين؛
- ابحث عن أصدقاء جدد؛
- تجنب ما يسبب لك التوتر والقلق، ووجه خيالك نحو الأفكار التفاؤلية والإيجابية؛
- وسّع نطاق اهتماماتك لتقلل من رتابة الحياة اليومية؛
- الحماس في كل ما تفعل، فهو زيت الحياة؛
- لا تخش مرحلة التقاعد، بل استغلها بحكمة وبالاستفادة من تجاربك.

علمتني الحياة⁽¹⁾ :

علمتني الحياة خطتين في سياستي مع الناس ... خطة أتبعها فيما يصيبني من الناس، وخطة أتبعها فيما يصيب الناس مني، فاسترحت كثيراً من تبيد شعوري في غير طائل، وعرفت كيف يكون الاقتصاد في إنفاق ثروة الحياة. أما خطتي فيما يصيبني من الناس، فهي أن أتناول طباعهم وأخلاقهم جملة واحدة .. ولا أفرق بينهم على حسب اختلاف الأشخاص والأفراد. كان الخلق الواحد في مبدأ الأمر يسبب لي الألم وخيبة الرجاء عشرات المرات، بل مئات المرات .. وكنت في كل مرة أشعر بصدمة المفاجأة، كأنني اكتشف شيئاً جديداً لم أتوقعه من قبل.

(1) مقتطفات من مقال لعباس محمود العقاد.

ثم تعودت مع الزمن أن أجعل للناس جميعاً حساباً واحداً في رصيد المكسب والخسارة، فهبطت الخسارة كثيراً على الأقل ... وهذا في ذاته مكسب معدود.

تعودت أن أجمع الأخلاق إلى أنواعها، وأن أضع كل نوع منها تحت عنوان: في الناس أئرة .. في النار صغار .. في الناس سخافة .. في الناس نقائص وغرائب ... وهكذا، وهكذا .. إلى آخر هذه المؤلفات التي توارثناها نحن أبناء آدم وحواء، فليس فيها من جديد، والتي لا بد من وجودها في الناس.

فإذا أصابني من الناس شيء مكدّر رجعت به إلى عنوانه، فوجدته مسجلاً هناك، ولم يفاجئني بما لا أنتظر، في الناس أئرة .. في الناس صغار .. نعم .. نعم. وماذا في ذلك؟! ألم تعلم هذا من قبل؟! بلى، علمته مرة بعد مرة .. فما وجه الاستغراب، ولماذا الألم والشكوى؟

وراقبت نفسي طويلاً فوضعت نفسي في القائمة .. وعرفت أن في ما فى طباع الناس وأخلاقها فتعودت أن أقول لها كلما أصابها ما يكدرها "وأنت أيضاً كذلك". فلا محل للحساب والعتاب.

أما خطتي فيما يصيب الناس منى، فهي أن أسأل نفسي كلما شعرت بسخطهم أو انتقادهم "هل الأمر يعينني؟".

وبعبارة أخرى "هل يضيرني أن أفقد رضاهم؟ وهل يعينني أن أفقده؟". فإذا كان فى الأمر ما يضير أو ما يعيب فالأمر يعينني، ولا بد من معالجته بما أستطيع، وإلا فلا وجه للتعب والاكترار.

وعولت دائماً على المقياس العملي، لأن الجرى وراء النظريات لا ينتهي إلى غاية .. فكنت أضع أمامي على الدوام خمسة أو ستة من الذين أعرفهم، وأعرف أنهم من أصحاب الحظوة عند الناس، وأن الناس لا يسخطون عليهم ولا ينتقدونهم، فأتساءل "هل يسرك أن تكون مثلهم، وأن تحصل على الرضا كما حصلوا عليه؟".

وكان جواب هذا التساؤل نافعاً لي على الدوام، لأنه يحدّد لي العمل اللّازم، أو يُعفيني من كل عمل، ويدين لي في معظم الأحوال أن ثروة الرضا والثناء عُملةٌ رائفة، أو عملة صحيحة على أحسن الوجوه.

ولكن الاستغناء عنها غير عسير.

الشروق والغروب:

لو كانت حياتنا كلها سماء صافية تحت نور الشمس، لا تكدر زرققتها سحابة؛ ولو كانت دروب حياتنا جميعها ممهدة مفروشة بالأزاهر؛ ولو كانت السعادة تغمر أيامنا وليالينا؛

ألا نشتاق إلى لحظات الشروق والغروب؟

ألا نفقد لحظات الضباب والغموض؟

ألا نشتاق إلى بعض الغيوم والعواصف على الأقل لتكسر رتابة الهدوء والسرور المتواصل؟

ولو اختلفت جميع الأمراض ومات الحزن، ترى لمن نوجه عطفنا؟ ولمن نقدم خدماتنا؟ ولو اختلف الحزن والألم، ونال كل شخص رغباته، وغمرتنا السعادة جميعاً، لمت الصبر، واختلف الأمل، وفقدت لذة المواساة، وأصبحت الأرض بدون مشاعر، باردة، كأنها في غفلة مسحورة.

ألبرت كرويل

الناس والأشياء:

عندما نستفيق من غمرة مشاغل الحياة اليومية، نعي أنه لا توجد حدود في العالم بين المخلوقات، وأنها جميعها وحدة متكاملة: الجبال

والأنهار، والنباتات والغابات، والشمس والنجوم والقمر، والحيوانات، كلها لنا ونحن منها. عندئذ لا يبقى معنى للعزلة والخوف والغيرة والكراهية. عندما نعى هذه الحقيقة تدخل الرحمة قلوبنا، ندرك أن الناس والأشياء ليسوا منفصلين عنا، بل إنهم منا، من وجودنا.

جينبوسانسي

الحياة أحلام :

الملك يحلم أنه ملك، ويعيش في خدعة كبيرة، يحكم ويأمر وينهى. وينسكب على شخصه كثير من المدح والشكر والتقدير، يكتب على أوراق الشجر التي تتساقط في الخريف، أو على أجنحة الريح. ويصبح كل ذلك حفنة غبار عندما ينهي الموت كل شيء في رمشة العين.

ويحلم بعضنا بالثروة، وما تجلبه من عزة ومخاوف. ويحلم الفقير باحتياجاته ومشاكل حياته، ويأمل أن تزدهر يوماً ما. جميع الناس يحلمون، وأنا مثلهم. الحياة حكاية... الأشياء التي نلهم بها.

بدروس . دي لا باركا

الحياة جميلة⁽¹⁾ :

الحياة جميلة، وما يشوّه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالإنسان! لم يعيش فيها كما تعيش سائر الأنواع على رسم الفطرة وهُدْي الطبيعة ووحى الله، وإنما عاش على قوانين من وضعه استمدها من أثرته وكبريائه وهواه فكان شرّاً على نفسه وحرماً على غيره.

(1) من مقال لأحمد حسن الزيات، من كتابه: الرسالة (الجزء الثاني).

ربما اقتتل الوحش والوحش، أو الطير والطير، في سبيل القوت أو الأنتى؛ ولكنه اقتتال الساعة لا يسبقه تديير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه جريرة. أما الإنسان فهو وحده كدرُ السلام وقذى الحياة! أحياناً لنفسه بفضل ذاكرته ماضياً يحفظ الثأر، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلاً يحمل الخوف، فكان حاضره بينهما قتالاً مستحراً لا ينقطع ولا يفتر، إما دركاً لثأر الأمس الذي يتذكره، وإما كسباً لقوت اليوم الذي يتبصره، وإما درءاً لخوف الغد الذي يتصوره.

الحياة جميلة. وليس جمالها قصراً على قوم دون قوم، ولا على طبقة دون طبقة. إنما الجمال وضاءة الفن الإلهي أشاعه الله في الأرض والسماء، وهياً المدارك للاستغراق فيه والاستمتاع به. فمن كان ذا سمع وبصر وقلب وجدته في كل منظر وأحسَّه في كل حالة. فهؤلاء الذين يمرون عليه وهم معرضون عنه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة، وتبلدت فيهم ملكة الحس، فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح.

إن الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع، تجمع به ما شتت وتؤلف به ما نفر. وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام الروح؛ فمن تملاه في صورته الحسية والمعنوية في الكون كان له منه في كل زمان شباب وفي كل مكان ربيع.

الحياة جميلة. ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة، فأينما تر الخمود والكآبة تر الشعور الذي أدركه الكلال أو أصدأه القبح أو أفسده النثر، فيموت فيه الوعي، أو ينعكس فيه الجمال، أو ينقلب فيه الخير. فالجمال في الطبيعة لا بد أن يجاوبه جمال في النفس. والصفاء في العيش لا بد أن يعادله صفاء في القلب.

دعوة إلى الحياة

إغضب، أجبك غاضباً متمرداً في ثورة مشبوبة وتمزق
أبغضت نوم النار فيك فكن لظى كن عرق شوق صارخ متحرق
إغضب، تكاد تموت روحك، لا صمتاً أضيع عنده إعصاري
حسبي رقاد الناس، كن أنت اللظى كن حرقه الإبداع في أشعاري

إغضب، كفاك وداعة. أنا لا أحب الوادعين
النار شرعي لا الجمود ولا مهادنة السنين
إني ضجرت من الوقار ووجهه الجهم الرصين
وصرخت لا كان الرماد وعاش عاش لظى الجنين
إغضب على الصمت المهين
أنا لا أحب الساكنين

نازك الملائكة

السعادة



يروى عن كونفوشيوس أنه قال: " لا أشعر بالسعادة ما دام شخص واحد يعاني الشقاء". فهو إذا يبحث عن الكمال. وإذا كان الكمال هو معيار السعادة، فهي إذا حلم يصعب تحقيقه. ولكن الإنسان تعود أن يسعى وراء الكمال والمثل العليا.

ونلاحظ في الحياة اليومية أن هناك حوادث كثيرة تجعل الناس يعربون أثناءها عن شعورهم بالسعادة، ولو أنها لا تدوم إلا ساعات أو أياماً. مثال سعادة الحبيب عند لقاء حبيبه؛ والأم التي يعود ابنها من ساحة الحرب؛ والمريض الذي يشفى من مرض خطير؛ والفقير الذي بلغه أنه ورث ثروة كبيرة ... إلخ وهكذا تملأ السعادة النفس بالبهجة والانتشاح والحب ولو مؤقتاً، وتجعل المرء يشعر بالمتعة والحيوية والانتعاش كأنه في حلم.

ألكسندر لوين (طبيب)

من صفات الرجل السعيد:

السعيد حقاً من لا يخضع لإرادة غيره؛ سلاحه هو تفكيره الحر النبيل؛ مهارته العظمى هي الحقيقة البسيطة؛ لا تتحكم فيه انفعالاته؛ ولا تقيده رغبة في المال والشهرة؛ لا يحسد من ينالون الشهرة بالحظ أو بالرديلة؛ .

السعيد حقاً من يخضع لمبادئ الخير والفضيلة، لا لمبادئ السلطة.

لا يطعم من يمدحونه، ولا يحطم من ينتقدونه؛ مثل هذا الرجل لا يقلق إذا لم ينل السلطة والجاه؛ ولا يخشى أن يسقط منها.

إنه سيد غني بنفسه، وإن لم يكن صاحب الأملاك والسلطة.

سير هنري وتن (1)

(1) شاعر إنكليزي، 1568 - 1639.

السعادة :

السعادة مثل إناء من البلور الثمين، انكسر وتبعثرت منه مئات القطع الصغيرة في أماكن متعددة، فلا يستطيع شخص أن يلتقطها جميعها. قد يجد شخص قطعة منها ترمز للجمال، ويجد آخر قطعة تمثل الثروة، وثالث قطعة ترمز للصحة، أو الحب، أو السلطة إلخ.

والحكيم من يحاول أن يجمع أثناء رحلة حياته، أكبر عدد من القطع المبعثرة، ويحاول أن يناعم بينها ويستغلها (أي المال، الصحة، الحب...)، لأنه لا يمكن لشخص واحد أن يعثر على جميع عناصر السعادة المبعثرة.

برسيلا ليونارد

نصائح خبير:

- السعادة ليست شعوراً يكتسب من المحيط، من الخارج فقط، بل إنها حالة داخلية تنبع من أحشاء الإنسان، من فكره؛ فحاول أن توجه تفكيرك وخيالك واهتمامك نحو الخير والجمال.
- لا تحاول أن تغيّر العالم لينسجم مع ظروفك، بل عدل تفكيرك ونشاطك لينسجم مع العالم من حولك.
- الفكر، مثل البدن، يحتاج إلى الغذاء، فحاول، مهما كان سيئك، أن تقرأ شيئاً يقوي ثقتك بنفسك، ويوسع معارفك بالحياة، ويوجهك نحو الخير.
- ابدأ غيرك بالتحية، انطق بالكلمة الطيبة، كُفَّ عن انتقاد الناس.

كلمات تنعش الحياة

- حسنٌ مظهرك، نظم حياتك اليومية، وأعط جزءاً من وقتك لمشاركة الناس ومساعدتهم.

- خصص لنفسك نصف ساعة تختلي فيها بنفسك في عزلة وهدوء، لتسترخي وتستريح من ضجيج الحياة، ولتشحن "بطاريتك" من أجل أن تستأنف نشاطك برغبة وحماس.

- لا تبخل على نفسك بالملذات البريئة، بل تمتع مع أهلِكَ وأسرتك وأصدقائك بما ينعش النفس ويخفف من توترات الحياة.

- مجرد التفكير في الانتقام والحقد والكراهية يتعب الأعصاب؛ وهو مضيعة للوقت والطاقة، ومجلبة لمزيد من القلق والتوتر. سامح، إعف، أصلح ذات البين ... تنعم براحة البال.

ديل كارنيجي (1)

سهم وأغنية :

رمى سهماً في الهواء، سقط بعيداً في مكان مجهول؛ غنيت أغنية، انتشرت في المحيط. ومضيت أتجول، فوجدت السهم قد جرح غصناً، ووجدت قلباً مرحاً يردد ألحان أغنيتي.

هـ. و. لونغفيلو

من وسائل الحياة السعيدة :

إليك يا عزيزي ما أرى أنها من وسائل الحياة السعيدة: قطعة أرض خصبة؛ سعي وراء الرزق دون إفراط ولا تفريط؛ جسم سليم وفكر مطمئن

(1) صاحب الكتاب الشهير "دع القلق واطلب الحياة".

ونفس راضية لا تورقها المقلقات؛ صديق عاقل لا يحسد ولا يخاصم ولا يشتط في الجدل؛ حياة متواضعة تتسم بالاعتدال، خالية من المظاهر البراقة المغرية؛ غذاء بسيط متزن؛ ليل هادئ تسوده المودة، ولا تفسد فيه الخمرة صحوه الفكر؛ زوجة وفيّة بشوشة تتوج العلاقات الأسرية بحبها.

هنري هـ إيرل أوف ساري (1)

قناة: من شعراي العتاهية:

رغيفٌ حُبْزٍ يابسٍ	تأكلُـه في زاويـه
وكورٌ ماءٍ باردٍ	تشربه من صافيه
وغُرْفَةٌ ضَيِّقَةٌ	نفسُك فيها خاليه
أو مسجدٌ بمَعزِل	عن الـورى في ناحيه
تدرسُ فيه دَفْترًا	مُسْتندًا لـساريه
مُعْتبرًا بِمَنْ مَضَى	مِن القُـرون الخاليه
خيرٌ من السَّاعات في	فِيءِ القُـصور العاليه

أنتِ وأنا :

أنتِ وأنا، بعيدين عن العالم، في هذه الزاوية إلى جانب قنديل وبعض الكتب، وإبريق الشاي، السكون عميق، ولكنك تسمعينني وأسمعك من غير كلام. وفي هذا البيت الصغير والمشهد البسيط توجد جواهر من جميع ألوان اللطافة والرقّة والمحبة، بعيداً عن التكلف والمكر والمظاهر الخداعة.

(1) شاعر إنكليزي، 1517 - 1547.

إننا لا نستطيع أن نغزو العالم، ولا أن نغيّر أدمغة المجانين، ولكننا في هذه الزاوية نتمتع بالجمال والهدوء الصافي الممتع. ويوسعنا أن نبني، ليلة بعد ليلة، وساعة بعد ساعة، منارة عالية يشع النور منها، من حين لآخر، ليضيء سبيل الناس إلى منارتنا.

لودفخ لويزون

لا أنتظر شيئاً:

فلتأتِ السماء بالسحب، أو فلتكن صافية زرقاء؛ ولتأتِ الأيام بالمرح والبهجة أو بالدموع؛ لقد شربتُ من كل كأس، ضحكت وبكيت، أحببت وكرّهت، وذقت من الحياة حلوها ومرها.

لا أنتظر شيئاً جديداً. ومهما سأواجه من مقلقات ومتاعب، لن تستطيع أن تنقص ذرة من ثروة ذاكرتي المليئة بالتجارب. لا يستطيع أيّ هم أو كرب أو ألم أن يطفئ شرارة الروح المشتعلة. وسواء كان أمامي سنوات طويلة أم قصيرة، لا أسأل متى النهاية، بل أستقبل كل يوم بتحية الشكر والبهجة والعرفان، كأنه يوم ميلاد جديد.

مجهول

عناصر السعادة :

ليكون المرء سعيداً ينبغي أن تكون فضائله أوسع من عمله؛ وصداقته أعمق من عطفه؛ وسلوكه أقوى من فكره؛ وصحته أسلم من تراثه؛ وأوقات راحته أكبر من أرباحه.

ك. بانار

ورشة العمل :

- أحبب مهنتك، إنها أجلُّ شيء في الحياة؛ تساعدك على نسيان الهموم؛ وما أجمل أن تكون في ورشة عمل يسودها المرح، تسمع الأصوات، تشاهد حركات العمال. يسود الهدوء حيناً، ثم تحدث إشارة أو حركة غير متوقعة، فيبتسم العمال أو يضحكون، وذلك مما يطرد ملل الحركات الروتينية.

ساشا غيثرى (1)

توازن:

الإناء المقلوب لا يمتلئ ماء. فإذا أسررت على أن تدير ظهرهك للواقع وللحقيقة، فإن السعادة تنزلق على قلبك كما تنزلق مياه الشلالات على الصخور. ويبدو أن الإنسان يحتاج إلى قدر من السعادة، ومثله من الشقاء ليواصل مسيرته متوازناً.

جلبار سنوي (2)

أين أجد المتعة؟

أجد المتعة في الأشياء البسيطة: رغيف خبز ساخن من الدقيق الأسمر؛ كأس من اللبن والإبريق يغلي على النار؛ سقف يحمي رأسي، وأشعة الشمس تتخلل النوافذ.

أجد بهجة ومتعة في نسيمات الهواء التي تهز ستائر النافذة، وتراقص أغصان الزهور؛ وفي الجلوس قرب المدفأة وفي يدي كتاب. أقول لكل امرأة: لا

(1) أديب فرنسي، 1885 - 1957.

(2) كاتب فرنسي معاصر (من أصل مصري).

كلمات تنعش الحياة

تركضي بعيداً وراء المباهج الخيالية المحمومة، لأن المتعة الحقيقية الدائمة توجد في كثير من الأشياء التي تحيط بنا يومياً.

غريس فول كرويل

سعيد:

سعيد من يحب الإحراج والوديان والأعشاب والغابة، لا يذوق الحزن قلبه ولا تشيخ أعصابه. يبدأ يومه ويختمه مسترخياً، بوجه بثوش، مقتنعاً بحظه، ينعم بحاضره دون أن تذكر صفوه ظلال المستقبل.

ردشاد غاليان

القمة ... والسهول :

- صعدتُ إلى القمة فلم أجد ملجئاً بين سحب الجاه والسمعة. قُذني أيها الرائد، قبل أن يغيب ضوء الشمس، إلى السهول الهادئة حيث ينمو زرع الحياة في أحضان الحكمة والاطمئنان.

طاغور (1)

المزايا الصغيرة :

- السعادة لا تجلبها لقاءات الحظ العظيمة التي نادراً ما تحدث، بل تحدثها المزايا الصغيرة التي نحظى بها كل يوم.

بن يامين فرانكلين (2)

(1) شاعر هندي، 1861 - 1941.

(2) رجل دولة، كاتب وعالم أمريكي، 1706 - 1790.

أعمى .. ولكن:

إنني لا أرى الزهرة تتفتح براعمها، ولكن عطرها ينعشني؛ ولا أرى الربوة المخضرة، ولكن مشاعري تهتز للنسيم الذي ينبعث من قممها؛ ولا أشاهد الطيور المحلقة في السماء، ولكنني أشعر بالسنونو يرفرف حول المنزل؛ وتهتز نفسي لألحان الطبيعة في حفيف الأوراق ورقصات الأغصان.

لا أرى الأطفال وهم يمرون أمامي، ولكنني اغتبط بأصواتهم وضحكاتهم البريئة؛ ولا أشاهد روعة غروب الشمس، ولكنني أحس بنسمات السماء تصافح الأعشاب. لا أرى ضوء القمر ينسكب على سطح البحر، ولكنني أشعر بالأمواج وهي تداعب الشاطئ. هكذا أحتفل بأنعام الطبيعة، وأشكر الله على نعمه العديدة.

مجهول

وصفة:

- عليك بالقناعة، فإنها نبع لا ينضب؛
- عليك أن تتمتع بلذة المسرات لتقدر جمال الحياة؛
- لا تنس أن كرم النفس، ودمائة الأخلاق تنعش المتع الحسية؛
- ثق بنفسك، ولكن اجعل فكرك مفتوحاً وقلبك متعاطفاً مع جميع الناس.
- لا بأس أن تحلم بمستقبل أفضل، ولكن يجب أن يكون هدفك واضحاً وخطتك واقعية.

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

- أشرك غيرك فيما أوتيت من خيرات؛ تعاون مع الناس؛ تجنب
الغرور والأنانية، وثق بالله.

ألفرد غ. والتون

عطر السعادة :

السعادة عطر لا يمكن أن ترش به غيرك دون أن تصيبك منه قطرات.

ر. و. إمرسون

- من أسباب الشقاء أن يقضي المرء وقت فراغه مفكراً هل هو سعيد
أم شقي.

برنارد شو (1)

- الشتاء فوق راسي، والربيع في قلبي.

فيكتور هوغو (2)

- ليس من حق المرء أن يستهلك السعادة من غير أن يساهم في
إنتاجها.

أيها المحزون (3)

إن كنت تعلم أنك قد أخذت على الدهر عهداً أن يكون لك كما تريد في

(1) أديب إنكليزي، 1856 - 1950.

(2) شاعر، وكاتب روايات ومسرحيات، 1802 - 1885.

(3) مصطفى لطفى المنفلوطي، من كتابه: النظرات (الجزء الأول).

جميع شؤونك وأطوارك، وألا يعطيك ولا يمنحك إلا كما تحب وتشتهي؛ فجدير بك أن تطلق لنفسك في سبيل الحزن عنانها كلما فاتك مأرب، أو استعصى عليك مطلب، وإن كنت تعلم أخلاق الأيام في أخذها وردّها وعطائها ومنعها، وأنها لا تنام عن منحة تمنحها، حتى تكرر عليها راجعة فتستردّها، وأن هذه سنتها وتلك حلتها في جميع أبناء آدم، سواءً في ذلك ساكن القصر وساكن الكوخ، ومن يظاً بنعله هامّ الجوزاء، ومن ينام على بساط الغبراء - فحفض من حزنك وكفكف من دمك، فما أنت بأول غرض أصابهم سهم الزمان، وما مُصابك بأول بدعة طريفة في جريدة المصائب والأحزان.

أنت حزينٌ لأن نجماً زاهراً من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملاً عينيك نوراً، وقلبك سروراً، وما هي إلا كرهة الطرف إن افتقدته، فما وجدته؛ ولو أنك أجملت في أملك، لما غلوت في حزنك؛ ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك، لرأيت برقاً خاطفاً، ما تظنه نجماً زاهراً، وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أفوله.

أسعد الناس في هذه الحياة من إذا وافته النعمة تَنكَّر لها، ونظر إليها المستريب بها، وترقب في كل ساعة زوالها وفناءها؛ فإن بقيت في يده فذاك؛ وإلا فقد أعد لفراقها عُدتّه من قبل.

لولا السرور في ساعة الميلاد، ما كان البكاء في ساعة الموت؛ ولولا الوثوق بدوام الغنى، ما كان الجزع من الفقر، ولولا فرحة التلاق، ما كانت ترحة الفراق.

هل أشتكى؟ :

انتهت الحفلة، هداً الصخب، وانطفأت الأنوار؛ انتهت تلك المتع والمباهج والملذات، انتهى الحب الذي أنعش حياتي فترة، واختفت أحلام الماضي وآماله وتركت الباب مفتوحاً، فهل أشتكى؟

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

أجلس عند غروب الشمس، عندما تصبح المشاهد خليطاً من ضياء
وظلام، واستمع إلى أصوات قديمة تهمس بنغمات رقيقة هادئة لذيدة،
وأشاهد وجوهاً عزيزة مرحة تحييني، فتنتعش نفسي لتلك الذكريات البهيجة.
فهل يشتهي من لا يزال يتمتع بنعمة هذه الذكريات اللذيذة؟

لويز شاندر مولتون

* * * * *

من كلام الحكماء



- احذر أن تمسك الظل وتضيع الفاكهة.
 - لا يشتم البطل وهو في قبضة الموت إلا جبان.
 - كفك جزاء أن تُخْرِجَ رأسك من فم الأسد سليماً.
 - ريشك جميل، ولكنه مستعار.
 - لا تُحلقَ عالياً على جناح غيرك.
 - إنما تساعد الآلهة من يساعد نفسه.
 - لا تعدّ دجاجك قبل أن يفقس البيض.
 - لبس الذئب جلد الخروف، فتبعته الخرفان.
- (1) عيسوب

- قبل أن تحمل هموم الغد، فكر كيف تنهي يومك بسلام.
- عندما يتجاوز عمر المرء الخمسين يزداد تعلقه بالحياة.
- لا قيمة للقصور حتى يسكنها الناس.

(2) سوفوكليس

- من المزعج أن يسلك المرء سبل الأمانة دون أية نتيجة.

(1) شخصية "أسطورية" يقال أنه عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

(2) أديب يوناني، 496 - 406 قبل الميلاد.

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

- إنك لا تعرف شيئاً عن أهل زمانك إذا ظننت أن العسل أحلى من النقد في اليد.

- إذا اشتدت العاصفة اختفى الأصدقاء.

أوفيد (1)

من أقوال الحكماء:

- في كثير من الأحيان يمكنك أن تحل مشكلة بأسلوب الفكاهة والمزاح، أفضل من اللجوء إلى الشدة والتهديد.

- القوة التي لا يدعمها الرأي والحكمة تنهار تحت عبء ثقلها.

- من يهرب إلى ما وراء البحار يغير المناخ، ولكنه يحمل مزاجه معه.

- ما أصعب أن يفرق صاحب الثروة بين الصديق والتملق.

- سيّد مصيره من يقول كل يوم: لقد تمتعت بيومي سواء سطعت الشمس غداً أم غطتها السحب.

هوراس (2)

- الرفيق اللطيف أثناء السفر لا يقل أهمية عن المركب.

- اصفح عن الإهانة، ولكن احتفظ بالعصا.

- من لا يعرف متى يتكلم، لا يعرف متى يسكت.

- الاعتراف بالذنب خطوة نحو البراءة.

(1) شاعر روماني، 43 قبل الميلاد، 18 ميلادية.

(2) شاعر روماني، 65-08 قبل الميلاد.

- من الحذر أن تشد مركبك إلى مرساتين (وتدين).

- المظهر الأنيق يسحر العين، والكلام اللطيف يسحر القلب.

- ماذا ستفعل لو كان هذا آخريوم في حياتك؟

- لو سكت الأحمق لظن الناس أنه حكيم.

بويليوس سيروس (1)

من أقوال شكسبير (2):

- ليس الصبر أن تتحمل الإهانة ممن هو أقوى منك، بل أن تتحملها ممن هم أضعف منك.

- من يفعل الشر ويحاول إخفاءه، مازالت فيه بذرة خير؛ ومن يفعل الخير ويحاول إظهاره ما زالت فيه بذرة شر.

- الذبابة التي تجرأ على تناول فطورها على أنف الأسد، ذبابة شجاعة.

- لو كان لي مائة ولد لكان همي الأول أن أعلمهم كيف يتجنبون المسكرات.

من حكم السابقين:

- أحبب جارك، ولكن لا تنزع السياج الذي يفصل منزلكما.

- من كان بيته من زجاج لا يرمي الحجر على بيوت الآخرين.

(1) عاش في القرن الأول قبل الميلاد، وكان من الرقيق. نقل إلى روما حيث اشتهر ككاتب للمسرحية الساخرة.

(2) 1564 - 1616.

- من يشتري يحتاج إلى ستين عيناً، ولا يحتاج البائع إلا إلى عين واحدة.
- إذا كنت مطرقة فاضرب، وإذا كنت سنداناً فاصمُد.
- إذا لم تكن قوياً في الثلاثين، ولا غنياً في الأربعين، ولا حكيماً في الخمسين، فمتى تكون قوياً وغنياً وحكيماً؟
- ينقضي نصف حياتنا ونحن لا نعرف ما هي الحياة.
- الرحي لا تطحن بالماء الذي مرّ بها.
- كمن يحاول أن يصنع مسطرة من ذنب الخنزير.

جورج هيربت⁽¹⁾

من أقوال شكسبير:

- يذوق الجبناء طعم الموت مراراً قبل موتهم، أما الشجاع فيذوقه مرة واحدة.
- غناء هذه الفتاة يجعل الدب أليفاً مثل الخروف.
- الانفعال يكبر قيمة الأشياء في نظرنا، وتقل قيمتها بعد أن نهدأ.
- إنه مثل الأعشاب الضارة التي تسرق الغذاء من تربة الزهور الجميلة.
- الخطأ ليس في النجوم إذا كنا ضعفاء، بل إنه كامن في نفوسنا.
- عجلة حظي متقلبة طائشة كأنها تقف على صخرة متدحرجة.

- الحياة خداع كبير، غير أن الأمل يخدع الناس فيرضون بخداع الحياة.

(1) أديب إنكليزي 1593 - 1633.

- سعيد حقاً من يقول للغد: افعل ما تشاء، فقد عشت اليوم سعيداً.
- الفضيلة تدفئ صاحبها حتى وإن كانت ترتدي خرقاً بالية.
- تنساب العادات السيئة في هدوء إلى الإنسان، كما تنساب الجداول الصغيرة إلى البحيرة.
- إننا لا نخاف الموت، ولكننا نخشى المجهول الذي يأتي بعدها.

جون درايدن (1)

- إذا كنت لا تتذكر أدنى الحماقات التي أوقعك الحب فيها، فأنت لم تحب.
- الشهرة عبء زائف، تكتسب في أحيان كثيرة من غير جدارة، وتفقد من غير أسباب.
- التفجع على مزعجات ماضية مجلبة لمزعجات جديدة.
- يحلوه الغناء عندما يحفر القبور.
- الحب والحكمة لا يستقران في قلب واحد.
- تكلم بأقل مما تعرف، واقرض أقل مما عليك من ديون.
- قليل من العتاب أفضل من حسرة تتعب القلوب.
- الخطوبة فصل الربيع، وبعد الزواج يحل فصل الشتاء.
- الملابس الفخمة تغطي العيوب؛ أما الخرق البالية فتكشف خطايا صاحبها. إطل الآثام بالذهب، تنكسر على سطحها رماح العدالة؛ ألبسها خرقاً بالية، تخرقها عيدان القزم.

(1) أديب إنكليزي 1631 - 1700.

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

- خفف هموم قلبك بأقوال الحكماء.
- لطف المرأة وحنانها أعمق تأثيراً من جمال وجهها.

شكسبير

قالوا :

- معظم الناس يقضون وقتاً في اللف حول المشكلة أكثر مما يقضونه في حلّها.

هنري فورد

- نستطيع تسديد ديون الماضي بأن نجعل المستقبل مديناً لنا.

جون بوكان

- الشيء الوحيد الذي يدوم هو التغيير.

هرقل

- العلم كنز، مفتاحه العمل.

توماس فولر

- اللسان هو الأداة الوحيدة التي تزداد حدتها بزيادة استخدامها.

واشنطن إرفينغ⁽¹⁾

- الإنسان باقة من العلاقات، وحرمة من الجذور ثمرتها العالم.
- عما قليل سيغشانا ظلام طويل، فعلام نضيع الوقت في الخصام.

(1) أديب أمريكي 1783 - 1859.

- لا شيء مما يجمل الوجه أو الشكل أو السلوك يعادل الرغبة في نشر المرح والبهجة.
 - الجمال بدون رقة ولطافة مثل السنارة بدون طعم.
 - زخارف المنزل هي نوع الأصدقاء الذين يترددون عليه.
 - احتفظ بهدوئك! فبعد مائة سنة سيتحول كل ما حولك إلى شيء واحد (التراب).
 - ليس ما ندعوه "حشائش ضارة" إلا نباتات لم تكشف بعد مزاياها.
 - ليس معيار الحضارة حجم المدن، بل نوع الحياة فيها.
- ر. و. إمرسون (1)

- لا بد من شخصين لقول الحقيقة، أحدهما يتكلم والآخر يستمع.
 - الحياة كيس مملوء بالمساعي، بعضها مربوط بخيوط الحظ.
 - لا تستطيع أن تقتل الوقت دون أن تجرح الإنسانية.
 - معظم الكماليات عوائق تعرقل سمو الإنسان.
 - أرى آلاف الناس يحاولون قطع أغصان الشرّ، ولا أرى شخصاً واحداً يحاول أن يجتث جذوره.
 - من رجال الدين من يتحدثون عن الإله، ويحتكرون الحقيقة وكأنهم حصلوا على حقوق الطبع والنشر والتوزيع.
 - من منكم يؤرخ حوادث حياته بالسنة التي قرأ فيها كتاباً مهماً؟
- هـ. دافيد ثورو (2)

(1) شاعر وفيلسوف أمريكي 1803 - 1882.

(2) أديب أمريكي 1817 - 1862.

من أقوال الفيلسوف نيتشه (1):

- إذا رغبتَ في الصعود عالياً فاصعد على رجلك، ولا تترك الناس يحملونك.
- إذا كانت اللعبة ليس فيها حبٌّ ولا كراهية، يكون دور المرأة فيها ضعيفاً.
- من آثار العقاب على الإنسان والحيوان أنه يزيد الخوف، ويدفع إلى التحكم في الرغبات، ويعلم الحيلة. فالعقاب يجعل الإنسان أليفاً ولكنه لا يحسن سلوكه.
- أكثر المساوئ يمكن إرجاعها إلى جهاز الهضم، وحياة الجلوس والكسل.
- تنسب أعمال التطرف إلى الغرور؛ والمناورات اللئيمة إلى الخوف؛ والنشاطات البديهية إلى العادة.
- لا شيء يسمم الحياة مثل مشاعر الكراهية.

- الكسل هو الصدا الذي يلتصق بالمعادن.

فولتير

- أخطر القلق فإنه مثل الصدا يزيل لعان المعادن.

تريون إدواردز

- رب عاطفة صادقة هزمت حزمة من الحقائق.

رك. ليفت

(1) فيلسوف ألماني، 1844 - 1900.

- لساعة البهجة رفاق كثيرون، وساعة الحزن وحيدة.

ر. ناتان

- أصبحت اليوم في عينيك خريفاً، وكنت تدعينني "يا ربيع عمري".
- لا بأس أن تحترق شمعتي من طرفيها، إذا كانت تنير السبيل لأصدقائي
وأعدائي على حدٍ سواء.

سانت فانسان ميلاي

- إذا تولى صديقك منصب سلطة، فقدته.
- المعرفة بطبيعة البشر بداية الثقافة السياسية.
- النظام يولد العادة، الفوضى تولد الحياة.
- الأخلاق مسألة خاصة؛ إنها من الكماليات المكلفة.
- السياسة العملية تتلخص في تجاهل الحقائق.
- لا أحد يعني كل ما يقول؛ وقليل من يعبر بدقة عما يعني، لأن الكلمات
منزلق حساس، والفكر مناور شرير.
- تلعب الصدفة دوراً كبيراً في إيجاد الزوج والصديق.

هنري آدمز⁽¹⁾

- من حماقة أن تظن أن العمل سيتوقف بدونك، وأنه لا يمكن الاستغناء
عنه؛ خمسمائة شخص مستعدون ليحلوا محلك.
- حدس المرأة أفضل من يقين الرجل.

(1) أديب أمريكي 1838 - 1918.

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

- عندما يلتقي بطلان قويان لا يبقى مجال للحسب والنسب، ولا يهم شرق ولا غرب.

- نهاية المطاف "شاهد" على ضريح كتب عليه: هنا ينام مغفل حاول أن يخادع الشرق.

- الإنسان حيوان ممسوخ يخضع لتأثيرات روحية من مصادر مجهولة.

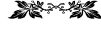
- لدى ستة خدم علموني كل ما أعرف، أسماءهم: ماذا؛ لماذا؛ كيف؛ متى؛ أين؛ ومن.

- الضفدعة تحت رحمة سنابك الخيل، والفراشة على جانب الطريق تحدثها عن الرضى والاطمئنان.

روديارد كيبلينغ (1)

(1) أديب إنكليزي 1865 - 1936.

موضوعات متنوعة



قرآن كريم :

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾

(البقرة: من الآية: 224)

﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾

(يونس: من الآية: 36)

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الصف:3)

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُدُودِ مَسْكِنَاتِهِمْ وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

(الإنسان: 8)

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

(العصر:1:3)

حديث شريف : البّر:

(عن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ["جئت تسأل عن البر؟" قلت: نعم. قال: "استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك"].

(حديث حسن في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدرامي).

حديث شريف : الصدق:

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار. وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً).

(متفق عليه).

حديث شريف: المنجيات والمهلكات:

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات. فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فهوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه وهي أشدهن).

(رواه البيهقي)

دعاء : حديث شريف :

(ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله تعالى همك، وقضى عنك دينك؟ قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال").

(رواه أبوداود)

من (العهد القديم) :

- لا تقل لقريبك " اذهب وعدّ، فأعطيك غداً" إذا كان الشيء عندك.
- سبيل الأبرار مثل نور الفجر، يزداد سطوعاً ... وطريق الأشرار كالظلام.
- لأن شفّتي الأجنبية تقطران شهداً، وحلقها أليّن من الزيت، لكن عاقبتها مرّة مثل العلقم، أبعد طريقك عنها، وافرحْ بامرأة حدانثك ... وبحبها تهيم على الدوام.
- لا يُحْتَقَرُ السارق إذا سرق ليشبع نفسه وهو جائع ... أما الزاني فهو فاقد الرشد، لا يصنع هذا إلا مهلك نفسه.

من وصية للإمام على لابنه الحسن عليه السلام :

- .. ومراة اليأس خير من طلب الناس؛ والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور؛ والمرء أحفظ لسرّه؛ وربّ ساع فيما يضره؛ ومن أكثر أهجر (1)؛ ومن تفكر أبصر.
- قارن أهل الخير تكن منهم، وبأين أهل الشرّ تبينّ عنهم. بئس الطعام الحرام؛ وظلم الضعيف أفحش الظلم ... إياك اتكالك على المنى فإنها بضائع الموتى؛ والعقل حفظ التجارب، وخير ما جريت ما وعظك.
- احمل نفسك من أخيك، عند صرمة (2)، على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته على اللين، وعند جرمه على العذر.

(1) هدى (يهذي).

(2) قطيعته.

دعاء:

إلهي، عندما يغمرنني القلق، ساعدني لأتذكر القوة التي ألهمتني في ساعات الشدة؛ ساعدني أن أتذكر أوقات الهناء والبهجة عندما كنت أتجول على الربي المزهرة، وأجلس حالماً على حافة الجدول الهادئ.

إلهي أبعد عني شعور الخيبة والمرارة، واحفظني من العواطف الجامحة في ساعة الضعف. ارزقني صديقاً يحبني لشخصي، وأضئ حُطايا بنور الأمل المنعش.

إلهي إذا أثقلتني الشيخوخة والعوائق، علمني كيف أكون شاكراً على الحياة، وعلى ذكريات الشباب اللذيذة، وراجياً بصبر أن تدركني شمس الغروب ونفسي راضية مطمئنة.

ماكس إرمان

من (العهد القديم) (1):

- ستة يبغضها الرب، والسابعة قبيحة عنده: العينان المرتفعتان؛ واللسان الكاذب؛ واليدان السافكتان الدم الزكي؛ والقلب المضمراً أفكار الإثم؛ والرجلان المسارعتان إلى السوء؛ وشاهد الزور الذي ينفث الأكاذيب ويلقي النزاع بين الإخوة.

(سفر الأمثال)

من كلام الإمام علي عليه السلام:

..... واعلموا - رحمكم الله - أنكم في زمان القائل فيه بالحق قليل،

(1) الكتاب المقدس عند اليهود.

واللسان عن الصدق قليل، واللازم للحق ذليل، أهله معتكفون على العصيان شائبهم آثم، وعالمهم منافق، ومقارئهم مماذق (1)، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم.

قبل الغضب :

ماذا تقول؟ أحسب إلى عشرة، قبل الغضب؟ أليس من الأفضل أن أعدّ عشر نجوم سابعة في الفضاء. إنها مخلوقات لا تعرف الحقد والغضب.

أم أعد عشر ورقات من أوراق الخريف، وهي تهوى نحو الأرض؟ أم أعدّ عشراً من الحصى الملقى داخل النهر؟ أم نعد عشرة أشخاص ممن ولدوا في ساعة نحس وألم؟ لقد تعبوا ثم أعيديوا إلى التراب.

والمهم هو أننا عندما نعدّ عشرة مخلوقات يمكننا أن ننظر بهدوء إلى من كان سبب غضبنا ونقول له: ما أوسع الدنيا .. لقد ذهب غضبي وانفرج انزعاجي، والحياة أحلى بدون غضب.

بونارو أوفرستريت

الغضب :

واسفاه، كم يغير الغضب لطافة الوجه الوسيم، وكم يشوه معالم الجمال ولطافته.

سقراط

الغضب :

من الواضح أنه ليس في وسع الإنسان أن يتخلص من الغضب بصورة

(1) من يغش.

◆ كلمات تنعش العياة ◆

نهائية. وإذا حقّ لك أن تغضب، حاول ألا ترتكب أخطاء أثناء غضبك. ولا تسمح للغضب والحقّد أن يسيطر عليك مدة طويلة. ويستحسن أن تصلح الأمور قبل غروب الشمس. فلا تكن مثل النحلة التي تفقد حياتها عندما تلسع.

وقد قيل من فقد صبره فقد نفسه. والغضب نوع من الضعف لأنه يسيطر خاصة على الأطفال والمرضى والمسنين.

◆ ومن أسباب الغضب:

أن يكون المرء شديد الحساسية لكل ما يمس شخصه بالانتقاد؛ وأن يفسر كل ما لا يلائم سلوكه وأفكاره على أنه إهانة له.

ولعله من المفيد أن يجعل المرء لكرامته "غطاء" سميكاً حتى لا يجرحها كل ما يتضمن معنى الاستخفاف أو الازدراء. وعلى المرء أن يلجم لسانه أثناء الغضب لكي لا ينطق بعبارات مؤذية، أو يفشي أسرار الناس، أو يلغي علاقات هامة عائلية أو اجتماعية أو تجارية.

ف. يكون

: الابتسامة

الابتسامة لا تكلفك شيئاً، وتعطيك كثيراً. إنها لا تدوم إلا لحظة، ولكن أثرها السحري يدوم طويلاً. ما أفقر من يظل وجهه مكفهراً، وما أسعد من ينير وجهه ووجوه الآخرين بابتساماته.

الابتسامة تنعش البيئة مثل شعاع الشمس داخل المنزل، توثق العلاقات وتخفف قليلاً من الكآبة. فإذا انشغل بعض الناس عنك، ولم يبتسموا لك، فاهد لهم أنت الابتسامة، لأن الذي يحتاجها حقاً هو الذي خلى قلبه من الرغبة في الابتسام.

مجهول

من أقوال (العهد القديم) :

- النفس الشبعى تدوس الشهد، وللنفس الجائعة كل مرحلو.
- من مرّ فتدخّل في خصومة لا تعنيه، كمن يأخذ كلباً بأذنيه.
- من يرصد الريح لا يزرع، ومن يرقب الغيوم لا يحصد.
- إذا عاتبت الحكيم أحبك، وإذا عاتبت الساخر بغضك.
- كالخلّ للأسنان، والدخان للعينين، كذلك الكسلان لمن أرسله في مهمة.

من حكم الأفوه الأودى:

والخيرُ تزدادُ منه ما لقيتَ به
والشرُّ يكفيكَ منه قلَّ ما زادُ
والبيتُ لا يُبتنى إلا له عمْدُ
ولا عمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ
فإنَّ تجمَّعَ أوتادُ وأعمدُهُ
وساكنُ بلَغوا الأمرَ الذي كادوا
لا يصلحُ الناسُ فوضى لا سراةَ لهم
ولا سراةَ إذا جهَّأ لهم سادوا
تُهدى الأمورُ بأهلِ الرأي ما صلحتُ
فإنَّ تولَّتْ فبالأشرارِ تنقادتُ
إذا تولى سراةُ الناسِ أمرهم
نما على ذاكَ أمرُ القومِ فازدادوا

أثناء جولة :

يمشي بعض الناس في الشوارع وقلوبهم حزينة، ورؤوسهم محنية، وخطاهم غير ثابتة. وفقني إلهي لأتعرف على من تهز نفسه الوحدة وتقلقه الهموم، لأنه ليس له أسرة ولا أصدقاء، لأحدثه بكلمات تؤنس وحدته وتهدي قلعه.

إلهي ساعدني لأرد إلى العيون الحزينة بريقها؛ وفقني إلهي لأتعرف على المحرومين من دفء الأخوة وعطف الإنسانية لأقول لهم كلمة طيبة، ليعلموا أن الشارع لا يخلو من ابتسامة ونظرة عطف ورحمة.

غريس ن. كرويل

الحقيقة الكاملة⁽¹⁾:

روى الفيلسوف الصيني "لي هتر" هذه الأسطورة المليئة بحكمة قال:

فوق ثلّ من تلؤل غابة نائية كان يعيش رجل شيخ، مع ابنه وجواده. وفي ذات صباح هرب الجواد واختفى، فأقبل الجيران على الشيخ يُعرّونه في نكبته بفقد جواده، فقال الشيخ:

ومن أدراكم أنها نكبة؟

فصمتوا وانصرفوا راجعين، ولم تمض أيام حتى عاد الجواد إلى صاحبه من تلقاء نفسه، ولم يُعدّ وحده، ولكنه عاد ومعه قطيع من الخيول البريّة، فعاد الجيران إلى الشيخ فرحين مهنئين بهذا العُثم الموفور، وهذا الحظ السعيد، فنظر إليهم الشيخ بهدوء وقال:

ومن أدراكم أنه حظ سعيد؟

(1) من مقال لتوفيق الحكيم.

فسكنوا مبهوتين، وانصرفوا متحيرين، ومرّت الأيام، وجعل ابن الشيخ يروض الخيول، فامتطى منها جواداً عنيداً. فسقط من فوق صهوته إلى الأرض، فكسرت ساقه، فرجع الجيران مرة أخرى إلى الشيخ محزونين، يبثونه المهمل لما وقع لولده، ويعزونه في هذا الحظ العاثر. فقال لهم الشيخ يرفق:

ومن أدراكم أنه حظ عاثر؟

فانصرفوا صامتين، ومضى العام، وإذا حرب تقوم، فجدّ الشباب إليها، وأرسلوا إلى الميدان، فلاقوا حنّهم إلا ابن الشيخ، فإن العرج الذي يقدمه أعفاه من الذهاب إلى الحرب، وأنقذه من ملاقاته الموت.

إلى هنا تنتهي قصة الفيلسوف الصيني، ولو أنه استرسل فيها لما فرغنا من تعاقب السعد والنحس على الحادث الواحد. ذلك بأن لكل شيء نهاره وليله يدوران حوله بغير انقطاع، ولكن الإنسان في نظرته القصيرة، وذاكرته الضعيفة لا يرى الحادث إلا في حلقاته المنفصلة، وأجزائه المتقطعة، وتتأججه الموقنة، ومؤثراته المفاجئة.

فعينه لا تستطيع أن تشمله في جملة لأن جملة ممتدة في الغيب، وعين الإنسان لا ترى الغيب.

ولو استطاع إنسان أن يشكل بنظرته الأمس واليوم والغد، وأن يتتبع حادثاً واحداً، أو رجلاً بعينه لرأى العجب، فهذا الغني الذي يملك الملايين سيّرَى أمواله قد بددها وريث، وهذا الوريث سيكون له أولاد فقراء، ومن هؤلاء الفقراء يخرج واحد ينشئ ثروة وهكذا دواليك، يأتي المال من العدم، ويذهب المال في العدم، ويولد من السعد نحس، ومن النحس سعد، ساقية لا تكف عن الدوران، ولا تقف طول الزمان. ليس هناك في حقيقة الأمر حظ زاهر، أو حظ عاثر، لأن الساقية الدوارة لا تُبقي أحداً في موضعه ولا شيئاً في مكانه. إن ما نسميه "الحظ" ما هو إلا وقوف نظرنا المحدود على وضع من الأوضاع في وقت

◆————— كلمات تنعش الحياة —————◆

من الأوقات. وإن فرحنا أو بكاءنا لهذا الحظ ليس إلا قلة صبرنا على انتظار
البقية.

قال الإمام عليّ لابنه الحسن عليه السلام :

يا بني، احفظ عني أربعاً لا يضرّك ما عمّلتَ معهنّ:

أغنى الغنى العقل وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم
الحسب حسن الخلق

إيّاك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه؛ وإياك ومصادقة الكذاب
فإنه كالسرّاب:

يقرب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب.

من مسرحية (هملت) - لشكسبير:

- هملت يتكلم -

أأكون أم لا أكون؟ ذلك هو السؤال. أمّن الأنبيل للنفس أن يصير المرء
على مقاليع الدهر اللئيم وسهامه.

أم يُشهر السلاح على بحر من الهموم، وبصدها ينهيها؟ نموت ... ننام .. وما
من شيء بعد ... أنقول بهذه النومّة ننهي لوعة القلب، وآلاف الصدمات التي من
الطبيعة تعرض لهذا الجسد؟ تلك غاية ما أحرّما تُشتهي. نموت ننام ...

ننام - وإذا حلمنا؟ أجل لعمرى، هناك العقبة. فما قد نراه في سبات
الموت من رؤى، وقد ألقينا بفانيات التلايف هذه عنا، يوقفنا للتروى.

ذلك ما يجعل طامةً من حياة طويلة كهذه.

وإلا فمن ذا الذي يقبل صاغراً سياط الزمان ومهانته، ويرضخ لظلم
المستبد، ويسكت عن زراية المتعطرس.

إيمان:

لا أدع الشك يتطرق إلى قلبي، على الرغم أن السماء لم تستجب لدعائي
المكرر. أعرف أن الله يحبني، وأعتقد أنه لم يستجب لدعائي لحكمة من
أسراره. صحيح أنني أحزن أحياناً لهذا النسيان، ولكن شمعة إيماني ما زالت
تضيء حياتي في هدوء.

ما زالت الأحزان تتجاذبني، والمشاكل تحوم حولي، لكن لا أسمح للشك
أن ينفذ إلى قلبي. أعتقد أن الأهداف التي أسعى وراءها إنما تنال بالجهد
والألم. لا شك أنني أتور وأرْمِجُ وأرتجف أحياناً، ولكن أتوقع النجاح يزحف
نحوي من خلال لحظات الفشل.

إ. و. ولكوكس

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن
برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً
فإن الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغلُّ أختها
وما خير سيف لم يُؤيدُ بقائم
وحلُّ الهوينى للضعيف ولا تكن
نؤوماً، فإن الحزم ليس بنائم

بشار بن برد

حكم ونصائح :

وَمَنْ لَمْ يَصْنَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ يَضْرُسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمٍ
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقُ الشَّتْمَ يَشْتَمُ
وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمُ
وَمَنْ لَمْ يَدُذَّ عَنْ حَوْضِهِ بِسَلَاحِهِ يَهْدِمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ

(زهير بن أبي سلمى)

وميض البرق :

كان ذات يوم عاصف، أسقف مسيحي في كنيسة الكبرى، وجاءته امرأة غير مسيحية، ووقفت أمامه، وقال: "لست مسيحية. هل لي أن أخلص من نار الجحيم؟".

حملق الأسقف في المرأة، وأجاب: "لا! ليس ثمة من خلاص إلا لأولئك الذين تعمّدوا بالماء والروح".

وفيما هو يتكلم، انقضت من السماء صاعقة على الكنيسة الكبرى، ودوى الرعد، واندلعت النار في الكنيسة وملأت أرجاءها.

وأقبل رجال المدينة مسرعين، وخلصوا المرأة، ولكن الأسقف كان قد احترق، وقضى طعماً للنار.

جبران خليل جبران

من كتابه: السابق والتائه

السيد (لا شيء):

أنا لا شيء، ومن أنت؟
ماذا؟ أنت لا شيء أيضاً؟
إذا لا تقل لأحد. لأنهم قد يخرجوننا من المدينة.
كم هو حزين أن يكون المرء شخصاً مهماً!
ويصبح أمره شائعاً، ويكرر الناس اسمه طول النهار، ويشعر كأنهم
ضفادع في مستنقع تحاول أن تقول شيئاً.

إميلي ديكنسون (1)

ابتسم :

الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يبتسم؛ فلا الزهور ولا الأحجار
الثمينة تبتسم. فلا ابتسامة والمرح والبهجة زهرة الحب والرضى. إذا كان
الوجه نافذة، فلا ابتسامة هي النور الذي يشع من خلاله.
الوجه الذي لا يبتسم مثل البرعم الذي لا يتفتح، ويجف على غصنه.
الضحك هو النهار، والليل الهدوء، والابتسامة نور الفجر الذي يخلق بينهما.

من حكم عدي بن زيد:

فنفسك فاحفظها من العيِّ والردي
متى تُعوها يغو الذي بك يهتدي
وإن كانتِ التعماءُ عندكَ لامرئٍ
فمِثلاً بها فاجز المطالبَ واردي

(1) شاعرة أمريكية 1830 - 1886.

عن المرء لا تسألُ وسلّ عن قرينه
فكلُّ قرين بالمقارن مُقتدِ
إذا أنتَ طالبتَ الرجالَ تراثهم
فَعُفَّ ولا تطلبُ بجهدٍ فتنكدي
ولا تقصرنُ عن سعى مَنْ ورثته
فما اسطعتَ من حير لنفسك فازددي
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعته
من اليوم سؤلاً أن تيسرني غدِ
إذا ما رأيتَ الشرَّ يبعثُ أهله
وقامَ جناةُ الشرِّ بالشرِّ فاقعدِ

الجمال :

- أفضل الجمال هو ما لا يستطيع الرسام أن يرسمه، ولا أول لقاء أن يظهره. ويوصف الجمال أحياناً بأنه فاكهة موسمية لا تدوم طويلاً؛ ولكن إذا أشرف الجمال في الظرف الملائم فإنه يجعل الفضيلة تسمو والرذيلة تخجل.

فرانسيس بيكون

حسن المعاملة :

- قال شاعر أمريكي: ما أكثر المذاهب، ما أكثر الملل، ما أكثر الآلهة، في حين أن كل ما يحتاجه العالم هو أن يعامل الإنسان أخاه باللطف والإحسان.

دعاء الصباح :

إلهي ساعدني في هذا اليوم أن أفرغ بعض الكآبة والحزن من مخزن
الهموم، وأن أزرع بعض السرور في القلوب القاحلة. وساعدني حتى لا أرح
قلب قريب أو صديق بكلمة سيئة.

ومهما قلت ثروتي، وفقني إلهي أن أقدم شيئاً للمحتاج، وأن أنطق
بعبارات تشجيع خالصة وتعاطف صادق أقدمها إلى نفوس متعبة ترفع
معنوياتها، وتزيدها ثقة بالحياة.

وعندما آوى إلى فراشي هذا المساء، يهتف بي ضميري: نم مطمئناً، لم
يضع يومك سدي.

أ. و. ولكوكس

حكم :

وإن كنت في حاجة مُرسلاً
فأرسل حكيماً ولا توصيه
وإن ناصح منك يوماً دنا
فلا تنأ عنه ولا تُعصيه
وإن باب أمر عليك التوى
فشاوّر لبيباً ولا تُقصه
وذو الحق لا تنقص حقه
فإن القطيعة في نقصه
ولا تذكر الدهر في مجلس
حديثاً إذا أنت لم تُحصه

وُصَّ الحَدِيثَ إِلَى أَهْلِهِ
فَإِنَّ الوَثِيقَةَ فِي نَصِّهِ
وَلَا تَحْرَمَنَّ فَرْبًا أَمْرِي
حَرِيصٌ مَضَاعٌ عَلَى حِرْصِهِ
وَكَمْ مِنْ فَتَى سَاقِطٍ عَقْلِهِ
وَقَدْ يُعْجَبُ النَّاسُ مِنْ شَخْصِهِ
وَأَخَّرَ تَحْسِبُهُ أَنْوَكًا (1)
وَيَأْتِيكَ بِالْأَمْرِ مِنْ فَصِّهِ (2)
لَبَسْتُ اللَّيَالِي فَأَفْزَيْتَنِي
وَسَرَّبَنِي الدَّهْرُ فِي قُمْصِهِ (3)

طرفة بن العبد

إذا لم:

إذا لم تبك حتى تسيل دموعك، فأنت لا تعرف الضحك؛ إذا لم تعرف
مرارة الفشل، فأنت لا تعرف حقيقة النجاح؛ إذا لم تتألم، لا تقدّر ملذات
الحياة؛ إذا خلا فرك من الشكوك، فهو خال من التفكير؛ إذا لم يهزك
الخوف، لا تعرف لذة الشجاعة؛ إذا لم تخطئ، لا تقدّر لذة التجارب؛ إذا لم
تذق مرارة الحيرة والمعاناة، لا تقدّر متعة الهناء والاطمئنان.

إ.م. برينار

(1) تحسبه جاهلاً.

(2) من أصله.

(3) ألبسني قميصه.

قال القطامي في (التأني والحزم) :

والتَّاسُ مَنْ يَلِقَ خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ

مَا يَشْتَهِي وَلَا مَّ الْمَخْطِئِ الْهَبَلُ

قَدْ يَدْرِكُ الْمَتَائِي بَعْضَ حَاجَتِهِ

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَرَبَّمَا فَاتَ قَوْمًا جُلُّ أَمْرِهِمْ

مِنَ التَّائِي وَكَانَ الْحَزْمُ لَوْ عَجَلُوا

وَالْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرَّبَهُ

عَيْنٌ وَلَا حَالٌ إِلَّا سَوْفَ يَنْتَقِلُ

من قصيدة (لعلي محمود طه) : بمناسبة عيد ميلاد المسيح ﷺ

أيهما المبعوث، لا ضئت برُجعاك السماء

أنظر الأرض .. فهل في الأرض حُبٌّ وإخاء

نسي القوم وصاياك وضلُّوا وأساءوا !

❖❖❖

يا قويا لم يهْنُ يوماً عليه الضعفاء

وضعيفا واسمه يفزعُ منه الأقوياء

وأنا المسلم لا يجحدُ عندي الأنبياء

أنت في القرآن حُبٌّ وجمالٌ ونقاء

عجبٌ فديتك المثلى ! وفي القول عزاء !

ألهذا العالم الشرير؟ قد ضاع الفداء !

شكراً:

كلمة "شكراً" لا تكلفك شيئاً. ولكنها مثل عبير الوردة ينتشر في هدوء فيعطر الهواء؛ إنها ومضة نور تضيء أسارير الوجه؛ ووسادة يستند إليها الرأس المتعب؛ تلتف مرارة الانهزام. تحرك المشاعر الطيبة، وتهزم الوجه العبوس. الشكر للقلب المتعب مثل نبع ماء في الصحراء.

ر. هـ. غرينفيل

الكتاب:

الكتاب نعم الدُّخْرُ والعُقْدَةُ، والجليسُ والعمدة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربية، ونعم القرين والدخيل والزميل.

والكتاب وعاء ملئ علماً وظرف حشى ظرفاً، وإناء شحِنَ مزاحاً. إن شئت كان أعيان من باقل، إن شئت كان أبلغ من سحبان وأثل، وإن شئت سرّتك نوادره، وشجّتك مواظبه. ومن لك بواعظ مله، وبناسك فاتك، وناطق أحرص. ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والجنس وضده.

وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في رُدن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء. ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض وأكتم للسر، وأحفظ للوديعة من صاحب الوديعة! ولا أعلم جاراً آمن ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية، ولا أقل إملاً ولا إبراهيماً، ولا أبعد من مرء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال عن كتاب.

ولا أعلم قريناً أحسن مؤاتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا شجرة أطول عمراً،

ولا أطيّب ثمرأً، ولا أقرب مجنئي، ولا أسرع إدراكاً ولا أوجد في كل إبان من كتاب.

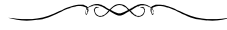
ولا أعلم نتاجاً في حادثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وإمكان وجوده، يجمع من السير العجيبة والعلوم الغريبة، وآثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة، والتجارب والأخبار عن القرون الماضية، والبلاد النازحة والأمثال السائرة والأمم البائدة ما يجمعه كتاب.

والكتابُ هو الجليسُ الذي لا يُطْرِكُ، والصديقُ الذي لا يَقْلِبُكَ، والرفيقُ الذي لا يملك والمستمعُ الذي لا يَسْتَزِيدُكَ، والجارُ الذي لا يَسْتَبِطُنُكَ، والصاحبُ الذي لا يُرِيدُ استخراجَ ما عندك بالملق، ولا يُعامَلُكَ بالكرِّ ولا يخدَعُكَ بالنفاقِ.

الجاحظ (1)



نفحات من الأدب العالمي



مقدمة



يشتمل هذا الكتاب على خلاصات عن حياة واحد وأربعين من الأدباء والفلاسفة الذين عاشوا في قارات متباعدة، وظروف حضارية مختلفة، وأزمنة تمتد من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن العشرين. ويستعرض اقتباسات متنوعة الموضوعات مما سطره من نصوص أدبية وفلسفية، وملخصات من بعض ما كتبوه من قصص وحكايات، ومقتطفات من مسرحيات، ونبذاً من الأمثال والحكم والنصائح، وملاحظات تاريخية.

وقد تناول هؤلاء الأدباء موضوعات شتى، فكتبوا عن الحب، الثروة، القدر، الحظ، الطموح، القلق، وعن الحياة وتقلباتها، وآمال الناس وآلامهم، وملذات الروح والجسد، ومباهج الدنيا ويأسها. وحدثونا عن أيام سعدهم ونحسهم، وشبابهم وشيخوختهم، وعن أسرهم ومجتمعاتهم، وذاقوا مثلنا لذة النجاح والانتصار، ورغد الحياة ورخاءها، وإقبالها وإدبارها، وسجلوا لنا سير الأبطال والقبائل والأمم لنجد فيها قدوة صالحة وعبرة.

يبدأ الكتاب الحديث بإيجاز عن تطور المسرح، وفرسان المسرحية الأوائل في بلاد اليونان قديماً. ومن هؤلاء الشعراء إسكلس الذي أضاف إلى ساحة المسرح ممثلاً ثانياً، بعد أن كان لا يضم سوى جوقة الموسيقى والإنشاد وممثلاً واحداً. ومما يروي عن حياة هذا الشاعر الكبير أنه بينما كان ذات يوم يتجول في الخلاء، ألقى نسر على رأسه (وكان أصلح فظنه حجرة) سلحفاة ليكسر قوقعتها، فكان ذلك سبب وفاته.

ومن فرسان المسرح الأوائل الشاعر أرسطوفان، وتروي الأخبار أنه عندما طلب ملك سرقوصه من الفيلسوف أفلاطون أن يمهده بتحليل عن دستور أثينا، أرسل إليه نسخة من إحدى مسرحيات هذا الشاعر. ومنهم

الشاعر يوربيديز الذي لقب بفيلسوف المسرح. ويروي أن سقراط كان لا يذهب إلى المسرح إلا بصحبته؛ وأن ملك مقدونيا، عندما علم بوفاته، قص شعر رأسه حزنا عليه. ومنهم الشاعر سوفوكليز الذي أضاف إلى ساحة المسرح ممثلا ثالثا لإنعاش الحوار بين الممثلين.

ويقدم الكتاب موجزا عن حياة الحكيم الصيني الشهير لاوتسي الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وأثرى ديوان الحياة بحكمه وآرائه. ويتناول الكتاب حياة الحكيم بوذا الذي شملت تعاليمه جماهير غفيرة في جميع أنحاء المعمورة، ويستعرض نبذة من تعاليمه وأقواله، ومنها مجموعة "الحقائق النبيلة" التي كان يرى أنها تخلص الإنسان من المعاناة في هذه الحياة.

وينتقل إلى الحديث عن شاعرين من شعراء روما القديمة، أحدهما أوفيد، شاعر الحب والغرام، الذي قضى معظم حياته في روما ينعم بالترف والرفاهية، ولكنه عانى من آلام الفراق عندما نفاه الإمبراطور أغسطس إلى قرية بعيدة موحشة على ضفاف البحر الأسود. كما يورد الكتاب ملخصا عن حياة أحد أقطاب العقيدة المسيحية، توما الأكويني، الذي حاول أن يوفق بين تعاليم عقيدته وبعض الأفكار الفلسفية.

لقد كتب الكثير حول حياة رجل الدولة مكيافيلي، وحول ما سجل في كتابه "الأمير" من نصائح للأمراء والملوك وذوي السلطة، وما زال البعض يتساءلون: هل كان مكيافيلي رجلا شريرا، بغيضا حقا؟ أم أنه رجل وطني شجاع سجل كثيرا من الأفكار التي لم يجرأ غيره على تدوينها، وسعى إلى خدمة بلاده، إيطاليا، وتوحيد صفوفها.

ونقرأ عن الفيلسوف كمبانيلا الذي ألف أهم كتبه في السجن، ومنها كتابه "مدينة الشمس" الذي تخيل مجتمعا مثاليا، يشترك فيه السكان في

جميع نشاطات الحياة وخيراتها، ويعيشون سعادة في ظل "العدالة الاجتماعية". ويستعرض الكتاب حياة فارس آخر عامر في جميع ميادين الحياة، وهو لاروشفوكو، واشتهر بكتابه "الأمثال".

ويتناول الكتاب حياة الكاتبة الفرنسية مدام دي ستايل، التي اشتهرت بتعدد عشاقها، وبصالونها الذي كان يلتقي فيه جماعة من المعارضين لسياسات نابليون؛ ويقدم نبذة عن حياة الأديب إميل زولا، وملخصاً عن روايته الشهيرة "جيرمنال"، هذا الأديب الذي لقي حتفه اختناقاً في غرفة نومه، بسبب انتشار ثاني أكسيد الكربون.

ومن جملة من يرد ذكرهم في الكتاب الأديب ألفونز دودي الذي اشتهر بقصصه القصيرة؛ والأديب موبسان الذي عانى لسوء حظه من داء الزهري، ومن الشلل والجنون، وحاول الانتحار. ومنهم فيلسوفان ذاع صيتهما في القرن العشرين، وتفقت آراؤهما حول بعض القضايا الدولية الهامة مثل معارضة الحروب الاستعمارية، وأسلحة الدمار الشامل. ومنهما من فرضت عليه غرامة، وألقي في السجن، وطرد من وظيفته، ووضعت متفجرات في منزله، لإسكاته والحد من نشاطه. هذان الفيلسوفان هما جون بول سارتر، وبرتtrand راسل؛ وقد نال كل منهما جائزة نوبل.

ومن الكتاب الذين يحدثنا عنهم الكتاب المؤرخ الإنكليزي إدورد غيبون، ويورد مقتطفات من كتابه حول "تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها"؛ ومنهم دي كوينسي صاحب كتاب "آكلي الأفيون" الذي يصف فيه آلامهم النفسية والجسدية؛ والأديب كارليل، مع اقتباسات من كتاباته.

ويستعرض الكتاب في عرض ملخصات من مؤلفات عدد آخر من الأدباء، ونبذ عن حياتهم، ومنهم الأديب الإنكليزي برنارد شو، والأديب الروسي تشيخوف، والأمريكي لونغفلو، والألماني توماس مان، والسنغالي ليوبولد سنغور، وغيرهم.

أرجو أن يجد القارئ في هذا الكتاب ما يثري الفكر، وينعش النفس، ويشحذ الخيال، ويحفز على مطالعة أخبار السابقين وآدابهم ليستفيد من معارفهم وتجاربهم.

الأزرق بن علو

* * * * *

نشأة المسرح في اليونان



من المفيد، قبل الحديث عن فرسان المسرحية التراجيدية في بلاد الإغريق، أن نلقي نظرة خاطفة على حالة المسرح وظروف نشأته وازدهاره في تلك البلاد.

تعود نشأة المسرح في بلاد الإغريق (اليونان) إلى الاحتفالات التي كانت تقام في الأعياد الدينية، وما كان يمارس أثناءها من طقوس عقائدية وممارسات شعبية، لتمجيد الآلهة، وتقديم القرابين لها، على ما وهبتهم من خيرات الطبيعة، أو لطلب المزيد من هذه النعم، إن بخلت الآلهة بهباتها، أو ليطلبوا منها أن تجنبهم الكوارث والأوبئة والحروب، إلى غير ذلك.

واشتهر الإله ديونيسوس Dionysus الذي كانت له (في اعتقادهم) علاقة بالخصوبة والجنس والفن والخمر. وكانت أكبر الأعياد والاحتفالات تقام في فصل الربيع، الفصل الذي تنتعش فيه الأرض وتظهر خصوبتها.

وكلمة Theatre (مسرح) من اللغة اليونانية، وتعنى "مكان المشاهدة"، لأن الحفلات كانت تقام في أماكن تمكن الجمهور من مشاهدة الفرق التي ترتل، تنشد، ترقص، وتدق على الطبول، وتقص الحكايات وغير ذلك. وكانت تجهيزات هذه الفرق متواضعة، في بداية الأمر، ثم أخذ المسرح، تدريجياً يأخذ شكل مدرج أمامه ساحة ومنصة، وخلف هذه بيوت يغير فيها الممثلون وأصحاب جوقة المنشدين ملابسهم. وكانت المسارح مكشوفة لضوء النهار، لأن المسرحيات (الحفلات الدينية) كانت تجرى في النهار. وقد يلجأ أصحاب الشأن إلى بناء تجهيزات خشبية لإقامة هذه الاحتفالات، غير أن المسرح الحجري لم يبن إلا سنة 330 ق.م، في عهد الزعيم اليوناني لكورغس Lycurgus. وكان موقع هذا المسرح بالقرب من ربوة الأكروبوليس في أثينا.

وتعني كلمة Drama (المسرحية): "الحركة، وأن عملاً يجرى إنجازاً". وهي تشمل مسرحية المأساة tragedy، ومسرحية الملهة Comedy، ومسرحية الهجاء والانتقاد Satire. وقد نشأت كلمة Tragedy من الكلمة اليونانية Tragos التي تعني "العنزة". وسميت المسرحية المأسوية Tragedy لأنها نشأت عن الأناشيد التي كان الناس ينشدونها عند التضحية بعنزة قرباناً للآلهة. وقد كانت العلاقة وثيقة بين طقوس تقديم القرابين للآلهة، وبين حفلات المسرح، لأن هذا الأخير كان قديماً يعتبر مكاناً مقدساً مثل المعبد.

وكانت المسرحية، أثناء الاحتفالات الدينية، تسمح للإنسان بأن يطلق في عالم الخيال والأساطير، وأن يخلق صلات وثيقة بين العالم المرئي وعوالم القوى الخفية، وعوالم القوى السحرية اللامرئية، وتساعده على مواجهة الآلهة التي يعتقد أنها تتحكم في مصائر البشر وتسير أقدارهم، بل كان أحياناً يتمرد على هذه الآلهة وينتقد قسوتها. وكان الإنسان يجد متعة في مشاهدة تلك المسرحيات، لأنها بأساطيرها الغريبة وخرافاتها العجيبة، توضح له كيف تتفاعل تلك القوى الخفية لتؤثر على حياته بالنعم والخيرات، أو بالشرور والنكبات.

وهكذا كان نشاط المسرحية في البداية يتمثل في مجموعة من التراتيل، والتعليقات، والأناشيد، والموسيقى والرقص... وكانت الجوقة تلعب دوراً أساسياً في إنجاز هذه النشاطات. ويروى أن شاعراً يونانياً اسمه Thespis، من مدينة أتيكا، عاش في القرن السادس ق.م، كان أول من أضاف إلى جوقة المنشدين رجالاً (ممثلًا) يعلق على أناشيدها؛ ويعتبر هذا الشاعر أول ممثل على المسرح لأنه قام بدور ديونيسوس، إله الخصب.

أما الموضوعات التي كانت تعالجها المسرحية الإغريقية، في أول عهدها وبعد ازدهارها، فتتعلق، كما سبق، بالعقائد والأساطير والتقاليد.. وكان الكتاب والشعراء يستوحون أفكارهم من الصراعات القائمة بين قوى الخير وقوى الشر، وسعي الإنسان لإرضاء الأولى، والنجاة من الأخيرة.

وتتناول المسرحية المأسوية كذلك صراع الإنسان ضد الآلهة، وطغيان الأقدار، وضعف البشر أمام المصير المحتوم، وتمردهم أحياناً على آلهتهم بسبب ما تسلطه عليهم من معاناة ونكبات. ويستمد كاتب المأساة مادته من قصص الأبطال وحروبهم، ومن تجارب السابقين. ويستغل خياله وذكائه لاستخدام قوى الطبيعة، وأسرار القوى الخفية... ويستفيد من كل ذلك لإنتاج مسرحية تحلل تقلبات الحياة ومفاجأتها ومآسيها، وتنتقد سلوك الناس وعدوانهم، وعدم تقديرهم للعواقب والمصير الذي ينتظرهم. وقد تلجأ المسرحية كذلك إلى الدفاع عن الآلهة، والذود عن طقوسها، أو إلى انتقاد قساوتها وطغيانها.

ويروى أن رجلاً اسمه Pisistrate نظم، عام 538 ق.م، مسابقات بين المسرحيات التي تعرض أثناء الاحتفال بأعياد الإله ديونيسوس. وقد حقق الإغريق في ذلك العهد القديم إنتاجاً عظيماً، سواء في ميدان المأساة التي تعالج ما يلاقيه الناس من آلام وشقاء وكوارث وموت... أو في الكوميديا التي تتناول الجوانب البهيجة من حياتهم؛ وكذلك في إنتاج المسرحية الهجائية.

ويمثل القرن الخامس ق.م عصر المسرحية الذهبي، اشتهر فيه بوجه خاص ثلاثة فرسان من شعراء المسرحية التراجيدية، وهم على التوالي:

- إسكليس AESCHYLUS

- سوفوكليز SOPHOCLES

- يوربيديز EURIPIDES

ولم يبق من جميع ما ألفه هؤلاء العباقرة الثلاثة من مسرحيات سوى نيّف وثلاثين مسرحية تراجيدية. وقد لمح إلى جانبهم اسم فارس آخر اشتهر خاصة بمسرحياته الهزلية الساخرة (المسلاة)، هذا الشاعر العظيم هو أرسطوفان Aristophanes. وقد ألهمت مسرحيات هؤلاء العباقرة منذ نحو

خمسة وعشرين قرناً، وما زالت تلهم، الأدباء عبر العالم. ولا تقل سمعتهم في عصرهم، عن سمعة شكسبير، الذي قيل عنه إنه شاعر لجميع العصور ولجميع الناس. ولكن لأولئك الفرسان الفضل الأكبر لأنهم سبقوه بنحو عشرين قرناً.



بوذا، سيدهارتا غوتاما



ولد بوذا (سيدهارتا غوتاما) حوالي عام 563 ق.م، بالقرب من مدينة كابيلافاستو، في سفوح جبال الهمالايا، على حدود دولتي الهند ونيبال حالياً. وينتمي أبوه إلى قبيلة غوتاما التي تنتمي بدورها إلى قبيلة شاكيا. وكان أميراً، وربما رئيس المجلس الذي يحكم جمهورية شاكيا.

وسمي الولد سيدهارتا، وتعني المولود الذي تحققت رسالته. وتحيط بميلاده وحياته أساطير عديدة. منها على سبيل المثال أن أمّه (الأميرة) وضعتة وهي واقفة إلى جانب نخلة؛ وأنه لم يخرج من بطنها كسائر المواليد؛ وأن نوراً عظيماً أضاء السماء عند ميلاده؛ وأن الملائكة والملوك جاءوا إلى القصر مرحبين بميلاده؛ وأن أحد مستشاري أبيه سجد للمولود لما شاهد على جسده من علامات العظمة؛ وأن أباه، الملك، سجد له كذلك. ومن ذلك أن المريية تركته وحده أثناء احتفال، وعندما عاد أهله وجدوا الطفل جالساً جلسة اليوغا مستغرقاً في تأملات عميقة، فسجدوا له مرة أخرى.

لذلك استدعى أبوه عدداً من الرهبان وطلب منهم أن يفسروا له مغزى هذه الظواهر، وأن ينبؤوه بمستقبل ولده. وكان مما قال الرهبان إن المولود إذا بقي في حضن الملكة (الجمهورية) سيكبر ليصبح ملكاً عظيماً؛ أما إذا غادرها ليجول في الأرض، فسيصبح من كبار الرهبان، وسيكون له شأن عظيم.

اهتم الأب بتربية سيدهارتا (البوذا) ورعايته ووفر له جميع وسائل الرفاهية، وأحضر له كبار المعلمين، وأحاطه بكل ما يوفر له الراحة المادية والنفسية، لأنه ظل يتذكر تنبؤات الرهبان، ويخشى أن يغادر الشاب القصر، ويصبح ممن يجوبون البلاد من المتقشفين والرهبان.

تزوج سيدهارتا أميرة جميلة تدعى Yasodhara وعاش في البداية حياة

هادئة في العاصمة كابيلافاستو، غير أن سعادته لم تكن كاملة ونفسه لم تكن راضية مطمئنة، وما انفك يفكر في أهداف الحياة ومصير الإنسان، وما يواجه في الحياة من هموم وآلام وقلق وأمراض. وكان كثير التأمل في قضايا الحياة والفناء. وهل خلق الإنسان لمجرد أن يتمتع بملذات الحياة، ويسعى وراء مزيد من الثروة والسلطة، أم أن للحياة غاية أخرى أعظم وأسمى؟

وحدث أن خرج من القصر ذات يوم، بصحبة سائق عربته، فشاهد في الشارع رجلاً مسنّاً متعباً، ورجلاً مريضاً يتألم، وجثة رجل ميت. وفي يوم آخر شاهد رجلاً متقشفاً يرتدي عباءة صفراء، يسير بهدوء واطمئنان، وعلامات الرضى بادية على محياه. حركت هذه المشاهد مزيداً من التساؤلات في نفسه، خاصة وأنها مشاهد ملموسة من وقائع الحياة خارج القصر: إنه مثل هؤلاء الأشقياء سيعاني من الكبر والضعف والمرض، وسيموت. وخطر له أن الموت والخوف من الفناء هو الذي يدفع الناس إلى اختراع الديانات، وتقديس الآلهة، والتمسك بالشعائر والطقوس، علّهم بذلك ينالون بعض الأمان والتعويض، وربما الخلود.

قرر سيدهارتا أن يسعى لاكتشاف أسرار الوجود وسبيل الخلاص. أسرج فرسه ذات ليلة، وغادر القصر ومدينة كابيلافاستو، واتجه نحو الجنوب، وأصبح يعرف باسم GAUTAMA. لقيه الشيطان "مارا" وحاول إغراءه وصدّه عن هدفه. فقاومه وأعرض عنه.

ورأى أن يتبع أسلوب الزهد في ملذات الحياة، وأن يمارس عيشة التقشف. وراح يجوب البلاد باحثاً عن مشاهير رجال المعرفة والحكمة، وأخذ عنهم ما استطاع من العلم وأساليب التأمل. ومارس نظام اليوغا، وغالى في تعذيب النفس والبدن بما تحمل من تقشف قاس، حتى تراكمت الأوساخ على جسده، واستولى عليه الضعف وأنهكه الجوع.

وبعد سنوات عديدة اكتشف أن حياة التقشف والحرمان لم توصله، بل

ولم تقربه من الغاية التي كان يسعى إليها، ولم تبلغه درجة الاستنارة الروحية التي كان ينشدها. وتبين له أن الطريق القويم والأسلوب السليم هو "طريق الوسط" الذي لا يلجأ إلى تعذيب النفس وقهرها، وإهمال الجسد وإنهاكه، ولا يشجع على الانغماس في ملذات الحياة، والإفراط في السعي وراء الشهوات ومتاع الدنيا. غير سيدهارتا أسلوب معيشتته، وعاد يقات بما يعيد إليه قوته، وغسل ملابسه، حلق شعره، قلم أظافره ونزل إلى النهر ليستحم.

ويروى أنه بينما كان ذات يوم جالساً تحت شجرة وسط الطبيعة الهادئة، قرر أن يقضي ليلته في تأمل عميق. وعاد إليه الشيطان ليحول بينه وبين وصوله إلى درجة الاستنارة الروحية. غير أن سيدهارتا كان أقوى من أن يصدّه أيُّ إغراء عن هدفه. واصل تأملاته إلى أن بدأ يشاهد ببصيرته ما يحدث من تغيير في مسلسل تتابع حلقات الحياة والموت.

شاهد سيدهارتا (البوذا)، أثناء تأملاته في تلك الليلة، بعين بصيرته، أن المخلوقات تعود إلى الحياة، وأن كل ميت منها يرجع إلى حياة جديدة في شكل جديد وصورة جديدة حسنة أو سيئة، جميلة أو قبيحة، خيرة أو شريرة، سعيدة أو شقية، مصلحة أو مفسدة ... حسب ما قدم من أعمال في حياته السابقة.

وعند طلوع الفجر كان سيدهارتا قد أدرك "الحقيقة" التي كان يبحث عنها، والاستنارة التي كان ينشدها. زال عن فكره غشاء الجهل والحيرة، وأصبح يعرف باسم "المستنير". وتشير تقاليد البوذية إلى أنه وصل إلى تلك المنزلة وهو في سن الخامسة والثلاثين.

بعد ذلك راح البوذا يتجول بين القرى والمدن في شمال شرق الهند، وذهب إلى مدينة بنارس، وانضم إليه عدد من التلاميذ والأتباع، وبدأ ينشر تعاليمه التي أسس عليها مذهبه. ثم انتشر أتباعه بدورهم في أصقاع الأرض لينشروا رسالة معلمهم.

ويمكن للقارئ أن يتساءل عن مغزى الرسالة التي جاء بها البوذا، وعن أهداف تعاليمه التي سعى لنشرها، هو وأتباعه، في مختلف أصقاع العالم.

لقد هجر البوذا (سيدهارتا) حياة الراحة ومتاع الدنيا ليركز على مشكلة كانت تشغل تفكيره فترة طويلة، وهي ما زالت تشغل معظم الناس: كيف يتجنب المرء الآلام، والشقاء، والمعاناة؟ كيف يجد الراحة البدنية والروحية؟ كيف يصل إلى السعادة ويرقى إلى "النيرفانا" (1) Nirvana.

وتجدر الإشارة قبل كل شيء إلى أن تعاليم البوذية لا تهتم بالعقائد اللاهوتية، ولا بالطقوس والشعائر الدينية، ولا بأشكال العبادات التي ركزت عليها الديانات السماوية. بل يركز البوذا على الفكر والعقل والنفس الواعية، ويسعى لإخراج الإنسان من خضم الحيرة ولجج الأوهام ومتاهات الجهل، ولتحريره من جحيم الآلام والتعاسة والشقاء، ليجعل منه مخلوقاً حراً، مستنيراً، ينعم بحياة راضية طاهرة، ترتقى بهدوء إلى سماء النيرفانا.

لقد استنتج البوذا من تأملاته الطويلة أن الحياة في جوهرها محنة وآلام وقلق وشقاء، وأن الإنسان غارق في رغباته منقاد لشهواته، وهذا ما يزيد في تعاسته، لأن كل شهوة تتبعها خيبة، وكل لذة يقابلها ألم، وكل بهجة يعقبها حزن.

رأى أنه اكتشف سبب آلام الإنسان ومنبع قلقه، وهو كونه يولد، يموت، ثم يخلق من جديد في شكل كائن آخر خيراً أو شريراً. وهذه هي فكرة التقمص لدى البوذية. وهي ترى أن الإنسان لا يولد على الفطرة، صفحة بيضاء، بل يعود إلى هذا العالم وهو يحمل معه نتائج أعماله (خيراً أو شراً) التي عملها أثناء حيواته السابقة.

(1) حالة يتخلص فيها المرء من رغبات النفس الواعية، ويتحرر من قبضة حلقة الحياة والموت ثم الحياة (التقمص) ليصل إلى حالة من الرضا والسلام والاستنارة الكاملة.

وبما أن العودة إلى الحياة مأساة لما يواجهه أثناءها من عذاب ومتاعب بدنية ونفسية، فإنه ينبغي له أن يوقف عجلة التقمص ويتحرر من مسلسل الحياة والموت، ثم الحياة والسبيل إلى ذلك هو الالتزام بالعمل الصالح، والسلوك القويم، والأخلاق الفاضلة أثناء حلقات من حياته المتكررة، إلى أن يصبح سلوكه مثاليًا، ويوصله إلى درجة النيرفانا.

فيما يلي مقتطفات من مواعظه وحكمه.

مواعظ بنارس⁽¹⁾ BENARES

أيها الرهبان، هناك نوعان من الغلو والإفراط لا يجدر بمن يزهد في شؤون الدنيا ومتاعها أن يمارس أيًّا منهما. النوع الأول هو أن ينغمس المرء في ملذات الدنيا ويطلق العنان لشهواته؛ والنوع الثاني من الغلو هو الإفراط في تعذيب النفس وقهرها، وهي ممارسة مؤلمة لا فائدة ترجى منها.

فلا الإقلاع عن أكل اللحوم والأسماك، لا الامتناع عن ارتداء الملابس، ولا حلق شعر الرأس أو نسجه في صفائر طويلة، ولا ارتداء الملابس الخشنة، ولا طلاء الجسم بالأوساخ، ولا تقديم القرابين للإله AGNI⁽²⁾ لا شيء من هذا يطهر الغارق في الأوهام.

وهل تكفي قراءة كتاب الفيدا، وتقديم الهدايا لرجال الدين، والضحايا للآلهة، وتعذيب النفس بالحر والبرد، وغير ذلك من التضحيات، لتطهير الإنسان الغارق في الأوهام؟

إن الغضب، والسكر، والعناد، والتعصب، والخداع، والحسد، وحب الذات، والانتقاص من قدر الناس، والتكبر، وغير ذلك من النوايا والممارسات الشريرة هي التي توسخ النفس، وليس أكل اللحوم.

(1) مدينة بنارس المقدسة.

(2) إله النار والنور في كتب الهندوس الدينية.

دعوني أعلمكم، أيها الرهبان ما هو الطريق الوسط الذي يُجنبكم التطرف. إن تعذيب النفس يضعف البدن، ويهرق النفس، ويخلق لدى المؤمن الضعيف أفكاراً مبلبلة. بل إن تعذيب النفس لا يساعد حتى على اكتساب المعرفة الدنيوية، فكيف بالتغلب على مشاعر الإنسان وانفعالاته.

من يملأ مصباحه بالماء لا يقهر الظلام، وليس من السهل أن نوقد النار بحطب فاسد. وكيف يتحرر المرء من نفسه إذا كان يعيش حياة البؤس والشقاء؛ وكيف يطفئ نيران شهواته إذا كان قلبه متعلقاً بمتع الحياة الدنيوية والسماوية؟

ملاحقة الشهوات ممارسة متعبة ومرهقة، لأن المرء يصبح عبداً لنزواته وغرائزه ورغباته. أما إشباع ضروريات الحياة فلا شرف فيه. لأن المحافظة على صحة البدن واجب، وإلا لما استطاع المرء أن يهذب مصباح الحكمة، ولما استطاع أن ينعم بفكر سليم. الماء يحيط بزهرة اللوتس، غير أنه لا يبيلل أوراقها. هذا هو طريق الوسط الذي يبعدكم عن التطرف في أيّ من الاتجاهين. من يدرك حقيقة الألم، وأسبابه، وسبل الخلاص منه، فقد عرف الحقائق النبيلة، وأصبح يسير على الطريق المستقيم. النظر السديد هو المصباح الذي ينير طريقه؛ والتطلعات السديدة هي رائدة؛ والمنطق السليم هو مركز راحته على الطريق.

وإليكم أيّها الرهبان الحقيقة المثلى فيما يتعلق بمنبع الألم.

إن الرغبة الجامحة التي تساعد على تجديد الحياة، بما يصاحبها من متع وملذات وحشية، ومن حرص على إشباع الرغبات وإرضاء الغرائز والشهوات والمشاعر، والرغبة الملحة في حياة مستقبلية، مع السعي لبلوغ السعادة في هذه الحياة ...

هذه هي الحقيقة فيما يتعلق بأصل الألم.

أما القضاء على هذا الألم فيكمن في القضاء على هذا التعطش الجامح إلى إشباع الشهوات، وفي قهر الرغبات الملحة، والتخلص من التفكير فيها. عندئذ فقط يصبح الإنسان حرًا، سيد نفسه.

**** ومن كلام بوذا الحكيم:**

الزهور

- يعيش الرجل الحكيم في قرينته مثلما تعيش النحلة التي تجمع رحيق الزهور من غير أن تؤذيها، أو تفسد لونها أو عطرها.
- القول الذي لا يتبعه الفعل مثل الزهرة الجميلة التي لا عطر لها.
- عطر الزهور لا ينتقل عكس اتجاه الرياح، وأقوى منه سمعة الرجل الطيب، فهي تنتشر في كل اتجاه.
- أفكار البوذا الحقيقي تسطع وسط الجاهلين فهي مثل زهرة الزنبق التي تنتعش وسط الفضلات على جانبي الطريق وتنتشر عطرًا طيبًا.

نيقولو مكيا فيللي

Nicolo Machiavelli



درس مكيا فيللي التاريخ واستخلص أن الإنسان مخلوق شرير، عدواني، محتال، متقلب، مخادع .. يخضع للقوة ويغريه الطمع. واستنتج أنه لا يمكن إنشاء الدول وتأسيس الممالك، وطرد الغزاة وتحرير الأوطان بالعطف والإحسان والتسامح والاستسلام (وهل في هذا من جديد)؟ بل الجديد هو أنه سجل أفكاره ونصائحه "اللاأخلاقية" بجرأة وشجاعة، وكانت النتيجة أنه واجه سيلاً من الانتقادات الصاخبة، واعتبر كثير من النقاد أن فلسفته السياسية "من أعمال الشيطان".

ولكن الإيطاليين اعترفوا بشجاعته ووطنيته، ولا أدل على ذلك من النصب الذي وضع فوق قبره، وقد كتب عليه:

(ليس في مقدور أيّ مديح أن يوفي هذا الاسم العظيم حقّه)

ولد نيقولو مكيا فيللي في مدينة فلورنس، سنة 1469، كان أبوه محامياً منع من ممارسة مهنته لعدم الوفاء بديون عليه، وكان للأسرة منزل وقطعة أرض صغيرة، غير بعيدة من المدينة. ولم تسمح ظروف الأسرة المادية لمكيا فيللي بمواصلة تعليمه، غير أنه بذل جهوداً خاصة لدراسة اللغة اللاتينية والقانون، ولو أنه لم يحصل على شهادة في هذا الأخير.

وفي سنة 1498 حصل على وظيفة في مجلس "للحرية والسلام" وهو مجلس حرب يتكون من عشرة أشخاص، وعين أميناً له. وكان من مهام هذا المجلس، بادئ الأمر، إعداد المراسلات، وحفظ السجلات ومحاضر الجلسات وغيرها، ثم توسعت أعماله لتشمل مهام دبلوماسية. وقد استقر مكيا فيللي في

هذا العمل مدة 14 عاماً. واتسعت دائرة أعماله فقام بنحو ثلاثين مهمة دبلوماسية، منها رحلاته إلى فرنسا وألمانيا.

ومن أهم مراحل حياة مكيافيللي أنه عندما أصبح سوديريني Soderini رئيساً لدولة فلورنس قربه إليه، وأوكل إليه أعمالاً هامة. وجعله ساعده الأيمن. وفي سنة 1502 أرسله في مهمة لدى الدوق الشاب (الطاغية) سيزاري بورجيا⁽¹⁾ ابن البابا الإسكندر السادس. وكان هذا الدوق قد حقق انتصارات باهرة خلال فترة قصيرة، وحضر مكيافيللي مشاهد الانتقام الدموي الذي سطره سيزاري على أعدائه، وأعجب بما أظهره هذا الشاب من قوة العزيمة وتديير في الحرب وشدة البأس، فأعجب به، وظن أنه بطل أحلامه، والقائد المثالي الذي يمكنه أن ينقذ إيطاليا من السيطرة الأجنبية ويوحد صفوفها، ويحقق الهدف الأسمى الذي يحلم به مكيافيللي.

وفي سنة 1503 توفي البابا الإسكندر السادس (أبو الدوق سيزاري بورجيا)، وعين محله البابا يوليوس الثاني عدو أسرة بورجيا، ودارت الأيام على البطل الطاغية سيزاري وسجن، وتحطمت أحلام مكيافيللي، وتنكر للشباب الذي كان يعتبره القائد المثالي لتوحيد إيطاليا.

كان مكيافيللي لا يحبذ الاعتماد على جيش من المرتزقة للدفاع عن الجمهورية، ويدعو إلى إنشاء ميليشيات وطنية. وفي النهاية سمح له بذلك فقام بإنشاء الحرس الوطني سنة 1505، وعهد إليه بمهمة تنظيمها. وكان من أبرز ما حققه هذا الجيش أنه حاصر مدينة بيزا، واستولى عليها، بقيادة مكيافيللي نفسه، وألحقها بجمهورية فلورنس.

وأرسل البابا يوليوس الثاني جيشه للاستيلاء على جمهورية فلورنس، وعادت أسرة ميديتشي Medici إلى الحكم، فحكمت البلاد من سنة 1512

(1) الدوق Valentino.

حتى 1527. وفقد مكيافيللي منصبه، واتهم بالتآمر ضد هذه الأسرة وسجن، ولم تثبت التهمة عليه فأطلق سراحه.

ولما توفي البابا المذكور وعين محله البابا ليُو العاشر (Leo)، عاود الأمل مكيافيللي في أن ينال رضا الباب الجديد، وأسرّة ميديتشي، ولكن محاولاته ذهبت سدى، فانتقل مع زوجته وأولاده إلى منزل الأسرة القريب من فلورنس، حيث قضى بقية حياته إلا السنة الأخيرة، في ظروف مادية عسيرة. وفي هذا المنزل المتواضع كتب أشهر مؤلفاته، ومنها كتاب "الأمير" الذي أهداه إلى الدوق لورانسو Lorenzo de' Medici حاكم فلورنس، عام 1513، أملاً أن يحصل على منصب يحسن به وضعه المادي والمعنوي.

وبعد وفاة الدوق لورانسو، تولى حكم فلورانس الكاردينال جوليو de' Medici. وكان لمكيافيللي صديق على صلة بالحاكم الجديد فقدمه إليه، وطلب الحاكم من مكيافيللي أن يكتب تاريخ فلورنس. واعترافاً بهذا الجميل. أهدى مكيافيللي كتابه "فنون الحرب" إلى هذا الصديق، واسمه Lorenzo Strossi. وفي سنة 1523 عين الكاردينال جوليو بابا تحت اسم البابا كليمانت السابع، مما شجع مكيافيللي على إتمام كتابه "تاريخ فلورنس"، وقدمه إلى البابا الذي منحه مبلغاً من المال، وطلب منه مواصلة العمل.

وطلب منه البابا أن يعمل على إنشاء "حرس وطني" حسبما وصف في كتابه "فنون الحرب"، وقد سبقت له تجربة عملية في هذا الميدان، فاستجاب مكيافيللي للطلب. غير أن جهوده لم تأت بنتيجة أمام تقلب الأحداث، وفي النهاية هجمت جيوش الإمبراطور شارل الخامس⁽¹⁾ على روما فنهبتها، وقضت على آمال البابا كليمانت السابع.

وفي سنة 1527 تخلصت فلورنس من حكم أسرة Medici ميديتشي،

(1) الإمبراطور شارل الخامس (1500-1558) هو نفسه شارل الأول إمبراطور أسبانيا، وإمبراطور الحلف الروماني.

واستعادت حريتها، فطلب مكيافيللي من النظام الجمهوري الجديد أن يعيده إلى وظيفته القديمة في الحكومة، غير أن الجمهوريين لم يستجيبوا لطلبه، فشعر بخيبة شديدة. وبعد زمن قصير أصيب بالمرض، وتوفي في شهر جوان (يونيو) من السنة المذكورة.

كانت توجد قوى مختلفة، محلية وأجنبية، تتصارع على الساحة الإيطالية، من بينها قوات البابوات، ودوق ميلان، والبندقية، ونابولي، وإمبراطور الحلف المقدس، وغيرها من القوى الأجنبية. ولا شك في أن مكيافيللي كان يعيش بحزن عميق الظروف السيئة التي كانت تتخطب فيها بلاده.

وكان هدفه الكبير أن يبرز قائد وطني قوي يحرر إيطاليا من الغزو الأجنبي، ويوحد مختلف ولاياتها في دولة قوية. وهو يعتقد أن جميع الوسائل والمبادئ الأخلاقية والدينية مقبولة إذا كانت تساعد هذا "الأمير" المحرر على تحقيق الهدف المذكور. ولعل هذا الهدف الأسمى الذي كان يحلم به مكيافيللي يبرر كثيراً مما دعا إليه وسجله في كتابه "الأمير" وغيره، ومما اعتبره كثير من النقاد مخالفاً أخلاقية، وجعله بعضهم داعية شيطانية يستحق أن ينكل به.

فهل كان مكيافيللي شيطاناً يعلى رذائل الأخلاق، ويصد عن فضائلها؟ هل ابتدع في الأرض الفساد والوحشية والعدوانية وإراقة الدماء؟ ومتى كانت الحروب عملية أخلاقية نظيفة تخلو من المكر والخداع والعنف وإراقة الدماء؟ أو تتقيد بالأخلاق الفاضلة وتنصت إلى أوامر الضمير؟ وهل تشيّد الممالك بالإحسان والتسامح والعطف والاستسلام؟

هذا على مستوى "الغاية تبرّر الوسيلة" بالنسبة لسلوك القائد الذي ينتظر أن يحرر إيطاليا ويوحدها؛ أما بالنسبة لسلوكه الشخصي فيعتبر مكيافيللي قبل كل قول وانتقاد رجلاً وطنياً طموحاً وغيوراً على بلاده. أما في معاملاته اليومية، فيروى أنه كان، ككثير من الناس، يداري، ويحايي، وينافق، ويرتكب المعاصي. وكان في علاقاته مع أصحاب السلطة، يراعى مصالحه،

فيقبل عليهم عندما تقبل عليهم الدنيا ويبدل جهده في خدمتهم، غير أنه كان ينكر الجميل أحياناً فينتقد من كان يدعمهم، وكان هذا سلوكه عندما هزم سيزارى بورجيا، وكذلك عندما دارت الدوائر على أسرة ميديتشي .

- مؤلفاته -

ألف مكيافيللي في التاريخ، والمسرح، والفلسفة السياسية وغيرها. وتناول في كتبه موضوعات الحرب والأخلاق والسياسة والدين ... واشتهر من بين مؤلفاته كتابه "الأمير". وله مسرحية عنوانها Mandragola يصور فيها بعض الجوانب من سلوك أهل فلورنس وعصر النهضة، ويفضح بطريقة ساخرة الإغراء المادي والجنسي. وقد حققت هذه المسرحية نجاحاً كبيراً لدرجة أنها عرضت أمام البابا ليو Leo العاشر سنة 1520. كما كتب قصة فكاهية يصور فيها حوادث الزواج بأسلوب هزلي.

وأثناء حكم أسرة ميديتشي طلب منه أن يكتب عن تاريخ فلورنس، فألف "تاريخ فلورنس"، وأهداه إلى البابا كليمانت السابع عام 1525. وألف رسالة عن "فنون الحرب"، قدم فيها نصائح عن كيفية تدريب الجيش، والاحتفاظ به في حالة تأهب واستعداد للحرب، ووضع قواعد جديدة لمواجهة العدو وخوض المعارك.

ومما أثار اهتمام القراء كتاباته السياسية التي تركز على كيفية بناء الدولة، والأساليب التي تمكن الأمير من المحافظة على دولته وسلطانه. وقد كان شجاعاً وجريئاً في التعبير بصراحة وقوة عن آرائه. ويبدو في مؤلفاته كأنه يدعو إلى الأخلاق غير الحميدة، ولكنه إنما يوجه نصائحه إلى الملوك والقواد عندما ينصح باللجوء إلى الكذب والمكر والحيلة والبطش والنفاق والعدوان، بل وإلى كل ما هو ضروري لبناء الممالك وتدعيم قواعدها.

كان مكيافيللي مهتماً بالسياسة، ومعجباً بتاريخ الرومان، يستمد منه

ما يساعده على شرح آرائه وتبريرها، ويحاول أن يتخذ من بعض حوادث الماضي نماذج وأمثلة صالحة لظروف إيطاليا التي كان يعيشها، وذلك بهدف تحريرها وتوحيدها. ويستنتج من دراسته للتاريخ أن سلوك الإنسان عبر التاريخ، فيما يتعلق بالأمور الأساسية لم يتغير. فهو ما زال أنانيًا، عدوانيًا، جشعًا، جحودًا، يخضع للقوى ويتمرد على الضعيف، ولذلك لا سبيل إلى إخضاعه إلا بالقوة.

وينصح باستغلال الدين، لأن العقيدة توصى بالخضوع لذوي الأمر، وتلطف من غرائز الفرد وحدة أنانيته، وتسهل انقياده لقوانين البلاد. كما أن الإيمان يحمس الناس على إنجاز مشاريع الدولة، وعلى تقديم التضحيات من أجل بقائها.

ومما يؤخذ عليه أنه يتنكر للأخلاق التي حضت عليها المسيحية مثل الصدق والعطف والتسامح والزهد والقناعة والتواضع، ويرى أنها من علامات الضعف والجبن والمسكنة والفشل وضعف العزيمة، وأنها تذهب بهيبة الحاكم، وتضعف أركان الدولة. ويرى انه لا فضيلة بدون القوة والحماس والطموح. فهو يبرر للحكام استخدام جميع الأساليب والوسائل المشروعة وغير المشروعة، لأن الغاية تبرر الوسيلة، ولأن الدولة القوية تضمن لشعبها الأمن والرفاهية والاستقرار، وتجنبه الفوضى والتمزق والانهازم.

وتجدر الإشارة إلى أن مكيافيللي أهدى كتابه "الأمير"، وهو أشهر مؤلفاته، إلى الدوق لورانسو De'Medici حاكم فلورنس (ومن خلاله إلى أسرة ميديتشي)، وكان يرجو من وراء ذلك أن يحصل على منصب يحسن ظروفه المادية، كما كان يأمل أن تسعى هذه الأسرة إلى توحيد إيطاليا وإصلاح ظروفها.

مقتطفات من بعض الموضوعات التي يحتويها كتاب « الأمير »



حول الأمير وموضوع الحرب :

يجب على الأمير أن يركز تفكيره وهدفه ودراسته على موضوع الحرب وفنونها وقواعدها واستراتيجيتها. إن فنون القوة الحربية الناجحة تدعم انتصار الذين يولدون أمراء؛ بل في أحيان كثيرة تمكن رجالاً من عامة الناس من الارتقاء إلى قمة الحكم. وكثيراً ما يفقد الحكام سلطانهم عندما يميلون إلى حياة الاسترخاء ويهملون فنون الحرب. إن الأمير الذي يهمل تسليح بلاده تسليحاً جيداً يصبح منبوذاً ...

وعلى الأمير (الحاكم) أن ينمي أفكاره ويوسع معلوماته بأن يطالع كتب التاريخ، ويدرس إنجازات عظماء الرجال ليعرف أساليب تصرفهم ومناوراتهم في قيادة الحروب؛ وعليه أن يفكر في أسباب انتصاراتهم أو انهزائمهم ليكون ذلك له قدوة وعبرة. ومن الأهمية بمكان أن يعمل الأمير بحزم ونشاط أثناء فترات السلم لينمي موارده، ويعد جيشه لمواجهة أوقات الشدة، ومفاجآت الزمان، وتقلبات الملك.

حول سلوك القسوة والوحشية، وسلوك الرحمة والتسامح، وهل من الأفضل للأمير أن يحب الناس أم أن يرهبوه

ما دام الأمير قادراً على أن يحافظ على وحدة شعبه وولائهم، فلا خوف من أن يتهمه الناس بالقسوة، لأنه عندئذٍ قادر على أن يقدم بضع أمثلة على كرمه وحسن معاملته، ينال بها سمعة التساهل والرحمة والعطف على الناس. أما الحكام الذي يتجاوزون الحدود في تسامحهم ولينهم وتساهلهم،

فإنهم بذلك يسمحون بانتشار الفوضى التي قد تتلوها الفتن والنهب والقتل، وهي أعمال تؤذي عامة الناس، في حين أنه إذا قام الأمير بتنفيذ أحكام الإعدام في عدد من الناس، بهدف الردع والتخويف، فهذا عمل يؤذي بضعة أشخاص فقط.

وهنا يتساءل المرء: هل من الأفضل للأمير أو الحاكم أن يكون محبوباً لدى شعبه، أو من الأفضل أن يخافه الناس ويرهبوه؟ وبما أنه من العسير أن يجمع السلطان (الأمير) بين محبة الشعب له وخوفه منه، وجب القول بأنه من الأفضل، إذا دعت الضرورة للاختيار، أن يخافه الشعب من أن يحبه. وقد أثبتت التجارب، بصفة عامة، بأن سلوك الناس يتسم بالتقلب ونكران الجميل وبالجبين والأنانية. فهم معك ما دام النجاح والنصر حليفك، يضحون في سبيلك بأموالهم وأولادهم ودمائهم ما دامت الحاجة إلى هذه التضحية بعيدة، ولكن عندما تشتد الأزمة ويتطلب الوضع هذه التضحيات يصدون عنك، وربما وقفوا ضدك أما الصداقة التي يكتسبها المرء بدفع تعويضات فإنها ليست مضمونة في وقت الشدة. ومن المعروف أن الناس لا يترددون كثيراً في التخلي عن شخص يحبونه من أجل المصلحة، بينما نجدهم يفكرون طويلاً قبل الإساءة إلى شخص يرهبون بطشه...

غير أن الأمير (الحاكم) في سعيه لبيت الخوف في النفوس، ينبغي له أن يتجنب إثارة الكراهية في قلوبهم، لأنه بإمكانه أن يتحمل خوف الناس ما داموا لا يبغضونه، ولهذا يجب عليه ألا يمس ممتلكاتهم، وألا يعبت بنسائهم، إذ من الممكن أن ينسى المرء بسرعة وفاة أبيه أو قريبه، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بفقدان ممتلكاتهم أو نسائهم.

الوفاء بالوعد ...

هناك طريقتان لحل النزاعات: الأولى بالأساليب القانونية، والثانية بالقوة. وبما أن الأسلوب الأول لا يكفي في معظم الحالات، يصبح من

الضروري اللجوء إلى القوة، وعلى الأمير أن يلبس تارة جلد الأسد وطورا جلد الثعلب ... وبما أن الناس طبعوا على الشر، ولا يحفظون العهد، فالأمير كذلك ليس ملزماً بالوفاء بوعوده، خاصة إذا كان الوفاء يعود بالضرر على مصالحه. وعلى الأمير (والحاكم) أن يتظاهر بأنه يتصف بجميع الأخلاق الفاضلة، مثل الرحمة والوفاء والتقوى والاستقامة والإنسانية وغيرها، ويغتنم الظروف الملائمة ليؤكد ذلك للناس، ولكن تطبيق هذه الصفات في واقع الحياة يضر بمصالح الحكم.

الدعوة إلى تحرير إيطاليا من الغزاة

وفي نهاية كتابه "الأمير" وجه مكيا فيلي نداء حاراً إلى الدوق لورانسو حاكم فلورنس (وأسرة ميديتشي) داعياً إياه إلى العمل على إنقاذ إيطاليا من التمزق والاستعباد الأجنبي: وإذا كان من الضروري أن يعاني بنو إسرائيل من الاستعباد لكي تظهر قدرة موسى (عليه السلام)، وأن يعاني الفرس من الظلم الذي سلطه عليهم الميديون لكي تظهر عظمة الملك قورش، وأن يعاني الأثينيون من التشرذم لكي تبرز قدرة الملك Theseus، فلعله أصبح من الضروري أن يعاني الإيطاليون من الاستعباد والتمزق والاستعباد أكثر مما عانت الشعوب المذكورة، وأن تعيش بدون قائد وبدون نظام، مهانة ممزقة مغلوبة على أمرها، يستغلها الأعداء".

ويواصل مناشدته إلى الدوق لورانسو، وأسرة ميديتشي فيحثهم على النهوض لتحرير إيطاليا وتوحيدها قائلاً:

« إذا رغبت أسرتكم العظيمة في أن تتبع خطى عظماء الرجال الذين أنقذوا بلادهم، يجب قبل كل شيء أن تعدو جيشكم الوطني، بدل الاعتماد على المرتزقة، وستجدون في جنودنا كل الوفاء والشجاعة من أجل طرد المحتلين الأجانب، وإخراج إيطاليا من مستنقع الفوضى والضعف والمهانة الذي تتخبط فيه. »

لابرويير

Jean de La Bruyere



كان لابرويير يطمح إلى الارتقاء في السلم الاجتماعي، والشهرة في المجال الأدبي، والدخول إلى الأكاديمية الفرنسية، كل ذلك في إطار التقيد بالأعراف والامتثال للعقائد والسياسات السائدة؛ غير أنه لم يتقاعس عن انتقاد تصرفات كثير من رجال طبقة النبلاء ورجال البلاط الملكي.

تمّ تعميده لابرويير في باريس سنة 1645. وكان أبوه موظفًا في بلدية باريس، وينتمي إلى طبقة صغار الملاك. درس الفتى القانون في مدينة أورليان، وحصل على الشهادة سنة 1665. وفي عام 1673 اشترى وظيفة متواضعة في Caen؛ ثم حصل على إرث متواضع مكنه من أن يستقر في باريس.

وبفضل وساطة بوسوي Bossuet⁽¹⁾ التحق بأسرة الأمير كوندي، وأصبح معلمًا لحفيده، الدوق دي بوربون، وعندما تزوج التلميذ، ظل لابرويير مرتبطًا بهذه الأسرة، وكلف بمكتبتها.

كرّس لابرويير نحو عشر سنوات لإنتاج الكتاب الذي نال به شهرة واسعة. وقد أصدره عام 1686 تحت عنوان "الأخلاق، لتيوفراست⁽²⁾، مترجمة

(1) جاك بنين بوسويه (1627-1704)، اشتهر بمواعظه الدينية التي جمعت في سبع مجلدات. عينه لويس الرابع عشر واعظًا في كنائس القصر الملكي، ومعلمًا للدوفان Dauphin. سماه صديقه لابرويير "أب الكنيسة".

(2) Theophraste (372 - 287 ق.م) فيلسوف وتلميذ أرسطو، من مؤلفاته الكتاب المشار إليه وعنوانه "الأخلاق".

عن الإغريقية، مع أخلاق أو عادات هذا العصر".⁽¹⁾ ولعل المؤلف لبرويير لم يكن يتوقع ذلك النجاح لكتابه "الأخلاق"، فربط عنوانه بكتاب "الأخلاق" الذي ألفه تيوفراست.

ويتناول لبرويير سلوك أهل عصره فيشهر بتصرفات طبقة النبلاء والاستقرائية، وبسلوك رجال البلاط، فيعدّد مثالهم وتجاوزاتهم، ويرسم بعبارات دقيقة صوراً وملامح لعدد من تلك الشخصيات.

وقد سجل المؤلف ملاحظات مؤثرة ومشوقة حول حوادث المجتمع وأساليب حياة الطبقة المذكورة؛ وأثارت تلك الصور والمشاهد والملاحظات اللادعة فضول الناس، فسارعوا إلى اقتناء الكتاب، وأعيد طبعه مراراً، ونال به المؤلف شهرة واسعة.

ومن الصفات التي يعدها لبرويير ويسخر فيها من أهل عصره الطموح الاجتماعي الزائف، والمظاهر المصطنعة، والأدوار المتكلفة التي كانت تمثلها شخصيات من النبلاء ورجال البلاط والموظفين، وما اتسمت به من نفاق، وخنوع، وجشع، وغرور، وحب للمال والشهرة، وأنانية، وغيرها.

وكانت تدور، في عهده، مجادلات ومناقشات أدبية بين دعاة مدرسة التجديد، وأنصار القديم، فنهض المؤلف لمناصرة المدرسة الأخيرة بحزم. وبعد محاولات عديدة نجح في الانضمام إلى الأكاديمية الفرنسية سنة 1693، وألقى فيها خطاباً أحدث ضجة كبيرة بين المدرستين المذكورتين.

توفى لبرويير عام 1696، في فيرساي.

(1) les Caractères de Théophraste traduit du grec, avec les caractères ou les moeurs de ce siècle.

وفيما يلي مقتطفات من كتابه الشهير: Les Caractères

"... أخلاق أو عادات هذا العصر"

الفصل الثامن المعنون: "البلاط الملكي"

جلساء الأمراء

... لا تنتظروا البراءة، والصراحة، والإنصاف، والمساعي الحميدة، والإحسان، والسخاء، والثقة، وصلابة الإرادة ... من رجل البلاط الذي يجالس الأمراء، ويسعى في الخفاء إلى زيادة جاهه وثروته: فهو لا يسمى الأشياء بأسمائها؛ وفي شريعته لا يوجد محتال ولا نصاب، ولا مرء، ولا مخادع، ولا منافق، ولا أحمق، ولا غبي. وهو يسيء الظن بجميع الناس، لذلك لا يذكر أحدًا بسوء؛ لا يحب الخير إلا لنفسه، ولكنه يحاول أن يقنع الناس بأنه يحب لهم الخير جميعًا لكي ينال رضى الجميع.

وبما أنه غير مخلص في سلوكه، لا يسوؤه ألا يخلص له الناس. الحقيقة تزعج سمعه: فهو لا يبالي بما يسمع من ملاحظات عما يجري في البلاط، ويقابل بحذر شديد ما يسمع عن رجال البلاط وجلساء الأمراء، يحتاط فيما يقول، مزاحه برئ، ولكنه مصطنع، ابتساماته وملاطفاته متكلفة، حوارته متقطع، وشروده ذهنه ملحوظ.

يرسل شلالات من الثناء بالنسبة لما قال أو فعل ذو الجاه والنفوذ؛ يمتلك صيغًا متنوعة من المدح والتبجيل ينثرها حول من يزورونه، ومن يزورهم، عند دخوله وخروجه؛ لا يفارقه شخص إلا وهو راض عن لقاءه. يسعى دومًا إلى السيطرة على أتباعه، والخضوع لمن يحمونه.

يلعب دور الوسيط، والسمسار، وحافظ السر... ويعرف أين ينبغي أن يقف أو يجلس ليلاحظ الناس وجوده. يعرف كيف يقبلك، ومتى؛ وكيف يشاركك مشاعرك، ومتى؛ وكيف يسألك عن أحوالك وأعمالك، ومتى؛ ولا

يغادر حتى يرضيك ويهنئك. وينتقل حالاً إلى شخص آخر ليقدّم له تعازيه: إنه يبتسم بعين ويبكي بالأخرى؛ وتراه يلزم الصمت أو يبقى موقفه غامضاً عندما يتعلق الأمر بالموضوعات الهامة التي يعرفها، وكذلك بالموضوعات التي جهلها.

- ومن أقوال لابروير

- **المرأة** : إذا تركنا جانباً المرأة التي حباها الحظ بأن ولدت وسط أسرة نبيلة شريفة، فإن مؤهلات غيرها تعود إلى جمالهن. والجمال مظهر خادع لأنه زخرف مؤقت؛ وبمرور الزمن تذبذب جاذبيتها، ويزول إعجاب الرجال بها، عندئذ تلجأ إلى التفاني الزائف لتنال حظها من الحياة.

- **البلاط الملكي** : تسود بيئته سمات العبودية، ويقضي الناس معظم وقتهم في المكاتب والكواليس، يخنقون مشاعرهم لإرضاء أصحاب السلطة والنفوذ، يكيلون لهم ألوان المديح، وهم في خيفة من أمرهم، مقيدون بضروريات الحذر والاحتياط خشية أن يقعوا فريسة التآمر.

- **الإنسان** : يلجأ الإنسان، في علاقاته مع غيره، إلى التقلب والتلون، والفظاظة والظلم. تنبع هذه المساوئ من خلق الأنانية المتأصل في أعماق نفسه.

- **الأطفال** : من صفاتهم أنهم يغضبون بسرعة، يحقدون، يكذبون، يتكبرون، يحسدون ويحتقرون غيرهم. ومنها أنهم فضوليون يهتمون بما يجري حولهم؛ وهم متقلبون في مزاجهم، يتصفون بالخجل، والكتمان، والمغالاة، والكسل، والمبالغة، يضحكون ويبكون لأبسط الأشياء، تهتز مشاعرهم بقوة لما

◆ نفعات من الأدب العالمي ◆

يدهجهم، ويعبرون عما يؤلهم بدرجة مريرة؛ لا يتحملون
الحرمان، ولكنهم مستعدون لحرمان غيرهم، فهم إذاً مثل
الكبار.

- **المرأة** : لو كانت المرأة من الجمال والروعة في الطبيعة مثلما تجعل
نفسها تبدو بالمساحيق والدهون والأساليب التكميلية
الاصطناعية .. لأصبح من العسير إرضائها.

- **الناس** : ينفق معظم الناس النصف الأول من حياتهم لإفساد النصف
الباقى.

- ليس السخاء فقط في إعطاء الكثير، بل في تقديم الهدية المناسبة في
الوقت المناسب.

- التوقف عن الحب في أيّ سنّ يعني أن الذهن أصبح بليدًا والقلب
باردًا.

أناتول فرانس

Anatole François Thibault



في سنة 1891، رفض أناتول فرانس أن يبارز Leconte de Lisle بسبب خلاف بينهما حول فكرة أدبية؛ وفي 1895 نال وسام جوقة الشرف؛ وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية مرتين، عام 1896 و 1916؛ ووقف إلى جانب قضية المسيحيين في أرمينيا؛ وإلى جانب قضية دريفوس Dreyfus الشهيرة؛ وتعاطف مع الثورة الروسية عام 1917 ومع الحزب الشيوعي، ولو أنه لم ينضم إليه؛ نال جائزة نوبل للأدب سنة 1921؛ وسجلت الكنيسة الأم، في الفاتيكان، كتبه في قائمة المؤلفات التي تحرم مطالعتها؛ وفي 16 من شهر أبريل (نيسان) 1924، حظى بتشريف عالمي في باريس، بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده الثمانين.

ولد فرانس سنة 1844 في باريس. وكان أبوه يتاجر في الكتب، فلم تنقص الفتى فرص المطالعة. وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا ببضع سنين انضم إلى الحرس الوطني في إطار الجندية. وفي سنة 1876 بدأ يعمل موظفاً في مكتبة مجلس الشيوخ؛ ثم تزوج بفتاة في العشرين من العمر تدعى Marie Valérie في العام التالي.

ودخل ميدان الصحافة فنشرت مقالاته في جرائد ومجلات مثل Globe، و La Revue alsacienne، و L'univers Illustré. وفي عام 1885 صدر له كتاب Le Livre de mon ami (كتاب صديقي). وفي سنة 1888 بدأ علاقته مع السيدة Caillavet. وبعد ذلك ببضع سنوات طلق زوجه.

وتلت ذلك حوادث مثل انتخابه إلى الأكاديمية الفرنسية عام 1896، ووفاة السيدة Caillavet المذكورة عام 1910، وانتقلت خادمته السيدة

Laprévotte لتسكن في فيلا Saïd كان أناتول فرانس اشتراها عام 1894؛
وأعيد انتخابه عضواً في الأكاديمية الفرنسية كما سبق سنة 1916.

وفي 1920 أصيب بتشنج العروق؛ وفيها تزوج السيدة Laprévotte
المذكورة. وفي شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من 1921 حصل على جائزة نوبل
للأدب. وفي الشهر ذاته من العام التالي كتب مقالاً في جريدة L'Humanité
عنوانه "تحية إلى السوفييت"، ولكن في شهر ديسمبر (كانون الأول) من سنة
1922، ألغى مساهمته في الجرائد الشيوعية عندما شعر بانتقاد موجه إليه
من طرف المؤتمر الشيوعي الدولي الرابع في موسكو. وفي عام 1924 حظي
بتشريف عالمي بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، يوم 16 أبريل (نيسان). وبعد
نحو ستة أشهر، في 12 أكتوبر (تشرين الأول) وافته المنية، وشيع جثمانه في
موكب مهيب إلى مثواه الأخير في Saint-Cyr-sur-loire.

ألف أناتول فرانس كتباً عديدة، منها "كتاب صديقي" المذكور، ومنها:

- L'Île des pingouins (جزيرة طيور البطريق)، أصدره سنة 1908؛ وهو
عبارة عن حكاية ساخرة ينتقد فيها استبداد الساسة الذين يستغلون
سلطانهم، وما جاءت به المسيحية وغيرها من أساطير، من أجل تحقيق
طموحاتهم. وتشير الحكاية بأساليب رمزية إلى أن نظام الحكم الملكي يلجأ
إلى العقائد والتقاليد الدينية، ويروج لها من أجل تخويف الناس وإضفاء
هالة قدسية على سلطانهم؛ وأن النظام الجمهوري اللائكي يلجأ إلى
المناورات السياسية والوعود الانتخابية لبيسط سلطاته على السكان أطول
مدة ممكنة.

ومن مؤلفاته كتاب عنوانه:

- La Révolte des Anges (ثورة الملائكة) ألفه خلال الفترة (1909 - 1913)،
وهي حكاية خيالية مفادها أن عدداً من الملائكة أصيبوا بخيبة أمل،

فتمردوا على الإله Iaveh (يهوه). ويتخيل الكاتب في هذه الرواية العلاقة بين الإله المذكور والملائكة على أنها لا تتجاوز علاقة حاكم بمحكومين، أي كما هو الحال بين البشر. ويتصور أن هذا الحاكم دكتاتوري، يجبر المخلوقات، بأساليب تعسفية، على أفعال لا يرتضونها. وهو بذلك يدعو إلى الحكم الجمهوري الديمقراطي الذي يمكن من تغيير الحكام ومن المحافظة على العدالة الاجتماعية. أما بالنسبة إلى تمرد الملائكة على يهوه (الإله)، فمن المعروف أن أناتول فرانس كان ينتهز الفرصة، عندما تسنح، لمهاجمة العقيدة المسيحية.

وفي سنة 1912 أصدر أناتول فرانس رواية عنوانها: Les dieux ont soif (الآلهة عطشى)، يتناول فيها الحوادث الدموية التي جرت في باريس أثناء الثورة الفرنسية، ويصور بعض المشاهد التاريخية والشخصيات الذين ارتقوا سلم الثورة، ثم أطاحت بهم تدريجياً، مثل مارا Marat، وروبسبير Robespierre، ويهاجم المؤلف ما اتسمت به الثورة من عنف وتعصب وإرهاب. ويمثل غاملين Gamelin في هذه الرواية دور قاضي محكمة الثورة الفرنسية التي أزهقت أرواح أعداد كبيرة من الأبرياء باسم مبادئ لم تعمر طويلاً.

وفي القطعة التالية نبذة من حوار يدور بين غاملين وبروتو Brotteaux ويقوم هذا الأخير بدور شخصية الرجل الذي يميل إلى التسامح والاعتدال، وتتسم آراؤه بكثير من التشكك وتنزع نحو الإلحاد.

نبذة من رواية أناتول فرانس التي تحمل عنوان:

★★ الآلهة عطشى Les dieux ont soif

- بروتو: أيها المواطن غاملين، إذا كنت في الأرض تعتبر ثورياً، فإنك في السماء تعتبر محافظاً، بل رجعيّاً. وكذلك الأمر بالنسبة إلى

روبسييار (1)، ومارا (2). وأجد أنه من الغريب أن الفرنسيين الذين لا يرضون بملك، من صفاته أنه مخلوق فان، يحرصون على التمسك بإله خالد (3) أشد استبدادًا وشراسة. وما سجن الباستيل والمحاكم المحرقة (4) أمام لهيب الجحيم! إن البشر ينسخون صورًا لألهتهم من حكامهم الطغاة، وأنتم ترفضون الأصل وتتمسكون بالنسخة.

- **غاملين (غاضبًا):** ألا تستحي من مثل هذا الكلام؟ وكيف لك أن تخلط بين آلهة كئيبة اخترعها الجوع والخوف، وبين خالق الطبيعة؟! إن الإيمان بإله رحيم كريم ضروري لأنه يقوى معنويات النفس ويدعم اطمئنانها. إن الإله العظيم مصدر لجميع الفضائل، ولن يكون المرء جمهوريًا إذا لم يؤمن بالله. وقد كان روبسييار يعلم هذا جيدًا عندما أراح تمثال Helvétius (5) من قاعة اليعقوبيين، لأن هذا الأخير أجرم عندما علم الفرنسيين الإلحاد، فوجههم نحو العبودية. أرجو، أيها المواطن بروتو، أنه عندما تؤسس الجمهورية مبدأ عبادة العقل الأسمى، على الأقل ألا ترفض الانضمام إلى هذا الدين الحكيم.

(1) Maximilien de Robespierre، أحد كبار زعماء الثورة الفرنسية. مارس العنف والإرهاب للقضاء على المعارضة حتى أصبح حاكم البلاد دون منازع. وفي النهاية خسر المعركة واقتيد بدوره إلى المقصلة.

(2) Jean-Paul Marat، طبيب، صحفي وسياسي فرنسي. أحد زعماء الثورة الفرنسية المتطرفين، قتل سنة 1793.

(3) كان بروتو ملحدًا، كما يتضح من كلامه.

(4) محاكم قديمة كانت تبت في القضايا الاستثنائية كالهرقية.

(5) Claude-Adrien Helvétius (1715 - 1771) فيلسوف فرنسي، صاحب كتاب De L'esprit، هاجم فيه جميع أنواع الأخلاق التي تعتمد على الديانة؛ واجه معارضة شديدة، وانتقده فولتير وروسو. ومن آرائه أن المحرك الأساسي للإنسان هو البحث عن الملذات والسعي لتجنب الآلام.

- **بروتو:** إنني من أنصار العقل الأسمى، ولست من المتعصبين. فالعقل هو الذي يوجهنا وينير سبيلنا. ولكن عندما تتخذ منه إلهًا فإنه يعمى بصيرتك ويدفعك إلى ارتكاب الجرائم... لقد كان روسو يزعم أن تعاليمه الأخلاقية تنبع من الطبيعة، وهي في الحقيقة من المبادئ الكالفينية (1). إن الطبيعة تعلمنا بأن يفترس المخلوق مخلوقًا آخر، وتقدم الأمثلة على جميع العيوب والجرائم التي ينبغي أن يصححها الوضع الاجتماعي أو يخفيها. لا شك أنه ينبغي لنا أن نحب الفضيلة، ولكنه من المفيد كذلك أن نعرف أنها وسيلة تخيلها الناس ليتمكنوا من العيش جنبًا إلى جنب في وفاق.

إن ما ندعوه "نظام الأخلاق" ليس سوى مشروع فاشل أنشأه الناس ضد النظام الكوني الذي يتمثل في الصراع والتناحر بين الأفراد والقوى المتنافسة. وكلما فكرت في القوى البشرية التي يدمر بعضها البعض الآخر، يزداد يقيني بأننا نعيش في عالم مجنون.

إن رجال اللاهوت والفلاسفة الذين يقولون بأن الإله هو الذي خلق الطبيعة، وهو مهندس الكون، ومن جهة أخرى يصفونه بأنه طيب لطيف رحمان رحيم، إنما يناقضون أنفسهم، لأن هذه الأوصاف لا تتوفر في الطبيعة، حيث القوي يأكل الضعيف. إنهم يقولون إنه رحيم لأنهم يخشون بطشه، وهم مضطرون أحيانًا للقول بأنه يتصرف بطريقة شنيعة، بل قد يصفونه بأوصاف يندر وجودها لدى بعض البشر، مثل الحقد والمكر.

ولعلّ رجال اللاهوت ينسبون للإله هذه الأوصاف القاسية المخيفة ليجعلوه محبوبًا لدى سكان الأرض، لأن جنسنا البئس لا يرغب في عبادة

(1) نسبة إلى مدرسة John Calvin، عالم لاهوت ومن أهم شخصيات الإصلاح الديني البروتستانتي في القرن السادس عشر.

آلهة العدل والرحمة، لأنهم لا يخشونهم ولا يرهبون عذابهم؛ ولأنهم سرعان ما ينسون المنعم المتسامح.

... حدث ضجيج قوي غطى على الحوار عندما انفتحت أبواب المخبزة، فتدافعت صفوف الجائعين أمامها، وبدأ الناس يتقدمون ببطء شديد. كان أمام باب المخبزة حارس أمن ينظم دخول المشتريين واحداً بعد الآخر. وكان صاحب المخبزة وزوجه وابنهما يبيعون الخبز، يساعدهم في ذلك اثنان من الشرطة المدنية يحملان على الذراع الأيسر شريطاً مثلث الألوان، ليتأكدوا من أن من يشتري هو من سكان الحي، وأن لا تباع له إلا كمية الخبز المناسبة لعدد الأشخاص الذين يعيلهم.

جون بول سارتر

Jean-Paul Sartre



كان سارتر من كبار المفكرين في عهده، قصيراً بقامته، عظيماً بأفكاره وإنجازاته في مجالات عديدة. كتب وتكلم في الميادين الفلسفية والاجتماعية والأدبية والسياسية، وألّف في القصة والرواية والمسرح، وشارك في المظاهرات والمناقشات ... ودافع عن قضايا حقوق الإنسان، وشجب أساليب العنف والتعذيب التي مارسها الاستعمار في الجزائر، وتدخل الاتحاد السوفيتي في المجر، وفي تشيكوسلوفاكيا، وجرائم الحرب الأمريكية في فيتنام، ورفض جائزة نوبل لأنها في رأيه هدية من الغرب وحده، وترك لنا صوراً معبرة عن تطورات كثيرة في القرن العشرين، تتردد على حوادثها أصداء مقالاته ونشاطاته. ويصدق عليه قول الشاعر:

ترى الرجل النحيل فتزدرية

ويثأب به أسد مزير

ولد سارتر في 21 جوان، يونيو عام 1905، في باريس، في وسط برجوازي. كان أبوه ضابطاً في البحرية، وتوفي ولم يتجاوز الطفل خمسة عشر شهراً، فترعرع في أحضان أمه وجدده لأمه بول شفا يئسر Schweitzer. ويبدو أنه عانى من العزلة في صغره، إذ يروى أنه كثيراً ما كان يتجول، برفقة أمه، في حدائق لوكسمبورغ ليلعب مع الأطفال، غير أنه لم يحظ بمن يلعب معه أو يرغب في التعرف عليه.

وفي عام 1915 دخل سارتر ثانوية هنري الرابع في باريس، وفيها تعرف

على بول نيزان (1)، ونشأت بينهما صداقة وثيقة. وفي هذه السنة تزوجت أمه. ثم انتقل الشاب إلى ثانوية لاروشيل، ويذكر أن الفترة 1917 - 1920 كانت أسوأ فترة في حياته. وعاد سارتر إلى ثانوية هنري الرابع حيث سعد بقاء صديقه المذكور. وفي عام 1924 دخل المدرسة النظامية العليا، برفقة نيزان، وتعرف على صديق آخر هو ريمون آرون (2).

حصل على شهادة الأستاذية من المدرسة النظامية العليا في ميدان الفلسفة، عام 1929. وفي هذه السنة تعرف على سيمون دي بوفوار (3)، فتوثقت بينهما علاقات التعاطف والمودة، وتعايشتا حتى فرق بينهما الموت.

بدأ الأستاذ سارتر يعمل في سلك التعليم، فدرّس مادة الفلسفة في معاهد عديدة، وخلال فترة التدريس، سنة 1933، حصل على منحة من المعهد الفرنسي في برلين، وهناك اطلع على كتابات الفيلسوف الألماني Husserl. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية جرى تجنيده، ثم أسر فترة، وأطلق سراحه عام 1941، فعاد إلى التدريس في معهد باستور وغيره.

وفي سنة 1945، أرسل إلى الولايات المتحدة كمراسل لجريدتي Le Figaro و Combat. وخلال هذه الفترة ألقى محاضرة حول موضوع "الوجودية والإنسانية"، فحظى بشهرة لم يكن يتوقعها. وفي الفترة المذكورة أسس مجلة "الأزمة الحديثة"، وهي مجلة شهرية ساعدته سيمون دي بوفوار على تحريرها؛ وترك مهنة التعليم ليتفرغ للبحث والتأليف؛ وبدأت نشاطاته على مسرح الحوادث الدولية في فرنسا، وعلى المستوى العالمي.

(1) بول نيزان (Nizan، 1940 - 1905) صحفي وروائي فرنسي، كان مناضلاً في إطار الحزب الشيوعي، واستقال منه عام 1939، عندما وقع الاتحاد السوفيتي مع هتلر على معاهدة عدم الاعتداء.

(2) ريمون آرون (Aron، 1983 - 1905)، كاتب وفيلسوف فرنسي، ومعلق صحفي.

(3) سيمون دي بوفوار (de Beauvoir، 1986 - 1908) أديبة فرنسية، ألّفت في المسرح والرواية ودراسات اجتماعية، وفي السيرة الذاتية.

وفي عام 1948 انضم إلى "التجمع الديمقراطي الثوري"، وفيها وضعت الكنيسة في روما مؤلفات سارتر على قائمة الكتب التي تمنع قراءتها. وفي سنة 1952 بدأ يتعاطف مع الحزب الشيوعي، وينتقد الحرب الباردة، وفي هذه الفترة اشتد الخلاف بينه وبين ألبيير كامو⁽¹⁾، فانقطعت العلاقات بينهما.

زار سارتر الاتحاد السوفيتي سنة 1954، كما قام برحلة إلى اسكاندنافيا، وإفريقيا، والولايات المتحدة، وكوبا. وفي العام التالي قام برحلة أخرى إلى الصين برفقة سيمون دي بوفوار. وعندما دخلت دبابات الاتحاد السوفيتي بودابست، عاصمة المجر، سنة 1956، شعر سارتر بخيبة أمل، وكتب مقالاً في مجلة "الأزمة الحديثة" تحت عنوان "شبح ستالين" يهاجم فيه هذا التدخل الذي يقمع حرية المواطنين المجرين، كما انتقد الموقف السلبي الذي وقفه الحزب الشيوعي الفرنسي من هذا التدخل المسلح.

وقد وقف سارتر موقفاً إيجابياً من ثورة التحرير الجزائرية، وبدأ الاحتجاج على ممارسات التعذيب التي كان يسلطها الاستعمار على الشعب الجزائري. وقد واصل سارتر مشاركته في المظاهرات، والمقابلات الصحفية، في فرنسا وخارجها من أجل مساندة الشعب الجزائري. وحدثت محاولة لنسف منزله عام 1961، ومحاولة أخرى للهدف نفسه بعد استقلال الجزائر.

نجحت ثورة فيدال كاسترو في كوبا عام 1959، وفي العام التالي ذهب سارتر إلى كوبا حيث اجتمع بزعيم الثورة وبرفيقه في الكفاح تشي غيفارا، كما زار الزعيم اليوغوسلافي الماريشال تيتو. وعندما قدمت للفيلسوف جائزة نوبل للآداب، سنة 1964، رفض قبولها واعتبرها هدية من الغرب وحده.

وفي سنة 1966 شارك بحماس في "محكمة راسيل" من أجل إدانة الجرائم التي ارتكبتها الولايات المتحدة في فيتنام. وعندما بدأت مظاهرات

(1) ألبيير كامو Camus، 1913 - 1960، مؤلف روائي ومسرحي، وصحفي فرنسي، من رواياته: الغريب؛ الطاعون؛ السقوط.

◆ ————— ◆
نفعات من الأدب العالمي

الطلاب في فرنسا، في مارس 1968، اتخذ موقفاً مسانداً لهذه الحركة. كما أنه شجب تدخل الاتحاد السوفيتي المسلح في تشيكوسلوفاكيا في السنة المذكورة.

وفي عام 1970 تولى إدارة جريدة "قضية الشعب" (La Cause du peuple)، وكان في بعض الأحيان يخرج إلى الشارع ليوزع الجريدة بنفسه. وبدأ سارتر الإعداد لإصدار جريدة Liberation، ولكن بعد أن صدر العدد الأول منها، تخلى عن إدارتها بسبب مرض في عينيه جعله غير قادر على القراءة والكتابة. حدث هذا سنة 1974. وفي عام 1979 شارك مع ريمون أرون في المؤتمر الصحفي الذي نظمته لجنة "باخرة إلى فيتنام".

وفي 15 أبريل من عام 1980، وافته المنية في مستشفى Broussais، وشيع جنازته حشد تجاوز خمسين ألف نسمة.

ترك سارتر ثروة غزيرة من المؤلفات، عشرات الكتب، في مختلف الموضوعات الثقافية الأدبية والفلسفية والاجتماعية، تتعذر الإحاطة بها في هذا الموجز.

★★ ومن مؤلفاته الفلسفية:

– "الوجود والعدم". وهو عمله الفلسفي الرئيس.

– "الوجود والإنسانية".

– "نقد المنطق الجدلي".

★★ ومن مسرحياته:

– الذباب؛ لا مخرج؛ الأيدي القذرة؛ الشيطان والإله؛ سجناء ألتون؛ تأجيل تنفيذ الحكم.

★★ ومن قصصه ورواياته والسيرة الذاتية:

– الغثيان؛ الجدار؛ طرق الحرية؛ الكلمات (1)

(1) الكلمات (les mots)، عام 1963، قصة سيرته الذاتية في عهد الشباب.

وفيما يلي اقتباس من كتاب سارتر *Situations II*⁽¹⁾، تحت عنوان:

ما هو الأدب

"... أما الكاتب فهو عكس ذلك، يهتم بالرموز والإشارات. ومن المهم التمييز بين عالم الإشارات والرموز، وهو النثر؛ وعالم الشعر الذي ينتمي إلى عالم الرسم والنحت والموسيقى. ويتهمونني بأنني أكره الشعر؛ ويستدلون على ذلك بكوني لا أنشر القصائد في مجلة "الأزمنة الحديثة" وأقول إن هذا دليل على أننا نحب الشعر، ولا نكرهه. وللاقتناع بهذا الرأي يكفي أن نلقي نظرة على الإنتاج المعاصر..."

إن الشعر لا يستخدم الكلمات مثل النثر بنفس الأسلوب والمفهوم؛ بل إنه لا يستخدم الكلمات على الإطلاق، إنه يخضع لها. اللغة وسيلة تساعد على البحث عن الحقيقة، والشعراء لا يسعون إلى كشف الحقائق ولا إلى شرحها؛ بل إنهم لا يريدون أن يشاهدوا العالم كما هو، ولأن تسمية الأشياء بأسمائها تعني أن نخصص الكلمة والإسم للمسمى دون غيره.

والشعراء لا يتكلمون، ولكنهم لا يسكتون، والفرق بيّن... والواقع أن الشاعر لم يعد ينظر إلى الكلمات على أنها وسيلة للتعبير، بل اختار الحالة الشعرية، ويعامل الكلمات كأنها أشياء، وليست رموزاً وإشارات، والواقع أن الرمز، أو الدلالة، مثل الواجهة الزجاجية، يعني أنه بوسعنا أن ندرك من خلالها المعنى المقصود، وأن نوجهه إلى حقيقته. فالرجل عندما يتكلم، يتجاوز الكلمات ويقربنا من الموضوع؛ أما الشاعر فهو بعيد عن الموضوع. فبالنسبة إلى الأول أصبحت الكلمات أليفة، وبالنسبة إلى الثاني تظل غريبة. وبالنسبة لمن يتكلم، الكلمة أداة، تتآكل بمرور الزمن، ويمكن الاستغناء عنها عندما تعجز عن إبلاغ المعنى؛ أما بالنسبة إلى الشاعر فالكلمات أشياء تنمو طبيعياً، كما تنمو الحشائش والأشجار فوق الأرض.

(1) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب.

ولكن إذا توقف الشاعر عند الكلمات، كما يفعل الرسام بالألوان، والموسيقار بالأنغام، فهذا لا يعني، في نظره، أنها فقدت كل معناها، لأن المعنى هو الذي يعطي الكلمات وحدتها وتناسقها اللفظي ...، إن المتكلم منسجم مع اللغة، مندمج في الكلمات، لأنها امتداد لحواسه، أدوات استشعاره ونظراته؛ يديرها من أعماق أحشائه وباطن نفسه، ويحس بها كما يحس بجسمه، فهو محاط "بجسد لغوي" لا يكاد يشعر بأنه خارج وجوده، وفوق ذلك ينشر آثاره في محيطه. أما الشاعر فهو خارج اللغة، ويرى الكلمات مقلوبة، وكأنه لا ينتمي إلى الوضع البشري، وهو عندما يواجه الناس، يواجه، قبل ذلك الكلمات كأنها حاجز أمامه.

★★ من أقوال سارتر :

- الموضوع الأدبي مثل الخدوف، لا قيمة له إلا عندما يدور. فليأتي الموضوع الأدبي بفائدة يجب أن يجد من يقرأه. ولهذا فإن الكتابة تعني حرية القارئ؛ وعلى الكاتب أن يكشف له العالم، ويقترح عليه أساليب التغيير.
- لا يكتب الكاتب لقارئ مجهول، بل لمواطنيه ومعاصريه. فالكتاب بما يحتوي من نظريات وفرضيات واقتراحات يحدد نوع القارئ؛ كما أن طبيعة جمهور القراء واتجاهاتهم تحدد موضوعات الكتاب.
- الأديب الملتزم يجد حياته وسط الناس، ويتعش بين أحضانهم.
- خلق الإنسان وهو يحمل عبئاً، عبء حرية التصرف، في عالم خال من أية قيمة خالدة، لذلك ليس له عذر في الفرار من المسؤولية.
- يصبح الكاتب ملتزماً عندما يغوص إلى أعماق نفسه، ليس بهدف أن يكشف عن فرديته، بل ليعرف دوره ضمن المجتمع المعقد الذي يكيفه ويدعمه.
- كنت مثل كثير من الحالمين فظننت أن الأوهام حقائق.

- عندما تشعل الحرية منارتها في قلب الرجل، تفقد الآلهة سيطرتها عليه.
- عندما تطلع على تفاصيل الانتصار، يصعب عليك أن تميزه من الهزيمة.
- تبدأ حياة الإنسان من أعمق مرحلة من مراحل اليأس.
- الأغنياء يشعلون نيران الحرب، ليكون الفقراء حطبها.
- يوجد نوعان من الفقراء: الفقراء في مجموعهم، والفقراء الفرادى. الصنف الأول هم الفقراء حقاً، والصنف الثاني هم الأثرياء الذي خانهم الحظ.
- الإنسان هوية لا فائدة ترجى منها.
- الجحيم؟ هو الآخرون!
- يجب على الكاتب ألا يسمح لنفسه أن يستغل كأنه مؤسسة.
- اكتشفتُ العالم عن طريق اللغة، بل ظننت طويلاً أن العالم هو اللغة.

إدورد غيبون: مؤرخ إنكليزي

Edward Gibbon, 1737 - 1794



غيبون، الوحيد الذي كتبت له الحياة بعد مرحلة الطفولة، من بين سبعة إخوة، وكان يعاني من مشاكل صحية لم تنكشف عنه إلا بعد مرحلة البلوغ. وبعد أن توفيت أمه احتضنته خالته، فأحسنّت رعايته، وشجعتّه على مطالعة الكتب.

وعندما بلغ سنّ الخامسة عشرة أرسله أبوه إلى جامعة أكسفورد حيث قضى أربعة عشر شهراً، أهمل فيها دروسه، ولكنه اهتم بدراسة اللاهوت والعقيدة الكاثوليكية، وانتهى باعتناقها ونبذ المذهب الأنجليكاني. وأغضب هذا أباه، لأن النظام لم يكن يسمح لمن يهجر مذهب الكنيسة الإنكليزية بالدراسة في تلك الجامعة.

أرسله أبوه إلى مدينة لوزان حيث وضعه تحت إشراف قسّ كالفيني⁽¹⁾، وهناك درس اللغتين اللاتينية والفرنسية، والأدب الكلاسيكي والمنطق والرياضيات؛ وغير رأيه فرجع إلى اعتناق المذهب الأنجليكاني.

عندما بلغ سنه واحداً وعشرين عاماً، طلب منه أبوه أن يعود إلى انكلترا، وخصص له دخلاً سنوياً قدره ثلاثمئة جنيه، غير أنه منعه من الزواج من فتاة كان تعرف عليها في لوزان.

وأثناء حرب السبع سنوات انضم إلى وحدة ميليشيا "هامبشاير" تحت قيادة والده. ويبدو أن هذه الخبرة العسكرية أفادته أثناء كتابته عن تاريخ

(1) أحد أتباع مذهب كالفين اللاهوتي البروتستانتي (1509 - 1564) القائل بأن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته.

الرومان. والواقع أنه أثناء زيارة لمدينة روما، اهتم بدراسة بعض الآثار القديمة، وخطرت له فكرة كتابة تاريخ المدينة. لقد كان مولعاً بالتاريخ، وقال: "إنه غذائي الفكري المفضل".

وفي عام 1772 (أي بعد وفاة أبيه بسنتين) قرّر غيبون أن يستقر في لندن، وبدأ بحوثه الجديدة في تاريخ الرومان. وانضم إلى النادي الأدبي الشهير الذي كان يتزعمه الدكتور جونسون، كما انتخب عضواً في البرلمان عام 1774. صدر أول جزء من كتابه الشهير عام 1776⁽¹⁾، فحظي باهتمام كبير، ولكنه واجه موجة انتقادات بسبب آراء غيبون في الديانة المسيحية. وتلا ذلك بقليل صدور الجزأين الثاني والثالث.

وفي عام 1782، فقدَ وظيفة كان يشغلها كعضو في مجلس تجاري حكومي، ثم فقد عضويته في البرلمان، فقلت مصادر دخله في لندن، وقرر أن يذهب إلى لوزان ليعيش مع صديق قديم له. وهناك ركز جهوده على إتمام الأجزاء الأخيرة من كتابه، وتم ذلك في شهر جوان من عام 1787.

وفي السنوات الأخيرة من حياته كان يعاني من السمنة، ومن داء الاستسقاء، وداء المفاصل، فساءت صحته. وعاد إلى لندن عام 1793 حيث أجريت له بعض العمليات الجراحية. توفي في شهر جانفي (يناير) من عام 1794.

نظرة خاطفة إلى كتاب إدورد غيبون: تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها

يعتبر غيبون أشهر مؤرخ في القرن الثامن عشر في أوروبا. ومن الواضح أنه قضى جزءاً كبيراً من وقته، وبذل جهوداً كبيرة لجمع ما زخر به كتابه من معلومات دقيقة وغزيرة، ومن أجل تنظيمها وتوثيقها وسردها.

(1) تاريخ تدهور الإمبراطورية الرومانية وسقوطها.

ويتناول هذا الكتاب فترة طويلة من تاريخ الرومان، ويصور حضارة عريقة كانت تستقر تارة وتندهور طوراً، ويرسم مسارات متشابكة لإمبراطورية ظلت تصارع على جبهات عديدة من أجل البقاء.

وينقسم هذا الكتاب الضخم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول، ينطلق المؤلف فيه من القرن الثاني للميلاد، حتى عام 480، أي نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب. ويعالج موضوعات متنوعة منها على سبيل المثال لا الحصر، تولية الأباطرة الرومان، حروبهم وفتوحاتهم (أو انهزامهم) في آسيا وإفريقيا وأوروبا، وما قاموا به من إصلاحات، ومؤامرات البلاط؛ وانتشار المسيحية، وغير ذلك من الحوادث المتتالية، على المستويات الرسمية والشخصية، وعبر القرون، في إمبراطورية مترامية الأطراف، متنوعة الأجناس.

القسم الثاني، ويغطي فترة أطول من القسم الأول، أي قرابة عشرة قرون، من 480 ميلادية حتى سقوط القسطنطينية سنة 1453م. ويتناول موضوعات شتى، إلى جانب وصف حياة الأباطرة وحروبهم، مثل الحديث عن المسيحية وفرقها وتنوع مذاهبها، وانتشار الإسلام والإمبراطورية الإسلامية، والحروب الصليبية، وظهور الدولة العثمانية، وغير ذلك كثير جداً، إنه تاريخ إمبراطورية خلال عشرة قرون.

وعلى الرغم مما اشتمل عليه هذا الكتاب من انتقادات غير موضوعية ووجهات نظر مجحفة، خاصة فيما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين، فإنه يعتبر بصفة عامة كتاباً رائعاً، يزخر بمعلومات غزيرة، دقيقة ومتنوعة، مع قدرة على تقصي الحقائق ووصف الوقائع بشجاعة وحماس وبراعة وعقلانية نال بها إعجاب كبار المؤرخين والأدباء.

★★ انتشار المسيحية

يتناول غيبون موضوع انتشار المسيحية في عهودها الأولى (في الفصل الخامس عشر)، فيشير أولاً إلى الرعاية الإلهية لما يريد له البقاء والانتشار؛ وإلى كون العقيدة (في صيغتها الأولى) وحيًا من السماء؛ ثم إلى حماس دعاة المسيحية والمبشرين بها، لما وجدوا في كلام المسيح ﷺ من آيات بينات ودلائل مقنعة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن العوامل الأخرى المساعدة التي أدت إلى انتشار المسيحية فيذكر منها:

1- أن الدعاة والمبشرين استفادوا من تعاليم اليهودية، وما فيها من قوة وحماس، في الأسلوب الذي اتبعوه لنشر المسيحية.

2- فكرة الإيمان بالحياة الأخرى، وما يرافقها من ظروف تؤكد صحة العقيدة المسيحية.

3- ما تضمنته حياة المسيح من معجزات، وما يرافقها من حوادث بهرت عقول الناس.

4- ما اتصف به دعاة المسيحية الأوائل من سلوك قويم وأخلاق فاضلة وحرز وجد وإخلاص.

5- وحدة التنظيمية المسيحية وما اتصف به روادها الأوائل من انضباط، إلى أن شكلت "دولة" في قلب الإمبراطورية الرومانية.

ويستدرك غيبون أثناء عرضه لهذه العوامل فيشير إلى ما يشعر به المؤرخ النزيه من انقباض نفسي عندما يجتهد ليكتشف ما حصل من خلط وتداخل عبر القرون الطويلة في التمييز بين المبادئ المسيحية وعقائدها السلمية وبين ما شابها من بدع ومفاسد من صنع يد الإنسان ولسانه.

بعض الوقائع التي أوردها غيبون⁽¹⁾، والتي حدثت خلال الفترة من بدء نزول الوحي على الرسول I حتى وفاته:

- بدء نزول الوحي عام 609 ميلادية.
- الإمبراطور هرقل يجلس على عرش روما، سنة 610م.
- ملك الفرس كسرى يحتل سوريا، فلسطين، مصر، وآسيا الصغرى، 611 - 616.
- هجرة الرسول I إلى المدينة، سنة 622م.
- هرقل يجهز أول حملة ضد الفرس، عام 622م.
- هرقل يجهز الحملة الثانية ضد الفرس، 623 - 625 م.
- هرقل يرسل الحملة الثالثة ضد الفرس، ويتم انتصاراته، وفرار كسرى.
- يخلعه ابنه قباذ (Siroes) يقتله، ويعقد الصلح مع هرقل، 628م.
- دخول المسلمين إلى مكة منتصرين، 629م.
- إخضاع المسلمين لشبه الجزيرة العربية، 629 - 632م.
- المسلمون يبدأون الحرب ضد الإمبراطورية الرومانية (غزوة مؤتة)، 629 - 630م.
- وفاة الرسول I، 632م.

تناول غيبون في الفصل الخمسين الحديث عن شبه الجزيرة العربية، وسكانها وظروف معيشتهم، ليمهد للكلام عن محمد الرسول ﷺ، ورسالته وأركان الإسلام، ودعوته في مكة، ثم هجرته إلى المدينة، وعن غزواته وانتصاراته؛ ومما كتب عن حياة محمد ﷺ:

(1) الفصلين 46 و 50 من المجلد الثاني.

(كان تفكير محمد ⁽¹⁾ تفكيراً سليماً وإنسانياً، مما جعله ينبذ زخارف الملك وأبهة الملوك، فكان يقوم بأشغال الأسرة، كأن يوقد النار، يكنس الأرض، يحلب القطيع، ويرقع بنفسه ملابسه وخذاءه. وكان يكره تزمت القساوسة والرهبان، وتعذيب النفس. وكان يفضل الاعتدال في تناول الطعام؛ غير أنه في المناسبات الهامة كان مضيفاً كريماً. وفي بعض الأحيان كانت تمرّ عليه أيام لا يوقد أثنائها النار في منزله).

★★ حول الإسلام

وفي معرض الحديث عن انتشار الإسلام السريع بعد الهجرة النبوية، وعن بساطة مبادئه وسهولة فهمها، واستقرارها على مرّ قرون من الزمن يقول المؤرخ غيبون ما مفاده:

" إن ما يثير إعجابنا ليس ما حققته العقيدة الإسلامية من انتشار سريع فحسب، ولكن كذلك استقرار تعاليمها الصرفة الكاملة التي نقشت في قلوب أوائل المسلمين في مكة والمدينة، إذ نجدها محفوظة في قلوب الذين اهتموا حديثاً للإسلام في الهند وإفريقيا وآسيا، على الرغم مما مرّ به العالم من ثورات خلال الاثنى عشر قرناً منذ عهود الإسلام الأولى."

" ولو عاد تلميذ المسيح، القديس بطرس إلى الحياة، ودخل الفاتيكان اليوم، لتعجب وتساءل عن الإله الذي يعبده الناس في هذه المعابد الفخمة، ولتعجب كذلك من تلك الطقوس الغريبة المبهمة..."

أما في دين الإسلام فإن الذات الإلهية لم تنزل أبداً إلى مستوى المعبود المجسّد، كما أن مقام الرسول محمد I لم يتعد مقاييس الفضائل البشرية، وتكريمه لم يتجاوز حدود التقديس الذي يليق برسول عظيم من بني البشر.

★★ مكتبة الإسكندرية

أمر ببنائها الإسكندر المقدوني، عرفت كذلك بالمكتبة الملكية، وأصبحت أضخم مكتبة مشهورة في العهود القديمة. وكانت تضم مجموعات كبيرة من الكتب اليونانية وغيرها في مختلف العلوم والفنون.

ويروى أن عمرو بن العاص، أثناء ولايته على مصر، عرف بالتسامح وإكرام العلماء، وبرغبته في الاطلاع والمعرفة. وكان عندما يسمح له الوقت، يجد متعة في الحديث مع رجل يدعى جون فيلوبونوس⁽¹⁾. وذات يوم تجرأ هذا العالم وطلب من عمر بن العاص أن يهبه هدية عظيمة هي مكتبة الإسكندرية. فرد ابن العاص بأنه لا بدّ أن يستشير عمر بن الخطاب، خليفة المسلمين في هذا الأمر.

ويروى غيبون أن جواب عمر بن الخطاب كان: "إذا كانت الكتب تتوافق مع ما جاء في كتاب الله، فلا حاجة للاحتفاظ بها، وإذا كانت تخالف ما جاء في كتاب الله، يجب تدميرها".

ويشير غيبون إلى حكاية إحراق الكتب وتدمير المكتبة، ولكنه يؤكد أن الرأي المنسوب إلى عمر بن الخطاب "لا ينسجم مع روح الإسلام وتعاليم كبار رجال الإسلام، لأنهم ينصون على أن كتب اليهود والمسيحيين التي يحصل عليها المسلمون عن طريق الحرب لا يجوز حرقها، وأن الكتب العلمية الأخرى قد تكون مفيدة للمسلمين".

★★ قرطبة

وفي معرض الحديث عن الإسلام والمسلمين في الأندلس يقول غيبون: قد يبالغ العرب في وصف الوقائع أحياناً، ولكن التاريخ يشهد أنهم شيّدوا أعظم

(1) فيلسوف يوناني مسيحي من علماء اللاهوت.

العهود ازدهاراً في أسبانيا، ويذكر أن "قرطبة، عاصمة الخلافة الأموية، كانت تضم بين أحضانها 600 مسجد، و900 حمام، والمرافق العامة...؛ وكانت ضفاف الوادي الكبير مزخرفة بنحو 12000 قرية".

ويواصل الحديث عن الإسلام قائلاً: "إن الملايين الذين اعتنقوا العقيدة الإسلامية لم يفعلوا ذلك تحت القوة والتهديد، بل ربما دفعهم إلى ذلك إغراء الدعوة الإسلامية، إذ أنه يكفي النطق بعبارة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" والخضوع لعملية الختان ليصبح العبد أو الأسير أو الرجل بصفة عامة حراً مساوياً للمسلم المنتصر. وإضافة إلى ذلك تغفر جميع ذنوبه السابقة، وتلغى عقوده التي تضر بعقيدته الجديدة".

وتناول موضوع اهتمام زعماء المسلمين وعلمائهم بنقل معارف السابقين إلى اللغة العربية. وأشار إلى الجهود التي بذلها الخليفة المأمون الذي أرسل سفراءه إلى القسطنطينية وأرمينيا وسوريا ومصر، من أجل جمع الكتب... ثم أمر بترجمتها. وأضاف غيبون: "وكذلك فعل خلفاء آخرون من أجل ازدهار العلوم، فنشط الأمويون في الأندلس، والفاطميون في شمال إفريقيا، فانتشرت المعرفة وانتعشت الحضارة، وظهرت نتائج هذا الازدهار من سمرقند إلى بخارى، ومن فاس إلى قرطبة".

★★ من أقوال إدورد غيبون

- إن المعتقدات الدينية (المسيحية) التي سادت العالم الروماني، كانت صحيحة في نظر الشعب، فاسدة في نظر الفلاسفة، ومفيدة في نظر الحكام والقضاة.

- يضعف تعاطفنا مع حالات الشقاء والمعاناة أو يزيد، وفقاً لمدى بعدها عنا أو قربها في المكان والزمان.

- يرى بعض رجال الدولة أنه لا يمكن لأية دولة أن تحتفظ بأكثر من واحد

◆ ————— ◆
نفحات من الأدب العالمي

في المائة من مجموع سكانها تحت السلاح في حالة السلم، دون أن
ترهقها تكاليف ذلك.

- تقلبات الدهر لا ترحم؛ إنها تدفن الإنسان والمدن والممالك في قبر واحد.

- الرياح والأمواج تقف إلى جانب الملاح الماهر.

- كل ما يصنعه الإنسان يتدهور إن لم يتطور.

توماس كارليل

Thomas Carlyle



ولد كارليل سنة 1795 بقريّة جنوب سكوتلندا، وكان أكبر إخوته. وكان أبوه يعمل في البناء، ثم تحول إلى الزراعة. وكان من أتباع المذهب البروتستانتي. بدأ كارليل تعليمه في مدرسة الأبرشية، ثم في أكاديمية أنان Annan. وعلى الرغم من فقر أسرته بذل أبواه جهدهما لتمكينه من مواصلة تعليمه العالي في ميدان علوم اللاهوت.

وفي سنة 1809، سار الشاب كارليل على قدميه عشرات الأميال ليواصل تعليمه في جامعة Edinburgh. وبعد فترة بدأ يخامرته الشك في صلاحيته لأن يواصل هذا النوع من الدراسة، وشعر بالميل إلى دراسة الأدب.

وفي 1819، بدأ يدرس اللغة الألمانية، وكان مشغولاً بقراءة غوته وغيره من الكتاب الألمان، كما تأثر بفلسفة كانت وفخته Fichte، وانخرط في سلك التعليم، وساهم بمقالات في إحدى الموسوعات.

وفي 1823، كتب سيرة فريدريك شيلر، ثم ترجم رواية للكاتب الشهير غوته. وقرر أن يستقر في لندن حيث تعرف على عدد من الكتاب، منهم Coleridge. ولكن لم ترق له الحياة في لندن، فعاد إلى مسقط رأسه. ولسوء حظه بدأ في هذه السن المبكرة يعاني من الأرق وسوء الهضم، وظل كذلك طوال حياته.

تزوج عام 1826 من السيدة جين ويلش Welsh. وكان قد تعرف عليها قبل ذلك بأربع سنوات. كانت جين امرأة ذكية مثقفة، ذات شخصية قوية. وتعتبر من أحسن من كتبوا الرسائل باللغة الإنكليزية.

في سنة 1827، أنهى كارليل ترجمته المعنونة German Romance التي

تشتمل على أعمال Richter، Goethe، Tieck، و Hoffman وغيرهم. ونشر رسالة عن "حالة الأدب الألماني"؛ وتلا ذلك رسائل عن حياة غوته وعدد من أعماله. وله رسالة عن كتاب "حياة الدكتور جونسون" الذي ألفه الأديب بورويل.

وفي عام 1834، استقر مع زوجته في لندن حيث قضيا بقية حياتهما. وبدأ كارليل يعمل على إعداد أهم مؤلفاته "الثورة الفرنسية". ومن مؤلفاته:

– Heroes/and/hero/worship (الأبطال وعبادة الأبطال) وهي سلسلة من المحاضرات تحدث فيها عن عظماء الرجال الذين وجهوا مجرى التاريخ، ومنهم شعراء مثل دانتي؛ وشكسبير؛ وكتاب مثل روسو؛ ورجال الدين مثل لوثر؛ وقواد مثل كرمويل؛ ونابليون؛ كما يتناول حياة الرسول محمد ﷺ؛ ويدعو إلى تقديس هؤلاء العظماء، والافتداء بهم من أجل تطوير البشرية.

– وله كتاب Past and Present (الماضي والحاضر)، يهاجم فيه الديمقراطية، والنهضة الصناعية، وما يعانیه العمال من مظالم. ويدعو إلى توسيع نطاق التعليم وتحقيق العدالة الاجتماعية.

– ومن مؤلفاته Sartor Resartus وفيه ينتقد الحياة المتحضرة الاصطناعية، وخداع المظاهر، ويشرح كيف يختفي الناس وراء أقنعة المظاهر والملابس المزخرفة. ويعبر فيه عن حياته الروحية، وما يخامرها من صراعات.

وله مؤلفات أخرى مثل "أوليفر كرومويل"، و"فريدريك الأكبر". كما كتب تعليقاته على الرسائل الرائعة التي تركتها زوجته بعد وفاتها عام 1866، ونشرها. وأهم مؤلفاته كما سبق هو كتابه عن "الثورة الفرنسية". ويروى أنه عندما أنهى الجزء الأول منه، أرسله إلى صديقه جون ستيورت ميل، (وهو في شكل مخطوط)، فظنّت الخادمة أنه مجرد ورق يصلح لإشعال النار؛ ونهض

كارليل لكتابتته من جديد؛ وانتهى من تأليف الأجزاء الثلاثة عام 1837، فحقق به نجاحًا كبيرًا.

يبدأ كارليل كتابه بوفاة الملك لويس الخامس عشر، سنة 1744، ويتناول حكم لويس السادس عشر؛ ومجلس طبقات الأمة؛ سقوط سجن الباستيل؛ الجمعية التأسيسية؛ الجمعية التشريعية؛ هروب الملك إلى Varennes؛ المؤتمر الوطني؛ محاكمة الملك والملكة وإعدامهما؛ وعهد الإرهاب وسقوط روبسبير. وينهى المؤلف كتابه بقضاء نابليون على تمرد Vendemiaire في شهر أكتوبر من عام 1795.

ويقدم كارليل للقارئ وصفًا رائعًا لشخصيات هامة مثل الملك لويس السادس عشر؛ ميرابو؛ روبسبير؛ لافايت؛ دانتون؛ ويصف مشاهد الثورة، والمسيرة نحو سجن الباستيل وغيرها.

توفي الكاتب المؤرخ توماس كارليل في لندن، في شهر فبراير (فيفري) من عام 1881.

فيما يلي نبذة من كتاب توماس كارليل:
الثورة الفرنسية (القسم الثالث، الفصل السابع)
ساحة الثورة (1)

يسود الشوارع صمت رهيب مثل صمت القبور. لا يسمح لأيّ رجل من غير حاملي السلاح أن يوجد في ذلك المكان. ولا يجراً أيّ رجل مسلح أن يعبر عن تعاطفه، إن كان في قلبه شيء من ذلك. جميع النوافذ مغلقة، ولا يوجد أيّ شخص ينظر من خلالها. جميع الحوانيت مغلقة؛ ولا تشاهد أية عربة في الشوارع هذا الصباح، ما عدا عربة واحدة.

(1) يصور الكاتب في هذه الفقرات مشاهد الدقائق الأخيرة قبل إعدام الملك لويس السادس عشر، ملك فرنسا.

ثمانون ألف رجل مسلحون يقفون في صفوف كأنهم تماثيل؛ المدافع جاهزة ورجالها على استعداد؛ ولكن السكون شامل فلا تسمع كلمة ولا تشاهد حركة: كأن ساحراً جباراً حول المدينة إلى كتل من الحجارة. لا يسمع إلا صوت واحد: قعقعة عربية واحدة تسير ببطء، ترافقها حاميتها.

لويس يقرأ كتاب التقوى "صلوات من يقترب من الموت". وفي هذا السكوت المخيف، تحدث قعقة عربية الموت وخرّاً حاداً في الأذان. ولكن النفس تفكر مسرورة في الصعود إلى السماء لتنسى الأرض.

ساحة الثورة، قبل ذلك ساحة لويس الخامس عشر، دقت الساعة العاشرة، المقصلة منصوبة قرب المكان الذي يوجد فيه تمثال لويس المذكور؛ المكان حول المقصلة يعج بالمدافع والرجال المسلحين، وراءهم جماهير المتفرجين.... لويس يقرأ كتاب الصلوات، غير مبالي بما حوله. بعد خمس دقائق توقف عن القراءة، فتح باب العربة: ترى ما حالته النفسية؟ لو سألت عشرة من الحاضرين لأعطاك كل واحد منهم وصفاً مختلفاً عن حالته: إنه يعيش خليطاً من الانفعالات. لقد اقترب الآن من عتبة الموت، إنه في خضم من الحيرة والنقمة والحزن، وهو يصارع نفسه لكي يستسلم للقضاء المحتوم.

دقت الطبول، فصرخ لويس بصوت مروع: سكوت! صعد المنصة التي نصبت عليها المقصلة بشيء من التراخي. كان يرتدي معطفاً أحمر داكناً، وينطلوئاً رمادي اللون، وجوريين بلون أبيض. نزع لويس معطفه، وبقي في صدرية بيضاء. اقترب منه الجلاد ليربط يديه، فرفض ذلك وقاوم. ذكره القس كيف أن المسيح عليه السلام لم يقاوم من ربطوه. ربطت يداه، بقي رأسه مكتشفاً.

دقت لحظة التنفيذ الحاسمة، تنفيذ الإعدام. فتقدم إلى حافة منصة المقصلة. كانت تغطي وجهه حمرة شديدة. قال: أيها الفرنسيون، أموت وأنا برئ، أقول لكم هذا وأنا أمام المقصلة، على وشك أن أمثل أمام الله. أسامح أعدائي، أتمنى لفرنسا... تقدم جنرال على جواده ورفع يده صارخاً: أيها

الجلادون أنجزوا عملكم. أمسك ست منهم لويس، سيئ الطالع، وهو يتخبط يأساً، وربطوه إلى خشبة المقصلة. انحنى عليه القس قائلاً: يا ابن القديس لويس اصعد إلى السماء. سقطت المقصلة على عنقه، فانتزعت حياة ملك.

حدث ذلك يوم الاثنين، 21 يناير (جانفي)، من عام 1793، وكان عمر لويس 38 سنة، 4 أشهر، و28 يوماً.

★★ من أقوال توماس كارليل

- هو ذا فجر يوم جديد يطل عليك، فهل تتركه يمر دون أن تنجز عملاً مفيداً؟
- العمل أشبه بالبذور، ينمو وينتشر، ويزرع نفسه من جديد.
- الإنسان الذي يضحك ضحكة صادقة من أعماق قلبه، لا يحق لنا أن نقول: لا خير يرجى منه.
- لنحكم على شخص حكماً سليماً ينبغي لنا أن نذكر حسناته، قبل أن نحاسبه على سيئاته.
- النار أفضل خادم، ولكنها أسوأ سيّد.
- الموسيقى لغة الملائكة، والسخرية لغة الشيطان.
- الحب بداية المعرفة، كما أن النار بداية النور.
- الفكاهة (النوادر) الحقيقية تنبع من القلب أكثر مما تنبع من الدماغ، وهي تعبر عن الحب لا عن الكراهية، وينبغي أن يكون هدفها أن تنشر الابتسامة، قبل أن تفجر الضحكات.
- إن أكبر مأساة أن يموت المرء جاهلاً، وهو قادر على التعليم.
- ما هو الإنسان؟ طفل أحمق، يشاكس ويقلق ويطلب كل شيء، وفي نهاية المطاف لا يستحق سوى حفرة.

- إذا تجاهلتِ الفنونُ الجميلةَ الحقيقةَ تصبحُ مجنونة، هذا إذا لم تمت.
- طوبى لمن وجد عملاً يناسبه، فليس له أن يطلب أكثر من ذلك.
- أنتج! أنتج! أنا شدة الله، أنتج ولو شيئاً صغيراً من أي شيء.
- في كل مكان يقف الإنسان بين عالين متصارعين: عالم حرية الإرادة وعالم الجبرية.
- الرجل الذي لا يستطيع أن يضحك تكون حياته مخادعة وخيانة.
- أشد ما يضحك في حكاية عيسوب (1) قول الذبابة وهي واقفة على محور العربة: ياله من غبار استطعت أن أثيره وحدي.
- الإنسان حيوان يعتمد على الآلة. إنه صغير القامة، ضعيف بنفسه، لا يشعر بالأمن. غير أنه باستخدام الأدوات والآلات يستطيع أن يحول الجبال إلى غبار، أن يقتل قطع الحديد كأنها خيوط من الصوف. تصبح البحار أمامه طرقاً ممهدة؛ والرياح والنار أحصنة لا تكل؛ فهو بالآلة كل شيء، وبدونها لا شيء.

(1) شخصية أسطورية تنسب إليه الحكايات اليونانية. ويقول المؤرخ هيرودوت أن عيسوب شخص حقيقي عاش في القرن السادس قبل الميلاد.

جورج برنارد شو

George Bernard Shaw



يعتبر شو الشخصية الأدبية البارزة في بريطانيا خلال القرن العشرين. كان اشتراكياً في مبادئه. تناول الموضوعات الاجتماعية والسياسية، وكتب في النقد الأدبي، وفي الفن، والدين، والمسرح، وألّف نحو خمسين مسرحية. حاز على جائزة نوبل سنة 1925. كان يدعو إلى مراقبة صناعات القطاع الخاص، وتوجيهها إلى خدمة المصالح العامة؛ وإلى مناصرة حقوق المرأة؛ ومن دعاة الاكتفاء بالعيش على الخضّر والحبوب Vegetarian؛ وضدّ تشريح الحيوانات الحيّة لإجراء التجارب عليها.

ولد شو في مدينة دوبلين، إيرلندا، في شهر يوليو (جويلية) من عام 1856. كان أبوه يشغل وظيفة بسيطة، ثم تحول إلى تجارة الحبوب دون نجاح كبير. وكان مدمناً على الكحول. أما أمّه فكانت ذات موهبة موسيقية، وعلمت ابنها منذ صغره الفن الموسيقي. تعلم الفتى في مدرسة بروتستانتية، وأخرى كاثوليكية. وبدأ يعمل في مكتب عقاري وهو لم يتجاوز السادسة عشر من العمر. وعمل كذلك في شركة للهاتف. وظل يعاني الحرمان فترة من شبابه.

انتقل شو من دوبلين إلى لندن وعمره عشرون سنة. وكانت أمه تساعده بما تحصل عليه من دروس الموسيقى. وكان في المراحل الأولى من هذه الفترة من شبابه يقضي جزءاً من وقته في المطالعة ويشارك في المحاضرات لتوسيع مجال ثقافته. وألّف عدداً من القصص الطويلة لم تحقق له النجاح المأمول. وأعجب شو بالاشتراكية فانضم إلى الجمعية الفابية (1).

(1) جمعية إنكليزية أنشئت سنة 1884 تهدف إلى نشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية.

وفي عام 1885 بدأ يكتب مقالات في النقد حول موضوعات المسرح والموسيقى والفن بصفة عامة.

تحول شو إلى تأليف المسرحيات فوجد فيها الوسيلة المناسبة لنشر أفكاره الهادفة إلى دعم مبادئ الاشتراكية وإصلاح المجتمع. وكان الأديب يكتب لمسرحياته مقدمات مطولة تعتبر من أروع المقالات النقدية، يناقش فيها الموضوعات السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية والدينية، وما إن حال عام 1903 حتى بدأت مسرحياته تلقى نجاحًا في بريطانيا وخارجها. وعندما حصل على بعض المال من مسرحيته "تابع الشيطان" في الولايات المتحدة استطاع أن يستغني عن كتابة مقالات النقد لكسب معيشته.

وفي سنة 1898 تزوج شو شارلوت، وهي سيدة إيرلندية غنية ومن أعضاء جمعية الفابية المذكورة. ودخل ميدان الإنتاج المسرحي بحماس، وقد تجاوز إنتاجه خمسين مسرحية. وتوفي هذا الأديب الشهير في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام 1950.

فكرة موجزة عن مسرحية برنارد شو الشهيرة:

بغماليون Pygmalion

يحاول الكاتب في هذه المسرحية أن يبرهن على أنه من الممكن أن تتحول فتاة فقيرة، بائعة الزهور، إلى دوقة من الطبقة الأرستقراطية، خلال بضعة شهور، إذا توفر لها التدريب الملائم والرعاية الكافية في الظروف المناسبة.

ويرى شو أن البيئة الاجتماعية والظروف المادية هي التي تخلق الفوارق بين الطبقات "العليا" و"الدنيا".

"أستاذ في صوتيات اللغة الإنكليزية يستمع عن طريق الصدفة إلى فتاة تدعى ليزا تتحدث اللغة بلهجة سيئة، فيقول لصديقه إنه يستطيع أن

يدرب هذه الفتاة الفقيرة، بائعة الزهور في الشارع، على الكلام السليم، وأن يهذب سلوكها خلال ثلاثة أشهر، بحيث يصبح بوسعه أن يقدمها بعد ذلك إلى أيّ مجتمع إنكليزي على أنها إحدى دوقات الطبقة الأرستقراطية.

" سمعت الفتاة، بائعة الزهور، حديث الرجلين، فأعربت عن رغبتها في الخضوع لهذه التجربة؛ ووعد صديق الأستاذ باستعداده لتحمل نفقات هذه التجربة. وتسلم الأستاذ الفتاة ليزا لتكون تحت رعايته، وأخضعها لتدريبات يومية قاسية.

" بعد مرور شهرين سحب الأستاذ ليزا إلى منزل أمه حيث يوجد بعض الضيوف. وأثناء هذه الزيارة تظهر الفتاة سلوكاً جيّداً يليق ببنات الطبقة الأرستقراطية. وأعجب بها شاب يدعى فريدي.

" يصطحب الأستاذ الفتاة ليزا إلى حفلة كبيرة، فتتصرف كذلك بلباقة وأناقة، وتتحدث بأسلوب الطبقة المثقفة. عندئذٍ يعترف الصديق (الذي تعهد بتمويل التجربة) بنجاح الأستاذ في تحسين سلوك بائعة الزهور، ويدفع المبلغ المتفق عليه. وعندما شاهدت الفتاة ذلك ثارت ثائرتها، ورمت الأستاذ بحُفّها، لأنها اعتبرت أن اهتمام الرجلين بأمرها لم يكن لشخصها كإنسانة، وإنما عاملها كمجرد موضوع لتجربة علمية عادية.

وفي النهاية تتزوج ليزا الفتى فريدي، وينشئ الزوجان محلاً لبيع الزهور.

مسرحية: عودة إلى متيوشال⁽¹⁾ Back to Methselah

هي في الواقع مجموعة مسرحيات يتناول شو فيها تطور الإنسان منذ عهد آدم وحواء، ويستمر إلى سنة 31.920 بعد الميلاد. وهو يركز على التطور الخلاق؛ وينتقد نظرية دارون القائلة بالانتقاء الطبيعي، لأنها، في نظر شو،

(1) لبرنارد شو.

تجعل عمليات التطور مجرد قفزات تحدث بالصدفة، وتلغي دور الخيال والفكر.

وينتقد الكاتب الحضارة الحديثة لكونها تزيد من مشاكل الإنسان. ويقول ما مفاده أن القوة التي خلقت الإنسان، عندما عجز القرد عن التطور إلى مستوى التحدي، قادرة على أن تخلق مخلوقاً آخر أكثر تطوراً من الإنسان، إذا عجز عن التطور إلى المستوى المطلوب. ولهذا على الإنسان أن يعمل بالتعاون مع "قوة الحياة" من أجل بلورة الإنسان القوي الذي يحقق مدينة الله في الأرض. ويشير شو إلى فكرة خيالية، عندما يقول بأن الإنسان، في نهاية المطاف سيزداد نشاطه الفكري، وينكمش نشاطه العضلي، ويخرج (يولد) من بيضة.

مسرحية: جان دارك⁽¹⁾ Saint Joan

تدور حوادث المسرحية حول قصة البطلة جان دارك الشهيرة التي جرت حوادثها في القرن الخامس عشر في فرنسا، عندما ظهرت هذه الفتاة الفلاحة وطلبت من قائد الثكنة Robert de Brandricourt أن يزودها بفرقة من الجيش لطرد الإنكليز من مدينة أورليان ... وما تلا ذلك من انتصارات، واتهامها بأنها ساحرة ومهرطقة، ثم محاكمتها وتسليمها للإنكليز الذين أحرقوها. وفي الخاتمة "يعيد الكاتب جان دارك إلى الحياة" سنة 1920 لتضمها الكنيسة إلى قائمة القديسات.

(1) لبرنارد شو.

بـرتراند راسل

Bertrand Russell



من أشهر فلاسفة عصره، وأكبر علماء المنطق، والمفكرين؛ ومن أشد الشخصيات تأثيراً، في عهده، في مختلف مجالات الحياة. ساعدته حياة مديدة جعلها حافلة بالمؤلفات والمحاضرات، وحاز خلالها الشهادات والجوائز. كتب في الرياضيات، وبدأ يفكر في وضع الأسس المنطقية لها ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره. وألّف في الفلسفة، والمنطق، والأخلاق، والتاريخ، والدين، والتربية، والسياسة، وحصل على جائزة نوبل للآداب عام 1950.

ولد راسل سنة 1872 في ثريلينك، مومبا وثنشاير، بانكلترا؛ وتوفي أبواه وهو دون الرابعة من عمره، فتولت جدته تربيته. تابع تعليمه بصفة منفردة، فلم يكن له زملاء وأصدقاء كثيرون، إلى أن التحق بجامعة كامبردج فانطلق من عزلته، ووجد أمامه عالماً فسيحاً، ومجموعات من الناس يتناقش معهم في شتى مجالات الحياة والمعرفة، وظهر ذكاءه وثقافته.

حصل على شهادة من الجامعة المذكورة بامتياز عام 1894. وفي السنة نفسها تزوج من السيدة أليس بيرسال، من فيلادلفيا بالولايات المتحدة. وقام بزيارة هذا البلد، ثم زار ألمانيا حيث اطلع على النظريات الماركسية، بعد ذلك عين أستاذاً في جامعة لندن للعلوم الاقتصادية.

انتخب عضواً في الجمعية الملكية 1908؛ وفي سنة 1911 طلق زوجته الأولى، وتزوج مرات عديدة أثناء حياته المديدة. كما قام بزيارات لبلدان كثيرة منها الصين والاتحاد السوفيتي. وفي عام 1931 توفي أخوه الأكبر فورث لقب العائلة وأصبح إيرل راسل الثالث. حصل على وسام الاستحقاق سنة 1949، وعلى جائزة نوبل للآداب عام 1950.

كان راسل من دعاة السلام في العالم. انتقد الحرب التي خاضتها بريطانيا ضد البور في جنوب إفريقيا؛ وفرضت عليه غرامة قدرها مائة جنيه استرليني بسبب دعمه لحركات السلم في العالم؛ وطرد من وظيفة الأستاذية من كلية الثالوث، وسجن مدة ستة أشهر عام 1918، لأنه أدلى بتصريحات اعتبرت مضرة بالتحالف الأنكلو-أمريكي. وفي سنة 1954 شذب تجربة القنبلة الهيدروجينية في جزيرة بيكيني، وأصدر مع العالم أينشتاين احتجاجاً ضد إنتاج أسلحة الدمار الشامل، وطالبا بالقضاء على الأسلحة النووية.

وخلال الستينيات ازدادت شهرته لدى جماهير الشباب، وأنشأ عام 1963 مؤسسة راسل للسلام في العالم. هاجم سياسة الولايات المتحدة في فيتنام، وسانده في ذلك علماء آخرون منهم جان بول سارتر.

أما فيما يتعلق بمؤلفات هذا الرجل المبدع، فلا تتسع هذه العجالة لذكرها جميعها، لذا تكفي الإشارة إلى بعضها.

- "مبادئ الرياضيات" في ثلاثة أجزاء. وقد اشترك في تأليفه مع عالم شهير يدعى ألفرد نورث وايثهد.

- "سبل الحرية".

- "تحليل الفكر".

- "تحليل المادة".

- "اقتناص السعادة".

- "الزواج والأخلاق".

- "التعليم والنظام الاجتماعي".

- "بحث في المعنى والحقيقة".

- "تاريخ الفلسفة الغربية".

- "المعرفة الإنسانية، مجالها وحدودها".
- "السلطة والفرد".
- "آمال جديدة لعالم متغيّر".
- سيرته الذاتية، ألّفها في الأعوام الأخيرة من حياته، في ثلاثة أجزاء، وتوفي إيرل برتراند راسل في شهر فبراير (فيفري) من عام 1970

المعرفة والحكمة⁽¹⁾ برتراند راسل

يشير المؤلف في هذا المقال إلى أن مجالات المعرفة في عصرنا توسعت بدرجة تجاوزت ما حققته العصور السابقة. غير أن توسع المعارف الإنسانية لم يرافقه بالقدر المناسب توسع في ميادين "الحكمة". وي طرح سؤاليّن، الأول: ما هي الحكمة؟ والثاني: ما الذي يمكن فعله لنشرها؟ يقول راسل: "أعتقد أنه توجد عوامل عديدة تساعد على نشر الحكمة، وأضع في المقام الأول:

- تناسب العوامل، وهو أن نأخذ في الاعتبار جميع العوامل الهامة المؤثرة في مشكلة ما، وأن نعطي لكل عامل وزنه وتأثيره الحقيقي. وقد أصبح هذا العمل أكثر صعوبة في عصرنا نتيجة تعمق مجالات المعرفة المتخصصة وتعقيدها".

ويضرب على هذا مثال الطبيب المنهمك في بحوثه العلمية لدرجة لا تترك له مجالاً من الوقت ليقدر آثار اكتشافه على ميادين الحياة الأخرى خارج ميدان الطب. ومثال عالم الذرة الذي يعكف على بحوثه، وهدفه الوحيد

(1) من كتابه: صور من الذاكرة ومقالات أخرى.

هو توسيع نطاق المعرفة؛ ولكن نتائج بحوثه قد تضع بين أيدي ذوى السلطة وسائل خطيرة يمكن أن تقضي على مستقبل الجنس البشري. وعلى هذا فإن الحكمة تتطلب الإحاطة الشاملة بآثار المعرفة الإيجابية والسلبية على الحياة.

" غير أن النظرة الشاملة وحدها لا تكفي لنشر الحكمة فلا بدّ من وجود الوعي العميق والإدراك المتبصر لهدف الحياة البشرية".

ويقدم مثلاً على هذا نظرية للفيلسوف الألماني الشهير هيغل فيقول: إن نظريته الفلسفية لا تنقصها الشمولية، عندما ركز على تمجيد ألمانيا، ولكنه استخلص من دراسته للتاريخ أن ألمانيا ظلت، منذ مطلع القرن الخامس الميلادي وحتى عصره، أعظم دولة ترفع راية التقدم في العالم.

ويضيف راسل "لعلنا إلى جانب الشمولية التي تتطلبها الحكمة نضيف عامل الوعي المتبصر. لأن جوهر الحكمة هو التخلص من استبداد "الحاضر" وحدوده الضيقة، إلى أقصى حد ممكن. إننا نعيش في ظل ضغوط حواسنا. فالمشاهدة والسمع واللمس وجميع حواسنا ومشاعرنا تفرض علينا أنانيتها. ولا يمكن للمرء أن ينظر إلى العالم بحياد كامل. ولكن بوسع الإنسان أن يتعرف على حوادث بعيدة في الزمان والمكان، وأن يحسب لها وزنها المناسب في مشاعره وحياته ومستقبله".

وعن تساؤله "هل يمكننا أن نعلم "الحكمة"؟ بالمعنى الشمولي الذي ذكرته؛ وهل يمكننا أن ندرج تعليمها في برامج التعليم"؟، يجيب راسل بأننا نتعلم في مواعظ أيام الأحد بأنه يجب علينا أن نحب جارنا كحبنا لأنفسنا. وفي أيام أخرى نتعلم أنه علينا أن نكره من يريدون لنا الضرر. ويضيف:

" ولا أعتقد أنه من الصواب أن نكره من يرتكب المظالم. فإذا كرهناهم، أصبحنا في مستواهم (ويشير على سبيل المثال إلى الكراهية المتبادلة بين

الشيوعيين ومن يحاربونهم)؛ فكراهية الشرور تجعلنا عبيداً للشر....".
"وأعتقد أن المعرفة ينبغي أن تبقى قريبة من الأخلاق، ملازمة لها. صحيح أن التخصصات الضيقة ليس لها علاقة وثيقة بالأخلاق وبالحكمة، ولكن ينبغي لأيّ تخصص أن يظل مصحوباً بالمعرفة التي تحدد أهميته وتأثيره على مجموع النشاطات البشرية، لأنه على أفضل التقنيين وأكبر المتخصصين أن يكون مواطناً صالحاً، وأعني مواطناً عالمياً، وليس فقط مواطناً قريته أو حزيه أو بلده".

★ ★ حول التعليم⁽¹⁾ برتراند راسل

"لو كنت مسؤولاً عن مدرسة لتعليم الشباب لاعتبرت أنه من غير المرغوب فيه أن أتجنب القضايا الراهنة الهامة، أو أن أحمس لها بأكثر مما تستحق. فمن الأفضل أن نجعل طلابنا يشعرون أن ثقافتهم ينبغي أن تساعدهم على معالجة المسائل التي يזخر بها العالم من حولهم، لتكون معارفهم وثيقة الصلة بحياتهم العملية. لذلك ينبغي أن يبسط المعلم أمام طلابه وجهات نظره بأسلوب محايد، ودون إلحاح. وبعد أن يضع أمامهم المواقف العلمية المثالية، يترك لهم المجال ليبحثوا عن البراهين والحجج المقنعة للوصول إلى الحقائق المنطقية.

كثيراً ما تقتل المشاعر الفكر، ولكن نلاحظ لدى المثقفين، أنه كثيراً ما يعزل الفكر المشاعر. المشاعر القوية مفيدة ومطلوبة، ما لم تكن هدامة. والفكر المبدع مطلوب ما لم تكن نتائجه سلبية ومضرة... ونلاحظ أنه عندما لا يرضينا الواقع، نلجأ إلى عالم الخيال لأنه يشبع رغباتنا دون جهد كبير. وهذا مصدر الأساطير القومية والدينية، وقد يعبر عن ضعف في الشخصية.

ينبغي أن يكون من أهداف مراحل التعليم المتقدمة أن تكافح هذا

(1) العنوان: On Education

الضعف. وهناك طريقتان لذلك: الأولى أن ندعم وعينا بما نحققه في عالم الواقع والحقيقة؛ والأخرى أن نقوى إحساسنا بالواقع لنتأكد مما يسمح بتحقيقه، لكي نبعد من حياتنا عثرات الأحلام والتخيلات والأوهام.

ومن الأمثلة المشهورة على حياة الأحلام والأوهام حكاية دون كيشوت الشهيرة. فهو يبدأ بصنع خوذة، ويجرب مدى مقاومتها للضربات؛ ثم يصنع خوذة أخرى ولا يجربها، بل يفترض أنها خوذة جيدة. وقد سيطرت فكرة "الظن" و"الافتراض" على حياته. وهكذا فكلما رفض المرء أن يواجه الحقائق والوقائع التي لا تسره، يصبح مثل دون كيشوت. ومن الطبيعي أن يعيش الأطفال في المراحل الأولى من حياتهم وسط الخيال والأحلام. وبمرور السنين ينبغي للمرء أن يعلم أنه لا قيمة للأحلام ما لم يحولها إلى حياة يومية واقعية.

علينا أن نشجع المناقشات الذكية بين الطلاب والطالبات، ولا نضع العراقيل في مجالات مناقشاتهم حتى لو شككوا في قضايا نعتبرها مسلمات وحقائق. ينبغي أن نعلمهم التفكير الواقعي السليم وليس المعتقدات التقليدية والبدع والهرطقة. ولا يجوز لنا أبداً أن نحضي بالتفكير من أجل مراعاة تقاليد أخلاقية أو خيالية.

قد يرغب أصحاب السلطان في إخفاء الحقائق عن عبيدهم حتى لا يدرك هؤلاء حقوقهم ومصالحهم. وما هو أدهى وأمر من هذا هو أن الديمقراطيات المزعومة تسن قوانين وتروج أفكاراً ومبادئ تهدف في نهاية الأمر إلى حجب الحقيقة عن أصحاب السلطان أنفسهم، لعلهم يريدون بفعلهم هذا (مثل دون كيشوت) ألا يقال لهم: إن هذه الخوذة غير صالحة.

وفي المدرسة أبحث عن الحقيقة بواسطة التدريب السليم للمشاعر والغرائز والفكر، وليس بالتعصب والتزمت والمخادعة. وهذا يعني أن نخلق الرغبة لدى طلابنا في الوصول إلى الحقائق. وينبغي أن يتعلم الطالب كيف

يشك أولاً، ثم يستخدم مواهبه لبناء الدلائل.

كما ينبغي لنا ألا نقبل الشكوك المضللة التي تزعم بأن الحقيقة الواقعية صعبة المنال، وأن البراهين قد لا تكون حاسمة. وعلينا أن نعترف أنه حتى الأشياء التي نعتقد بصحتها قد تحتاج إلى بعض التنقيح والتصحيح. والواقع أن الحقيقة ذاتها، أو ما كان منها في متناول الإنسان، قد لا يصل إليها الإنسان إلا بخطوات متتالية. فمعتقداتنا ومعارفنا عن علم الفيزياء مثلاً هي اليوم أعمق وأقوى أساساً مما كانت عليه في قديم الزمان.

ينبغي أن يواجه الطلبة، خلال السنة الدراسية، تجارب ومغامرات فكرية إيجابية توفر لهم الفرص ليكتشفوا بأنفسهم الأشياء المثيرة. يمدح منهم من يستحق الثناء، وتصحح الأخطاء من غير أن يوضع الطالب في موقف يجعله يخجل من فشله.

ويجب ألا يكون طلب العلم عبئاً مملأً. فالمعرفة التي يستوعبها الطالب بحماس هي التي تصبح في فكره ثروة مستديمة. ولنجعل العلاقة وثيقة بين المعرفة والحياة اليومية، بحيث يلمسها الطالب في شتى نشاطاته وعلاقاته. وليكن المعلم حليف الطالب وصديقه، وليس منافساً له أو جباراً مسيطراً عليه".

سلسلة عالم الثقافة

المختصر المفيد
الشعر والحياة
حصاد الأيام
الإنسان والقلق
كلمات تنعش الحياة
نفحات من الأدب العالمي

بقلم
الأزرق بن علو

مقتطفات من سلسلة عالم الثقافة
(الجزء الأول)

بحوث ومقالات
من فضاء السبعينات

الحكم والمواظ
على السنة الحيوانات

المختصر المفيد

أضواء
على مسرح الحياة

كلمات نعيش الحياة

الشعر والحياة

حصاء الأيام

إدب .. فلسفة .. تاريخ

الإنسان والقلق

نفحات من الأدب العالمي

الرحلة

[أساطير، تاريخ، أدب، حكايات]

منارات

في رحاب الأدب العالمي

قلائد الذهب
في الحكمة والأدب



نبذة عن المؤلف

ولد الأزرق بن علو في الجزائر، وحصل على:

- ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بلغراد (1961).
- ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن (1966).
- عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971).
- مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975).
- موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ (1979).
- من مؤلفاته :
- ◆ كلمات تنعش الحياة.
- ◆ الشعر والحياة.
- ◆ حصاد الأيام (أدب . فلسفة . تاريخ) .
- ◆ الإنسان والقلق .
- ◆ نفحات من الأدب العالمي .
- ◆ الرحلة (أساطير - تاريخ - أدب - حكايات) .
- ◆ منارات في رحاب الأدب العالمي .
- ◆ قلائد الذهب في الحكمة والأدب .
- ◆ أضواء على مسرح الحياة .
- ◆ المختصر المفيد .
- ◆ الحكم والمواظ على أسنه الحيوانات .
- ◆ بحوث ومقالات من فضاء السبعينات .

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت



16 عمارات العبور - الدور الثالث - شارع صلاح سالم - مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس 02/ 22621365 تليفون 02/ 24025777

محمول 002/ 01223140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com info@qubaaelhadetha.com

www.qubaaelhadetha.com